

دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ

تأليف
محمد عبد الله غنيان

العصر الثاني

دَوْلُ الطَّوَائِفِ
مُنْذُ قِيَامِهَا حَتَّى الْفَتْحِ الْمُرَابِطِيِّ



الناشر مكتبة النخاعي بالقلعة

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 977-505-082-4

مطبعة المكدي
المؤسسة السودانية بمصر
٦٨ شارع الباسية - القاهرة ت : ٤٨٥٧٨٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسي ، أكثرها تشعباً وأوفرها تبايناً واضطراباً ، لا تكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة ، ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة ، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر ، وتنسيقها وربط حلقاتها ، واستخراج خواصها . من أشق المهام التاريخية .

وهذا المجلد من «دولة الإسلام في الأندلس» يتضمن تاريخ هذا العصر المضطرب - عصر الطوائف - ، وهو يكون «العصر الثاني» من تاريخ الأندلس . وإنه ليسعدني أن أضعه اليوم بين أيدي القراء ، بعد هذه الأعوام العديدة ، التي انقضت منذ ظهور العصر الأول . على أن هذه الأعوام لم تذهب محمد الله سدى ، فقد أخرج خلالها العصر الرابع والأخير من «دولة الإسلام في الأندلس» باسم «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين» ، ولم يبق علينا لاستكمال هذه الموسوعة من التاريخ الأندلسي إلا أن ننجز العصر الثالث منها ، وهو المتضمن «تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين» .

ويشغل عصر الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً ، منذ انهيار الخلافة الأندلسية ، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى ، وانقسامها إلى وحدات متعددة ، تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك «الطوائف» ، تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة ، ولا تربطها بجاتها أوزميلاتا ، أية رابطة ، إلا أن تكون المنافسة ، أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع . وهذا البحر الخضم من المنافسات والنزاعات والحروب الأهلية الإنتحارية ، هو قوام عصر الطوائف .

وقد مضينا في تتبع أحداث هذه الحقبة المؤلة من تاريخ الأندلس ، حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، استجابة لصريح الطوائف ، ونصرة للأندلس ، وإنقاذاً لها من خطر الفناء الداهم ، الذي لاح لها قوياً منذراً ، ولاسيما بعد سقوط

طليطلة في أيدي النصارى ، ثم تحول حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى حملات غازية ، واستيلاء المرابطين على الأندلس تبعاً ، وضمها إلى الإمبراطورية المغربية الكبرى ، وذلك فيما بين سنتي ٤٨٣ - ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ - ١١٠٨ م) .

وقد راعينا في كتابة تاريخ هذا العصر ، أن نتناول ممالك الطوائف ، كل على حدها ، وأن نستكمل سيرتها منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، ثم سقوطها في أيديهم ، ورأينا أن هذه الطريقة تحقق من الدقة والوضوح والاستيعاب ، ما لاحتقيقه الأسلوب المشترك ، الذي سار على نهجه بعض الكتاب الغربيين . وقد اقتضت هذه الطريقة ، في بعض الأحيان ، شيئاً من التكرار ، في هذا الفصل أو ذاك ، ولكنه تكرار بسيط وغير ممل ، فضلاً عن ضرورته لاستكمال السياق .

وأود أن أذكر هنا أنني قد زرت سائر قواعد الطوائف ومدنها ، خلال رحلاتي المتوالية في شبه الجزيرة الإسبانية ، ودرست مواقعها وخواصها ومواصلاتها . وقد كان لهذه الدراسة الإقليمية ، أكبر الأثر في تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التي كانت تقوم بين ممالك الطوائف ، ودوافعها الجغرافية ، وتحديد مواقعها ، وكذلك في تبسيط مهمة الكتابة عنها ، واستيعاب بواعثها وتفصيلها .

وقد رجعت في كتابة هذا القسم من تاريخ الأندلس إلى مادة غزيرة متنوعة . ومن حسن الحظ أن قد انتهت إلينا من كتابات المعاصرين عدة آثار هامة ، في مقدمتها تاريخ ابن حيان معاصر فتنه الطوائف ومؤرخها قبل كل شيء ؛ وإذا لم يكن هذا التاريخ قد وصل إلينا كله بالذات ، فإن ما نقل إلينا منه عن طريق الكتاب اللاحقين ، ولاسيما ابن بسام وابن عذارى يحمل إلينا منه مادة قيمة . وكذلك الفيلسوف ابن حزم ، وهو مثل ابن حيان معاصر للفتنة ، ومتتبع لأدوارها ، ودارس لظواهرها وتطوراتها ، وقد انتهت إلينا منه نبذة تاريخية ، وملاحظات نقدية عديدة عن خواص عصر الطوائف ، تمتاز بدقتها وعميق نظراتها . ويلحق بهذين الكاتبين المعاصرين اثنان آخران عاشا في أواخر عصر الطوائف ، وشهدا خواتيمه ، هما ابن بسام الشنري ، والفتح بن خاقان . ويقدم لنا ابن بسام في مؤلفه الجامع «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، فضلاً عما ينقله إلينا من الشنور التاريخية العديدة عن ابن حيان وغيره ، وما يقدمه إلينا من نبذة تاريخية بقلمه ، أروع صور لتاريخ عصر الطوائف الأدبي والاجتماعي ، ومجموعة جافلة

من تراجم أمرائه وأعيانه ووزرائه وكتابه وشعرائه ، ومختارات عديدة من رسائلهم ، ومشورهم ومنظومهم . وقد كان كتاب «الذخيرة» سواء بما نشر منه ، أو بأجزائه المخطوطة ، من أقيم مصادرنا وأغزرها ، ولاسيما قسمه الثالث ، وهو المتعلق «بالحاجب الشرق من جزيرة الأندلس» . وقد رجعنا في هذا القسم - وهو ما يزال مخطوطاً - إلى نسخته المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جابنجوس) . أما الفتح بن خاقان ، فيقدم لنا في كتابه «قلائد العقيان» تراجم طائفة كبيرة من أمراء عصر الطوائف ووزرائه وفقهائه ، وهو يقدمها إلينا في أسلوب مسجع متكلف ، بيد أنه ينطوى من آن لآخر ، على بعض المعلومات والحقائق التاريخية ؛ كما يقدم إلينا في كتابه «المطمح» بضعة تراجم أخرى من تراجم رجال الطوائف .

ونكتفي فيما يتعلق بالمصادر ، بهذه الإشارة إلى المصادر المعاصرة . وأما المصادر العديدة الأخرى ، التي رجعنا إليها ، من عربية وأجنبية ، ومن مخطوطة ومطبوعة ، فقد سجلناها في أماكنها ، ثم أثبتناها مجتمعة في نهاية الكتاب . ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه قد أتيح لنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال ، أن نراجع بعض المصادر المخطوطة ، وفي مقدمتها كتاب الحلة السيرة لابن الأبار ، وقد راجعنا فيه سائر التراجم المخطوطة التي حذفها دوزي من النسخة المطبوعة ، وضمنها مصنفه عن بنى عباد Historia Abbadidarum ، كما أتيح لنا أن نقف على بعض النصوص والوثائق الهامة ، وذلك بالأخص في مجموعتين مخطوطين ، تحمل أولاهما رقم ٤٨٨ الغزيري ، وهي مجموعة ناقصة من أولها وليس لها عنوان معين ، والثانية رقم ٥٣٨ الغزيري وعنوانها «مجموعة رسائل تاريخية وأدبية» . وقد انتفعنا بالأخص في المجموعة الأولى بعدة رسائل مرابطة هامة وردت بها ، وفي مقدمتها رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاقة ، وكذلك بعض رسائل أخرى تتعلق بالطوائف ، وبها تصحيحات لبعض الوقائع والحوادث التاريخية . وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل في نهاية الكتاب في باب الوثائق .

وقد عنت وفقاً لما سرت عليه في العصر الأول «من دولة الإسلام في الأندلس» بكتابة تاريخ اسبانيا النصرانية ، خصوصاً وقد اجتازت في عصر الطوائف ، عدة تطورات هامة ، وشغلت مركز الصدارة والغلبة ، وبدأت تنفذ

سياسة « الإسترداد » La Reconquista بقوة ، ولا سيما بعد استيلائها على مدينة طليطلة : أولى القواعد الأندلسية العظيمة الذاهة .

كما عنت بأن أثبت بعض الحرائط التاريخية الموضحة للتطورات الجغرافية ، التي جازتها شبه الجزيرة الإسبانية في عصر الطوائف ، وخريطة للإمبراطورية المرابطية الكبرى بعد افتتاح الأندلس .

وإني لأرجو وأنا أقدم إلى قراء العربية هذا العصر الحديد من « دولة الإسلام في الأندلس » : أن يتاح لي أن أنجز بعون الله في المستقبل القريب : عصره الثالث ، وهو عصر المرابطين والموحدين ، وبذلك تكمل هذه الموسوعة التاريخية الأندلسية بسائر عصورها (١) .

محمد عبده عناية

القاهرة في ربيع الأول سنة ١٣٨٠

الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٠

(١) وقد ظهر كتاب «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» بأنفعل في مجلدين كبيرين (سنة ١٩٦٥) ، وبذلك تمت الموسوعة الأندلسية بسائر عصورها .

تصدير

مضت عدة أعوام منذ صدرت الطبعة الأولى من كتاب «دول الطوائف» في سنة ١٩٦٠ متضمناً للعصر الثاني من «دولة الإسلام في الأندلس»، وشغلت خلال هذه الأعوام بإخراج العصر الثالث من هذه السلسلة ، وهو «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» وتمت بظهوره بحمد الله وعونه ، موسوعة الأندلس بعصورها الأربعة .

واليوم نقدم الطبعة الثانية من «دول الطوائف» . وبالرغم من أننا كنا قد استوفينا في الطبعة الأولى ، سائر ما قصدنا إليه من استيعاب تاريخ هذه الدويلات الأندلسية ، استيعاباً مفصلاً ودقيقاً ، فإنه عرضت لنا ، خلال الأعوام الأخيرة طائفة من التعديلات والإضافات رأيناها جديرة بالتدوين ، ومعظمها مستقى من المصادر المخطوطة . وقد تمت هذه الإضافات بالأخص بالنسبة للفصل الثالث من الكتاب الثالث المتعلق بتاريخ مملكة دانية والجزائر ، وبالنسبة للفصل المتعلق بخواص الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية (الخاتمة) . وقد ألحقنا بباب الوثائق وثيقة جديدة هامة ، هي رسالة أبي عامر بن غرسية الشهيرة في تفضيل العجم على العرب ، وذلك بعد أن ناقشنا محتوياتها ، وأوردنا طائفة من الآراء والتعليقات الخاصة بها ، وذلك في موضعها عند الكلام على تاريخ مملكة دانية .

وفي اعتقادنا أن الكتاب بصورته الجديدة : وبما أدخل عليه من الزيادات ، يلقي أضواء جديدة على تاريخ دول الطوائف ، وتاريخ رجالات هذا العصر وأحواله ، وكل ضوء يلقي على تاريخ هذا العصر : يمهّد لنا السبيل لدراسة العصر اللاحق ، وهو عصر الفتح المرابطي والرياسة المرابطية للأندلس .

وقد علمت خلال قيامي بإعداد هذه الطبعة ، من صديقي العلامة المستشرق الإسباني الكبير الأستاذ أمبروسيو هويثي ميرانده ، أنه يعترم أن يترجم هذا الكتاب

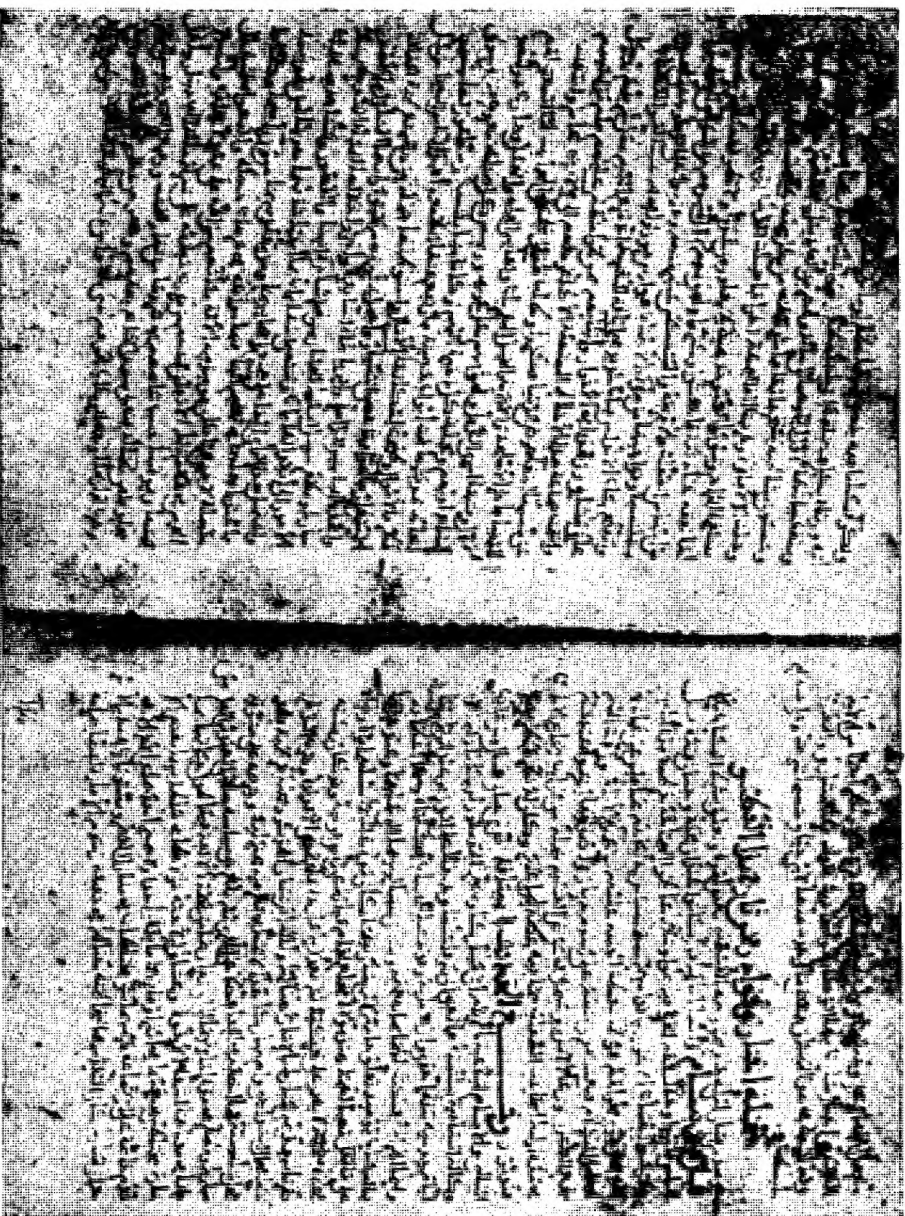
إلى اللغة الإسبانية : ليتيح للباحثين الإسبان فرصة الاطلاع بلغتهم على النصوص والمصادر العربية ، وعلى وجهات النظر الأخرى . لكى تنسم بحوثهم فى هذا الميدان بالانصاف وسعة الأفق .

وانى لأرجو لصديقى العلامة الكبير التوفيق فى مهمته الجليلة . كما أرجو أن يجد القراء فى هذه الطبعة الجديدة . مزيداً من الضوء على تاريخ الطوائف وأحوال دولهم وعصرهم .

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٩

الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٩



صفحتان من القسم الثالث من كتاب اللغوية لابن بسام من النسخة المخطوطة مكتبة أكاديمية التاريخ بباريس (مجموعة جانيخوس)

صفحتان من رسالة ابن غربية الموجهة بالخطوط رقم ٣٨٠ الفزيري المحفوظة بمكتبة الإسكندريال

[illegible][illegible]

تمهيد

نذر الانحلال والتفكك

- ١ -

في فترة قصيرة لا تتجاوز نصف القرن ، تقلبت الأندلس بين مرحلتين متباينتين كل التباين . فهي في منتصف القرن الرابع الهجري وحتى أواخر هذا القرن ، تبلغ ذروة القوة والتماسك ، في ظل رجال عظام مثل عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، والحاجب المنصور ؛ ثم هي منذ أوائل القرن الخامس ، تنحدر فجأة إلى معترك لا مثيل له ، من الاضطراب والفتنة والحرب الأهلية المدمرة ، لتخرج من هذه الغمار بعد فترة قصيرة ، أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة .

وإنه لمنظر مروع مؤسّ معاً ، ذلك الذي تقدمه إلينا الأندلس في تلك الفترة العصبية من تاريخها ، منظر القواعد والمدن الأندلسية ، التي كانت من قبل تلتئم في عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة ، وتسطم في ظل حكومة الخلافة القوية ، وتلتف حول عرش الخلفاء المؤثر . وهي تغدو حبات متفرقة منفردة حائرة ، تقوم في كل منها حكومة محلية هزيلة ، على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة ، يسيطر على أقدارها لحساب نفسه . ثم هي بعد ذلك كله ، تخوض غمار سلسلة لانهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة ، وتنسى في خلال هذه الفترة الخطيرة المؤسية من حياتها أو تناسي : قضية الأندلس الكبرى ، قضية الحياة وانوت ، أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد العدو الخالد — أعني اسبانيا النصرانية .

يبد أن انتشار شمل الأندلس على هذا النحو ، لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التي توالى في الحقبة السابقة . بل نستطيع أن نرجع هذه العوامل إلى بداية قيام اندولة الأموية ذاتها ، أعني إلى عهد عبد الرحمن الداخل . فقد رأينا هذا الزعيم القوي . بعد أن استولى على تراث الأندلس ، واستتب له الأمر . يعمل بكل ما وسع للاستئثار بالسلطة ، بإغداد النزعة القبلية ، وتخطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية . وقد حذا خلفاؤه من أمراء بني أمية حذوه

في تتبع العصية العربية والقضاء عليها . وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية ، وبين المترين عليها ، ذروته في أواخر القرن الثالث الهجري ، إبان اضطرام الفتنة الكبرى ، وتفاقم ثورة المولدين والعرب ، في عهد الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، حينما اندلع لهيب الثورة ، في كل ناحية من نواحي الأندلس ، وظهر الزعماء العرب والبربر في معظم النواحي ، واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة . وقد استطاع عبد الله أن يحمد الثورة في كثير من النواحي ، وأن ينقذ سلطان بني أمية من الخطر الداهم . ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر ، فآتم المهمة ، وقضى على جذور الفتنة من أساسها ، وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل ، فاشتد في مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصية ، وقضى على رياستها وزعامتها المحلية ، ومال إلى اصطناع الموالي والصقالبة ، وأولاهم النفوذ والثقة ، فاستأثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر وفي الحكومة والجيش ، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له ، وكان تحاذلها في نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة (٣٢٧ هـ) ، يرجع من وجوه كثيرة ، إلى منخط الزعماء العرب لسياسته ، في إذلالهم وسمق نفوذهم ومكانتهم .

ولم يجد المنصور بن أبي عامر ، حين استولى على السلطان ، عن هذه السياسة في تدعيم الحكومة المركزية ، وسمق كل سلطة محلية . وبالرغم من أنه ينتمي إلى بيت من أكرم البيوتات العربية ، فإنه عمل على سمق العصية العربية ، وعمل في نفس الوقت على سمق عصية الفتيان الصقالبة ، ولم يستبق منهم إلا أقلية مغلصة . وآثر أن يعتمد في الحملة على ولاء البربر ، فكان منهم معظم قادة الجيش ، وكان منهم خلفاء المنصور وعماله في المغرب . وفضلا عن ذلك فقد كان من جراء نظام الطغيان المطلق الذي فرضه المنصور على الأندلس ، قرابة ثلاثين عاماً ، أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة في المجتمع الأندلسي من الميدان ، ولكنها لبثت في مكانها وعزلتها ، تقرب فرص الظهور والعمل .

ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق ، الذي فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، يخفى في ثنياته كثيراً من عوامل الهدم والانقراض . فقد كانت سائر العناصر التي تعاونت في إقامته وتدعيمه ، يتربص بعضها ببعض ، ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه . وكانت ثمة معارك خفية تجري بين البربر

وخصومهم من الصقالبة ، في القصر وفي الحكومة . وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء ، ويكرهون البربر ، إذ كانوا سنداً للمنصور في استلاب سلطانهم ، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء ، ولكنها ترى في البربر خصمها الأساسي ، وهو من آثار الخصومة القديمة ، التي لبثت تضطرم بين العنصرين منذ عصر الفتح .

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها في الوقت الملائم ، واجتمعت في ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات . فلما وقع الانفجار ، وانهارت دعائم الطغیان العامري ، ظهرت في ميدان النضال ثلاث قوى : بنو أمية يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغضوب . وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ برياستها وامتيازاتها . والأسر العربية التي اضطهدت وأبعدت عن الميدان : تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة . وظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث ، طائفة أقل شأنًا ، ولكنها استطاعت أن تنتزع نصيبها من أسلاب السلطة ، وهي طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين .

ولم يصمد بنو أمية في ميدان النضال طويلاً . ذلك أنه لم تكن لهم ، بعد العوامل الأدبية ، التي جمعت بعض طوائف الشعب تحت لوأئهم ، قوة مادية يعتد بها ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أعوام (٣٩٩ — ٤٠٧ هـ) تولى الخلافة خلالها محمد ابن هشام المهدي ، فسلیمان المستعين ، فهشام المؤيد ، ثم سليمان للمرة الثانية ، حتى استطاع بنو حمود البربر أن ينتزعوا الخلافة ، وأن يتزعموا حكومة قرطبة لفترة قصيرة . ثم تطورت الحوادث بسرعة ، وعاد بنو أمية فاستردوا الخلافة ، وحكموا في قرطبة عدة أعوام أخرى (٤١٤ — ٤٢٢ هـ) ، وتولى الخلافة منهم المرتضى . فالمستظهر . فالمستكني بالله . فهشام المعتد بالله ، وهو آخرهم . وبخلعه في أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، تختتم الدولة الأموية رياستها في الأندلس بصورة نهائية ، بعد أن دامت منذ قيام عبد الرحمن الداخل في سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) مائتين وأربعة وثمانين عاماً .

وهكذا اختفت القوة الأولى — أعني بني أمية — من ميدان النضال بسرعة ، وقد كان واضحاً منذ البداية ، أنها لم تكن قوة ذات شأن ، ولم تكن سوى رمز تحيط به هالة باهتة من الجلال القديم ، ومن الاعتبارات الشرعية والأدبية . ولم تحقق ظفرها القصير المضطرب ، إلا بالاعتماد على قوى وعناصر أخرى ، ذات

ولاء مريب قلب . وتركت بعد اختفائها من الميدان القوتين الآخرين ، وهما البربر والعصبية العربية ، وجهاً لوجه .

واستطاع البربر بزعامة بنى حمود ، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن ، على المثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الإسبانية ، وأن يقيموا لهم ملكاً وخلافة ، آنأً بقرطبة وإشبيلية ، ثم بمالقة والجزيرة . وكانت إمارة باديس بن حبوس الصنهاجى بغرناطة ، تحمى الجناح الشمالى الغربى ، لتلك الخلافة البربرية ، فلما انتهت دولة بنى حمود سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) كان البربر أثناء ذلك ، وبعد أن خسروا معركة قرطبة ، قد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبي نهر الوادى الكبير ، وامتداده لنهر شنيل ، مثل قرونة وإستجة ومورور ، وأركش ، ورندة ، ومالقة ، وأن ينتزعوا الرياسة في نفس الوقت ، في بعض المناطق الشرقية والغربية الشمالية ، على نحو ما نفصل بعد .

وأسفر النضال بين هذه القوى الحصيمة ، بعد فوز البربر برياسة المناطق التى سبق ذكرها ، عن فوز الأسر العربية ، بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى ، من قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية . واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة .

وأوضحت الأندلس في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش الذى أشرنا إليه فيما تقدم : منظر الصرح الشامخ ، الذى أنهارت أسسه ، وتصدع بنيانه ، وقد اقتضت أطرافها ، وتناثرت أشلاؤها ، وتعددت الرياضات في أنحائها ، لا تربطها رابطة ، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة ؛ لكن تفرق بينها بالعكس ، منافسات وأطاع شخصية وضبعة ، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة ، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً ، ويحرق بها خطر الفناء من كل صوب .

هذه الدول الصغيرة ، المتخاصمة المتنابذة ، التى قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى ، تعرف بدول الطوائف ، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف . وهم ما بين وزير سابق ، وقائد من ذوى النفوذ والصحب ، وحاكم لإحدى المدن ، وشيخ للقضاء ، وزعيم من ذوى المال والحسب . وقد ظهوروا جميعاً إبان

الفتنة ، وبسط كل سلطانه ، على ما أتيح له من المدن والأراضي ، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه : وتأسيس الملك لبنه .

وليس أبلغ تعبيراً في وصف حال الأندلس عقب الفتنة وقيام دول الطوائف من تلك النبذة التي يقدمها إلينا ابن الخطيب حين يقول :

«وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالحلل القريب ، والخطة الخاورة لعباد الصايب ، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ، ولا في الإمارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الإمامة مكنسب . اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العائلات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتب عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء . وهم ما بين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجد غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً . ولا لحزب الحق مغايراً ، وقصارى أحدهم يقول : «أقيم على ما بيدي ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه» ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه . ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً ، وخلفوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً ، من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق وهستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل : كما قال الشاعر :

مما يزهدي في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالحري يحكى انتفاخاً صورة الأسد^(١)

وما أشار به ابن حيان . معاصر الفتنة التي أسفرت عن قيام دولهم ومؤرخها . إلى تلك الفتنة . وإلى هاته الدول بأسلوبه القوى اللادع ، إذ يقول في مقدمة تاريخه الكبير :

«فركبت سنن من تقدمني ، فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياساتهم المنفرة ،

(١) أعمال الأعلام . (طبع بيروت) ص ١٤٤ . وقائل هذين البيتين هو أبو الحسن بن رشيق القيرواني . وتروى الشطرة الثانية من البيت الأول بصورة أخرى هي : «أسماء مقتدر فيها ومعتمد» (المعجب للمراكشي ص ٤) .

وأسباب كبار الأمراء المنتزين في البلاد عليهم ، وسبب انتفاض دولهم ، حال فحال بأيديهم ، ومشهور سيرتهم وأخبارهم ، وما جرى في مددهم وأعصارهم ، من الحروب والطوائل ، والوقائع والملاحم ، إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ، ووفاة العلماء والأشراف ، حسب ما انتهت إليه معرفتي ونالته طاقتي» (١) .

ونستطيع القول بأن تمزق الأندلس على هذا النحو ، كان ضربة ، لم تنهض الأندلس من آثارها قط ، بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذي لبثت تتقاب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى . وبالرغم من أن عهد الطوائف الحقيقي ، لم يطل أكثر من سبعين عاماً ، وبالرغم من أن الأندلس ، قد التأم شملها بعد ذلك في ظل المرابطين ثم الموحيدين من بعدهم ، وبالرغم من أنها استطاعت أن تسترد تفوقها العسكري القديم في شبه الجزيرة الإسبانية في فترات قصيرة : بالرغم من ذلك كله ، فإن الأندلس لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية القديمة ، ولا تماسكها القديم قط ، بل لبثت بالعكس ، خلال صراعها الطويل مع إسبانيا النصرانية ، تفقد قواها ومواردها تباعاً ، وتنكمش رقعتها الإقليمية تدريجياً . حتى إذا كان منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، رأينا رقعة الوطن الأندلسي ، ترتد إلى ما وراء نهر الوادي الكبير ، وتنحصر في مملكة غرناطة الصغيرة ، ورأينا قواعد الأندلس القديمة الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وغيرها ، تغدو مدناً إسبانية نصرانية ، ويغدو ميزان القوى في شبه الجزيرة الإسبانية بيد مملكة قشتالة الكبرى .

والواقع أن تاريخ الطوائف ، يبدأ منذ سقوط الدولة العامرية ، في نهاية المائة الرابعة . ذلك أن قيام الخلافة الأموية ، خلال الفترة القصيرة التي عاشتها في أعقاب الفتنة ، لم يكن سوى حادثاً محلياً ، ولم يتعد أثره الفعلي قرطبة وأرباضها . وقد رأينا كيف استطاعت الدولة الحمّودية ، أن تقيم سلطانها في نفس الوقت في قرطبة وإشبيلية ثم في مالقة والجزيرة ، وكيف قامت كذلك دولة بني مناد البربرية في غرناطة ، وسيطرت عناصر أخرى من البربر ، في معظم القواعد الأندلسية الواقعة جنوبي الوادي الكبير . وإلى جانب هذه الدول البربرية ، التي قامت مذ أوائل المائة

(١) نقله ابن بسام في الأخيرة (القسم الأول - المجلد الثاني ص ٨٨) .

الخامسة ، كانت ثمة دول أو دويلات عديدة أخرى ، تتكون تبعاً في معظم قواعد الأندلس الأخرى الشرقية والغربية والوسطى ، في الوقت الذي كانت تقوم فيه خلافة قرطبة ، بيد أنها لم تنزع ولاءها الرسمي للحكومة المركزية ، ولم تتخذ طابعاً واضحاً من الاستقلال المحلي ، إلا بعد سقوط الخلافة النحائي .

ونحن إذا ألقينا نظرة على الخريطة ، ألقينا رقعة الوطن الأندلسي الكبرى ، وقد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ست مناطق رئيسية : الأولى منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضي الوسطى ، والثانية منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط ، والثالثة إشبيلية وغربي الأندلس وما إليها من الأراضي حتى المحيط الأطلنطي ، والرابعة غرناطة وريثه والفرنثيرة ، والخامسة منطقة شرقي الأندلس أو منطقة بلنسية وما إليها شمالاً وجنوباً ، والسادسة منطقة سرقسطة والثغر الأعلى . وهذا كله إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية التي استقلت بنفسها ، واعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة ، أو أخرى ، ثم اختفت تبعاً بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الأخرى .

وهكذا نجد أن كل منطقة من المناطق المشار إليها ، تضم من الناحية الإقليمية إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف ، وتختلف من حيث الرقعة ، والأهمية السياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية .

وإذا لم تكن قرطبة ، من حيث رقعتها الإقليمية ، ومواردها الاقتصادية والعسكرية ، أهم دول الطوائف ، فقد كانت من الناحية الأدبية بين دول الطوائف ذات أهمية خاصة ، نظراً إلى كونها كانت مقر الخلافة ، وقاعدة الحكومة المركزية ، وفي وسعها من الناحية الأدبية أيضاً ، أن تدعى الولاية - الاسمية على الأقل - على باقي الإمارات والمدن الأندلسية الأخرى ، وهو ما ادعته حكومة قرطبة المحلية بالفعل . ومن ثم فقد رأينا لهذه الاعتبار الأدبية والتاريخية ، أن نبدأ الحديث عن دول الطوائف بالكلام عن إمارة قرطبة .

الكتاب الأول

قرطبة

ودول الطوائف في الأندلس الغربية والوسطى

الفصل الأول

دولة بني جهـور في قرطبة

نهاية الخلافة الأموية ، أبو الحزم بن جهور واختياره لرياسة الحكومة . نشأته ونباة بيته . ولايته قرطبة . حكومة الجماعة . أوضاعها ورسومها . مثيلاتها في الجمهوريات الإيطالية ، سياسة ابن جهور وإجراءاته الإدارية والمالية . موقفه من أسطورة ظهور هشام المؤيد . وفاته وقيام ولده أبي الوليد مكانه . وزراؤه . ابن حيان وابن زيدون . محنة ابن زيدون وفراره . ابن السقاء يتولى الأمور . مصرعه . الخلاف بين عبد الملك وعبد الرحمن ولدى أبي الوليد . المؤمن بن ذى النون يحاول غزو قرطبة . استنصار عبد الملك بابن عباد . غدر ابن عباد واستيلاء جنده على المدينة . نهاية الدولة الجمهورية . موقف المؤرخ ابن حيان وتعليق ابن بسام عليه .

حادثنا فيما تقدم ، في الفصل الثاني من الكتاب الرابع من « دولة الإسلام في الأندلس » ، عما حدث من تقلب خلافة قرطبة بين أعقاب بني أمية . وبين المتسلمين من بني حمود . وكيف أنه عندما غادر على بن حمود قرطبة في المحرم سنة ٤١٧ هـ إلى مائقة ، ثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية ، وأجمعوا على رد الأمر لبني أمية ، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جههور بن محمد بن جهور .

وبن ظل هذا التحول ، بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ، وتلقب بالمعتد بالله ، وقدم من منفاه في ألبرت إلى قرطبة في أواخر سنة ٤٢٠ هـ ، ولبت في الخلافة زهاء عامين ، أساء فيهما السيرة : حتى سخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه ، فغادر المدينة ناجياً بنفسه وولده (ذوالقعدة ٤٢٢ هـ) . وأجمع القرطبيون بعد فشل هذه التجربة الأخيرة ، على إلغاء الخلافة والتخلص نهائياً من بني أمية ، وإجلائهم جميعاً عن المدينة . وكان عميدهم ورثاءهم في ذلك هو أيضاً أبو الحزم بن جهور ، وكان هذا الوزير القوى النابه ، يستأثر نظراً لماضيه التالد ، ورفيع مكانته . ووفرة حزمه ونضجه ، بمحبة الشعب وثقته وتأيينه .

وغدت قرطبة على أثر ذلك دون خلافة ودون حكومة . وكانت الأنظار كلها تتطالع إلى ذلك الزعيم ، الذي عاون غير مرة برأيه وحسن تدبيره ، في

مواجهة الأزمات وصون المدينة من شر الدمار والفوضى ، ليتولى الحكم وتدير الأمور في تلك الآونة العصيبة . وهكذا اختير ابن جهور ، باجماع الرأي ، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة .

وينتمي ابن جهور إلى بيت من أعرق بيوتات الموالى الأندلسية . وهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد ، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس ، يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي ، مولى عبد الملك بن مروان . دخل في كنف الطالعة البلجية ، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل ، ثم ولاء عبد الرحمن حجابته ، ثم تولى القيادة في عهد ولده هشام . وتولى أبناؤه بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعاً في ظل امراء بني أمية وخلفائهم . فتولى حفيده عبد الملك بن جهور الوزارة للأمير عبد الله بن محمد ، ثم كان من وزراء الناصر لدين الله . وتولى ولده جهور بن عبد الملك البخعي أيضاً الوزارة في عهد الناصر . ووليها كذلك في أواخر عهد الناصر ، ولداه مروان بن جهور بن عبد الملك ، ومحمد بن جهور بن عبد الملك . ومحمد هذا ، وهو أبو الوليد ، هو والد أبي الحزم جهور ، وقد تولى الوزارة أيضاً ، في عهد المنصور بن أبي عامر . ثم تولى ولده أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور في نهاية المائة الرابعة ، حتى كانت الفتنة وانهيار الدولة العاصمية ، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة ، التي شهدتها عاصمة الخلافة من ذلك الحين . وتولى خلال ذلك الوزارة لعلي بن حمود مؤسس الدولة الحمودية . وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله . ولما ثار أهل قرطبة بعد ذلك ببني حمود وأنصارهم من البربر ، كان عبيدهم في ذلك حسباً تقدم هو أبو الحزم جهور . وكان جهور خلال ذلك كله يتمتع بمكانة بارزة في الزعامة الشعبية ، حتى غدا في نهاية الأمر «شيخ الجماعة» وزعيم المدينة الحقيقي . وكان كثيراً ما يؤثر برأيه في تطورات الشؤون والأحوال ، في تلك الأعوام الأخيرة ، التي كانت تحتضر فيها خلافة قرطبة ، وتسير سراعاً إلى نهايتها المحتومة .

وألقي جهور نفسه ، بعد أن أجمع الشعب على اختياره ، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة . وكانت هذه الحكومة التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس ، تمتد شمالاً حتى جبل الشارات (سيرا مورينا) ، وشرقاً حتى منابع نهر الوادي الكبير . وغرباً حتى قرب إستجة

وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة ، وتشمل من المدن عدا قرطبة ، جيان وأبدّة
وبياسة والمدور وأرجونة وأندو جر .

بيد أن جمهور كان رئيس حكومة من نوع خاص ، فانه لم ينفرد بالرياسة ولم
يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها ، ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة ،
يتحدث باسمهم ، أو باسم «الجماعة» ، ويرجع إليهم في الأمور ، ويصدر القرارات
باسمهم ؛ فإذا طُلب منه مال أو مضاء أمر من الأمور ، قال ليس لي عطاء ولا منع
لأنما هو «للجماعة» وأنا أمينهم ، وإذا رابه أمر عظيم ، أو اعترم تدبير مسألة خطيرة ،
استدعاهم وشاورهم ، وإذا خوطب بكتاب ، لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء
وهكذا كان جمهور يتحدث في كل أمر ، ويمضي كل أمر لا باسمه ، ولكن باسم
الجماعة . وقرن جمهور ذلك كله بأجراء بارع آخر ، هو أنه لم يفارق رسم الوزارة
ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء ، واكتفى بأن رتب عليها الحجاب والحشم ،
على ما كانت عليه أيام الخلافة ، وجعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجيء مستحق يتفق
عليه فيسلم إليه ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك
وهو المشرف عليه (١) ، ولم يتخذ أى عنوان أو إجراء يبرز رياسته ، أو يحيط
نفسه بأى مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة ، بل لبث على سابق رسمه ، من
الانزواء والتواضع ، والقناعة وخفض الجناح ، ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى .
وقد عُرِفَت هذه الحكومة الفريدة في صفح التاريخ الإسلامى «بحكومة
الجماعة» . وسواء أكان الباعث لدى الوزير جمهور في إقامتها على هذا النحو ، يرجع
إلى ضرب من بعد النظر والدهاء البارع ، يحاول به جمع الكلمة ، واتقاء منافسة
الزعماء الأقوياء ، أم كان راجعاً حقاً إلى محبته للشورى والتضامن ؛ فلأنها كانت
بلا ريب نموذجاً بديعاً من حكم الشورى أو حكم الأقلية الأرستقراطية ، في
عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفردية والحكم المطلق . وكان من أبرز مزاياها أن
يستطيع الرئيس أن يتنصل من المسئولية ، وأن يستظل بلواء الجماعة ، إذا ما ساءت
الأمور ، وأن يحرز الثناء وجميل الذكر ، إذا حسنت العواقب .

ويمكننا أن ندين ملامح هذا النوع من حكم «الجماعة» أو حكم الأقلية
الأرستقراطية الذى ابتدعه أبو الحزم بن جمهور ، في بعض الحكومات التى قامت

فيا بعد ، في بعض الولايات الإيطالية أيام عصر الإحياء مثل حكومة «الكوموني» في جنوة ، وحكومة «السنورياء» في فلورنس أيام حكم آل مديتشى . وقد كان هذا النظام في الواقع أقرب النظم إلى حكومة الجماعة ، فقد كان آل مديتشى ، يحكمون وفق إرادتهم حكماً مطلقاً ، ولكن يحتجبون في نفس الوقت وراء هيئة منتخبة من النبلاء أو الزعماء الذين يعملون بوجههم تسمى Balie أو Signoria أى جماعة الحكام أو السادة . ولسنا نود أن نقول إن هذه الحكومات الإيطالية ، كانت مأخوذة أو مقتبسة من حكومة الجماعة القرطبية ، فليس ثمة دليل على ذلك ، ولكننا نود أن نقول إنها قامت في ظروف مشابهة ، ولمثل البواعث التى أوحى بقيامها في قرطبة .

وسلك جمهور في حكومته مسلك الأصالة والحزم ، وكان أول همه أن يقمع الشغب ، وأن يوطد دعائم النظام والأمن ، فصانع زعماء البربر واستألمهم بالرفق وخفض الجناح ، اتقاء لدسائسهم وتهدة لثورات أطاعهم ، فحصل على محبتهم وسلمهم ، وجعل أهل الأسواق جنداً ، وفرق السلاح فيهم ، وفي البيوت ، حتى إذا دهم أمر في الليل أو النهار ، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم ، وأصلح القضاء ، وعمل على حفظ العدالة بين الناس ، وقضى على كل مظاهر البذخ والإسراف ، وخفف أعباء المكوس ، وعمل على حفظ الأموال العامة ، ولا سيما الأموال السلطانية ، حيث عهد بتحصيلها وحفظها ، إلى رجال ثقة يشرف عليهم بنفسه ، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة ، ومن ذلك أن فرق الأموال على التجار لتكون بيدهم ديناً عليهم ، يستغلونها ويحصلون على ربحها فقط ، وتحفظ لديهم ، ويحاسبون عليها من وقت إلى آخر . وكان من نتائج هذه الإجراءات ، أن حل الرخاء مكان الكساد ، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار ، وغلت الدور ، ونمت الموارد . ويبدى ابن حيان ، وقد كان من شهود هذا التحول ، دهشته من تحقق الأمن والنظام والرخاء على هذا النحو في قوله : «فعجب ذو التحصيل للذى أرى الله في صلاح الناس من القوة ، ولما تعتدل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون» . ومع ذلك فإن ابن حيان يلاحظ أن جمهوراً لم يفته خلال ذلك كله أن يستغل الظروف ، وأن يعمل على جمع المال «حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع العين على أغنى منه» ، وإن كان

يقرن ذلك «بالبخل الشديد» ، والمنع الخالص ، الذى لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً ، ولكمل لو أن بشراً يكمل» (١) .

واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة أبى الحزم جهور تدبر الأمور فى قرطبة وأراضها ، زهاء اثنتى عشرة عاماً ، وقد سادت بها السكينة والدعة والأمن ، وجهور لا يتحول عن خطته فى التزام المسالمة والتواضع والتقشف ، والشعب القرطبى يؤيده بطاعته ومحبة . وكانت قرطبة فى أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين ، وكان من هؤلاء عبد الله بن سابور صاحب أشبونة من أعمال الغرب . حينما انتزعها منه ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فإنه لجأ إلى قرطبة ، وأقام بها آمناً فى كنف جهور ، وكذلك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة وجزيرة شلطيش ، فانه التجأ إليها فيما بعد ، حينما حاصره ابن عباد ونزعه سلطانه ، والتجأ إليها كذلك أنقاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء حين استولى عليها ابن عباد (٢) .

وكان للرئيس جهور موقف خاص من أسطورة ظهور هشام المؤيد بالله وإعلانها على يد القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية . ذلك أن ابن عباد ، حينما شعر بخطورة مطامع بنى حمود فى رياسة جنوبي الأندلس ، واتساحهم بثوب الخلافة ، وحينما أرهقه يحيى بن على بن حمود (المعتلى) بغاراته المتوالية ، رأى أن يدحض دعاوى أولئك الحموديين ، فأعلن فى سنة ٤٢٦ هـ ، أن الخليفة هشام المؤيد ، حتى لم يمت ، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه ، وبايعه بالخلافة ودعا الناس للدخول فى طاعته ، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس ، فاستجاب بعضهم للدعوة ، وكان منهم عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة . وعقدت البيعة فى قرطبة بالفعل لهشام المؤيد . والظاهر أن جهوراً لم يكن يؤمن حقاً بصحة هذه الدعوى ، ولكنه استجاب لها ، وأقرها لنفس البواعث التى حملت ابن عباد على انتحالها ، وهو العمل على دفع خطر الحموديين . ويقال إن جهوراً فوق ذلك ، قد اصطنع شهادات لتأييد صحته . بيد أنه ندم على ذلك فيما بعد ، حينما طلب إليه ابن عباد أن يدخل فى طاعته ، وأعلن تبرؤه من ذلك الدعوى (٣) .

(١) الذخيرة القسم الأول - المجلد الثانى ص ١١٦ و ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٣٧ و ٣٤٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩٨ و ٢١٠ .

وتوفي الرئيس أبو الحزم جمهور بن محمد في المحرم سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٤ م) وقرطبة رافلة في حبل السلم والرخاء . فخلفه في الرياسة ابنه أبو الوليد محمد ابن جمهور ، فحاول في البداية أن يقتنى سياسة أبيه ، وأقر الحكام وأرباب المراتب في مناصبهم ، وكان من معاونيه في ديوان السلطان المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان ، حسبما يذكر لنا في حديثه عن الدولة الجهورية ، وكان من محاسن الدولة الجهورية أيضاً ، أن وزرها الكاتب والشاعر الكبير أبو الوليد بن زيدون . وكان في بداية عهده بالخدمة قد وقع له حادث اصطدم فيه بأحد حكام قرطبة ، فقضى عليه بالسجن ، فاستغاث بأبي الوليد في حياة والده أبي الحزم ، فشفع له وأقاله من عثرته . فلما ولي أبو الوليد الأمر بعد والده قرب إليه الشاعر ، وعهد إليه بالنظر على أهل الذمة لبعض الأمور العارضة . ثم رفع مكانته وضاعف جراته ، وعهد إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس . والترسل إليهم . فلعم في منصبه ، واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته ، كما اشتهر بروائع نظمه . والظاهر أن ابن زيدون كان يحيا حياة مضطربة تثير من حوله الشبهات ، فهو من جهة قد هام بحب ولادة ابنة الخليفة الأموي السابق المستكني ، وكانت قد ظهرت في مجتمع قرطبة ببوها الأدبي ، الذي يزينه جمالها وشعرها الرائق ، وأحدث هيامه بها وشعره التيم فيها ، حول سيرته الوزارية نوعاً من الفضيحة الغرامية ، ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن خصوم ابن زيدون في الحكومة وفي المجتمع ، قد استطاعوا أن يصوروه لدى بني جمهور ، رجلاً ناقص الولاء يجيش بمشاريع لا تتفق مع أهدافهم ، وعلى أى حال فقد سخط الوزير أبو الوليد على وزيره الشاعر وألقاه إلى السجن . وأنفق ابن زيدون في ظلمات السجن عاماً وبعض عام ، وهو يستعطف الوزير بقصائد ورسائل تذيب الحماذ دون أن يتأثر بها . وفي النهاية حزم أمره على الفرار ، وفر من سجنه بمعاونة بعض أصدقائه الأوفياء ، وقصد إلى إشبيلية (سنة ٤٤١ هـ - ١٠٤٩ م) والتجأ إلى أميرها المعتضد بن عباد ، فولاه وزارته . وألقى إليه مقاليد الأمور ، حسبما نذكر بعد في موضعه (١) .

(١) إعتاب الكتاب لا بن الأبار (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٥٩ و ٦١ . وراجع الذخيرة المجلد الأول من القسم الأول من (٢٩٠ و ٢٩١ و ٣٥٧) حيث يورد أقوال ابن حيان في علاقة ابن زيدون بدولة الجهاورة وهي أقوال غامضة لا تنتضح منها حقيقة أدوار هذه العلاقة . ولم يشر ابن حيان من جهة أخرى إلى نكبة ابن زيدون التي ألقى بسببها إلى السجن ولا إلى نرازه . ولكن الفتح يشير إلى ذلك صراحة في القلائد (ص ٧١) وقد أورد ابن بسام كثيراً من قصائده التي وجهها في تيمنه إلى ابن جمهور .

وكان ابن زيدون أيام تمتعه بثقة بنى جهور . قد أنشأ في مدحهم عدة من غرر قصائده ، ومنها الأبيات الآتية :

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم	غيد السوالف في أجيادها تلمع
قوم متى تحتفل في وصف سؤدهم	لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع
أبو الوليد قد استوفى في مناقبهم	فلاتفارق منها فيه مجتمع
من مهذب أخلصته أوليته	كالسيف بالغ في أخلاصه الصنع
إن السيوف إذا طاب جوهرها	في أول الطبع لم يعلق بها الطبع

واستمرت الأحوال على انتظامها حيناً ، ولكن أبا الوليد ما لبث أن تنكب عن سياسة أبيه ، فقد تم على الناس ولده عبد الملك ، وأخذ عليهم العهد له ، فأساء عبد الملك السيرة ، واستبد بالسلطة . وأفسح المجال للأوغاد ، وأهمل الشئون ، وتسمى بذى السيادتين المنصور بالله . الظافر بفضل الله . وخطب له على المنابر ، وذلك خلافاً لما جرى عليه أبوه وجده من قبل ، من الاعتصام بالحلم والتواضع ، والزهد في مظاهر السلطان . وفي سنة ٤٤٠ هـ ، فوض عبد الملك النظر في الأمور إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء ، فضبطها وأصلحها ، وعمل على تهدئة الأحوال ، وتوطيد الأمن والنظام ، واستمر ابن السقاء في النظر مدة طويلة . وكان المعتضد ابن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوي على هذا النحو في رئاسة حكومة قرطبة . يحول دون تحقيق مشاريعه في الاستيلاء عليها ، فسعى لدى عبد الملك في حق ابن السقاء ، وحذره من أطاعه واستناره بالسلطة وأغراه بقتله . وكان عبد الملك سيئ الرأي والتقدير ، فاستمع لتحريض ابن عباد ، وقتل وزيره في كمين دبره (٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م) (١) .

وهنا بدأت عوامل انقصاد تدب إلى جهاز الحكم ، وزاد في سوء الحال ما حدث من التنافس بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن . وكان أبو الوليد يؤثر ولده الأصغر عبد الملك بمحبته ، وكان عبد الرحمن من جانبه يدعى أنه أحق بالولاية من أخيه . فوقع التنافس بين الأخوين . وأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند . ويؤلف الأحزاب لمناصرته ، فلما تفاقم الأمر . وخشى أبو الوليد العواقب ، عمد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٥١ و ٢٥٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٩ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١١٨ .

إلى تقسيم السلطة بين ولديه . فخص أكبرهما عبد الرحمن بالنظر في أمر الحباية ، والإشراف على أهل الخدمة ، وفي التوقيع في الصكوك السلطانية ، والدخل والخرج وجميع أبواب النفقات ؛ وخص عبد الملك بالنظر في شئون الحند ، والإشراف على أعطيهم ، وتجريدهم في البعوث وجميع ما يخصهم ، وارتضى الأخوان هذا الحل .

بيد أن عبد الملك لم يلبث أن غلب على أخيه عبد الرحمن ، وبجته في منزله واستبد بالأمر دونه ؛ وخلا الجول بعد الملك ، وأطلق العنان لسلطانه وأهوائه ، واستولى صحبه من الأوغاد والسفلة ، على أزمة الحكم ، وبدأ الشعب القرطبي ينصرف عن آل جهور . كل ذلك والرئيس الشيخ أبو الوليد ملتزم داره لشلل أفعده . وكان عبد الملك يعتمد في مشاريعه وتحقيق خططه ، على مصادقة ابن عباد وتشجيعه ، وقد زاره في إشبيلية ، فبالغ ابن عباد في إكرامه والتودد إليه ، وكان عبد الملك يظن أنه يستطيع الاعتماد على صداقته ومحالفته ، ضد أطماع بني ذى النون أصحاب طليطلة ، ومشاريعهم للاستيلاء على قرطبة ، ولم يكن يدور بخلده أن بني عباد يضمرون ضده مثل هذه المشاريع .

وأخيراً تكشف الأمور ، وخرج المأمون يحيى بن ذى النون في قواته من طليطلة ، قاصداً غزو قرطبة ، واستولى في طريقه على حصن المدور الواقع غربى قرطبة . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية قد توفى سنة ٤٦١ هـ ، وخلفه ولده المعتمد ، فسار على سياسة أبيه من إبداء المودة والتحالف لبني جهور . فلما شعر عبد الملك بالخطر الداهم ، استغاث بحليفه ابن عباد ، فبعث إليه المعتمد بالمدد من الفرسان تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، فترلا بالربض الشرقى من قرطبة . وأشرف ابن ذى النون بجنده على المدينة ، فألقاها قد استعدت لقتاله بقوات لا قبل له بها ، فارتد أدراجه محقاً ، بعد قتال يسير . وكان قد وقع الاتصال أثناء ذلك بين قائدى جيش إشبيلية وبين بعض الناقمين من زعماء قرطبة . في التخلص من بني جهور ، والانضواء تحت ظل بني عباد ؛ والظاهر أيضاً أن كانت لدى القائدين أوامر سرية بتدبير الخطة للاستيلاء على المدينة ؛ وعلى أى حال فإنه ما كاد ابن ذى النون يرتد بقواته ، حتى تظاهر القائدان بأنهما يزمان العودة ، وسارا في بعض قواتهما إلى وداع عبد الملك بباب المدينة ، وعندئذ

اقتحم العباديون الأبواب وملكوها ، ودخلوا المدينة واحتلوها ، وعاثوا في أنحائها نهباً وهتكاً وسيياً ، وكان ذلك في شعبان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . وأدرك عبد الملك مبلغ خديعته ، وأيقن أن النهاية قد حلت ، فطلب الأمان لنفسه وذويه ، فاعتقل وأخوه عبد الرحمن وسائر الأهل والولد ، وأرسلوا في الحال إلى إشبيلية ، ثم اعتقل أبوهما الشيخ المريض المقعد أبو الوليد بن جهور ومن معه ، ونفى الجميع إلى جزيرة شلطيث ، الواقعة في مصب نهر أراد تجاه ولبة ، وهناك توفي ابن جهور الشيخ لأربعين يوماً فقط من نكته وسقوط دولته .

وهكذا انتهت دولة بني جهور بقرطبة ، بعد أن لبثت أربعين عاماً . وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية . وكانت دولة نموذجية ، ولا سيما في عهد مؤسسها الوزير أبي الحزم بن جهور . وكانت تتمتع بين دول الطوائف بمركز أدبي خاص ، وتتخذ في أحيان كثيرة مركز الوسيط والحكم ، وتعمل بهيئتها وهيبة رئيسها الوزير المحنك ، على فض المنازعات وإقرار السلم بين الأمراء . ومن ذلك ما بذله أبو الحزم من المساعي المتكررة لحسم النزاع بين المعتضد ابن عباد والمظفر بن الأفطس ، حينما نشب القتال بينهما بشأن لبلة التي هاجمها ابن عباد ، واستغاث صاحبها ابن يحيى بصديقه المظفر ، وقد كاد الأمر بينهما يتطور إلى فتنة هوجاء لولا تدخل أبي الحزم ونصحه المتكرر (١) .

ونذب المعتمد بن عباد ولده الفتي عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة ، التي يتصل تاريخها من ذلك الحين بتاريخ مملكة إشبيلية .

وقد تناول ابن حيان ، وكان حسباً تقدم من وزراء عبد الملك بن جهور ، وشهد بنفسه سائر هذه الحوادث ، مأساة سقوط الدولة الجهورية ، في كتاب خاص سماه «البطشة الكبرى» يمتاز بقوته وبلاغته (٢) .

ولما فشل مشروع المأمون بن ذى النون في افتتاح قرطبة ، واستولت عليها

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ : والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٠ . وراجع في أخبار دولة بني جهور : الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١١٤ - ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٥ - ١٨٧ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢٥٩ - ٢٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٥ - ١٥١ ، والحلة السيرة (لندن) ص ١٦٨ - ١٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٢٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٥١ .

جنود ابن عباد ، وتولى حكمها ولده سراج الدولة ، وجه ابن حيان إلى المعتمد رسالة تهينة يقول فيها : «لو أن فتحاً اعتلى عن تهينة ممنوحة بارتفاع قدر ، أو جلالة صنع ، أو فرط انتقام مستأصل ، أو تنزل حكم من الرحمن فاصل ، لكان فتحه هذا لك ، على عدو أسود الكيد ، مظاهر البغي على الحسد ، طالما استحييته لا من خجل ، وتنكبته لا عن وهل ، فأني رأيه الفائل ، وجدته العائر ، وحينه المحلوب ، وضربه المكبوب ، إلا اكتساب العار ، ومماتنة محصد الأقدار . ثم يحمل ابن حيان بعد ذلك على المأمون بن ذى النون ، وينوه بتوفيق ابن عباد ويمنه في هزيمته ورد مكيدته ، وذلك في عبارات ملتبة لاذعة (١) .

ولأنه لما بلغت النظر في ذلك حقاً أن ابن حيان ، يهدى مؤلفه التاريخي العظيم في مقدمته إلى المأمون بن ذى النون ، ويصفه «بالأمير المؤثر الإمارة ذى الخدين ، الكريم الطرفين» (٢) . وقد انتهاز ابن بسام هذه الفرصة للحملة على ابن حيان ، والتنويه بمواقفه المتناقضة في تاريخه للملوك الطوائف . وفي رأيه أن هذا التاريخ ، بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الملوك من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلوات ، فإن ابن حيان «قد أخطأ التوفيق ، وما أصاب» ، إذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسل ، من قدح مغرض في الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والأنوار ، وأنه قد ارتكب بذلك إثماً وظلماً ، وإن كان قد سلم من لسانه «أمير بلده ، وأكبر أهل زمانه» أبو الحزم بن جهور ، وابنه من بعده ، فقد جرى لهما «بأيمن طائر ، ولم يعرض لذكرهما إلا بخير» (٣) .

(١) تراجع هذه الرسالة في الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٩ - ٩١ .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٨ .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ و ١١٤ .

الفصل الثاني

بنو عباد ومملكة إشبيلية

القسم الأول

ظهور القاضي ابن عباد في إشبيلية . بنو عباد وأصلهم ونشأتهم . القاضي اسماعيل بن عباد ينتزع الرياسة في إشبيلية . بنو حمود وسلطانهم على إشبيلية . صد المستمل بن حمود عن دخولها . تقديم القاضي ابن عباد عليها . حكمه وأهباته . ولده أبو القاسم محمد . الخلاف بين أبي القاسم بن عباد وابن الأظف والحرب بينهما . البرزالي صاحب قرمونة . تملق ابن حيان على عصابات البربر . استيلاء المعتل ابن حمود على قرمونة . إعلان القاسم بن عباد ظهور هشام المؤيد . قصة هشام والقموض حول مصيره . استرداد ابن عباد لقرمونة ومصرع المعتل . استيلاء عليها وعلى إستجه . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة جند ابن عباد ومصرع ولده اسماعيل . وفاة أبي القاسم محمد بن عباد ، وقيام ولده المعتضد مكانه . المعتضد بن عباد حسيما يصوره ابن حيان . خلة ابن بنام عليه . قسوته وصرامته . إمارات الطوائف في غربي الأندلس . إمارة لبلة ومهاجرة المعتضد لها . تدخل ابن الأظف والحرب بينه وبين المعتضد . استيلاء المعتضد على لبلة . لبلة وأسوارها الأندلسية . إمارة ولبة وجزيرة شلطي . استيلاء المعتضد عليها . استيلاءه على شتمرية الغرب . استيلاءه على باجة . إمارة شلب واستيلاءه عليها . الإمارات البربرية . خطة ابن عباد في الاستيلاء عليها . كين المعتضد للأمراء البربر وإهلاكهم . استيلاءه على أركش ومورور . استيلاءه على رنلة ثم قرمونة . استيلاءه على الجزيرة الخضراء . اتساع مملكة إشبيلية . ضغط ملك قشتالة على الطوائف . المعتضد وزملاؤه يؤدون له الجزية . خروج اسماعيل بن المعتضد على أبيه . اعتقاله وإعدامه . رسالة المعتضد عن الحادث لرؤساء الأندلس . قطع المعتضد الدعوة لحشام المؤيد . تحكم ابن حيان على قصة هشام . شخصية المعتضد وخلالها وسياسته . قسوته المروعة . قصة الرؤوس المخطئة . قصور بني عباد . صفة المعتضد . شغفه بالنساء . أدبه وشاهريته . وزراؤه وكتابه الأعلام . ابن زيون وابن عبد البر والبزلياني . وزيره ششتند .

كانت مملكة إشبيلية أو غربي الأندلس ، من حيث الرقعة الإقليمية ، والزعامة السياسية ، والقوة العسكرية ، أهم دول الطوائف وأعظمها شأنًا ، وفضلًا عن هذا التفوق الإقليمي والسياسي ، فقد سطعت مملكة إشبيلية بين دول الطوائف زهاء نصف قرن ، بفخامة بلاطها ، وروعة رسومها ، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة ، طبعت هذه الحقبة القصيرة من تاريخها ، بطابعها الخالد .

وإذا كنا سوف نخص مملكة إشبيلية بالحديث فيما يلي ، فإن هذا الحديث سوف يكون مشعباً متعدد النواحي ، وسوف يمتد إلى إمارات ودول أخرى ، ليس فقط داخل منطقة الغرب أو غربي الأندلس ، التي كانت تسيطر عليها مملكة إشبيلية ، ولكن إلى مناطق وممالك رئيسية أخرى .

— ١ —

بدأت جذور مملكة إشبيلية مبكرة ، منذ انهيار الدولة العامرية في نهاية المائة الرابعة . وفي الوقت الذي كانت تضطرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة ، بالفتن والانقلابات المتعاقبة ، كان قاضي إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عباد ، يعمل في هدوء وصمت ، على جمع خيوط الرياسة في يده ، وعلى الاستئثار بحكم المدينة العظيمة ، التي تركت كباقي القواعد الأخرى لمصيرها .

كان إسماعيل بن عباد يتولى خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان فضلاء عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع ، ينتمى إلى بيت من أعظم البيوتات العربية الأندلسية . فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من نواحي الأندلس ، استمر إسماعيل في خطة القضاء ، وأخذ في نفس الوقت يعمل على حفظ النظام ، وضبط الأمور في المدينة . وكان علي بن حمود حينما دخل قرطبة وتولى الحكم بها سنة ٤٠٧ هـ ، تولى أخوه القاسم حكم إشبيلية ، وبقي ابن عباد على حاله في منصب القضاء . ولما قتل علي بن حمود ، تولى أخوه القاسم مكانه في الخلافة في قرطبة ، وخلال الجوانثانية لابن عباد . وكان في خلال الفترة التي كانت فيها خلافة الحموديين تتردد بين قرطبة وإشبيلية ، وما تخللها من الأحداث المتوالية ، يعمل على توطيد مركزه وتدعيم رياسته ، ويعمل بالأخص على حماية المدينة من أطاع البربر وعيشتهم ، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية كما غدت قرطبة مسرحاً للفتنة ، ومرتعاً لأطاع البربر . وقد وفق في خطته كما سنرى أعظم توفيق .

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن عهد بني عباد أمراء إشبيلية ، أن نذكر كلمة عن أصلهم ، وأوليتهم .

كان بنو عباد ، وفقاً لأقوال علماء النسب ، ينتمون إلى لحم . ومؤسس دولتهم ومنشئ مجدهم ، هو القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد

ابن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطف بن نعيم . وعطف هو جدهم الداخل إلى الأندلس في طالعة بلكج بن بشر القشيري . وأصله من أهل حمص الشام ، لحمى النسب صريحاً . ولما دخل إلى الأندلس نزل بقرية «يومين» بقرب بلدة طشانة Tocina من أعمال إشبيلية ، وهي واقعة على ضفة نهر الوادي الكبير . ونحن نعرف أن جند الشام قد نزلوا لأول الفتح بإشبيلية أو حمص كما سموها يومئذ ، نظراً لما بينها وبين حمص الشام من شبه قوى في الطبيعة والإقليم . وفي رواية أخرى أن بني عباد هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا ما يؤيده قول شاعرهم ابن اللبانة :

من بنى المنذر بن ماء السماء وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد
نبتة لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد
وتألق نجم بني عباد ، في أعقاب الفتنة ، على يد جدهم أبي الوليد اسماعيل قاضي إشبيلية ، وكان قد تقلب قبل انهيار الخلافة في عدة من الوظائف الكبرى ، فولى الشرطة لهشام المؤيد ، ثم ولى خطة الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم ، ثم ولى قضاء إشبيلية . ولما اضطربت الفتنة ، وتجهمت الظروف ، استطاع بحزمه ودهائه ، ووجاهته وبذله ، أن يستغل ظروف الفتنة على أكمل وجه ، وأن يجمع في يده أزمة الرياسة والحكم شيئاً فشيئاً ، معتمداً في ذلك على عراقية بيته ، ورفيع مكانته ، وواسع ثرائه ، ومعاونة الزعماء والأكابر الذين استألمهم إلى جانبه ، بليته وجوده ولباقته ؛ ويصفه ابن حيان بأنه «رجل الغرب (أي غرب الأندلس) قاطبة، المتصل الرياسة في الجماعة والفتنة» ، وينوه بوفور عقله وسبوغ علمه ، وركانته ودهائه وبعد نظره ، ويقول لنا إنه كان «أيسر من بالأندلس وقته ، ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه» .

ولما شعر القاضي ابن عباد بأنه حقق بغيته ، من توطيد قدمه في الرياسة ، وأثقلته السنون ، وكف بصره أو كاد ، ندب ولده أبا القاسم محمد ليشغل مكانه خطة القضاء . وكان سلطان بني حمود ما يزال ثمة يتردد بين قرطبة وإشبيلية ، ويحقق علم خلافتهم هنا وهناك . وقد رأينا أن القاسم بن حمود قد تولى الخلافة في قرطبة عقب مقتل أخيه علي (أواخر سنة ٤٠٨ هـ) . وفي أوائل سنة ٤١٢ هـ ، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي ، وزحف بقواته على قرطبة ، فغادرها القاسم في نفر من صحبه ، وقصد إلى إشبيلية ، وهناك تسمى بالخلافة وتلقب بالمستعلي .

بيد أنه ما لبث أن استدعى ثانية إلى قرطبة ، على أثر خلع ابن أخيه يحيى ، وهنالك جددت له البيعة (ذو الحجة سنة ٤١٣ هـ) . وكان المستعلى حينما استقر بإشبيلية قد اصطنع أبا القاسم بن عباد بعد موت أبيه اسماعيل ، وقربه إليه ، وأقره في ولاية القضاء . وكان أبو القاسم يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحموديين ، يهدد رياستهم وينذر بالقضاء عليها . فلما استدعى المستعلى ليتولى الخلافة ثانية في قرطبة ، اجتمع رأى أهل إشبيلية على ثلاثة من الزعماء هم القاضي اسماعيل بن عباد ، والفقيه أبو عبد الله الزبيدي ، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم ، يتولون حكمها وضبط الشئون فيها ، فكانوا يحكمون بالنهار في القصر ، وتنفذ الكتب تحت أختامهم الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان القاضي ابن عباد ، بمركزه ووفرة ثرائه ووجاهته ، أقواهم سلطاناً ، وأعلامهم يداً . فعكف على العمل على توطيد سلطانه ، وعلى إضعاف سلطة البربر في المدينة . ولما عاد المستعلى بعد قليل لاجئاً مع فلوله إلى إشبيلية ، بعد أن خلعه القرطيون ، وطلب أن تخلى له ولأصحابه الدور ، اتفق زعماء المدينة ، وعلى رأسهم أبو القاسم على إغلاق أبوابها ، وصدد المستعلى وصحبه البربر عن الدخول إليها ، وأخرج من كان بها من ولد المستعلى وأهله ، ومن زعماء البربر وأكابرهم . واتفق أهل إشبيلية ، اتقاء لعدوان المستعلى وأشياعه من البربر ، على أن يؤدوا له قدرأ من المال ، وينصرف عنهم ، وتكون له الخطبة والدعوة ، ولا يدخل بلدهم ، ولكن يقدم عليهم من يحكمهم ويفصل بينهم ، فقدم عليهم القاضي أبا القاسم بن عباد ، ورضى به الناس ، وبذا انفرد ابن عباد أيضاً بالرياسة الشرعية ، وقد كان منفرداً بها من الناحية الفعلية ؛ وكان ذلك في أواخر سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) وبذلك انتهت رياسة البربر في إشبيلية ، كما انتهت من قبل في قرطبة (١) .

(١) راجع في أصل بني عباد وظهورهم : ابن الأبار في الحلة السيرة (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٥٤) لوحة ٦٥ أ ، ونقله دوزى في كتابه : *Scriptorum Arabum loci de Abbaditis* (الكتابات العربية المتعلقة ببني عباد) ، والمسمى أيضاً *Historia Abbadidarum* (تاريخ بني عباد) (ليدن سنة ١٨٤٦-١٨٦٣ في ثلاثة مجلدات) ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ . وراجع أيضاً لسيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٣٤ - ٣٨ . وراجع أيضاً جبهة أنساب العرب لابن حزم (القمه) ص ٣٩٨ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩٤ - ١٩٦ و ٣١٤ و ٣١٥ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ١٥٢ و ١٥٣ .

ونود أن نلاحظ بهذه المناسبة أن العلامة رينهارت دوزى قد عمد إلى تمزيق كتاب «الحلة السيرة» ، فاستخرج منه تراجم عديدة نشرها في كتابه *Hist. Abbadidarum* (تاريخ بني عباد) ، ونشر بعضها في كتابه : *Recherches* ، ثم نشر معظم ما تبقى بعد ذلك من التراجم في مجلد -

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة ، بعد أن غدا قاضيا وحاكمها السياسى معاً ، معتمداً في ذلك على تأييد زعماء البيوتات العربية ومعاونتهم ، وعلى تأييد الشعب والتفافه من حوله . وكان بالرغم من استئثاره بالسلطة ، يبدى في أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق ، وكان يعمل في هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه ، والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر . وعمد في نفس الوقت إلى شراء العبيد ، وحشد الرجال ، واقتناء السلاح ، ولم يكن يخفى عليه أن الحموديين ، وشيعتهم من البربر يترصدون به ، ويطمحون إلى امتلاك إشبيلية . وكان بنو حمود من جانبهم يخشون بأسه وأطاعه على مملكتهم ، ومن جهة أخرى فإن أطاع ابن عباد لم تكن تقف عند حكم إشبيلية وحدها ، بل كانت تتجه إلى التوسع ، ولاسيما في ناحية الغرب ، التي كانت بطبيعتها الإقليمية تتبع إشبيلية ، وكانت من جهة أخرى خالية من المنافسين الأقوياء .

وكان أول صدام عسكري خطير اشترك فيه أبو القاسم بن عباد ، قتاله مع بنى الأفطس أصحاب بطليوس ، وهم جيرانه من الشمال . ومما يجدر ذكره أن ابن عباد مع خصومته للبربر ، كان يعتمد على محالفة محمد بن عبد الله البرزالي البربرى صاحب قرمونة ، أولاً لأن قرمونة كانت حصن إشبيلية من الشرق ، وثانياً لأن البرزالي كان يخشى سطوة بنى حمود وأطماعهم في المدينة ، ومن ثم فقد كانت تجمعهم مع ابن عباد مصلحة جوهرية مشتركة ؛ ولما وقعت الحصومة بين ابن عباد ، والمنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ، بشأن الاستيلاء على مدينة باجة ، التي وقع الخلاف بين أهلها على الرياسة ، بعث ابن عباد لقتاله ولده اسماعيل

= بعنوان : Extraits de l'Ouvrage intitulé Al-Hollato, S'Syiara. « نذ من الكتاب المسمى الحلة السراء » (لندن ١٨٤٧ - ١٨٥١) باعتباره يضم تراجم «الإسبانيين» أى الأندلسيين وليس المغاربة . ولم يكنف دوزى بذلك ، بل عمد إلى تمزيق كثير من التراجم ، فنشر أقساماً منها في Hist. Abbad. وكذلك في Recherches ، ونشر باقية في المجموعة المشار إليها . وفي اعتقادنا أن ذلك لم يكن غملاً سليماً من الناحية العلمية ، إذ ترتب عليه تمزيق الكتاب وبعثرة محتوياته ومن ثم فقد اضطررنا في الطبعة الأولى أن نرجع أحياناً إلى الأصل المخطوط ، وأحياناً إلى أجزائه المطبوعة المبعثرة هنا وهناك .

هذا وما يدعو إلى الغبطة أن كتاب الحلة السراء قد صدر أخيراً في طبعة كاملة محققة في مجلدين كبيرين (القاهرة سنة ١٩٦٤) بعناية الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . ومن ثم فقد رأينا أن نرد المراجع التي أبتنتها مخطوطة في الطبعة الأولى ، خلال الكتاب ، إلى هذه النسخة الجديدة المطبوعة .

على رأس نخبة من جنده ، واشترك معه البرزالي بقواته ، وحاصرت القوات المشتركة مدينة باجة التي احتلها قوات ابن الأفطس ، وقتلت وأسرت معظمهم ، وكان بين الأسرى ولد ابن الأفطس ، فاعتقل لدى البرزالي حيناً بقرمونة ثم أطلق سراحه ، وكذلك كان منهم أخ لابن طيفور صاحب ميرتلة وقد صلب بإشبيلية (٥٤٢١هـ) .

ثم عادت الحرب فاضطربت بين الفريقين بعد ذلك بأربعة أعوام . وكان ابن الأفطس وهو من الأصول البربرية ، يعتمد أيضاً في جيشه على فريق من البربر ، وسارت قوات إشبيلية بقيادة إسماعيل بن عباد شمالاً إلى أراضى ابن الأفطس وتوغلت فيها ، ولكنه حين العودة فاجأته قوات كثيفة لابن الأفطس ، ومزقت عسكره ، ففر مع قلوله إلى مدينة أشبونة ، وامتنع بها حيناً ، وكانت هزيمة ساحقة لبني عباد (٥٤٢٥هـ - ١٠٣٤م) .

وكان محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، من أكبر محرضي ابن عباد ومعاونيه في تلك المعارك . ويصفه ابن حيان «بقطب رحي الفتنة» وبنوه بفتكه وعيته وقبح آثاره في تلك المنطقة ، وأنه كان من خصوم الخلافة ، لا يروم قيامها بقرطبة بأى وجه «رسوخاً في الخارجية ودفعاً لأمر الله» ، وأنه كان يقطع السبل على قرطبة ، ويضيق عليها الحصار ، حتى اضطر وزراء قرطبة إلى الاستعانة ضده بفريق من بربر بني برزال بشذونة ، واعتضدوا بهم مدة . واعتضد ابن الأفطس بطائفة أخرى منهم . ويقول ابن حيان معلقاً على تلك الحالة في تسرب البربر إلى سائر الجهات : «فكان في كل بلد جملة منها ، سالت عن أهل البلاد سيول بها ، وخلطوا الشر بين رؤسائها ، واستخرجوا بذلك ما أظهره من دنائيرهم وخلعهم ، وجأحوا ذات أيديهم وعلموهم كيف يوكل الكتف ، فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك ، قليل عددهم ، متقطع مددهم ، اقتسموا قواعد الأرض في وقت معاً ، مضربين بين ملوكها ، راتعين في كلاها ، باقرين على فلذتها ، حلوا محل الملح في الطعام بيأسهم الشديد ، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد ، فلا يقتل الأعداء إلا بهم ، ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم ، فطائفة عند ابن الأفطس تقاوم أصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز أهلها عن الأضداد ، فسبحان الذي أظهرهم ، ومكن في الأرض لهم ، إلى وقت وميعاد» (١) .

(١) نقلها دوزي عن الذخيرة : راجع : Historia Abbadidarum V. I. p. 221

وكان من أشهر أعمال القاضي ابن عباد في تلك الفترة ، إعلانه لظهور هشام المؤيد ، وإقامته خليفة لإشبيلية ، وكان يحيى بن حمود الملقب بالمعتلى ، قد استقر في مالقة حسبما أسلفنا ، وجعلها مقر ملكه ، وبسط حكمه على معظم قواعد الأندلس الغربية الجنوبية . وكان يخشى مشاريع ابن عباد ، ويرى فيه خصمه الحقيقي . فلما توثقت عرى التحالف بين البرزالي صاحب قرمونة وابن عباد ، أخذ يتوجس شراً ، ومن ثم فقد انتهر أول فرصة ، وسار إلى قرمونة ، وانتزعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي ، فلجأ محمد إلى إشبيلية واستغاث بحليفه ابن عباد . ولما شعر ابن عباد بخطورة الموقف ، وأخذ يحيى المعتلى يرهقه بغاراته المتوالية على أراضي إشبيلية ، ويردد النذير بوجوب استردادها باعتبارها من أملاك الحمدوين ، أعلن ذات يوم أن هشاماً المؤيد قد ظهر ، وأنه كان مخفياً ولم يمت (أواخر ٤٢٦ هـ - ١٠٣٥ م) ، وذلك لكي يدحض دعوى الحمدوين في الخلافة بظهور الخليفة الشرعي . وقد ساقنا إلينا التواريخ المعاصرة تفاصيل هذه القصة أوبالحرى هذه الأسطورة . ونحن نعرف مما تقدم أن سليمان المستعين حينما دخل قصر قرطبة في أواخر سنة ٤٠٣ هـ ، قبض على هشام المؤيد وأخفاه . وأن الرواية تختلف بعد ذلك في مصيره ، فيقال إنه قتل بعد ذلك بيد محمد بن سليمان ، ويقال من جهة أخرى ، إنه فر من محبسه ، وعاش حيناً في ألمرية حتى توفي . وعلى أى حال فقد استمر هذا الغموض الذي يحيط بمصير هشام مدة طويلة ، وتختلف الروايات والقصص تنسج من حوله ، يذيعها بنوعه المروانية ، وفتيان القصر وجواريه السابقين ، ومؤداها أن هشاماً لم يمت ، وأنه مختف وسوف يظهر في الوقت المناسب . وعلى أساس هذه الروايات ، أظهر ابن عباد شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وجمع حوله نفرأ من خدم القصر السابقين ، فأيدوا روايته وشهدوا بصدق زعمه ، ويقال إن هذا الشخص كان بالفعل يشبه هشاماً شهاً كبيراً . وكان هذا الرجل يعمل مؤذنأ بمسجد في قرية من قرى إشبيلية ، فاستقبل عند خروجه من المسجد ، وألبس الثياب الخلفية ، وقبل ابن عباد وولده وصحبه الأرض بين يديه ، وخوطف باللقاب الخلافة ، ثم أخذ إلى القصر ، حيث أقبل الناس أفواجاً لبيعته ، وهو يخاطبهم من وراء حجاب ، ويخبرهم بأنه قد عهد بحجابه إلى إسماعيل بن عباد . ويقول لنا ابن القطان إن هذا الدعي كان يسمى خلف الحصرى ، وإنه كان يشبه هشاماً ، وإنه حينما أتى به إلى إشبيلية ، نودى في

الناس ، أن اشكروا الله على ما أنعم عليكم به ، فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم ، وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم ، ونقلها من قرطبة إليكم ، فاشكروا الله على ذلك (١) .

وذاغت قصة ظهور هشام في سائر الأنحاء ، وبعث ابن عباد بكتبه إلى سائر قواعد الأندلس ، يطلب من رؤسائها الاعتراف والبيعة لهشام المؤيد . فلم يعترف بها سوى بعض الفتيان العامين السابقين ، واعترف بها الوزير أبو الحزم بن جمهور لنفس البواغث ، التي حلت ابن عباد على اختراعها ، وهو العمل على دفع دعاوى الحموديين ومطامعهم حسبما سبقت الإشارة إليه .

ويندد الفيلسوف ابن حزم بقصة هذا الخليفة المزعوم ، ويصفها بأنها «أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها» . ثم يقول إنها لفضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها ، أن يقوم أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد ، وهم : خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن حمود ببشتر (٢) .

وعلى إثر ذلك استعد ابن عباد لاسترداد قرمونة من يد يحيى المعتلى ، فسير بعض قواته مع ولده إسماعيل ، ومعها طائفة من البربر المتحالفين معه . فطوق قسم منها المدينة ليلا ، وكن القسم الثاني في أماكن مستترة . وكان يحيى المعتلى داخل المدينة ، وهو عاكف على لهوه وشرابه ، فلما وقف على الخبر ، خرج مع قواته وهو ثمل ، واشتبك مع المهاجرين في معركة حامية ، وعندئذ ظهرت قوات ابن عباد من مكنها وأطبقت عليه ، فزقت قواته وقتل خلال المعركة ، واحتز رأسه وحمل إلى القاضي ابن عباد (المحرم سنة ٤٢٧ هـ) ورد ابن عباد قرمونة إلى صاحبها السابق ، حليفه محمد بن عبد الله البرزالي .

بيد أنه لم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى ساء التفاهم بين ابن عباد والبرزالي . وكان ابن عباد يرى أن قرمونة ، وهي حصن لإشبيلية من الشرق يجب أن تكون في حوزته ، فسير ولده إسماعيل في حملة قوية إلى قرمونة فاستولى عليها . ثم استولى بعد ذلك على مدينة إستجة الواقعة في شرقها وكذلك على مدينة أشونة الواقعة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ و ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٤ .

(٢) نقت المروس لأبن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١) ص ٨٣ و ٨٤ .

جنوبي لاستجة ، فاستغاث البرزالي بزملائه من الزعماء البربر ، وهرع إلى نصرته لإدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان كلاهما يتوجس من مشاريع ابن عباد وأطماعه ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية عدة معارك عنيفة ، واستطاع البربر أن يخترقوا أراضي إشبيلية حتى قلعة جابر (١) حصنها من الشرق ، وانتهى الأمر بأن هزم الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل ابن عباد ، واحتز رأسه وحمل إلى باديس ، وذلك أسوة بما حدث ليحيى المعلى ، وكان ذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

فكان لتلك النكبة أسوأ وقع في نفس القاضي ابن عباد ، فندب ولده الثاني عباداً لتدبير الشئون ، وقيادة الجيش ، فأبدى قوة وحزماً ، ولبث زهاء عامين مضطرباً بمهمته ، حتى توفي أبوه في نهاية جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ (يناير ١٠٤٢ م) . وكان القاضي ابن عباد عالماً أديباً ، وشاعراً مطبوعاً ، ومن قوله في الفخر :

ولا بد يوماً أن أسود على الورى ولو رد عمرو للزمان وعامر
فما المجد إلا في ضلوعى كامن ولا الجود إلا في يمينى ثابر
يجيش العلى بين جنبي جايل وبحر الندى أسير كفى زاخر

ويمكننا أن نعتبر القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، مؤسس دولة بني عباد الحقيقي ، ومنشئ ملكهم ورسوم مملكتهم ، وعلى يده اتخذ سلطان بني عباد ألوانه الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية ، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة والضخامة ، وأصبح ملوكية وراثية راسخة ، بعد أن كان يتخذ فقط صورة الزعامة ، والرياسة القبلية .

فولى الأمر من بعده ولده أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل ، وتلقب أولاً بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد بالله ، وكان يوم ولايته قتي في السادسة والعشرين ، وكان مولده في صفر سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) . وقد أجمعت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، على الإشادة بخلال المعتضد الباهرة ، وصفاته المثيرة معاً . ويصفه ابن حيان ، وهو معاصره ، ومتتبع لأحداث حياته وحروبه ، بأنه «زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ،

(١) هي بالإسبانية Alealà de Guadaira ، وما تزال أطلالها قائمة حتى اليوم .

(٢) جنوة المقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

وذو الأنباء البديعة ، والجرائر الشنيعة ، والوقائع المثيرة ، والمهم العلية ، والسطوة الأبية . وابن حيان أميل إلى تركية المعتضد منه إلى الحكم عليه ، حسبما يبدو ذلك من قوله « فلقد حمل عليه على ممر الأيام في باب فرط القسوة ، وتجاوز الحدود والابلاغ في المثلة ، والأخذ بالظنة ، والإحتقار للذمة ، حكايات شنيعة لم يد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينساق في ذكرها ، ومهما برىء من مغيبها فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة ، سبحانه من جبلته لم يحاش فيهن ذو رحم وأشجة » . بيد أن ابن بسام ، وقد عاش قريباً من عصر المعتضد ، يبدو أشد قسوة في الحكم عليه إذ يصفه فيما يلي : « قطب رحي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فما أبقى ، ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه ألب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده ، واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده ، حربه سم لا يبطيء ، وسهم لا يخطيء ، وسلمه شر غير مأمون ، ومتاع إلى أدنى حين » (١) .

وافتح المعتضد عهده بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله ، منها قتل حبيب وزير أبيه ، ومنها اضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم ، وقد كان في مقدمة هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدي ، وأبو محمد عبد الله بن مريم زميلاجده القاضي ابن عباد في الرياسة ، وذلك حتى لا يقوم لأحد من ذوى العصبيات القوية قائمة . ثم وضع خطته الشاملة للاستيلاء على قواعد الغرب من أمرائها الأصاغر ، حتى يخلص الغرب كله من الوادى الكبير إلى المحيط لسلطان بنى عباد .

إمارات غربى الأندلس

وكانت أولى هذه القواعد مدينة لبلة الواقعة غربى إشبيلية ، وشمال شرق ثغر ولبة ، وكان قد ثار بها أيام الفتنة ، أبو العباس أحمد بن يحيى اليحصى المعروف باللبلى ، أحد كبرائها ، وضبطها ، وباعه أهلها (سنة ٤١٤ هـ) وبسط سلطانه

(١) أورده ابن بسام في ترجمة المعتضد في الذخيرة ، وأورده دوزى في Historia Abbadidarum, V. I. p. 241 & 242 وأورده ابن الأبار في الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ .

على ماحولها من الأراضي ومنها «جبل العيون»^(١)، واستمر في حكم دولته الصغيرة زهاء عشرين عاماً ، ثم توفي سنة ٤٣٤ هـ ، وأوصى بالحكم من بعده لأخيه أبي عبد الله محمد بن يحيى اليحصي الملقب بعز الدولة، فضى في حكمها على ما كان عليه من النظام والرخاء والأمن، حتى بدأ المعتضد بن عباد يرهقه بمطالبه وغاراته، ثم كشف المعتضد القناع ، وهاجم لبلة بقواته . فاستغاث ابن يحيى بصديقه المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فلي نداه وسار إلى نجدة بقواته ، وحرك في نفس الوقت بعض حلفائه البربر إلى مهاجمة إشبيلية . ولما وقف الوزير أبو الوليد بن جهور على تلك الحركة أهمله ، وتوجس من عواقبها ، فأرسل إلى الزعماء المتخاصمين رسله ينصحهم بوجوب التريث ، والتسك بأهداب التفاهم والسلام ، ويحذرهم من عواقب الفتنة ، فلم يصغ إليه أحد منهم ، وبادر المعتضد ، في الوقت الذي سارت فيه قوات ابن الأفطس إلى إنجاد ابن يحيى ، فأرسل قواته لمهاجمة أراضى ابن الأفطس ، فعانت فيها وخربتها ، ثم سار المعتضد بنفسه إلى لبلة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، هزم فيها ابن الأفطس أولاً ، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على المعتضد ، وقتل عدد كبير من جنده (٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م) . وسارت بعض طوائف البربر في نفس الوقت ، وعانت في شرق إشبيلية ، وقطعت الطرق ، وفنكت بالسابلة ، وساءت الأحوال في المنطقة كلها . والظاهر أن ابن يحيى ، رأى في النهاية أن يتفاهم مع المعتضد بعد الذي نزل ببلاده من الخراب والعيث، فعقد معه الصلح . ولكن ذلك لم يرض المظفر بن الأفطس ، فأبى أن يرد إلى ابن يحيى ودائع وأمواله ، التي أودعها عنده حينما هاجمه المعتضد ، ثم أرسل قواته لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد فأرسل إليه الأمداد ، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً .

ثم عادت الحرب فاضطربت بين المعتضد وابن الأفطس في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) وعاث المعتضد في أراضى ابن الأفطس ، وافتتح منها عدة حصون ضمها إلى مملكته ، وأتلف الزروع وخرب كثيراً من القرى ، وقتل الكثير من جند ابن الأفطس ، ونضبت موارده ، فانهى إلى الاعتصام بخاضرته بطليوس وذلك على ما انفصله فيما بعد في أخبار مملكة بطليوس . وأخيراً تدخل الوزير

ابن جمهور بين الفريقين ، واستمر في مساعيه الحثيثة حتى عقد الصلح بين المعتضد وابن الأفتس في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .

والتفت المعتضد بعد ذلك إلى لبلة فضيق الخناق عليها ، وفي النهاية اضطر أميرها عز الدولة أن يتنازل عن حكمها لابن أخيه أبي نصر فتح بن خلف اليحصبي الملقب بناصر الدولة ، على أن يعقد السلم مع المعتضد ، وأن يؤدي له جزية سنوية . وانتقل بأهله وأمواله إلى قرطبة ، ليعيش هناك في كنف الوزير أبي الوليد بن جمهور وذلك في أواخر سنة ٤٤٣ هـ .

على أن المعتضد لم يقنع بهذا الحل ، ولم يمحس سوى القليل حتى نقض السلم المعقود ، وبعث قواته فهاجمت لبلة ، واضطر ناصر الدولة أن يدافع عن نفسه ، واستمرت الحرب بينهما حيناً ، حتى خربت بسائط لبلة وقتل كثير من جندها ، وسبي كثير من أهلها ، وذلك بالرغم مما بذله ناصر الدولة من جهود يائسة للدفاع عن ملكه ، وما قام به من غارات متعددة على أراضي إشبيلية . وفي النهاية اضطر ناصر الدولة أن ينزل على حكم القوة القاهرة ، وأن يسلم لبلة إلى خصمه القوى ، وأن يغادرها إلى قرطبة ، ليعيش هناك إلى جانب عمه . وكان سقوط لبلة في يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) (١) .

هذا وربما كانت لبلة هي الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة، التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم بأسوارها الأندلسية كاملة . وقد زرناها وشهدنا أسوارها العتيقة الضخمة التي تحيط بها من كل ناحية إلا من ناحيتها الشرقية على النهر المسمى «النهر الأحمر» Rio Tinto . وتمثل هذه الأسوار، التي جدها الموحدون في القرن الثاني عشر ، منعة لبلة الأندلسية وموقعها الحصين فوق الربوة العالية التي تحتلها ، وهو منظر رائع حقاً لا يدانيه في روعته سوى أسوار مدينة آبله الرومانية العربية . وثمة خاصة أخرى تمتاز بها لبلة ، وهي أنه لم يطرأ على خططها الأندلسية القديمة كثير من التغيير ، فهي ما زالت تحتفظ داخل الأسوار بطابعها الأندلسي المحض . وعنى المعتضد في الوقت نفسه بالاستيلاء على إمارتين صغيرتين أخريين من

(١) راجع ما نقله ابن بسام في الذخيرة (عن ابن حيان) في دوزى : Historia Abbadi— 252—darum V. I. p. 244 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢٣٤ و ٢٤٠ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٦ ، وابن حيان (نقله ابن بسام في الذخيرة) القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦٠ .

إمارات ولاية الغرب ، أولهما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش ، الواقعة جنوب غربي لبلة ، وإمارة شنتمرية الغرب في غربها .

فأما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش الواقعة تجاهها في المحيط في مصب نهر أوديل فقد آلت في أعقاب الفتنة إلى أبي زيد عبد العزيز البكرى - كبير زعمائها - وبويع بها في سنة ٤٠٣ هـ ، واستمر مضطرباً بحكمها مدة طويلة ، والسلام يرفرف على أرجائها . فلما قوى سلطان بني عباد بإشبيلية ، واتجهت أطماعهم إلى الاستيلاء على إمارات الغرب ، أخذ المعتضد يضيق الخناق على ثغرولبة ، ويرهقه بغاراته ، ويقطع السبل إليه . فسألت أحوال الإمارة الصغيرة ، ولم يجد البكرى سبيلاً إلا لمفاوضة ابن عباد في عقد الصلح على أن يسلم إليه ثغرولبة ، ويكتفى هو بجزيرة شلطيش ، فوافق ابن عباد على ذلك ، ولكنه ما لبث أن أخذ في مضايقة البكرى في جزيرته ، وفرض عليه نوعاً من الحصار . وعندئذ اضطر البكرى أن يفاوضه مرة أخرى في التنازل عن جزيرة شلطيش ، وانتهى إلى أن باعه أملاكه وسفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب ، وغادر الجزيرة ، بأهله وأمواله ، إلى قرطبة ليعيش هناك في كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيى أمير لبلة (٤٤٣هـ - ١٠٥١ م) . وفي رواية أخرى أن البكرى سار إلى إشبيلية وعاش بها في كنف ابن عباد إلى أن توفي بها في سنة ٤٥٠ هـ . بيد أننا نؤثر الرواية الأولى وهي رواية ابن حيان ، معاصر هذه الحوادث ومدونها بطريق العلم والتحقيق (١) .

هذا وقد اختفت جزيرة شلطيش من مصب نهر أوديل ولم يبق لها اليوم وجود . وأما إمارة شنتمرية الغرب الصغيرة الواقعة على المحيط في جنوبي البرتغال ، فقد بويع بها أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون سنة ٤٣٣ هـ خلفاً لأبيه سعيد ابن هارون ، ولبت في حكمها بضعة أعوام إلى أن بدأ المعتضد في مضايقته ومحاربتة . وألقى ابن هارون أن لا قبل له بمقاومة هذا الأمير الباغي ، فنزل له عن ثغره ، وخرج بأهله وصحبه إلى إشبيلية (٤٤٣ هـ - ١٠٥١ م) وهناك توفي بعد أشهر قلائل . وقيل إن خروج ابن هارون من شنتمرية كان في سنة ٤٤٩ هـ (٢) . وتقوم اليوم مدينة فارو البرتغالية فوق موقع شنتمرية الأندلسية .

ولم يبق من إمارات الغرب بعد ذلك سوى إمارة شاب ، وكانت في الواقع

(١) ابن حيان ، ونقله دوزي في : Hist. Abbadidarum V. I. p. 252-253

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

أهم إمارات الغرب بعد إشبيلية، وكانت تشمل فضلا عن كورة شلب^(١) ، وهي الواقعة في قاصية جنوبي البرتغال ، كورة باجة . وكان الحاجب عيسى بن محمد قد تغلب في أعقاب الفتنة على هذه المنطقة النائية ، وأقام بها دولة ، واستمر مسيطراً عليها حتى توفي في سنة ٤٣٢ هـ . فخلفه في حكمها ولده محمد بن عيسى الملقب بعميد الدولة ، واضطر اتقاء لعدوان ابن عباد أن ينزل له عند مدينة باجة وأن يكتفى بحكم شلب . وكان ابن عباد قد استولى قبل ذلك على ميرتلة قاعدتها الجنوبية من يد صاحبها ابن طيفور في سنة ٤٣٦ هـ ، وأصبحت باجة تحت رحمته . واستمر عميد الدولة في حكم شلب حتى توفي سنة ٤٤٠ هـ . وعندئذ ثار بها القاضي عيسى بن أبي بكر بن مُزَيْن فبايعه أهلها ، وبسط حكمه عليها ، وتلقب بالمظفر واستمر حكمه خمسة أعوام ، وابن عباد دائب على مهاجمته وشن الغارات عليه ، وهو يرده ما استطاع ، حتى قتل في أواخر سنة ٤٤٥ هـ ، مدافعاً عن مدينته . فخلفه ولده محمد بن عيسى وتلقب بالناصر ، وحكم حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ ، فخلفه ولده عيسى وتلقب بالمظفر ، وسار في الحكم على نهج أبيه وجده ، من ضبط الأمور ، وإقامة العدل . بيد أن المعتضد ما لبث أن كرر حملاته على شلب ، ثم ضرب الحصار حولها ، وقطع عنها سائر الأمداد ، حتى اشتد الأمر على أهلها ، وانتهى بأن اقتحمها بعد أن هدم أسوارها ، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر ، وذلك في شوال سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وبذلك انتهت دولة بني مُزَيْن^(٢) .

الإمارات البربرية

وهكذا استطاع المعتضد بن عباد ، في نحو عشرين عاماً ، أن يقضى على سائر إمارات الغرب الصغيرة ، وأن يبسط سلطانه عليها ، وأصبحت مملكة بني عباد ، تشمل سائر الأراضي الممتدة من شاطئ نهر الوادي الكبير غرباً حتى المحيط الأطلسي ، هذا عدا رقعة تقع شرقي الوادي الكبير . على أن المعتضد لم يقنع بهذا التوسع الكبير في اتجاه الغرب ، وإنما كان يضع الخطط في نفس الوقت للقضاء على الإمارات البربرية الصغيرة القائمة في شرقي الوادي الكبير في جنوبي الأندلس ، حتى يقضى على خططهم وأطماعهم ، وحتى يؤمن جناحه الدفاعي في تلك الناحية ، ويغدو حراً في العمل والحركة في اتجاه الشمال والشرق .

(١) وهي بالبرتغالية Silves

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٢ و ٢٩٦ - ٢٩٨ . والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٨٦ .

وكانت هذه الإمارات البربرية التي استولى عليها وضبطها الزعماء البربر ، المتخلفون من عصبة المنصور بن أبي عامر ، فضلاً عن مملكة بني حمود في مالقة والجزيرة ، ومملكة باديس بن حبوس في غرناطة ، تنحصر في أربعة وهي إمارة بني يفرن في رندة ، وإمارة بني دمر في مورور ، وإمارة بني خزرون في شدونة وأركش ، وإمارة بني برزال في قرمونة . وكان بنو عباد في بداية أمرهم ، نخطبون ود هؤلاء الزعماء البربر ، ويعتمدون أحياناً على محالفتهم كما حدث عندما تحالف القاضي ابن عباد مع أمير قرمونة على قتال بني الأفطس ، ثم على قتال يحيى بن حمود فيما بعد . ثم كان بين أبي نور هلال بن أبي قررة اليفرنى صاحب رندة ، وبين المعتضد بن عباد صداقة ومودة وثيقة العرى ، وكان المعتضد يبعث إليه ، وإلى باقي الأمراء البربر ، بالهدايا والبصلات الجزيلة ، وكل ذلك لكي يكسب حياتهم ومودتهم ، وهو في أعماق نفسه يضرهم غاية الكيد والشر ، ويتحين الفرص للإيقاع بهم .

وفي سنة ٤٤٥ هـ ، دبر المعتضد كمينه لأولئك الأمراء ، فدعاهم إلى زيارته بإشبيلية ، فلبى الدعوة ثلاثة منهم هم أبو نور بن أبي قررة صاحب رندة ، ومحمد بن نوح الدمرى صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، وقد ساروا إلى إشبيلية في أحسن زى ، وأفخم مظهر ، ومعهم نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم . فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال ، وأنزل الأمراء بقصر من قصوره ، وفي اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه ، وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم في محاربة أعدائه ، ولما هموا بالرد أمر بالقبض عليهم ، وتكبيهم بالأغلال ، ووضعهم في السجن فرادى ، واستولى على سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم ؛ وبعد مدة من اعتقالهم ، أمر بادخالهم في الحمام ، وبناء منافذه ، وإضرام النار فيه حتى هلكوا ؛ ويقال إنه أطلق ابن أبي قررة ، وهلك صاحبه فقط في الحمام ، وهما محمد بن نوح ، وعبدون بن خزرون . وكان لغدر ابن عباد بالزعماء البربر على هذا النحو ، أسوأ وقع في القبائل البربرية ، وفي إذكاء سخطها على ابن عباد وتوجسها منه ومن مشاريعه .

واستمر المعتضد بعد ذلك في سعيه للاستيلاء على أملاك أولئك الأمراء ؛ فأما أركش فقد حل في حكمها محمد بن خزرون مكان أخيه عبدون ، فابتنى

ابن عباد قلعة حصينة على مقربة منها ، وأخذ رجاله يغيرون منها على أركش ويهقون أهلها ، فسار بنو يرثيان ، وهو اسم قبيلة البربر النازلة بها ، إلى كبيرهم باديس في غرناطة ، واتفقوا معه على أن يسلموه أركش على أن يفسح لهم مقاماً في مملكته ينزلون به ، وخرجوا من أركش بأموالهم ومتاعهم وحریمهم ، وسلموها إلى جند باديس ، فلما بعدوا عنها بمسافة نحو عشرين ميلاً ، تعرضت لهم جند ابن عباد ووقع القتال بينهم وبينه ، ودافع البربر عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، حتى أئيد أكثرهم ، وقتل زعيمهم محمد بن خزرون ، وقتل قائد باديس الذي كان معهم ، وملك ابن عباد أركش وشذونة وسائر هذه المنطقة ، وكان ذلك في أواخر سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) (١) .

وأما مورور أو مورون ، وهي منزل بني دمر ، فإنه بعد أن هلك أميرها محمد بن نوح في سنة ٤٤٥ هـ ، أو على قول آخر في سنة ٤٤٩ هـ ، في حبس ابن عباد ، خلفه ولده مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة ، وضبط مورور وحسنت سيرته ، وقصد إليه البربر من إشبيلية ومن إستجة وغيرهما ، فكثر جمعه ، وهذا المعتضد يتربص الفرصة للإيقاع به ، ويرسل جنده للإغارة عليه ، وانتساف زروعه ، وحرقت قراه ، وأخيراً حاصرت جند ابن عباد مورور حصاراً شديداً ، وضيق عليها المسالك ، حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى التسليم ، على أن يعيش في إشبيلية ، في كنف المعتمد وتحت حمايته ، فأجابه المعتضد إلى طلبه ، وسلم إليه المدينة (٤٥٨ هـ) وقصد إلى إشبيلية بأهله وماله ، وعاش بها حتى توفي في سنة ٤٦٨ هـ (٢) .

وأما رندة ، وهي أهم هذه الإمارات الجنوبية وأمنعها ، فكانت منزل بني يفرن . ولما وقع أميرها أبو نور هلال بن أبي قرّة اليفرنى في اعتقال المعتضد سنة ٤٤٥ هـ ، قام ولده باديس مكانه في رندة ، ولكنه كان فاجراً سفاكاً ، فسطا على الأموال والأعراض ، وعاث رجاله في المدينة سبياً ونهباً ، ولم يعف عن الاعتداء على أقرب الناس إليه . فلما أفرج عن أبيه ، عاد إلى رندة ، وقتل ولده الفاسق (٤٤٩ هـ) ، ولكنه لم يعيش بعده سوى أشهر قلائل وتوفي في نفس العام ، فخلفه ولده أبو نصر فتوح ، وبويع له في رندة ، وفي سائر بلاد ربه ، وكان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ .

محسناً عادلاً، ولكنه كان شغوفاً بالشراب، مخلصاً إلى الراحة، فدرس عليه المعتضد رجلاً من أقرب صحبه يدعى ابن يعقوب ، فهجم عليه في أصحابه ذات يوم ، وهو يصيح بشعار ابن عباد ، فألقى أبو نصر نفسه من أعلى القسبة فمات ، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة ، وخلصت رندة وأعمالها على هذا النحو ، إلى المعتضد ، وذلك في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) .

وأما قَرْمُونَة فكانت حسبها تقدم في يد بني برزال . وتقع قَرْمُونَة على مقربة من شمالى شرق إشبيلية ، وتعتبر لمنعتها الفاتكة حصن إشبيلية من الشرق ، وما يزال يقوم بها حتى اليوم ، بابها الغربى المواجه لطريق إشبيلية ، والمسمى حتى اليوم باسمه الأندلسى باب إشبيلية ، وهو يعتبر بعقده الشاهق وواجهته العظيمة ، من أمنع الأبواب الأندلسية الباقية . وكان أمير قَرْمُونَة أيام القاضى ابن عباد ، محمد بن عبد الله البرزائى ، الذى سبق أن أشرنا إلى قصة تحالفه مع ابن عباد ضد بنى الأفطس وضد يحيى بن حمود . واستمر في حكم قَرْمُونَة وأعمالها مثل إستجة ومرشانة حتى توفى سنة ٤٣٤ هـ ، فخلفه ولده عزيز الملقب بالمستظهر ، وانتظمت الأحوال وعم السلم والرخاء في عهده ، إلى أن بدأ المعتضد في مضايقته وغزو أراضيهِ . ولم تزل الحرب بينهما بضعة أعوام حتى خربت البلاد ، وفى كثير من البربر ، واضطر المستظهر أن يدعن إلى التسليم ، فخرج من قَرْمُونَة وسلمها إلى ابن عباد ، وذلك في سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، وتوفى بعد قليل في إشبيلية (٢) .

هذا وسوف نعود إلى تناول هذه الإمارات البربرية في فصل خاص بها . وكان المعتضد قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الخضراء . وكان أميرها القاسم بن محمد بن حمود ، قد خلف أباه في حكمها في سنة ٤٤٠ هـ ، وكان المعتضد يسعى إلى القضاء على سلطان الحموديين وخلافهم . ومن جهة أخرى فقد كان يهجمه الاستيلاء على الجزيرة ، وهى باب الأندلس من الجنوب ، فبعث قواته إليها فطوقتها من البر والبحر ، وضيق عليها الحصار ، حتى اضطر القاسم إلى طلب الأمان والتسليم إلى قائد المعتضد عبد الله بن سلام ، فأجابته إلى مطلبه . وخرج

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٨ و ٣١٢ و ٣١٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

القاسم بأهله وأمواله في مركب أعده له ابن سلام ، وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى أميرها المعتمد بن صمادح ، وعاش بها حتى توفي . وكان استيلاء ابن عباد على الجزيرة الخضراء في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) (١) .

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بني عباد تضم من أراضي الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من شبه الجزيرة ، وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطئ الوادي الكبير ، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحني الوادي الكبير ، غرباً حتى جنوبي البرتغال وشاطئ المحيط الأطلنطي ، وبذلك أضحت أعظم ممالك الطوائف ، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية ، وأقواها من حيث الطاقة الحربية .

ولم يكن يغشى هذه المكانة التي بلغت إشبيلية من الضخامة والقوة والغنى ، سوى ناحية قائمة واحدة ، هي موقفها من ملك قشتالة فرناندو الأول (٢) . ذلك أن هذا الملك القوي كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على إسبانيا كلها ، وكان يرى في ممالك الطوائف ، وما يسودها من الخلاف والتفرق ، فرائس هينة . ففي سنة ١٠٦٢ م (٤٤٤ هـ) ، خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة ، وغزا مملكة طليطلة ، وعاث فيها وخرب سهولها وزورعها ، حتى اضطرب ملكها المأمون ابن ذي النون ، أن يطلب الصلح ، وأن يتعهد بدفع الجزية . وفي العام التالي ، سنة ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) عاد فغزا أراضي مملكتي بطليوس وإشبيلية ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحدو حذو المأمون ، في طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية ، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة ، وقدم إليه عهوده شخصياً ، وطلب إليه ملك قشتالة بهذه المناسبة أن يسلمه رفات القديسة «خوستا» شهيدة إشبيلية ، فوعده بتحقيق رغبته . ولما توفي فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو (سانجه) في حكم مملكة جليقية ، كان المعتضد يؤدي إليه الجزية أسوة بآبيه ، واستمر في تأديتها حتى وفاته (٢) .

وحدث خلال هذه الفترة التي قضها المعتضد بن عباد في افتتاح الإمارات

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

(٢) ويسمى في الرواية العربية فرذاند أو فرانده .

(٣) راجع : R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 135 & 140

الغربية ، والإمارات البربرية ، عدة حوادث داخلية هامة ، كان في مقدمتها بطش المعتضد بولده إسماعيل .

وقد ساق إلينا ابن حيان قصة هذه المأساة ، وكان معاصراً لها ، متتبعاً لحوادثها ، في خبر طويل ، خلاصته أنه في سنة ٤٥٠ هـ ، تواترت الأنباء في قرطبة بأن المعتضد قد دبر نزول قواته بمدينة الزهراء صاحبة قرطبة الغربية تمهيداً لافتتاحها ، وندب ولده . وولى عهده إسماعيل الملقب بالمنصور للقيام بهذه المهمة . ولكن إسماعيل لم يشأ أن يقوم بهذه المهمة ، لأنه وفقاً لبعض الروايات كان يحقد على أبيه ويستوحش منه لأسباب خاصة ، أولاً لأنه وفقاً لرواية أخرى كان يرى أن مهاجمة قرطبة على هذا النحو مغامرة خطيرة يرجح فشلها ، ولأنها لما كان بين آل جهور سادة قرطبة ، وبين باديس أمير غرناطة من محالفة وثيقة العرى . ومن ثم فقد راجع إسماعيل أباه وحذره من العواقب ، فأغظ له أبوه في القول ، وألزمه المسير ، وأنذره بالقتل إذا نكل ، فعندئذ ثارت نفس إسماعيل ، وعول على الفرار مع بعض خواصه . ويقال إن الذي شجعه على ذلك وزير أبيه وكاتبه ، أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني ، حينما شكاً إليه ما يلقاه من غلظة والده وقسوته ، فحسن له العقوق والعصيان ، والسير إلى أطراف المملكة ، حيث ينفرد بنفسه ، وعندئذ دبر إسماعيل أمره ، وانتهاز فرصة غياب أبيه إلى مكان متترهه في حصن الزاهر ، في الضفة الأخرى من النهر ، فعزم قدراً كبيراً من المال والذخائر والمتاع ، وأخذ أمه وحرمه ، وخرج من إشبيلية تحت جنح الليل ، ومعه الوزير البزلياني ، وثلة من نحو ثلاثين فارساً ، وسار في طريق الجزيرة الخضراء ، وعلم أبوه بالخبر بعد وقت ، فبادر باخراج عدة من فرسانه في أثره ، وبعث يندرقواد الحصون . وكان إسماعيل قد وصل خلال ذلك إلى قلعة من قلاع كورة شذونة ، وطلب إلى حاكمها ابن أبي حصاد ، أن يجيره ، فاستقبله وأنزله بالقلعة هو ومن معه ، وبادر فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل في يده ، وأنه نادم على ما فعل ، ورجاه في العفو عنه ، فسر المعتضد ، واستجاب إسماعيل لدعوة أبيه إليه بالعودة ، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه ، فاعتقله أبوه في بعض الدور ، واسترد المال والمتاع ، وعجل بإعدام الوزير البزلياني لفرط حنقه عليه ، وقتل معه نفرأ من خواص إسماعيل ، فلم يشك إسماعيل عندئذ في مصيره . ودبر مع بعض الموكلين به مؤامرة لدخول القصر والفتك بأبيه والجلوس مكانه ، واستطاع بالفعل أن يدخل

القصر ليلامع بعض أعوانه ، ولكنه سقط مرة أخرى في يد أبيه الساهر الحذر . وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده ، وقتله بنفسه ، وأخفى جثته ، فلم يقف أحد على أثره ، وعذب شركاءه أشنع عذاب ، وقطع أطرافهم ، ثم أعدمهم ، وأعدم كذلك نقرأ من حرمه ونسائه ، حتى قطع دابر كل من كانت له بولده علاقة أو صلة ، وكانت مأساة مروعة ، وكان لها في قواعد الأندلس أعظم صدى (١) .

وقد أورد لنا ابن بسام في الذخيرة صورة كتاب أمر المعتضد بكتابه عن المأساة إلى رؤساء الأندلس يصف فيه أطوار الحادث ويبرر تصرفه في إزهاق ولده «الخائن الغادر» حسبما يصفه . وقام بإنشاء هذه الرسالة ابن عبد البر كاتب المعتضد ، وذلك ارتجالاً ، بين يدي المعتضد ، وبحضر من الوزراء والكتاب ، فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة ، وإليك بعض ما ورد فيها :

«إن الغوى اللعين ، العاق الشاق ، إسماعيل ابني بالولاد ، لا بالوداد ، ونجلي بالمناسب لا بالمذهب ، كنت قد ملت بهوى إليه ، وقدمت على من هو أسنى منه ، وحبك الشيء يعنى ويصم ، والهوا يطمس عين الرائي ، إذ يلم ، فأثرته بأرفع الأسماء والأحوال ، ووسعت عليه في خطيرات الذخائر والأموال ، وأخضعت له أكابر رقاب الحند وجوه الرجال ، ودربته في مباشرة الحروب ، وأجربته على مقارعة الخطوب ، ولم يكن مما أحسبه أني إنما أشحذ على نفسي منه الشفرة ، وأوفد بالتدريب والتخريج تحت حصى الحمرة ، وما كنت خصصته بالإيثار ، واستعملته بالمكافحة والقرار ، إلا لجزالة كنت أتوسمها فيه ، كانت عيني بها قريرة ، وشهامة كنت أتوهمها فيه كانت نفسي بها مسرورة ، فإذا الجزالة جهالة ، والشهامة شرة وكهامة ، وقد تفتن الآباء بالأبناء ، وينطوى عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء ، مع أن الآراء قد تنشأ وتحدث ، والنفوس قد تطيب وتخبث ، بقرين يصلح أو يفسد ، وخليط يغوى أو يرشد ، كما أن ذاء العرق قد يعدى ، كذلك قرين السوء قد يردى ، ومن اتخذ الغاوى خديناً ، عاد غاوياً ظنيناً ، ومن يكن الشيطان له قريناً ، فساء قريناً .

ويصف الكتاب بعد ذلك أدوار المؤامرة التي دبرها إسماعيل منذ فراره وعوده ، وعفو والده عنه ، ويقول «فإذا به كالحية لا تغنى مداراتها ، والعقرب لا تسالم

(١) راجع رواية ابن حيان في دوزي Historia Abbadidarum, V. I. P. 256 — 259

وكذلك البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٤ و ٢٤٨ و ٢٤٩ .

شبابها ، وكأنه قد استصغرها ، واستحقها ما جنى ، فزرا وسرا ما صارت به الصغرى ، التى كانت العظمى . ثم يصف اثمارة بأبيه وتسوره القصر ليلا ، وفشل المؤامرة ، والقبض على المتآمرين ، «حتى أظفر الله بهم ، وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم ، وأنفذت حكم العدل فيهم» .

ثم يحاول أن يبرر تصرفه فيما يلي : «فاعجب يا سيدى لأبناء الزمن ، وأنباء الفتن ، وانقلاب عين الإبن المقرب الودود ، إلى حال الوائر المحسود ، والناثر الحقود ، واعتبر فى ورد المساء ، من موطن المسرة ، وطلوع المحنة . وقد أريت هذه الحال على كل ما جر عليه عقوق من الأبناء والبنين ، من السلف المتقدمين ، فلم يكن أكثر مما وجدناه من ذلك فى الأخبار والآثار ، استيحاشاً وشروداً ، ونبوا ونددوا ، إلا ما شذ لأحد ملوك الفرس ، وآخر من بنى العباس . وجمع هذا اللعين فى إرادته ومحاولته ، بين الشاذ والناذر ، والمنكر الدائر ، وزاد إلى استيحاشه الذم ، التعرض لإباحة الحرم ، وإلى ما رام من إتلاف المهجات ، السافح فيها كان يجرى على العورات المصونات ، وهو زمان فتنة ، وشمول إحنة ودمنة ، والناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم ، وأصدق من هذا قوله تعالى : «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، فاحذروهم» نفتت يا سيدى نفثة مصدور ، وأطلت فى الشرح والتفسير ، خروجاً إليك عن هذا الخطب الخطير ، والملم الكبير ، وهو خبر فيه معتبر» (١) .

ونحن نعرف أن فتك المعتضد بن عباد بولده لم يكن هو أول مثل من نوعه فى تاريخ الأندلس . فقبل سبعين عاماً ، قتل المنصور بن أبى عامر ولده عبد الله ، ومن قبل ذلك قتل الناصر لدين الله ولده عبد الله أيضاً ، وكلاهما فى مثل هذه الظروف ، ولمثل هذه الأسباب ، أعنى لتطلعه إلى انتزاع السلطان من يد أبيه ، واثمارة بحياته . بيد أن المعتضد هو أول أمير من هؤلاء يعنى بشرح موقفه وظروفه ، وتبرير تصرفه الدموى ، فى هذه الوثيقة أو هذه الرسالة ، التى وجهها إلى زملائه أمراء الأندلس . وقد كان من الطبيعى أن يتوجس أمير مستبد ، صارم عنيف الأهواء ، مثل المعتضد بن عباد ،

(١) راجع دوزى Historia Abbadidarum, V. I. p. 253—256 ، والبيان المغرب

من تصرف ولده الحاقد الناقم ، المتربص به ، ولا سيما إذا صحت الوقائع التي تسوقها إلينا الرواية المعاصرة عن اثمارة بأبيه ، وتسوره القصر ليلاً للفتك به ، وهي رواية مؤرخ معاصر محايد معاً ، هو ابن حيان القرطبي .

وفي سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، قطع المعتضد بن عباد الدعوة لهشام المؤيد في سائر أنحاء مملكة إشبيلية ، وقد كان يدعى له بها منذ نحو خمسة وعشرين عاماً ، أعنى منذ زعم القاضي ابن عباد في سنة ٤٢٦ هـ ، أنه عثر بهشام المؤيد حياً ، وبايعه ودعا له . وقيل في ذلك إن المعتضد دعا وجوه دولته إلى مجلسه ، ونعى لهم هشاماً ، وأنه قد مات بالفعل قبل ذلك من علة مزمنة ، ولكن لم يعلن وفاته يومئذ ، لاشتداد الفتنة ، واضطرام النضال بينه وبين الأمراء المتألبين عليه ، فلما سكنت الفتنة وجب التصريح بالحق . ومن ذلك الحين يصبح هشام في ذمة التاريخ ، وينقطع ذكره بصفة نهائية . ويعلق ابن حيان على ذلك متهمكاً في قوله : « وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها أن تكون إن شاء الله الصادقة ، فكم قتل وكم مات ، ثم انتفض من التراب ، ومزق الكفن قبل نفخة الصور » . وقد قال بعضهم في ذلك :

ذاك الذي مات مراراً ودفن فانتفض التراب ومزق الكفن

فقد أعلنت وفاته لأول مرة على يد منتزع عرشه محمد بن هشام المهدي ، ودفن بمحضر من العلماء والفقهاء في شعبان سنة ٣٩٩ هـ ، ونشر بعد نحو عام على يد الفتي واضح ، وتولى الخلافة ؛ وتوفي للمرة الثانية قتيلاً بيد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان في سنة ٤٠٣ هـ ، ودفن خفية ؛ ولما دخل علي بن حمود قرطبة ، وكان الاعتقاد سائداً بأن هشاماً لم يمت وأنه قد اختفى ، ولم يجد هشاماً بعد البحث عنه ، أعلن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة (٤٠٧ هـ) . ثم جاء القاضي ابن عباد بعد ذلك في سنة ٤٢٦ هـ ، فأعلن ظهور هشام ، ودعا له ، احتفاءً بظل الخلافة ، ودفعاً لدعاوى بني حمود (١) .

وقد أشرنا من قبل في بداية حديثنا عن المعتضد بن عباد إلى ما نسب إليه من

(١) راجع رواية ابن حيان وتعليقاته على ذلك في دوزي : *Historia Abbadidarum V.I.*

الصفات الباهرة المثيرة معاً ، ونود هنا أن نستعرض في شيء من التفصيل خواص هذه الشخصية القوية العنيفة .

كان المعتضد بن عباد ، بلامراء ، أعظم ملوك الطوائف في عصره ، وأوفرهم عزماً ودهاء ، وأبعدهم مطامع . وتقدمه إلينا الروايات المعاصرة في صور قاتمة ، يتجلى فيها عنفه ، وقسوته وغدره ، والتجاؤه إلى أى الوسائل لتحقيق غاياته ، مهما كانت مجافية لمبادئ الأخلاق والشهامة والفروسية . وقد رأينا فيما تقدم في تطبيق سياسته ، وفي حروبه ، وفي تصرفاته ، ما يؤيد هذه الصفات المثيرة . ويقول لنا ابن حيان إن المعتضد كان يتخذ سيرة سمية الخليفة المعتضد بالله العباسي قدوة له (١) ، ويهتدى بأخباره السياسية «التي أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرياسة ، في صلابة العصا ، وشناعة السطا ، فجاء منها بمهولات تدع من تمنع بها ، فضلاً عن عاينها» . ثم يستدرك فيقول : «نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد أمثاله من غير دلالة» (٢) . وقد رأينا فيما تقدم أن ابن حيان يميل أحياناً إلى الدفاع عن المعتضد ، بالرغم مما يقصه من أخبار بطشه وقسوته المروعة .

وقد أنفق المعتضد بن عباد معظم حكمه في محاربة جيرانه من أمراء الطوائف ، وكشف في محاربتهم عن قوة عزمه ، وضخامة عدته ، وإحكام خططه ، ولكنه كشف في نفس الوقت عن قسوته وغدره ، وروعة وسائله . وعلى أى حال فقد استطاع المعتضد بهذه الوسائل المثيرة أن يحقق أطماعه ، وأن ينشئ مملكة إشبيلية الكبرى ، أعظم ممالك الطوائف ، وأن يوطد بها ملك أسرته ، وأن يسبغ عليها نوعاً من الزعامة السياسية والأدبية لاسبانيا المسلمة كلها .

ويبدأ ابن حيان خمسة في وصف سياسة المعتضد إذ يقول : «وسياسته أعيت على أنداده من أملاك الأندلس ، فخرج منهم رجالاً مساعير حرب أباد بهم أقتاله ، ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة ، أن نال بغيته ، وأهلك تلك الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مترفه عن مكابذتها ، مدبر فوق أريكته ، منفذ

(١) قال ابن الأثير في وصف الخليفة المعتضد العباسي ما يأتي : «وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزم ، وكان فيه شج ، وكان مهيباً عند أصحابه ، يتقون سطوته ، ويكفون عن الظلم خوفاً منه» (ج ٧ ص ١٦٩ و ١٧٠) .

(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى في Hist. Abbadidarum, V. I, p, 243

لحليها ، من جوف قصره ، ما مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو مرتين ، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره ، جرد نهاره لإبرام التدبير ، وأخلص ليله لتملي السرور ، ... وهو واصل نعم ليله ، بإجابة كيده ، ومبتدع نشاط هوه بقوة أيده ، له في كل شيء شوين ، وعلى كل قلب سمع وعين . ما أن سبر أحد من دهاة رجاله غوره ، ولا أدرك قعره ، ولا أمن مكره ، لم يزل هذا دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه » (١) .

وقال ابن القطان : « كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي ببغداد ، وكان ذا سياسة ورأى يدبر ملكه من داره . وكان يغلب عليه الجود ، فلم يعلم في نظرائه أبذل منه للمال » (٢) .

ووصفه ابن الخطيب بأنه : « كان شديد الحرأة ، قوى المنة ، عظيم الجلادة ، مستهيناً بالدماء » (٣) .

وقد انتهت إلينا عن قسوة المعتضد بن عباد قصة مروعة ، هي قصة حديقة الرؤوس المخططة ، رؤوس أعدائه الذين سقطوا في ساحة الحرب ، أوقتلوا غيلة ، وحملت إليه رؤوسهم . ويقول لنا ابن حيان ، إن المعتضد كان له بهذه الحديقة التي تملأ قلوب البشر ذعراً ، مباهاة أكرم لديه من خزانة جواهر مكنونة ، وقد أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي ، ورؤوس الحجاب ابن خزرون ، وابن نوح ، وغيرهم ممن قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود ، فخص رؤوسهم بالصون بعد إزالة جسومهم الممزقة ، وبالغ في تطييبها وتنظيفها ، وأودعها المصاون الحافظة لها ، فبقيت عنده ثارية تجيب سائلها اعتباراً . ثم يقول لنا إن هذه الرؤوس الفانية كانت تحمل إلى المعتضد في ليالي أنسه وسروره ، يشاهدها وهو يتربع كؤوس الزاح ، فترتاح نفسه لمعاينتها ، والخلق يذعرون من التماحها (٤) . ويضيف

(١) ابن حيان ، ونقله دوزي في : Hist. Abb. V. I. p. 243—244 .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٥٦ .

(٤) ابن حيان ونقله دوزي في Hist. Abbadidarum, V. I, p. 243—244 ، والبيان المغرب

ابن بسام إلى ذلك أنه لما افتتحت إشبيلية ، وخلع المعتمد بن عباد ، عشر المرابطون بهذه الرؤوس في جوالق وأوعية ، ظن في البداية أن بها أموال أو جواهر ، فهاهم الأمر ، وسلم كل رأس منها لمن بقي من عقب أصحابها (١) . على أن هذه النواحي القائمة لم تكن كل شيء في شخصية المعتضد ، فقد كانت ثمة في هذه الشخصية نواح أخرى لامعة غنى ابن حيان أيضاً بالإشارة إليها . من ذلك ما سمت إليه همته من إنشاء القصور الباذخة ، والرباع العظيمة المغلة ، وما غنى به من تنظيم بلاط بني عباد ، وتجهيزه بالعدد والمظاهر الملوكية الفخمة ، ونفيس المتاع والرياش ، حتى غدا أعظم وأفخم بلاط بين قصور الطوائف .

وقد اشتهرت قصور بني عباد في التاريخ والشعر ، وقد كانت منها بمدينة إشبيلية قاعدة ملكهم عدة ، منها قصر الإمارة وهو «القصر المبارك» ، وقد كان يقع في شرقي نهر الوادي الكبير ، في المكان الذي يشغله اليوم قصر إشبيلية الشهير El Alcázar . والظاهر أنه كان من إنشاء المعتضد بن عباد ، وأنه هو الذي زاد فيه وأسبغ عليه رونقه وفخامته التي اشتهر بها . وقد كان ثمة أيضاً قصر الزاهي ، وهو القصر الذي كان يتخذه المعتضد ، ومن بعده ولده المعتمد ، مكاناً للهو والقصف ، وقد كان يقع على الضفة الأخرى من النهر ، وتحيط به حدائق غناء (٢) . وقد ذكر لنا ابن زيدون في شعره ، وذكر لنا المقرئ أسماء قصور أخرى تتصل بعصر المعتضد ، وهي على الأغلب من إنشائه ، ومن ثم فإننا نرجى ذكرها إلى موضعها . وقد اقتنى المعتضد كثيراً من الحياض الصافيات ، والغلمان والحشم ، وأنشأ له جيشاً منتخبا من أبرع الفرسان والمقاتلة ، وبذل لهم الصلات الوفيرة ، فكان له ما شاء من التفوق العسكري على أئداده وخصومه ، وكان جواداً «يبارى جوده السحاب» .

وأما عن شخص المعتضد ، فقد ترك لنا عنه معاصره ابن حيان تلك الصورة الرائعة ، قال : « وكان عباد قد أوتى من جمال الصورة ، وتمام الحلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البيان ، وثقود الذهن ، وحضور الخاطر ، ما فاق

(١) ابن بسام في الذخيرة ونقله نفس المصدر ص ٢٤٠ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥

و ٢٠٦ .

(٢) قلائد المقيان ص ٢٤ .

به أيضاً على نظرائه». وقد اشتهر المعتضد بشغفه بالنساء ، فكان إلى جانب زوجه الحسنة الأثيرة لديه ، ابنة مجاهد العامري ، وأخت ولده على إقبال الدولة صاحب دانية ، يقتنى في قصوره الفخمة ، عدداً كبيراً من الخواري البارعات في الحسن والسحر ، من سائر الأجناس والملل ، بلغ عددهن حسبها قيل ، نحواً من السبعين ، وكان له من الولد الذكور نحو العشرين ، وكذلك مثلهم من الإناث (١) .

بقيت من صفات المعتضد ، خلة لامعة ، تبعث إلى الإعجاب والعطف في تلك الشخصية التي لا توحى معظم صفاتها إلا شعور المقت والروع ، تلك هي أدبه الرفيع ونظمه الرائع . وهنا أيضاً نستعير قلم ابن حيان إذ يقول : «ونظر مع ذلك في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان ، أدنى نظر ، بأذكي طبع حصل منه لثقب ذهنه ، على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها ، ولا إمعان في غمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسة في اقتناء صحائفها ، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحجير الكلام ، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، في معان أمدته فيها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة ، واقتبسها الأدباء للبراعة» (٢) .

وقال الحميدى : «كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية ، من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والحجة لذوى المعارف . وقد رأيت له سفرأ صغيراً في نحو ستين ورقة من شعر نفسه» (٣) .

وقال ابن القطان : «وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله في ذلك همة عالية ، ألف له الأعلام أديب عصره ، ولغوى زمانه ، شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة ، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس» (٤) .

والأدب والشعر من محاسن الأسرة العبادية ومآثرها العريقة ، فقد نبغ معظم رجالاتها في النثر والنظم ، ولم تكن براعة المعتضد في الشعر إلا قبساً من تراث أسرته ؛ ولقد بلغ ولده المعتمد ، فيما بعد ، في عالم الشعر أسنى مراتبه ، وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصره . وذكر لنا ابن بسام أن شعر المعتضد قد جمع بعناية ولد أخيه اسماعيل في ديوان أطلع عليه (٥) ، واختار منه ما اختار في الذخيرة

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى في المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفي الحلة السيرة (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى في المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفي الحلة السيرة ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) في جذوة المقتبس رقم ٦٧٢ ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٥) وهذا ما ذكره أيضاً ابن الأبار في الحلة السيرة (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .

من المقطوعات . وهذه المقطوعات متنوعة بين الفخر والغزل والوصف وغيرها ، وكلها تدل على افتتان المعتضد ، ومقدرته الشعرية الممتازة . فن قوله في الفخر :

حيث ذمار المجد بالبيض والسمر وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة لأشياء في العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجد للإنسان ما كان ضده يشاركه في الدهر بالنهى والأمر
ومن قوله حين استولى على رندة ، وهو مما يتفق مع عنفه وصرامته :

لقد حصلت يارندة فصرت للكنيا عقدة
سأفنى مدة الأعداء إن طالت بي المدة
وتبلى بي ضلالتهم ليزداد الهوى جدة
فكم من عدة قتلت منهم بعدها عدة
نظمت رؤوسهم عقداً فحلت لبة السدة (١)

وربما كان لهذه السجية الأدبية أكبر أثر في أن المعتضد قد نظم في سلك وزرائه جماعة من أعظم شعراء العصر وكتابه . وكان في مقدمة هؤلاء أبو الوليد بن زيدون إمام الشعر وقطبه ، وكان قد انتظم من قبل في وزارة بني جهور بقرطبة ، ثم ساءت أحواله فغادر قرطبة إلى إشبيلية في سنة ٤٤١ هـ ، فأكرم المعتضد وفادته ، وعينه في وزارته ، ونغمه بنقته وعطفه ، وما زال متمتعاً برفيع مكانه ونفوذه حتى وفاة المعتضد . بيد أنه يبدو أنه لم يكن مطمئناً على نفسه في خدمة هذا الطاغية الخطر ، حتى أنه لما توفي المعتضد نظم هذين البيتين ابتهاجاً بذهابه ، ولم يظهرهما يومئذ «لأنه كان غير مأمون على الدماء ، ولا حافظاً لحرية الأولياء» .

لقد سرني أن النعي موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانب صوب الغيث عن ذلك الصدا ومر عليه الزن وهو جهام (٢)

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ولد أبي عمر ، صاحب كتاب «بهجة الخالس وأنس المجالس» . نظمته المعتضد في سلك وزرائه ، وكان كاتبه

(١) تراجع مقطوعات أخرى من شعر المعتضد فيما أورده ابن بسام في اللخيرة ونقله دوزى في: Hist. Abbadidarum V. II. p. 48-60 وكذلك في الحلة السيرة (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ - ٤٩ .

(٢) راجع ما أورده ابن بسام ، ونقله دوزى في Hist. Abbadidarum, V. II. p. 48

وراجع قلائد العقيان ص ٧١ .

ولسانه لدى الرؤساء ، وقد اشتهر برائق نثره وروعة أسلوبه . وقد رأينا نموذجاً من نثره فيما اخترناه من مقتطفات رسالته ، عن مصرع إسماعيل ابن المعتضد . بيد أنه لم يكن أيضاً سعيداً ولا مطمئناً ، لخوفه المستمر من أن يبطش به المعتضد ، ومن ثم فقد عول في النهاية على الفرار ، وغادر إشبيلية ناجياً بنفسه (١) .

ومنهم أيضاً الكاتب البارع أبو عبد الله البزلياني الذي يصفه ابن بسام بأنه «أحد شيوخ الكتاب ، وجهابذة أهل الأدب» . وقد رأينا كيف ساق سوء الطالع هذا الوزير الكاتب إلى الاشتراك مع إسماعيل ولد المعتضد في مؤامراته وفراره ، وكيف قبض عليه المعتضد وأعدمه لفوره .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين وزراء المعتضد أو معاونيه ، رجل من النصارى المستعربين ، هو سسندو داقيدس (أوششند) الذي اشتهر فيما بعد في قصور الطوائف . وأصله من مقاطعة بيرة في شمالي البرتغال ، وأسر حدثاً في غارة قام بها القاضي ابن عباد في منطقة قلنمرية ، ثم أخذ إلى إشبيلية وربى مع «فتيان» القصر ، واشتغل في شئون الخاص . ولما تولى المعتضد ، قدر مواهبه ، ومعرفته بشئون الجزيرة ، فنظمه بين وزرائه أو معاونيه ، فنال ثقته ، وتمكن نفوذه ، وعلت مكانته في البلاط العبادي بسرعة . ولكنه لم يلبث أن تعرض لخصومة بعض رجال البلاط وسعائهم ، فخشي العاقبة ، وفر من إشبيلية إلى الشمال ، ولجأ إلى بلاط فرناندو ملك قشتالة ، فرحبه ، ونظمه بين مستشاريه ، وكان له فيما بعد أكبر أثر في تكييف سياسته نحو ملوك الطوائف (٢) .

وتوفي المعتضد بن عباد في الثاني من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة (مارس ١٠٦٩ م) . ويقول لنا ابن حيان إن وفاته كانت بسبب ذمجة قصيرة الأمد ، ترتبت على الإجهاد ، وكانت شبه البغت . وكانت ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاماً .

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٨١ و ١٨٣ .

(٢) الذخيرة ، القمم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ وكذلك : Isidro de las Cagigas

Los Mozarabes (Madrid 1947) p. 456—457.

الفصل الثالث

بنو عباد ومملكة إشبيلية

القسم الثاني

المعتمد بن عباد . شخصيته وخلال . ذكرياته بشلب . استيلاؤه على قرطبة . النضال بين بنى عباد والبربر . عوامل الخصومة بينهما . محاربة المعتمد لغرناطة واستيلاؤه على جيان . اتفاقه مع ألفونسو السادس على فتح غرناطة . الوزير ابن عمار . نشأته وشاعريته . مقدرة ودهاؤه . سعيه إلى فتح مرسية . اتفاقه مع أمير برشلونة على غزوها . فشل هذه المحاولة . استعانت به ابن رشيق في فتحها . محاولته الاستقلال بحكمها . تغلب ابن رشيق عليها . فرار ابن عمار والتجأؤه إلى بنى هود . محاولته فتح حصن شقورة . سقوطه في يد صاحب الحصن . تسليمه لابن عباد . اعتماد الرميكية وابن عباد . تغدو مملكة إشبيلية . الوحشة بينها وبين ابن عمار . هجاء ابن عمار للمعتمد . والرميكية . استعطاف ابن عمار للمعتمد وشمعه في ذلك . قسوة المعتمد وقتله لوزيره . تعليقات على الحادث . ابن عمار وعبقريته . مقدرة الأدبية والشعرية . غزو المعتمد لأراضى طليطلة . يؤدي الجزية لملك قشتالة . يمدد حلفاً معه . موضوع هذا الحلف . مطالبة ألفونسو للمعتمد بالجزية . والخلاف على قيمها . تنكيل ابن عباد برسل ألفونسو . غزو ألفونسو لأراضى إشبيلية . خطته في إضعاف الطوائف والقضاء عليهم . إدراك المعتمد لخطته وتفكيره في الاستعانة بالمرايطين . وعيد ألفونسو له ورد المعتمد عليه . ذبوح فكرة استدعاء المرايطين بين أمراء الأندلس وشعوبها . سفارة أمراء الأندلس لاهل المرايطين . الإتجاهات المختلفة والآراء المعارضة . ما ينسب لابن عباد من رسائل وجهها إلى أمير المسلمين . استجابة أمير المسلمين لنداء الأندلس . عبوره إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

- ١ -

لما توفي المعتمد بن عباد ، خلفه يوم وفاته ولده ، محمد بن عباد ، الملقب بالظافر ، والمؤيد بالله ، والمعتمد على الله ، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به طول حياته .

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية ، فتي في الثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة باجة في سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) وقيل بل في ربيع الأول سنة ٤٣٢ هـ (١) . وكان مثل أبيه ، في حسن القوام ، وروعة المظهر ، وعنفوان

(١) يقول بالرواية الأولى النويري ، وبالرواية الثانية ابن زيدون وابن اللبابة شاعرا المعتمد . راجع دوزي : Historia Abbadidarum V. II, p. 61 & 131 ، وكذلك ابن الأبار في الحلة السيرة ج ٢ ص ٥٣ .

الصبا ، ولكن لم يكن مثله في الصرامة والقسوة والاستهتار بالدماء ، بل كان بالعكس وديعاً ، يعف عن الدماء ، بعيداً عن قبول السعيات .

ويقول لنا ابن الأبار في وصف المعتمد ما يأتي : « وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، غفيف السيف والذيل مخالفاً لأبيه في القهر والسفك ، والأخذ بأدنى سعاية ، رد جماعة ممن نفي أبوه ، وسكن وما نفر ، وأحسن السيرة ، وملك فأسجح ، إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً في اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مخلصاً إلى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه ، واصل هلاكه » (١) .

وقد خاض المعتمد مثل أبيه ، سلسلة طويلة من الحروب والأحداث ، وتقلب في غمار الخطوب والحدود ، وكان عهده عهد الحسم في تاريخ دول الطوائف ، وفي تاريخ الأندلس قاطبة ؛ ولكنه لم يشتهر في ميدان الحرب والسياسة ، قدر ما اشتهر في ميدان الأدب والشعر ، والفروسية ، والجود . ومهما كانت وجوه الضعف الشخصية التي كان ينطوي عليها ، من عكوف على الشراب ، وانغماس في مجالى اللهو والترف ، ومهما كانت أخطاؤه السياسية الفادحة ، التي ترتبت عليها محنة الأندلس ، ثم محنته الخاصة : مهما كان من هذه الصفات القائمة فإن شخصية المعتمد بن عباد ، تبرز لنا من خلال هذه الغمار ، ومن الناحية الأخرى ، مشرقة وضاعة ، تتوجها عبقريته الأدبية والشعرية ، وتزينها صفاته الإنسانية الرقيقة وتطبعها محنته المؤلمة ، بالرغم من كل أوزاره وأخطائه ، بطابع الاستشهاد المؤثر .

وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد ، والياً لمدينة شلب ، ولها عقب استيلاء بنى عباد عليها في سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه خلال تلك الفترة في إدارة ولاية شلب وزيره أوأمينه أبو بكر بن عمار ، الذى تولى وزارته بإشبيلية فيما بعد ، واشتهر ذكره ، واضطلع له بأخطار المهام السياسية والعسكرية .

وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، تلك المدينة البرتغالية الجميلة النائية ، وهو يومئذ فى عنفوان فتوته ، يتقلب خلالها فى مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات لا تمحى ، صورها لنا فيما بعد ، فى بعض قصائده . ومن ذلك قوله مخاطباً وزيره ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب من قتي
 منازل آساد ويبيض نواعم
 فكم ليلة قد بت أنعم جنبها
 ويبيض وسمر فاعلات بمهجتي
 وليل بسد النهر لهواً قطعته
 نصت برداًها عن غصن بان منعم
 وباتت تسقيني المدام بلحظها
 له أبدأ شوق إلى ذلك القصر
 فناهيك من غيل وناهيك من خدر
 بمخضبة الأرداف مجدبة الخصر
 فعال الصفاح البيض والأسل السمر
 بذات سور مثل منعطف البدر
 نصير كما انشقت الكمام عن الزهر
 فن كأسها حيناً وحيناً من الثغر

وكان أول عمل قام به المعتمد عقب ولايته ، هو تدخله في حوادث قرطبة ،
 حينما هدهما المأمون بن ذى النون بقواته ، فبعث إليه عبد الملك بن جهور يستنجد
 به ، فوجه إليه الأمداد مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، وانتهى
 الأمر باستيلاء قوات إشبيلية على قرطبة ، وفقاً لخطة سرية وضعت من قبل ،
 وبالقضاء على دولة بني جهور ، وضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية (٤٦٢ هـ -
 ١٠٧٠ م) . وندب المعتمد ولده عبداً الملقب بسراج الدولة لحكم المدينة . وقد
 فصلنا عند الكلام عن دولة بني ذى النون ، كيف دبر المأمون بن ذى النون استرداد
 قرطبة على يد ابن عكاشة ، وكيف قتل سراج الدولة ولد المعتمد مدافعاً عنها ، ثم
 دخلها المأمون في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ثم توفى بها بعد ذلك بأشهر قلائل ،
 وأخيراً كيف عاد المعتمد ، فسار على أثر ذلك إلى قرطبة في قواته ، واستولى
 عليها ، وقتل ابن عكاشة انتقاماً لولده ، وبذلك عادت قرطبة إلى مملكة إشبيلية .
 على أن أهم ما شغل به المعتمد ، في تلك الفترة الأولى من ولايته ، هو النضال
 ضد مملكة غرناطة البربرية . ونحن نعرف أن الحصومة بين بني عباد وبين
 الإمارات البربرية قد بدأت في عصر مبكر ، وقد فصلنا من قبل كيف اشتبك
 القاضي ابن عباد مع يحيى بن حمود المعتلى حول قرمونة ، في معركة دموية قتل
 فيها المعتلى ، واستولى ابن عباد على قرمونة ، وأعطاهما لصاحبها البرزالي حليفه
 يومئذ ، وكيف نشبت الحصومة فيما بعد بين ابن عباد والبرزالي ، فلما أراد ابن عباد
 استرداد قرمونة باعتبارها حصن إشبيلية من الشرق ، وسير إليها قواته ، استغاث
 البرزالي بإدريس المتأيد صاحب مالقة ، وبإدريس بن حبوس صاحب غرناطة ،
 ووقعت بين البربر وجند إشبيلية معارك طاحنة هزم فيها الإشبيليون ، وقتل
 أميرهم إسماعيل بن عباد ، وذلك في أوائل سنة ٤٣١ هـ .

ولما تولى المعتضد بن عباد ، عقب وفاة والده القاضي محمد بن اسماعيل ابن عباد في سنة ٤٣٣ هـ ، كان من أبرز أعماله القضاء على مختلف الولايات البربرية الشرقية ، والجنوبية الشرقية ، وهي موروون وأركش ورندة . واستولى على الجزيرة الخضراء من يد أميرها القاسم بن حمود (٤٤٦ هـ) ، ثم استولى على قرمونة وأعمالها في سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) .

وبذلك تم القضاء على سائر الإمارات البربرية المتاخمة لإشبيلية من الشرق والجنوب الشرقي ، وتم تأمين جناحها الدفاعي من هذه الناحية ، ولم يبق في جنوبي الأندلس من الإمارات البربرية ، سوى مملكة باديس في غرناطة ومالقة .

وحاول المعتضد في نفس الوقت أن ينتزع مالقة من باديس ، وسير إليها قواته بالفعل تحت إمرة ولديه جابر والمعتد ، وكادت مالقة تسقط بالفعل في أيدي الهاجيين ، ولكن باديس قدم في قواته مسرعاً ، فانقلبت الآية وهزم جند إشبيلية هزيمة شديدة ، وفشلت المحاولة (٤٥٨ هـ) (١) .

وكان المعتمد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده في التوجس من البربر والقضاء على سلطانهم . وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية ، مهبطاً للقبائل والقوات البربرية ، التي تفد من وراء البحر باحثة عن طالعها وأرزاقها . هذا من ناحية العوامل المادية ، وأما من ناحية العوامل الأدبية ، فنستطيع أن نشير بهذه المناسبة ، إلى ما كان بين العرب والبربر من خصومة قديمة مؤتلة ترجع إلى عصر الفتح ذاته ، وقد شرحنا عوامل هذه الخصومة في «العصر الأول» من كتابنا . ونزيد هنا أن بني عباد ، كانوا حسبنا أشرنا من قبل ، ينتمون إلى لحم ، من أكرم وأشرف القبائل العربية ، وكانوا من أهل العلم والأدب المؤتلة ، حمة للعلوم والآداب والفنون ، يغص بلاطهم بأقطاب العصر وشعرائه ، وتتمتع في ظلهم مملكة إشبيلية بخضارة زاهرة ، وثقافة رفيعة . أما القبائل البربرية فلم تكن راحنة في تعاليم الإسلام ، وكانت بعيدة عن العربية وثقافتها وتراثها ، يؤثرون التمسك بعجمتهم وبدادوتهم ، وكانت قصورهم عاطلة عن ذلك الحو الفكري والأدبي ، الذي تزددان به قصور الأصول العربية ، وكان هذا التباين يبدو بالأخص بين بلاط غرناطة البربري ، وبين بلاط إشبيلية العربي .

اجتمعت هذه العوامل المادية والأدبية ، لتذكى ضرام النضال بين مملكة غرناطة ، حصن البربر في الجنوب ، وبين مملكة إشبيلية . وكانت مملكة غرناطة قد بلغت ذروة قوتها في عهد ملكها باديس بن حبوس الصنهاجي ، وكان باديس قد رشح ولده بُلُقَيْن للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة ، ولكنه توفي بالسقم في حادث غامض . وفي خلال ذلك كان النضال مستمراً بين المعتضد بن عباد وبين البربر ، وقوة باديس تضعف شيئاً فشيئاً . فلما توفي باديس في سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ، خلفه في حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بُلُقَيْن ، وفي حكم مالقة حفيده تميم ، ولم يمض على وفاته سوى عام ، حتى سار المعتمد بن عباد في قواته إلى جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة ورباضها . وعندئذ فكر أمير غرناطة في الاستعانة بالنصارى ، وتوصل بواسطة المأمون بن ذى النون ، إلى أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، معاهدة صداقة وتحالف ، يتعهد فيها بدفع الجزية . وحدث في نفس الوقت أن ظفر المأمون بن ذى النون ، بانتزاع قرطبة من ابن عباد (٤٦٧ هـ) ، فكانت هزيمة المعتمد ، سبباً في انقشاع الخطر نوعاً عن غرناطة .

وخرج عبد الله بن بُلُقَيْن بعد ذلك في قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى ، وأغار على أراضي ابن عباد ، وعاث فيها ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة القريب من جيان (١) .

بيد أن المعتمد لم يقف مكتوفاً إزاء هذه الحركة ، فاتجه بدوره إلى النصارى ، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، فعقد معه حلفاً دفع مقابل عقده خمسين ألف دينار . ويقضى هذا الحلف بأن يتعاون المعتمد وألفونسو السادس ، على افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد ، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو . وظهر أثر هذه المعاهدة على الفور ، إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة ، ولاسيما أراضي مرجها الشهير La Vega (٢) .

R. Menéndez Pidal : La Espana del Cid, p, 257 & 260 (١)

R. M. Pidal : ibid ; p, 257 (٢)

ولا بد لنا قبل أن نمضي في تتبع أخبار المعتمد ، أن نتحدث عن الوزير ابن عمار، وهو الذي اضطلع بأخطر دور في تنفيذ مشاريع المعتمد . فهو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري ، وأصله من قرية من أرباض شلب تسمى «شنبوس»^(١) ، ولد بها سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، في أسرة متواضعة لم يكن لها في الظهور شأن ، ووفد على مدينة شلب فنشأ بها وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع في الأدب ، ونظم الشعر فتي ، وانخذه وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد لإشبيلية ومدح المعتضد ، فنظمه في سلك شعرائه وأمنائه ، ولما نذب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها ، اتصل به ابن عمار وألقى المعتمد في صفاته وأدبه ورقيق نظمه ما حبه إليه ، فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثر المعتمد ، ينظمه في مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار في النظم هي أحب صفاته لأبيه الشاعر . ولما توفى المعتضد ، وخلفه ولده المعتمد في الملك ، عين ابن عمار أولاً والياً لبلده شلب ، ولكن مقامه بها لم يطل ، إذ لم يصبر المعتمد على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية وولاه وزارته . فظهر ابن عمار يومئذ بمقدرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الحويينهما ، بتدخل اعتماد الرميكية زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبتها على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التي اضطلع بها ابن عمار يومئذ ، استيلاؤه على مدينة مرسية باسم ابن عباد . وهناك ما يدل على أن مملكة إشبيلية كانت تمتد في ذلك الوقت حتى لورقة وشقورة^(٢) على مقربة من مرسية . وكانت مرسية بعد أن غادرها خيران العامري ، قد تغلب عليها أبو بكر بن طاهر ، ثم ولده أبو عبد الرحمن بن طاهر من أعيانها، ولكنه لم يوفق إلى إخماد العناصر الناقمة، فكتب بعض هؤلاء إلى المعتمد بن عباد يستدعونه لفتحها، وشرحوا له ضعف ابن طاهر وقلة أهباته الدفاعية ، فعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لتحقيق

(١) وهي اليوم بلدة Estombar البرتغالية الواقعة جنوبي شلب .

(٢) قلائد العقيان ص ٩ ، ودوزي في : Hist. Abbadidarum, V, II, p, 86

هذه الغاية ، فسار ابن عمار ، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونة صفقة ، يتعهد فيها بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية ، مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تدفع إليه ، واتفق الطرفان ، أن يقدم كل منهما رهينة إلى الآخر ضماناً بالوفاء ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقواته ، وعلى رأسها ابن عمار ، ولحقت بها قوات الكونت ، وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر في أداء المال ، واعتقد الكونت أنه قد غرره ، فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد ، وارتد بقواته عن المدينة . وعلم ابن عباد بالأمر ، وهو على رأس قواته على ضفاف نهر الوادي الكبير على مقربة من شقورة ، وبادر بأداء المال ، وبعث معه رهينة الكونت ، وأفرج عن الرشيد وابن عمار ، وأخفقت هذه الحملة الأولى في فتح مرسية ، وجهز المعتمد بإشارة وزيره حملة أخرى على رأسها ابن عمار ، واتصل ابن عمار في طريقه بقائد حصن بلج أو بليج ، Vélez Rubio وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وندبه للقيادة ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، واستمر في إرهاقها ، وفي تحريض أهلها على القيام ضد ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقبض على ابن طاهر ، واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) (١) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن ابن عمار سولت له نفسه ، أن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مليكه ، وعمد بالفعل إلى حكمها حكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخذ يدس الدسائس بين أمراء هذه الناحية ، ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها ؛ ذلك أن ابن رشيق ، وهو فاتح المدينة الحقيقي ، كان يترصد بابن عمار ، ويتحين فرصته ، وفي ذات يوم غادر ابن عمار مرسية لتفقد بعض الحصون الخارجية ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيائنه .

(١) راجع في فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ ، والمراكشي في المعجب ص ٦٥ ، ودوزي عن الشاذلي : Hyst. Abbadidarum, V. II, p. 86 — 87 وكذلك : R. Menedez Pidal Piles Ibars : Murcia Arabe, V. I. p. 189 - 191, La España del Cid p. 259 & 281

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار صوب الشرق وقضى وقتاً قصيراً في بلاط ألفونسو السادس ، فلم يلق منه عوناً ، ثم قصد إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه في شتونه ، ولكنه توفي بعد قليل في سنة ٤٧٥ هـ (أواخر ١٠٨١ م) وقسمت مملكته بين أولاده ، فاختص المؤمن بسرقسطة ، وبقي ابن عمار معه على ما كان عليه . ولم يطل مكث ابن عمار حتى أغراه على بيعته ، بفتح حصن شتورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية ، وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن ، في جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجل وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر في الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت في يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه ١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار وبعث إليه مالا وخيلاً ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله ، وعلى رأسهم ولده يزيد الراضى ، فأخذ أولاً إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا في هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرؤيته ، وقد كانت تهتم لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فأودعه المعتمد مكاناً خاملاً في قصره ، وكان يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ في عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن في استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر في النهاية بمحتته ، ووعد به بصفحة ، ولكن عاد فنقم عليه لأنه نقل إلى بعضهم ذلك الوعد ، أو على قول راجح ، لأن خصوم ابن عمار الساعين في هلاكه ، وفي مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعايتهم ، وأبرزوا للمعتمد ، أبياتاً بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان بمرسية ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبني عباد ، ولا عتماد الرميكية زوجة المعتمد (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين اعتماد الرميكية ، وبين ابن عمار من

(١) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V, ll, p. 90, 91, 100-104 ، وابن الأبار في الحلة السيرة ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشي في المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ وكذلك R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 289

وحشة كانت تزداد على مر الأيام . وكانت الرميكية ، وهى ملكة لإشبيلية الأثرية ، تحتل مكانة بارزة فى حياة المعتمد ، وفى بلاط إشبيلية . ولزواج المعتمد بهذه المرأة الموهوبة اللامعة ، التى شاطرته أيام عزه ومجده وأيام محنته ، وأنجبت له أولاده الملوك ، قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة . فأما التاريخ فتقول لنا الرواية ، إن المعتمد حينما كان ولياً للعهد ، أيام والده المعتضد ، رأى اعتماداً ذات يوم صحبة مولاها رُميك وهو من وجهاء إشبيلية ، فراقته لديه ، فاشترها منه وهام بها حباً ، وتزوجها . بيد أن هناك رواية أخرى أكثر طرافة ، وأقرب إلى لون الأسطورة ، وهى أن المعتمد كان ينتزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار فى نهر إشبيلية ، وهو نهر الوادى الكبير ، وهما يتبادلان طرائف الشعر ، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد ، فنظم المعتمد هذه الشطرة :

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار أن يكملها ، فعجز الوزير الشاعر ، وكانت ترقبها فتاة حسناء ممن يغسلن ثيابهن فى النهر ، فردت على الفور :

«أى درع لقتال لو محمد»

فدهش المعتمد ، وأعجب ببراعة الفتاة وسرعة خاطرها ، كما أعجب بحسنها وخفة روحها ، وسألها إن كان لها زوج ، فأجابت بالنفى ، فعندئذ استدعاها إلى قصره وتزوجها (١) .

وهكذا شاء القدر أن تغدو اعتماد الرميكية زوجة للمعتمد بن عباد ، وأن تغدو سيدة قصر إشبيلية . ولما تولى المعتمد الملك ، كانت الرميكية تحتل مكانة بارزة فى البلاط ، وفى الشئون ، وكانت لسمو مكانتها ، وتمكن نفوذها يطلق عليها لقب «السيدة الكبرى» (٢) ، وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك فى كثير من الأحيان فى مجالس الشعر والأدب ، التى كان يشغف بعقدها المعتمد ، وتزدان فى أحيان كثيرة بحضور زوجته الحسنة الساحرة ؛ وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى المعتمد تشترك فى توجيه الشئون . وكان الوزير ابن عمار ، وهو يومئذ فى إبان مجده

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ .

(٢) المعجب ص ٧٧ . وكان هذا اللقب يطلق على والدة المعتمد ابنة مجاهد العامرى .

ونفوذه ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يستأثر لدى المعتمد بثقته ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ويخشى بأسها وسعابتها ، واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد وابن عمار ، لتسفر عن نتائجها الطبيعية ، وهى هزيمة الوزير وتغير ملكه عليه. ويقال إن الأبيات الطاعنة التى نسبت إلى ابن عمار ، قد نظمها فى ذلك الوقت سرّاً فى هجو الرميكية ، ونمى خبرها إلى المعتمد ، ويقال من جهة أخرى إن ابن عمار نظمها أيام وجوده فى مرسية ، ونجح خصمه أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية فى الحصول على أصولها مكتوبة بخطه وبعثها إلى المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار فى ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التى قيل إنها كانت سبباً فى نكبة ابن عمار ومصرعه ومطلعها :

ألا نحي بالغرب حياً حلالاً أناخوا جبالاً وحازوا جبالاً
وعرج بيومين أم القرى ونم فعسى أن تراها خيالاً
لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنار فيها اشتعالاً
ويومين قرية من قرى إشبيلية ومنها كانت أولية بنى عباد .
ومنها فى هجو الرميكية :

تخبرتها من بنات الهجين رميكية ما تساوى عقلاً
فجاءت بكل قصير العذار لثيم النجادين عمّاً وخلاً
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالاً
ثم يشير إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :
سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً وأهتك سترك حالاً فحالاً (١)

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية ، لتؤكد محنة ابن عمار . وقد وجه ابن عمار من سجنه إلى المعتمد قصائد فى الاستعطاف تذيب الجهاد ، أو على قول ابن الخطيب «تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتعتق على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب» ، ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التى تهز أوتار القلوب ، والتى مطلعها :

(١) الحلة السيرة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٧٤ و ١٠٢ ، وراجع دوزى :

Hist. Abbadidarum V. ll. p. 117 وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٥٢ .

سجائبك إن عافيت أندى وأسمح
وإن كان بين الخططين مزية
حنانيك في أخذى برأيك لا تطع
ومنها :

أقلنى بما بينى وبينك من رضى
وعف على آثار جرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم
ومنها :

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتى
وبين ضلوعى من هواة تيمة
سلام عليه كيف داربه أطوى
ليهنته إن مت السلو فإنى
ولكن حلماً للمؤيد يرجح
ستشفع لو أن الحمام مجلج
إلى فيدنو أو على فيترح
أموت ولى شوق إليه مبرح^(١)

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر في مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ؛ ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على وزيره ، هو أن ابن عمار ، حينما وعده المعتمد بصفحه ، حدث بذلك ولده الرشيد ، وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره ، وفي يده طبرزين^(٢) كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف في أغلاله ، ففرع ابن عمار لرؤيته ، وارتدى على رجله يقبلهما ويبللهما بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن في ركن من « القصر المبارك » . وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى في أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل ١٠٨٥ م)^(٣) .

(١) وردت هذه القصيدة في قلائد العقيان ص ٩٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦١ ، وفي المعجب ص ٦٧ و ٦٨ .

(٢) هو آلة أشبه بالبلطة .

(٣) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 118-119 ، والمعجب ص ٦٨ و ٦٩ . ويقول لنا المراكشى إن مصرع ابن عمار وقع في سنة ٤٧٩ هـ . وراجع ترجمة ابن عمار وأحداث حياته كلها مفصلة في الحلة السيرة ج ٢ ص ١٣١ - ١٦٥ . ونقلها دوزى بنصها في : Hist. Abbad. (ص ٨٨ - ١٢٣) .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر المبرز ، رفيق صباه ،
ويده اليمنى فى كثير من المشاريع الخطيرة ، فى بادرة من الحقد المضطرم ، والقسوة
التي لا تخبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ؛ ويقال إن المعتمد
ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته . ويحاول الأمير
عبد الله بن بُلُقَيْن أمير غرناطة وهو معاصر للحادث وعليم بظروفه ، أن يوضح لنا
سبب حقد المعتمد على وزيره فى الفقرة الآتية : « وكانت العداوة الواقعة بينه
(أى ابن عمار) وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه ، فإنه بفسوقه كان يتكبر على
أولاده ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنعة مع من يجب عليه لإكرامه من قرابة
سلطانه ، والمعتمد فى هذا كله يصبر له ، ولأنه قد استمال النصارى ، واندخل
معهم بحيلته ، ففى ما دهم أمر من قبلهم ، وجهه إليهم ، فيتجلى من أمرهم ما يضيق
الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقد أن ذلك
لا يتهبأ لإبسيه ، ويرد الحس كله إلى نفسه ؛ وكانت هذه المعانى مما أحق عليه
المعتمد ، حتى عقب عليه بما كان جديراً به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم
يكون له منه بد ، ولا رآه لغيره أهلاً » (١) .

ويعلق ابن الخطيب ، على ذلك وقد كان أيضاً من الوزراء الذين عرفوا نزعات
الملوك ونقمته بقلوبه : « وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد فى أزمة
حب التشقى ، وطلب الإنصاف ، فلا تتوقف فى مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس
غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات ، إلا القليل
النادر ، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة فى أصل جبلتها ، فهى ساكنة القورة » (٢) .
وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس فى عهد الطوائف ، فكان وزيراً
نائباً ، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً ، ومفاوضاً
لا نظير له ، يعقد الصلوات البعيدة المنال ، ويدلل المشكلات الصعبة ، وقد ذاع
صيته فى سائر بلاد الأندلس ، وكذلك فى ممالك اسبانيا النصرانية ، حتى كان
ألفونسو السادس ملك قشتالة ، إذا ذكر عنده ابن عمار ، قال « هو رجل
الجزيرة » (٣) . بيد أنه كان فى نفس الوقت ، سياسياً مغامراً ، قليل الولاء

(١) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله المنشورة بعناية الأستاذ ليقى بروفنسال

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٢ .

(القاهرة ١٩٥٥) ص ٨١ .

(٣) المصجب ص ٦٣ .

والوفاء ، مكيا فيلياً ، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل ، دون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ، ألمع ما فى خلاله ، وقد كان ابن عمار بلاريب من أعظم شعراء الأندلس فى عصره ، وكان هذا العصر الذى سطعت فيه قصور الطوائف عصراً ، اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء ، جبهة لم تجتمع فى أى عصر آخر ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء بنو عباد ، وفى مقدمتهم المعتمد ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفى ، وأبو بكر بن اللبابة ، والمعتمد ابن صمادح وولده رفيع الدولة ، وبنو القبطرنة ، وابن عبدون . وكان ابن عمار فى طليعة هذه الجبهة الشاعرة ، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره ، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته . وقد جمع شعر ابن عمار ، ورتبه فى ديوان خاص ، أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي^(١) ، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة كبيرة من أخبار ابن عمار ، كما وضع تأليفاً خاصاً فى تاريخه^(٢) وكذلك وضع أبو بكر ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى تاريخ ابن عمار^(٣) . وهذه العناية بسيرة ابن عمار وتراثه الشعرى من معاصريه ، ومن إليهم ، تنبى عن أهمية هذه الشخصية البارزة فى تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

إلى ذلك الحين استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف ، تمتد فى قلب النصف الجنوبى من شبه الجزيرة ، من غرب ولاية تدمير شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطى ، ومن ضفاف وادى يانة جنوباً حتى أرض الفرنتيرة . وكان المعتمد قد استطاع فى الواقع فى أواخر أيام الملك العاجز الضعيف القادر ابن دى النون ، أن يستولى على معظم أراضي مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية ، من المعدن شرقاً حتى مدينة قونقة . ولعل المعتمد كان يفكر فى غزوات وفتوح أخرى ، ينتزع فيها ما استطاع من أراضي جيرانه ، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة من غمار أحلامه وأطماعه . أجل ، لم يكن خافياً على المعتمد ، وعلى أمراء

(١) دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 89

(٢) دوزى Hist. Abbadidarum, V. II. p. 105

(٣) الحلة السيرة ج ٢ ص ١٧٣ .

الطوائف جميعاً، أن مملكة طليطلة ، كانت بظروفها وارتقاء ملكها الضعيف في أحضان النصارى، صائرة حتماً إلى الفناء، وأن عاصمتها الثالثة - طليطلة - سوف تسقط حتماً في يد ملك قشتاله، وكان ابن عباد يشهد تطور هذه المأساة جامداً، بما ينسب إليه من عهود قطعها في ذلك لملك قشتاله. وربما كان هذا التصرف من المعتمد نحو قضية طليطلة من بين أخطائه السياسية العديدة ، أخطرها جريرة ، وأبلغها دلالة على استهتاره وتهاونه نحو أمته ودينه. ولكن طليطلة ما كادت تسقط في أيدي القشتاليين، حتى أدرك المعتمد فداحة الخطأ الذي ارتكبه في سياسته ، وشعر أن هذه النكبة، ليست إلا نذيراً قوياً له، ولسائر ملوك الطوائف .

وقد سبق أن ذكرنا فيما تقدم أن المعتمد بن عباد تعهد بأداء الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣ م)، وأنه كان يؤدي إليه هذه الجزية بانتظام حتى وفاته في سنة ١٠٦٥ م، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشو ملك جليقية . ولما استطاع ألفونسو التغلب على أخويه، وأضحى ملكاً لقشتالة ، كان المعتمد ابن عباد يؤدي إليه الجزية التي كان يدفعها أبوه. وكان ألفونسو يرسل في كل عام رسلاً لقبضها من المعتمد . ومما هو جدير بالذكر أن رسول ألفونسو إلى المعتمد بقبض الجزية في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩ م) لم يكن سوى الفارس القشتالي الشهير رديجو بيبار الملقب بالسيد الكميادور، أو السيد الكنيطور كما تسميه الرواية العربية. ولما وفد السيد عندئذ إلى إشبيلية ، كانت قوات ملك غرناطة البربرية تغير على أراضي إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى ، فطلب السيد من مواطنيه الكف عن هذا العدوان تحقيقاً لمقتضيات الصداقة والرعاية ، التي يكنها الملك ألفونسو لصديقه ملك إشبيلية، ولما لم يصنع المغيرون إليه خرج إلى قتالهم في بعض القوات القليلة التي كانت معه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة ، فسر المعتمد من تصرفه ، وأدى إليه عدا الجزية ، طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .

وهكذا فإن المعتمد، على الرغم من ضخامة ملكه، واتساع موارده، لم يستطع أن ينجو من ذلك النير المرهق، الذي استطاع ألفونسو السادس أن يفرضه على سائر ملوك الطوائف، ونعني تأدية الجزية، بل يبدو أن المعتمد رأى فوق ذلك، أنه لن

يستطيع أن يمضى فى حكم مملكته آمناً إلا بتوثيق أو اصر المودة مع ألفونسو ومخالفته. وتقدم إلينا الرواية القشتالية موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تقدم إلينا تاريخه ، وتقول لنا إن الوزير ابن عمار ذهب إلى ليون وتولى المفاوضة فى عقده. وخلاصة ماتم الاتفاق عليه ، هو أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، وأن يودى إليه المعتمد جزية سنوية كبيرة ، وأن يقوم بغزو أراضى مملكة طليطلة الجنوبية ، وأن يسلم منها إلى ملك قشتالة الأراضى الواقعة شمال جبال سيرا مورينا (جبل الشارات) . وتزيد الروايات القشتالية على ذلك بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة (أو فى مناسبة لاحقة) إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية للملك قشتالة ، وهى التى تعرفها الروايات القشتالية باسم «زائده» ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها المناسب (١) .

بيد أن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو المعتمد ، فى سنة ١٠٨٢م (١٠٨٢م) وجه ألفونسو السادس سفارته المعتادة إلى المعتمد بطلب الجزية ، وعلى رأسها يهودى يدعى ابن شاليب ، وعسكر رسل ملك قشتالة فى ظاهر المدينة ، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياء المدينة ، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون . فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك ، رفض تسلمها بغلظة ، بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية ، حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب . فلما وقف المعتمد على ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ، ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى ، فصلب ، وألقى الفرسان النصارى إلى السجن . ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه ، اضطر أن يرد حصن المدور القريب من قرطبة إلى المعتمد ، ثمناً لإطلاق سراحهم ، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد ، أروع انتقام ، وأن يخرب أراضى مملكة إشبيلية كلها حتى الحجاز ، ثم بادر تنفيذاً لوعيده ، فحشد جيشاً ضخماً من الحلالقة ، والقشتاليين ، والبشكنش ، وبعث سرايته فعاثت فى أحواز باجة ولبله ، وسار هو إلى أراضى إشبيلية ، وهو يحرق القرى ، وينتسف الزروع ، ويسبي كل من وقع فى يده من المسلمين ، ثم حاصر إشبيلية نفسها مدى ثلاثة أيام ، ثم عاث فى أراضى شنونة ، وانحدر جنوباً ، وهو يخرب كل

ما يقع في طريقة، حتى وصل إلى مدينة طريف، فوقف على شاطئ بحر الزقاق، والموج يضرب قوائم فرسه، والمعتمد طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم الدفاع^(١) وكانت خطة ألفونسو السادس في إضعاف ملوك الطوائف، تقوم أولاً على استصفاء أموالهم باقتضاء الجزية، وقد انتهى إلى أن فرض الجزية عليهم جميعاً، ثم على تخريب أراضيهم، وانتساف زروعهم وأقواتهم ومحاصيلهم، بالغارات المخربة الناهبة، وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأرضيهم كلما سنحت الفرص، وقد نجحت خطته في ذلك كل النجاح، وبدا ضعف ملوك الطوائف إزاء قوته وعدوانه المنظم، واضحاً ملموساً. وكان لاعتداده بقوته وسلطانه، وبقيته من تفرق الطوائف وتحاذلهم، يخاطبهم بلغة السيد، ويسمى في خطاباته إليهم بالإمبراطور ملك اللتين، ويجاهر باحتقارهم، والاستهانة بهم. ومما يروى في ذلك، أنه قال لسفير المعتمد إليه، وهو يهودى يدعى بابن مشعل «كيف أترك قوماً مجانين. تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، المعتضد، والمعتمد، والمعتمض، والمتوكل، والمستعين، والمقتدر، والأمين، والمأمون، وكل واحد منهم لا يسئل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سداً»^(٢).

وهنا أدرك المعتمد، فداحة الأخطاء التي تردى فيها بمصانعة ألفونسو ومخالفته واستعداداته على زملائه أمراء الطوائف، ولاحت له طوابع المصير المروع الذي سوف ينحدر إليه، إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة، والظاهر أنه فكر عندئذ ولأول مرة، أن يستنصر بإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، في عدوة المغرب، فكتب إلى عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئة بما آلت إليه أحوال الأندلس من الخطورة، وما رزئت به من فقد قواعدها وثغورها، ويلتمس إليه الإيجاد والعون^(٣). وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد إلى خطة عملية التف حولها سائر ملوك الطوائف وشعب الأندلس كله حسباً نوضح في موضعه.

(١) الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦. ودوزى Hist. Abbadidarum V. II. p. 174, 187. وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦.

(٢) دوزى عن كتاب «الاكتفاء» في 20 p. Hist. Abbadidarum : V II. وراجع

R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 259, 318 & 319

(٣) روض القرطاس (طبعة أبساله ١٨٤٣) ص ٩٢.

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة معقد نجاحه، وذروة ظفـره ،
فما كاد يدخل عاصمة القوط القديمة، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد
دنت ، وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، ويلتهم مدينة بعد أخرى، ومن ثم فقد
بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية ، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية ، أهم
دول الطوائف ، وأقواها يومئذ. فوجه إلى المعتمد بن عباد ، رسالة ملوؤها
الوعيد والندير ، يطالبه بتسليم أعماله ، ويحذره من مثل طليطلة ومحنها ، وهي
فيما يبدو من إنشاء بعض النصاري المعاهدين أو اليهود الذين يخدمون في بلاط قشتالة ،
وقد نقل إلينا صاحب الحلل الموشية، نص هذه الرسالة، كما نقل إلينا رد المعتمد
عليها، واليك نص هاتين الرسالتين، اللتين تمان عن روح العصر ، وأساليبه :

قال ألفونسو في رسالته: « من الإنبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل ،
أذفنش بن شانجه ، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد ،
سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى ، ونبتت في ربه المنى ، باغترار الرمح
بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها ، وما حاق
بأهلها حين حصارها. فأسلمتم إخوانكم ، وعظمت بالدعة زمانكم ، والحذر من
أيقظ باله ، قبل الوقوع في الحباله ، ولولا عهد سلف ، بيننا نحفظ ذمامه ،
ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول
الغزو ووارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف القوات
فيما يرومه ، وخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط
أبرهانس ، وعنده من التسديد الذى تلقى بأمثالك ، والعقل الذى تدبر بلادك به
ورجالك ، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل ، وأنت
عند ما تأتبه من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى
بيمينك وبين يديك » .

وأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية : « من الملك
المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبى عمر وابن عباد، إلى
الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه، الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين،
قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فان أول ما يبدأ من دعواه أنه
ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم

الاستعداد، ومجيي المملكة ، لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت ستة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخته الكيس، وعاطينك كؤوس دعة، قلت في أثنائها ليس ، ولم تستع أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كفاة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم تلتقى الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام في القفار، يريدون رحي النون بحركات العزائم ، ويشفون من خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق، وشفراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها ، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين ، يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره، وتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحر ، لا يقاتلونكم جميعاً، إلا في قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، ظنوا المعقل تعقل ، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسألة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أئيناه في أنفسنا، وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعدائهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا ، توبيخك وتقريعك ، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطئ في مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه» (١) .

وعلى أثر هذا النذير ، جد المعتمد في حشد رجاله، وتقوية جيشه، وإصلاح حصونه، واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبات الدفاعية. على أنه كان يوقن، كما

(١) أورد نص هاتين الرسالتين صاحب «الخلل الموشية» . وقد اعتمدنا في نقلهما على النص الذي نقله دوزي عن مخطوطات باريس ، ولیدن، وجاينجوس (مدريد) ، وهو فيما يبدو أصح وأدق من النص الذي ورد في طبعة تونس . راجع : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 185, 186 & 187 . وفي طبعة تونس (ص ٢٣ - ٢٥) .

يوقن زملاؤه ملوك الطوائف، أن ملك قشتالة يعترم العمل على إبادتهم جميعاً ، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعاً . في هذه الآونة العصيبة، قرر المعتمد أن ينفذ فكرته في الاستنصار بإخوانه فيما وراء البحر، في عدوة المغرب ، وهم يومئذ المرابطون ، وعاهلهم يوسف ابن تاشفين. وكانت هذه الفكرة قد خطرت لأكثر من أمير من أمراء الطوائف ، وخطرت لكثيرين من زعماء الأندلس وعلمائها . ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلقش إن أخاه تيمماً أمير مالقة ، كان أول من فكر في الاستنصار بالمرابطين لينتقم منه^(١)، ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر ، وكانت قد شاعت في الأندلس على أثر سقوط طليطلة، وما أشاعته تلك النكبة في الناس من ذعر وبأس، وذاعت بعد الأمراء ، بين سائر الزعماء والفقهاء وطبقات الكافة. وعقد عندئذ في قرطبة اجتماع كبير من الزعماء والفقهاء، واجتمع رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين ، وقدم ابن عباد على أثر ذلك إلى المدينة، وأقر ما ارتأته «الجماعة» . وانضم إلى المعتمد في ذلك عدة من زملائه رؤساء الطوائف ، ولاسيما أميرى بطليوس وغرناطة . واتفق الرأي على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ، ومعهم أبو بكر بن القصيرة الكاتب (وفي رواية أخرى الوزير أبو بكر بن زيدون) . وهنا تختلف الرواية في التفاصيل فتقول إحداها إن سفارة الأندلس عبرت البحر، ولقيت أمير المسلمين بسبته، وكان قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها ، من يد واليا يحيى بن سكوت البرغواطي، وشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يد النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم، وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، في دفع هذا الخطر عن الأندلس المسلمة. وفي رواية أخرى أن المعتمد بن عباد نفسه، قد عبر البحر في جماعة من الزعماء، وسار إلى سبته أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين، وأنه هو الذي استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس^(٢) .

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

(٢) راجع في ذلك ما نقله دوزي عن الزويري : Hist. Abbadidarum: V. II. p. 143

وما ورد في الإستقصاء للسلاوي ج ١ ص ١١١، ومذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك أيضاً (الحلة السيرة ج ٢ ص ١٨٦) .

ومن جهة أخرى، فإنه يقال لنا إن المعتمد كان يعارضه في هذا الاتجاه ولده الرشيد وجماعة من زعماء إشبيلية، وأنه حين خاطب الزعماء في أمر استدعاء المرابطين أشاروا عليه بأن الأفضل، أن يسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه الصلح والمهادنة، بأى وسيلة، وكيفما كان الأمر. ولما خلا بولده الرشيد، أفضى إليه بمخاوفه من سطوة ملك قشتالة، وأنه بعد أن استولى على طليطلة وعادت دار كفر، قد رفع رأسه، وأخذ يتجه إلى أخذ إشبيلية، وأنهم في هذه الجزيرة لا ناصر لهم، وليس في ملوك الطوائف نفع ولا عون يرتجى، وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة، فاعترض الرشيد على رأيه وقال له: «ياأبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا»، فقال المعتمد لولده: «أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة على في الإسلام؛ مثل ما قامت على غيرى. حرز الجمال عندى والله خير من حرز الخنازير». وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأى فيما يجب عمله^(١).

وأما عن أمراء الأندلس، فقد كان يتفق في الرأى مع المعتمد، على استدعاء المرابطين حسبما رأينا، عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقد أوفد رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين، وكذلك عمر المتوكل أمير بطليوس، فقد كان في مقدمة المؤيدين، لوقوع بلاده في منطقة الخطر، ولاشتداد ملك قشتالة في إرهاقه. وأما ابن صمادح أمير ألمرية، فلم يكن من المتحمسين لهذا الاستدعاء^(٢)، وكانت ثمة آراء معارضة أخرى، شعارها التوجس من مقدم المرابطين وأطماعهم.

وقد أورد لنا صاحب الحلل الموشية نصوص رسائل، قيل أن المعتمد بن عباد بعثها إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعضها من إنشائه، وبعضها من إنشاء وزرائه، ومنها رسالة مؤرخة في جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ، أعنى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل، وفيها يصف له حال الأندلس، وما أصاب أهلها من الخلاف والتمزق، وما دهاها من عدوان النصارى وإرهابهم. بيد أنه قد

(١) الحلل الموشية ص ٢٧ و ٢٨ ونقلت في دوزى: Hist. Abbadidarum: V. II. p. 188-189

(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ و ١٠٤.

وردت من بينها رسالة، لشك كل الشك في أنها صادرة من المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، لأنها قد صدرت بنصها ، بعد ذلك بنحو قرنين من محمد الفقيه (ابن الأحمر) ملك غرناطة، إلى السلطان أبي يوسف المريني ملك المغرب ، يستنصره ويستنجد به على النصارى^(١) .

وقد تتبعنا هنا فكرة استنصار الأندلس بالمريطين بالأخص من ناحية ارتباطها بالمعتمد بن عباد وسياسته. وسوف نعود إلى تتبع مراحلها من الناحية الأخرى ، ناحية ارتباطها بتاريخ المرابطين .

وعلى أى حال فقد استجاب زعيم المرابطين، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء، لدعوة أمراء الأندلس ، واعتبر الصريح ، دعوة إلى المشاركة في الجهاد، والذود عن الدين المشترك، بيد أنه عملاً بنصح وزيره عبد الرحمن بن أسبط ، وهو أندلسي من أهل ألمرية ، خيربشئون الجزيرة ، اشترط لإجابة الدعوة ، وعبوره إلى الأندلس ، أن يسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء ، ليكون قاعدة لعبوره في الذهاب والإياب . فتزل المعتمد عند هذه الرغبة بالرغم من معارضة ولده الرشيد ، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضى ، فأمره باخلاصها والانتقال عنها ، لكي تحتلها جنود أمير المسلمين^(٢) .

وفي تلك الأثناء كان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين يحشد جنده وعدده ، ويرسلها تباعاً إلى الشمال. فلما تكاملت الحشود ، بعث يوسف بقوة من الفرسان تحت إمرة قائده داود بن عائشة، فعبرت البحر ، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد. وفي شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩هـ (أغسطس ١٠٨٦م) بدأت الجيوش المرابطية وعلى رأسها زعيمها البطل الشيخ، تعبر البحر من سبتة تباعاً إلى ثغر الجزيرة، وما كادت السفن تتوسط ماء المضيق (مضيق جبل طارق) تتقدمها سفينة يوسف ، حتى نهض الزعيم المرابطي ، وبسط يديه نحو السماء

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٠ و ٣١، ودوزى Hist. Abbad. V. II. p. 190-191 . وقد وردت الرسالة بنفسها منسوبة إلى محمد بن الأحمر في «الذخيرة السنية» ص ١٥٩ - ١٦١ . وراجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٩٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ . وكذلك في دوزى Hist. Abb. V. II. p. 192-193 ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٥٩ .

قائلا : «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للمسلمين ،
فسهل علي جواز هذا البحر ، وأن كان غير ذلك فصعبه علي حتى لا أجوزه» .
ويروى أن البحر قد هدأ على أثر هذا الدعاء ، وسارت السفن في ربح طيبة ،
حتى رست على الشاطئ ، وما كاد يوسف يعبر إلى أرض الأندلس ، حتى صلى
لله شكراً (١) ، ثم نزل بالجزيرة الخضراء ، وشرع في تحصينها وإصلاح خططها .
هذا وسوف نتبع ما تلا ذلك من الخواثر فيما سيأتي بعد ، في حديثنا عن
موقعة الزلاقة .

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما رواه يوسف نفسه في رسالته التي بعث بها عقب
انتصاره في موقعة الزلاقة ، الى المعز بن باديس أمير تونس والتي ، نشرناها في آخر الكتاب .

الفصل الرابع

بنو الأفطس ومملكة بطليوس

ملكة بطليوس. الفتي سابور الفارسي وتغلبه على تلك المنطقة. وزيره عبد الله بن مسلمة يخلفه في الحكم. بنو الأفطس وأصلهم. ابن الأفطس وابن عباد. الحرب بينهما حول باجة وبعدها. انشغال ابن عباد بقتال البربر. الثورة في أشبونة وإخادها. المظفر بن الأفطس. حروبه مع المعتضد بن عباد. موقعة يابرة وهزيمة المظفر. توسط ابن جهور وعقد الصلح بين الفريقين. غزو ملك قشتالة لشمال مملكة بطليوس. استيلائه على بازو ومليقة. غزوه لمدينة شنترين. إذعان المظفر لدفع الجزية. مسير فرناندو لفتح قلمرية. اقتحامها وأسر حاميةها. وفاة فرناندو ملك قشتالة. وفاة المظفر. قدرته الشعرية والأدبية. المنصور بن الأفطس. وفاته وقيام أخيه حمر المتوكل مكانه. المتوكل وشهرته في عالم الشعر والأدب. وزراؤه الشعراء. سيادة الأمن والرخاء في عهده. وزيره ابن الحضرمي. طغيانه وعزله. حوادث مملكة طليطلة. اضطلاع المتوكل بحكمها. محاربة المتوكل لإنجاد طليطلة. سقوط طليطلة. تجبر ألفونسو ووعيده. رد المتوكل عليه. اتفاق ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين

كان يجاور مملكة لإشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال الشارات الكبرى (سيرا مورينا). وكانت مملكة بطليوس، تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادي يانة، غرباً حتى المحيط الأطلسي، وتشمل أراضي البرتغال^(١) كلها تقريباً حتى مدينة باجة في الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التي تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترية، وقلمرية، وبازو، وغيرها.

كان بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة الشاسعة، حكموها نيفاً وسبعين عاماً، وسطع بلاطهم أيام الطوائف. وكان استيلائهم على حكمها من المصادفات المحضة. ذلك أن هذه المنطقة، وهي النصف الشمالي، من ولاية الغرب الأندلسية، كان يحكمها عند اضطرام الفتنة، واليا الفتي سابور الفارسي، أحد صبيان فاتح الخادم مولى الحكم المستنصر، وقد استبد بحكمها

(١) ويسمى ابن الخطيب أرض «برتقال» (أعمال الأعلام ص ١٨٣).

منذ انهيار الخلافة، واستمر قائماً بأمرها ثلاث عشرة عاماً . وكان فارساً شجاعاً ، ولكن عاطلاً عن المعرفة والخبرة بشئون الحكم، فكان يعاونه في تدبير الشئون وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان من قبل والياً للماردة، وكان هو الحاكم الحقيقي . وتوفي سابور في سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وترك ولدين حدثين هما عبد الملك وعبد العزيز، وأوصى أن يستمر وزيره في الحكم، حتى يبلغا أشدهما . فاستولى عبد الله على الأمور وضبط المملكة، واحتوى على تراث سابور لنفسه، وتلقب بالمنصور ، وأضحى سيد المملكة الحقيقي .

وينتمي أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، وأصله من بلدة فحص البلوط من ولاية قرطبة ، من أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب في النباهة والمعرفة . بيد أن بني الأفطس كانوا بالرغم من ذلك يرجعون نسبهم إلى تيجب، وقد مدحتهم الشعراء بهذا الصفة ، وهذا ما يثير تعجب ابن حيان ، وما يصفه « بالغريب النادر » (١) . وكان عبد الله بن الأفطس مع ذلك رجلاً كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة، فلما استولى على حكم هذه المنطقة الشاسعة بعد وفاة سابور، أبدى في ضبطها وإدارتها مقدرة وبراعة. بيد أنه كان يرقب حركات جاره من الجنوب القاضي أبي القاسم بن عباد ونمو قوته، في حذر وتوجس. ذلك أنه كان بالرغم من مناعة حاضرتة بطليوس، ومناعة أسوارها وقصبتها الضخمة ، فإن اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدا الأخرى في الجنوب والشرق ، كان يجعل من الصعب عليه الدفاع عنها إزاء أطماع جاره القوى . وسرعان ما بدأت تتحقق مخاوفه. ذلك أن القاضي ابن عباد انتهز قيام ثورة محلية في مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة ، وسير إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل ، ومعه قوة من جند حليفه البرزالي صاحب قرمونة. وكان ابن الأفطس قد استطاع خلال تلك الفترة أن يحتل باجة بجنده، إذ هي أقرب إليه، وأكثر اتصالاً بمنطقته من بمنطقة بني عباد ، فهاجمت قوات إشبيلية المشتركة مدينة باجة ، وحاصرت قوات ابن الأفطس ، ووقع بينها قتال عنيف انتهى بتمزيق قوات ابن الأفطس وأسر معظمها ، وكان محمد بن الأفطس ولد المنصور بين الأسرى، فاعتقل حيناً لدى

(١) ابن الأبار في الحلة السراء (المخطوط) لوحة ٨٥ أ . وفي المطبوع ج ٢ ص ٩٧ .

البرزالي في قرمونة حتى أطلق سراحه (سنة ٤٢١ هـ) ، وعاد إلى بطليوس وقد صقلته المحنة ، وشحذت عزمه ، لمقاومة بني عباد ومحاربتهم .

ثم عادت الحرب فاضطربت بعد ذلك ببضعة أعوام بين ابن عباد وابن الأفطس ، ذلك أن حملة جديدة بقيادة إسماعيل بن عباد ، توغلت شمالاً في أراضي ابن الأفطس وعاثت فيها ، وعندما سار في طريق العودة ، خرج عليه ابن الأفطس في قوة كثيفة ، وطارده بشدة ، ففر إسماعيل في قلة من فلوله ، وأسر معظم عسكره ، وقتل ابن الأفطس بهم كما قتل النصارى بكثير منهم ، وكانت محنة شنيعة لبني عباد (٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م) .

وشغل أبو القاسم بن عباد في الأعوام التالية ، عن محاربة الأفطس بمحاربة البربر ، فاشتبك أولاً مع يحيى المعتلى ، وانتزع منه قرمونة (٤٢٧ هـ) ، ليردها إلى صاحبها حليفه محمد بن عبد الله البرزالي . بيد أنه عاد فسير قواته إلى قرمونة واستولى عليها . وعندئذ هرع البربر لنصرة البرزالي ، وفي مقدمتهم إدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية موقعة دموية ، هزم فيها الإشبيليون وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد (٤٣١ هـ) وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في أخبار الدولة العبادية .

وأما ابن الأفطس ، فقد شغل بقيام الثورة في أشبونة . أقصى ثغور مملكته . ذلك أن عبد الملك وعبد العزيز ابني سابور ، حينما توفي والدهما ، واستولى ابن الأفطس على تراثه ، غادرا بطليوس ولجأ إلى ثغر أشبونة ، ثم ثار عبد العزيز واستولى على حكم المدينة ، واستمر في حكمها بضعة أعوام . ولما توفي حل أخوه عبد الملك مكانه ، ولكنه كان سيئ الحكم والإدارة ، فاختل النظام ، وغلبت الفوضى ، وكتب أهل أشبونة سرّاً إلى ابن الأفطس ، أن يرسل إليهم والياً من عنده ، فسير إليهم ولده محمدًا في قوة كثيفة ، ودخل محمد أشبونة دون صعوبة ، ورأى عبد الملك بن سابور أن يذعن إلى التسليم ، على أن يؤمن في نفسه وأهله وماله ؛ ففتح ما طلب ، وسمح له بأن يسير إلى حيث شاء ، فقصده إلى مدينة قرطبة ، واستأذن الوزير ابن جهور في الالتجاء إليها ، فأذن له ودخلها بأهله وأمواله ، ونزل دار أبيه سابور ، وعاش هناك حتى توفي (١) .

وكان عبد الله بن الأفطس المنصور، خلال ذلك يمضى في تنظيم مملكته الشاسعة وفي تحصينها، وفي تقوية جيوشه وأهباته ، وذلك كله توقعاً لعدوان بني عباد، ولا سيما بعد أن خلف المعتضد بن عباد أباه القاضي أبا القاسم في الحكم، وظهرت إمارات توثبه ونياته العدوانية . ثم توفي المنصور في جمادى الأولى سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م) .

فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر . وكان عالماً وفارساً شجاعاً، وقد عركته خطوب الحرب والأسر الذي عاناه . فسار في الحكم سيرة أبيه من العمل على ضبط النظام ، والدفاع عن الثغور . وكان مثل أبيه يرى في بني عباد خصومه الأوائل، ويعمل على تقوية أهباته الدفاعية لانقضاء عدوانهم . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف دبر المعتضد بن عباد خطته للاستيلاء على إمارات الغرب الصغرى ، وبدأ في ذلك بمهاجمة مدينة لبلة، وكيف أن المظفر بن الأفطس هرع إلى نجدة صاحبها ابن يحيى ، وبعث بعض قواته من البربر لمهاجمة لإشبيلية، وكيف حاول الوزير ابن جهور عبثاً أن يحول بتدخله، ونصحه للفريقين، دون نشوب الحرب بينهما . وهكذا اضطرم القتال بين المعتضد وابن الأفطس، وعاث كل منهما في أراضي الآخر، وهزم ابن الأفطس أولاً، ولكنه استأنف الكرة ، واستطاع أن يوقع بالمعتضد هزيمة شديدة قتل فيها كثير من جنده (٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م) .

ثم تطورت الحوادث وساء التفاهم بين ابن يحيى وابن الأفطس، حيث أبى أن يرد إلى حليفه القديم ، ما ائتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب ، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل أرسل قواته من الفرسان لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد ، فلبى دعوته وأرسل قواته، فاشتبكت مع خيل ابن الأفطس فزقتهم وأفنتهم ، واحتزت من رؤوسهم ، نحو مائه وخمسين . وجهاز المعتضد بعد ذلك قوة كبيرة على رأسها ولده إسماعيل ووزيره ابن سلام ، وعبرت القوات العبادية نهر وادى يانة ، وتوغلت في أراضي ابن الأفطس شمالاً ، حتى مدينة يابرة، وحشد ابن الأفطس في الوقت نفسه سائر قواته ، واستعان بقوة بعضا إليه حليفه إسحق بن عبد الله البرزالي تحت قيادة ولده المعز ، والتقى الفريقان دون أهبة ولا نظام على مقربة من يابرة ، فهزم ابن الأفطس وفشا القتل في جنده ، وقتل المعز بن إسحق، وحز رأسه وأرسل إلى لإشبيلية ، وقتل عم لابن الأفطس

وأرسل رأسه كذلك ، ولحق ابن الأفطس في بقية فرسانه إلى يابرة ، تحت كنف صاحبها عبيد الله الخراز . وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر من ثلاثة آلاف ، وكان وقوعها في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) .

واستمرت الحرب بين الفريقين بعد ذلك عدة شهور أخرى ، استطاع المعتضد خلالها أن يوقع بقوات ابن الأفطس غير مرة وأن يعيث في أراضيه ، وأن يفتح منها عدة حصون . وتفاقمت الحال ، بما أصاب مملكة بطليوس من تخريب الزروع ، وهلاك الأقوات ونضوب الموارد ، ووقوع القحط ، واضطر المظفر بن الأفطس في النهاية ، أن يعتصم بقاعدته بطليوس ، بعد ما نكل سائر أصدقائه عن معونته . ولم ينقذه من عدوان المعتضد سوى تدخل الوزير أبي الوليد ابن جهور ، حيث لبث مالياً لسعيه في درء الفتنة ، وحقق الدماء ، حتى كفل سعيه في النهاية بالنجاح ، وعقد الصلح بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) (١) .

وكان المظفر في نفس الوقت عرضة لمضايقة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وعدوانه . وقد أغار المأمون مراراً على أراضى ابن الأفطس ، ووقعت بينهما معارك محلية كثيرة . ولم نثر على تاريخ هذه المعارك بطريقة قاطعة . ولكن الظاهر أنها وقعت بعد الصلح بين ابن عباد وابن الأفطس ، أعني بعد سنة ٤٤٣ هـ (٢) . على أن المظفر ما كاد يفيق من تلك الحروب المدمرة ، حتى بدأت الحوادث والأزمات الخطيرة في أطراف مملكته الغربية والشمالية . وكان خصومه في تلك المرة هم النصاري ، جيرانه من الشمال . وكان فرنانا والأول (فرديناند أو فرذلند) ولد سانشو الكبير ، بعد أن استتب له ملك قشتالة وليون ، يرقب تطور الحوادث لدى جيرانه المسلمين باهتمام ، ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة فيما بين نهر التاجه ونهر دويرة ، تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية ، وتكاد تكون قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة في الدفاع على نفسها . فاتجهت أنظار فرناندو ، إلى تلك المنطقة ، ولم يلبث أن اخترقها بقواته وذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) واستولى أولاً على مدينتي لاميجو (مليقة)

(١) راجع مانقل في الذخيرة عن ابن حيان ، المجلد الأول للقسم الأول ص ٣٦١ - ٣٦٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١١ - ٢١٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

وبازو الواقعتين في شمال البرتغال ، واللّتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور ؛ ولم يلق الغزاة دفاعاً يذكر، ولم يتحرك ابن الأفطس ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرناندو ، سكان المدينتين الإسلاميتين ، وأسكن بهما النصراني .

ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى بعث فرناندو بحملة قوية إلى تلك المنطقة تقدر بعشرة آلاف فارس ، وكان ابن الأفطس قد رفض أداء الجزية للملك قشتالة، فسارت قوة من الفرسان النصراني جنوباً، صوب مدينة شنترين الواقعة على نهر التاجه، وهي من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية، وكان ابن الأفطس على علم بتحريك النصراني، فهرعت قواته إلى شنترين قبل أن يصلوا إليها . ولما أشرف عليها النصراني بعث قائدهم « القومس » إلى ابن الأفطس للمفاوضة ، فاجتمع الاثنان في نهر التاجه ، وانتهت المفاوضة بينها على عقد الهدنة ، وعلى أن يدفع ابن الأفطس للملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ، هو فقد مدينة قللمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبي عامر منذ ثمانين عاماً في سنة ٥٣٧٥هـ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس يدعى رائدة، ولديه للدفاع عن المدينة نحو خمسة آلاف جندي. ويقال إن الذي أشار على فرناندو بغزو قللمرية هو مستشاره المستعرب سسندو الذي سبق ذكره، وكان في الأصل من أهل هذه الناحية. وسار فرناندو بنفسه إلى قللمرية في قوات كثيفة وضرب حولها الحصار، واستمر الحصار زهاء ستة أشهر، والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم. وفي النهاية تفاهم رائدة مع فرناندو سراً على أن يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله ، وأصبح أهل المدينة فلم يجدوا قائدهم ، فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان ، فرفض فرناندو واستمر في الحصار ، حتى فتك الضيق ونفاد الأقوات بالحامية وأهل المدينة ، وأخيراً اقتحم النصراني المدينة عنوة ، فسلمت الحامية ، واعتبر جنودها أسرى ، وسبي الكثير من أهلها نساء ورجالا. وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالهم ، ووقعت هذه الحادثة بالمسلمين في سنة ٥٤٥٦هـ (١٠٦٤ م) . وعين فرناندو مستشاره سسندو حاكماً لقللمرية وأعمالها ، ومنحه عندئذ لقب « الكونت » أو « الوزير » . ثم عمد فرناندو بعد ذلك إلى إخراج السكان المسلمين من سائر الأراضي الواقعة

بن نهرى دوبرة ومنيو (منديجو) وذلك تنفيذاً لخطته في إجلاء المسلمين عن الأراضي المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً .

ولما سقطت قلمرية في يد العدو ، قصد والها السابق رائدة إلى بطليوس ، وكان قد لجأ إلى المعسكر النصراني ، ثم غادره طمعاً في عفوسيده ، فاستقبله ابن الأفطس بحفاء وأنبه على شنيع مسلكه ، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانتة (١) . هذا وسوف نعود إلى تفصيل حوادث سقوط قلمرية في أخبار فرناندو ملك قشتالة .

وهذا ضغط النصراني على أراضى ابن الأفطس بوفاة فرناندو ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين في سنة ١٠٦٥ م . ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت بضعة أعوام ، شغل خلالها النصراني عن عدوانهم على أراضى المسلمين . ولما خلاص عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو ، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتي طليطلة ، وإشبيلية ، حسبما نفصل بعد .

وتوفي المظفر بن الأفطس في سنة ٥٤٦١ (١٠٦٨ م) ، فخلفه ولده يحيى الملقب بالمنصور .

ولابد لنا قبل أن نترك الكلام على المظفر بن الأفطس ، أن نذكر ذلك الجانب اللامع الوضاء في حياته ، ونعني الناحية الفكرية . فقد كان المظفر من أعلم أهل عصره ، وكان شغوفاً بالشعر والأدب ، وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه ، ويقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت » ، ولا يرضى بدون ذلك . وقد اشتهر في عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم « بالمظفرى » نسبة إلى اسمه ، وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبد المختارة ، والطرائف المستملحة ، والغرائب الملوكية ، والنوادر اللغوية . وأنفق المظفر في تصنيفه أعواماً ، وانتفع في تصنيفه بسائر ما تحتويه خزائنه الزاخرة بنفائس الكتب ، ولم يستعن في وضعه إلا بكتابه أبى عثمان سعيد بن خيره . وقيل إن « المظفرى » كان يحتوى على خمسين مجلداً ، وقيل بل على عشرة أجزاء ضخمة وقد لبث هذا المصنف الكبير عضوراً ، ومعروفاً متداولاً ، تذكره التواريخ

(١) راجع في سقوط قلمرية وما تقدمه من حوادث : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ،

وأعمال الأعلام ص ١٨٤ ، ودوزى في Hist. des Musulmans d' Espagne, V. III. p. 67-77

الأندلسية، بيد أنه قد غاض ودثر في النهاية، ولم تصل إلينا منه سوى شذو قليلة (١). وما كاد المنصور بن الأفطس يبدأ حكمه حتى ثار به أخوه عمر، وكان يرى نفسه أحق منه بالملك والحكم. وكان عند وفاة والده المظفر حاكماً لمدينة يابرة وما إليها، فنهض لمناوأة أخيه. واستمر النزاع بينهما بضعة أعوام حتى تفاقم. ولجأ عمر إلى معاونة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، واتجه المنصور إلى معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، واضطربت الفتنة، وكادت تدمر كل شيء، لولا أن توفي يحيى المنصور فجأة سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م)، فخدمت الفتنة ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع، وتلقب بالمتوكل على الله، وزندب ابنه العباس حاكماً ليابرة.

وكان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف وأبقاهم ذكراً، وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره، وبلاطه الزاهر، الذي كان جامعة أدبية أكثر منه قصرأ ملوكياً. وقد وصفه لنا معاصره الفتح بن خاقان في تلك العبارات الشعرية: «ملك جند الكتاب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت إلى لسن وفصاحة، ورحب جناب للوافد وساحة، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رفته سرى النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع، راقت لإشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه أنهاراً وخلجاً» (٢). وقال ابن الخطيب: «وكان المتوكل ملكاً على القدر، مشهور الفضل، مثلاً في الحلالة والسرو، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم».

ونقل إلينا ابن الخطيب تلك التحفة الأدبية من نظم المتوكل، رواها وزيره أبو طالب ابن غانم قال: كتب إلى المتوكل بهذين البيتين في ورقة كرنب من بعض البساتين:

انهض أبا طالب إلينا واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى ما لم تكن حاضراً لدينا (٣)

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧، وأعمال الأعلام ص ١٨٣، ١٨٤ والمعجب

لمجد الواحد المراكشي ص ٤١، ٤٢.

(٢) قلائد العقيان ص ٣٦.

(٣) أعمال الأعلام ص ١٨٥.

وحسبك أن تعلم أنه كان من بين وزراء المتوكل، الكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون «عظيم ملكهم، ونظيم سلكهم» حسبما يصفه صاحب القلائد، وصاحب مراثيتهم الرائعة التي نشر إليها فيما بعد، وهو من أبناء مدينة يابرة، وبنو القبطرنة وهم الشاعر المبدع أبو بكر بن عبد العزيز البطلبوسى، وأخوانه أبو محمد وأبو الحسن، وكلاهما أيضاً شاعر رائق النظم.

وفي عهد المتوكل على الله تمتعت مملكة بطليوس بفترة من السلام والأمن والرخاء، وسطع بلاطها في ظل أميرها الحكيم العالم. والواقع أن مملكة بطليوس كانت بالرغم مما نزل بها من الأحداث والخطوب، في عهد المظفر بن الأفطس، تتفوق من حيث انتظام الأحوال وسيادة الأمن والرخاء، على كثير من دول الطوائف الأخرى. وفي ذلك يقول المؤرخ «وكانت أيام بنى المظفر (يقصد بنى الأفطس) بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب، خلدت فيهم، ولم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم» (١).

وكان معاونه في الحكم الوزير ابن الحضرمي، قد أساء السيرة، وتجبر وطمع وتعسف في معاملة الناس فأقاله، وأبعده عن خدمته. فكتب إليه الوزير يستعطفه فراجعته المتوكل بخطاب جاء فيه: «ياسيدى وأكرم عددى، الشاكى ما جنته يده لا يدي، ومن أسأل الله التوفيق في ذاته إذ حرمه في ذاتي ... نعم فلاني رأيت الأمر قد ضاع، والإهمال قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقب إن شاء الله الخلف، وأقبلت استدفع من مواقع أنسى، وأشاهد ما ضيعته بنفسى، فلم أر إلا لججاً قد توسطتها، وغمرات قد تورطتها، فشمريت عن الساق للجنة، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذي أدخلني فيه رأيك، ووطئت الساحل الذي كان يبعدني عنه سعيك وقد أطمعت في العدو ولبست لأهل دهرى الاستكبار والعتو، واستهنت بجيرانك، وتوهمت أن المروءة في التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس على وعليك، فأنجذب مكروه ذلك إليك، ومع ذلك فليس لك عندى إلا حفظ الحاشية وإكرام الغاشية» (٢).

ووقعت أيام المتوكل في جارتها مملكة طليطلة أحداث كان لها صدى في مملكته.

(١) المراكشى في المعجب ص ٤٢.

(٢) قلائد المعيان ص ٤١.

ذلك أن يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة الملقب بالقادر بالله ، كان أميراً ضعيفاً سيئ الخلال ، وكانت تناهضه عصبية قوية من الأعيان . وفى سنة ٤٧٢هـ قامت ثورة فى طليطلة أضرمها أولئك الحصوم الناقمون ، وحاولوا الاعتداء عليه ، ففر من المدينة ناجياً بنفسه ، ولجأ إلى بعض حصونه الخارجية ، وخشى أعيان المدينة انهيار النظام ، وذبوع الفوضى ، فاتجهوا إلى المتوكل ، واستدعوه لضبط المدينة ، فأجابهم كارهاً ، وغادر بطليوس إلى طليطلة ، وأقام بها زهاء عشرة أشهر يدبر شئونها ، حتى تهيأت لأميرها المنفى سبل العودة ، فغادرها المتوكل ، وقد حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر (١) .

وكان ألفونسو السادس خلال ذلك يشدد الضغط على مملكة طليطلة ، ويرهقها بغاراته المتوالية ، وينسف زروعها وأقواتها ، تمهيداً لمشروعه الضخم فى الاستيلاء عليها . وكان القادر بن ذى النون يدافع العدو ما استطاع ، ويتطلع حوله للاستجداد بحيرانه المسلمين ، فلا يجد شميماً أو منجداً . ولم يتقدم لإغاثة سوى المتوكل بن الألفونس ، فقد سار بجنده لمداغة جند قشتاله . بيد أن ألفونسو السادس لم يشأ الدخول فى معارك عقيمة ، وآثر الانسحاب مؤقتاً ، حتى تحين الفرصة المنشودة .

بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أعوام ، حتى حلت النكبة بمملكة بنى ذى النون ، واستولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ، وذلك فى المحرم من سنة ٤٨٧هـ (١٠٨٥ م) حسبما نفصل فى موضعه . وشعر ملك قشتالة على أثر إنزال هذه الضربة الفادحة بالمسلمين ، أنه أضحى قادراً على تحدى دول الطوائف جميعاً ، والقضاء عليها ، واحدة بعد أخرى . وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدى له الجزية ، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ، ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد ، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجه ، وعبر النصرارى نهر التاجه لأول مرة . ومع ذلك أبى المتوكل أن يستجيب إلى الوعيد ، ورد على ملك قشتالة برسالة قوية حازمة ، تفيض شجاعة وإباء ونبلا يقول فيها :

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد

ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون ...

أما تعبيرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، ولوافقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، علمت أى مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه، وإذا المال تورعه. وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدي ابنته إليه مع الذخائر التى كانت تفد كل عام عليه، وأما نحن إن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلا السيوف تشهد بجدها رقاب قومك، وجلاد تبصره فى ليك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، فنقوى عليك ونستعين ... وما تر بصون بنا لإحدى الحسينين، نصر عليكم فياها من نعمة ومنة، أو شهادة فى سبيل الله، فياها من جنة، وفى الله العوض مما به هددت، وفرج يفتربما مددت، ويقطع بك فيما أعددت» (١).

ونذب المتوكل قاضيه العلامة والفقيه الأجل، أبا الوليد الباجي، ليطوف بحواضر الأندلس، ويتصل بالرؤساء، ويدعوهم إلى لم الشعث، وتوحيد الكلمة ومداغة العدو، فقام بالمهمة، واتصل بسائر الرؤساء، ولم يدخر وسعاً فى نصيحهم ووعظهم (٢).

ومع ذلك فإن المتوكل لم يجد من زملائه المسلمين من يستنصره، وقد روعهم جميعاً ماحل بطايلة، وكان ملك قشتالة قد استولى منذ سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) على مدينة قورية وقلاعها، وهى من أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها على نهر التاجه، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهداً لكى يحتاج أراضيها بسهولة. وكان المعتمد بن عباد قد تلقى منه مثل المطالب والنترالى تلقاها المتوكل، ورد عليه بمثل رد المتوكل أو أشد. وكان أن تطورت الحوادث بسرعة، واعتبر ملوك الطوائف بالخطب الداهم، وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذى شاء القدر أن يكون نقطة تحول فى حياة الأندلس وفى تاريخها، ونعنى استدعاء المرابطين.

(١) تراجع هذه الرسالة فى الحلل الموشية (تونس ١٣٢٩ هـ) ص ٢٠ - ٢٢.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٩٨.

وقد كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد ، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة ، في مقدمة المؤيدين لهذه الخطوة، وقد كتب إلى أمير المسلمين ، كما كتب المعتمد ، يلتصق عونه وغوثه. والظاهر أن المتوكل وجه صريحه لأمر المسلمين قبل سقوط طليطلة ، حسبما يبدو ذلك من رواية صاحب الحلل الموشية^(١)، وقد انتهت إلينا من قلم هذا الأمير العالم تلك الرسالة البليغة المؤثرة يصف فيها لأمر المسلمين بحنة الأندلس ، وما دهاها من التفرق والانحلال ، ويستنصره إلى الجهاد ، والإنجاد العاجل :

« لما كان نور الهدى، أيدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعي ، لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها «أهلكهم الله»^(٢)، عند إفراط تسلطها واعتدائها^(٣)، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزى بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة^(٤) ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفذ^(٥) الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطربت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا، يمتحنونهم بأنواع الحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله وياللمسلمين ، أيسطوا هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم ، ألا حامى لما استبيح من الحرم ، وأنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء. ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله، بالنازلة في مدينة قورية ، أعادها الله ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخللا ، ومن فيها من المسلمين بالخللا ، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابير يتساند ، حتى تخلصت

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ . (٢) الزيادة من البيان المغرب (الأوراق المخطوطة)

(٣) البيان المغرب «واعتزازها» (٤) البيان المغرب «نفيسة» . (٥) البيان المغرب

القضية ، وتضاعفت البلية ، وتخصّصت في يد العدو مدينة سُرّية ، وعابها قلعة تجاوزت حد القلاع ، في الحصانة والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة «وواسطة القلادة» تدرّكها من جميع نواحيها ، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافت ، وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشترك ، وطاغية مناني ، إن لم تبادروا بجماعتكم عاجلاً ، وتداركوها ركبانياً ورجالا ، وتنفروا نحوها خفائاً وثقالاً ، وما أحضركم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدي ، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصّلها ويشرحها ، ويشتمل على نكتة هويّيتها ويوضحها ، فإنه لما توجه نحوكم احتساباً ، وتكاف المشقة إليكم طالباً ثواباً ، عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة لسانه والسلام» (١) .

والظاهر أن المتوكل ، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين ، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد .

ونحن نقف في سرد أخبار المتوكل ومملكة بطليوس عند ذلك الحد ، إذ هي تندمج عندئذ في تيار الحوادث العامة ، الذي جرف الأندلس وملوك الطوائف جميعاً ، وهو ما سنغني بتفصيله في موضعه .

(١) البيان المغرب - في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها في مكتبة القرويين .

الفصل الخامس

مملكة بني ذى النون في طليطلة

مملكة طليطلة وأهمية موقعها.. بنو ذى النون.. أصلهم وظهورهم.. عبد الرحمن بن ذى النون وولده إسماعيل.. أحوال طليطلة عقب الفتنة.. استدعاء أهلها لإسماعيل.. ولايته لطليطلة، وتلقبه بالظافر.. كبير الجماعة أبو بكر الحديدي.. وفاة إسماعيل وقيام ولده المأمون.. الحرب بين المأمون وابن هود.. هزيمة المأمون وازدادده.. استعانت به فرناندو ملك قشتالة.. عيث النصاري في أراضي ابن هود.. التحالف بين المأمون وابن عباد.. استعانة ابن هود بملك قشتالة وعيظه في أراضي طليطلة.. تحالف المأمون مع غرسية ملك نافار.. عيث النصاري في أراضي طليطلة وسرقسطة.. سعى أهل طليطلة للصلح.. مهاجمة ابن هود لمدينة سام.. غزو القشتاليين لأراضي طليطلة.. غزو النافاريين لأراضي سرقسطة.. وفاة ابن هود وانتهاء الفتنة.. النزاع بين المأمون وبين ابن الأفطس.. إغارة ملك قشتالة على أراضي خليطلة.. تمهيد المأمون له بالجزية.. استيلاء المأمون على بلنسية.. مختلف الروايات في ذلك.. وفاة فرناندو ملك قشتالة والنزاع بين أولاده.. فرار ألفونسو.. التجاؤء إلى المأمون.. محاولة المأمون غزو قرطبة وفشل.. مؤامرة ابن عكاشة.. استيلاءه على قرطبة واستدعاؤه للمأمون.. قتل سراج الدولة ابن المعتمد.. دخول المأمون قرطبة ثم وفاته.. زحف ابن عباد على قرطبة واقتحامه إياها.. مصرع ابن عكاشة.. المأمون وخلائه.. ثراؤه وقصوره أنباذخة.. ما ينسب إليه من اليخل.. ابن حيان يهذى إليه كتابه.. يحيى القادر حفيد المأمون وخلفه.. الوزيران ابن الفرج وابن الحديدي.. بطش القادر بابن الحديدي.. القتل والمؤامرات ضد القادر.. ضغط ابن هود عليه.. يلتبس حاية ملك قشتالة ويعترف بطاعته.. الثورة في طليطلة وفرار القادر.. المتوكل بن الأفطس يتولى حكم طليطلة.. استعانة القادر بألفونسو واستردادده لعرشه.. مشروع ألفونسو لغزو طليطلة.. المعتمد بن عباد يعقد حلفاً مع ألفونسو.. خضوع ملوك الطوائف لملك قشتالة.. اختلاف أهل طليطلة.. الحزب الموالي للنصاري.. تخريب ألفونسو لأراضي طليطلة.. انصراف ملوك الطوائف عن غوثها.. أبو الوليد الباجي ودعايته.. عمر المتوكل يحاول إيجادها.. حصار ألفونسو لطليطلة.. القادر وموقفه المريب.. تفاقم الخطب.. محاولة أهل المدينة التفاهم مع ألفونسو.. إصرار ألفونسو على التسليم.. عروض التسليم وشروطه.. ألفونسو السادس يدخل طليطلة.. مغادرة القادر إياها.. سقوط طليطلة وآثاره المادية والأدبية.. طليطلة حاضرة قشتالة.. أثر النكبة في موقف الطوائف.. فجيمة الشعر الأندلسي..

لم تكن أهمية مملكة بني ذى النون.. في طليطلة وأعمالها، في ضخامة رقعتها، وإن كانت أيضاً من أكبر دول الطوائف رقعة، ولكن في موقعها الحربى (الاستراتيجى) على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى.. ونحن نعرف أن طليطلة وأعمالها، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تعرف بالشعر الأوسط

للتاخة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية ، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشالى الأوسط ، ضد عدوان النصارى .

ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بنى ذى النون، على أثر انهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس ، فى تلك المنطقة ، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة. وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس ، تمتد شرق مملكة بطليوس ، من قورية وترجائه نحو الشمال الشرقى ، حتى قلعة أيوب وشتنميرية الشرق ، جنوب غربى مملكة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجه متاخة لقشتالة القديمة ، وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة ، عند مدينتى المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة . ومن أعمالها مدينة سالم ووادى الحجارة وقونقة ووبذة وإقليم ومورة وطلبيرة وترجائه وغيرها .

كانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غما لبنى ذى النون ، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ، ولكن سيئة الطالع ، قصيرة الأمد . وقد كان بنو ذى النون من أصول البربر ، من قبائل هواراة ، ويقال إن أصل لقبهم هو زنون ، فطور بمضى الزمن إلى رسمه المعروف ، أعنى ذى النون ، وقد ظهروا وفقاً لأقوال الرواية ، منذ أيام الدولة الأموية ، حيث كان جددهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكماً لحصن إقليم ، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن. وظهر جددهم ذو النون هذا ، ونال عطف الأمير محمد عن طريق حادث عارض ، خلاصته أن الأمير محمداً ، عند اجبيازه فى بعض غزواته لأرض شنت برية (١) ، موطن ذى النون اعتل له خصي من أكابر خصيائه ، وهو فى طريق العودة من غزاته ، فتركه عند ذى النون حتى يبرأ من علته أو يموت ، فاعتنى به ذو النون عناية فائقة حتى برى* ، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة ، فسر الأمير محمد بمروءته ، وكافأه على صنيعه بأن أهدي له سجلاً بولايته على ناحيته ، واعتباره زعيم قومه ، وارتهن بعض أولاده كفالة بحسن طاعته ، ومن ذلك الحين يظهر اسم بنى ذى النون على مسرح الحوادث . ومنها أن موسى بن ذى النون ، اشترك أيام الفتنة فى الخلاف

(١) شنت برية وبالإسبانية Santaver ، هى بلدة حصية كانت تقع شمال غربى قونقة ، وجنوب شرق وادى الحجارة على مقربة من منابع نهر التاجه ، وقد كانت قاعدة للكونرة الأندلسية التى تسمى بهذا الاسم ، والتى تشغل منطقة قونقة وإقليم حتى شرق طليطلة .

وخرج عن الطاعة ، وذلك في سنة ٢٦٠ هـ ، وأخضعه الأمير محمد (١) . ومن ذلك أيضاً أن ابنه الفتح بن موسى ، خرج في مستهل عهد الناصر بقلعة رباح وأحوازها ، فبعث إليه الناصر بحملة طارده وانتهت بإخضاعه .

ويقول لنا ابن الخطيب إن بني ذى النون لم يكن لهم رئاسة ولا نباهة إلا في دولة المنصور بن أبي عامر ، ولكن ابن حيان يذكر لنا من جهة أخرى «أنه في شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ في عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل ابن عامر ذى النون على وبدة» (٢) وحصنه ، وأضيفت إليه أكثر حصون شنت برية وقرها (٣) . ويقع حصن وبدة هذا على مقربة من شمال حصن إقليش معقل بني ذى النون فيما بعد . وعلى أى حال ففي أيام المنصور، ظهر عبد الرحمن ابن ذى النون وولده إسماعيل ، وخدم في ظل المنصور ، والظاهر أن عبد الرحمن هذا هو ولد مطرف بن إسماعيل بن ذى النون السابق ذكره . فلما انقرضت الدولة العامرية، لحق بالفرج، واجتمع إليه بنو عمه ، ومنحه سليمان الظافر حكم إقليش . ولما مات الفتي واضح العامري حاكم قلعة قونقة ، استولى عليها إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون، وضبطها حتى يجيء بزعمه من يولى عليها . وأخذ إسماعيل يستولى على الأنحاء المجاورة شيئاً فشيئاً، حتى بسط حكمه على كورة شنت برية كلها . وأولاه سليمان الظافر عطفه ، فنحه رتبة الوزارة، واقبه بناصر الدولة . ونحن نعرف أن البربر كانت لهم في أيام سليمان الغلبة والكلمة العليا ، فلما اضطربت الفتنة وانهارت السلطة المركزية ، أعلن إسماعيل استقلاله بما في يده من الأراضي ، وجبى الأموال ، واتسعت أعماله . وبنوه ابن حيان ، يبعظه وإمساكه في النفقة، ثم يصفه فيما يلي : « ولم يرغب في صنعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل، ولا حظى أحد منه بطائل ، وكان

(١) نقل إلينا ابن حيان هذه المعلومات عن عيسى بن أحمد الرازي ، ووردت في النقطة المخطوطة من تاريخ ابن حيان المحفوظة بمكتبة جامع القرويين (لوحة ٢٧٢ ب) .

(٢) وهي بالأسبانية Huete

(٣) ورد ذلك في المقتبس لابن حيان - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد المنشورة بمناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ١٥٠ .

مع ذلك سعيد الحد ، تنقاد إليه دنياه ، وتصحبه سعادته ، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه ، وهو كان فرط الملوكة في إثبات الفرقه ، فاقضى به من بعده ، وأما في الخلافة نهجه ، فصار جرثومة النفاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والحن ، وهكذا كان مؤسس مملكة بني ذى النون (١) .

وكانت طليطلة حينما اضطربت الفتنة ، وانهار سلطان الحكومة المركزية ، قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضياً أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي . بيد أنه يبدو أنه لم يكن منفرداً بالرياسة ، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على نحو ما كانت الجماعة في بدايتها بقرطبة ، وكان من هؤلاء ابن مسرة ، وعبد الرحمن ابن متيوه . ثم وقع الخلاف بين الجماعة ، وعزل القاضي ابن يعيش ، وسار إلى قلعة أيوب وتوفي بها في سنة ٤١٨ هـ (٢) . ولما توفي عبد الرحمن بن متيوه ، خلفه في الحكم ولده عبد الملك ، وأساء السيرة ، واضطربت الأمور ، فرأى أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة ، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن ابن ذى النون في شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة ، فوجه إليهم ولده إسماعيل ، وكان ذلك في سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها ، وتلقب بالظافر وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجاله ، واعتمد في تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبي بكر بن الحديدي ، وكان عالماً وافر العقل والدهاء ، يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة ، فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته . ولم يطل أمد إسماعيل في الملك أكثر من بضعة أعوام ، إذ توفي في سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . وفي عهده ذاعت قصة ظهور هشام المؤيد ، وكان هشام المزعوم هذا بقلعة رباح من أعمال مملكته ، فأخرج منها وأخذ إلى إشبيلية ، حيث أظهره القاضي ابن عباد ، وأخذ له البيعة وأعلن خلافته ، حسبما ذكرنا ذلك في موضعه .

فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل ، وتلقب بالمأمون ، وسار على سنة أبيه في

(١) راجع في أصل بني ذى النون ونشأتهم : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٠ و

١١١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ .

(٢) ابن بشكوال في الصلة رقم ١٥٢٠ .

تقديم وزيره ابن الحديدى ، والاعتماد على رأيه فى مهام الشئون . وكان عمه إلى جانب ابن الحديدى ثلاثة وزراء آخرين ، أوصى أبوه إسماعيل بأن يشركهم فى رأيه ، ويعتمد على عونهم ، وهم الحاج بن محفور ، وابن لبون ، وابن سعيد ابن الفرج^(١). وفى عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة ، وترامت شرقاً حتى بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد ، وساد بها الأمن والرخاء .

يبد أن عهد المأمون الذى استطال ثلاثة وثلاثين عاماً ، كان فى الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات ، التى اضطربت بين المأمون ، وبين منافسيه القويين ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وابن عباد صاحب إشبيلية . ووقع النزاع بادئ بدء بين المأمون ، وبين ابن هود جاره من الناحية الشمالية الشرقية . وكانت سلسلة المدن والقلاع الحصينة التى تمتد بين الثغر الأعلى ، وبين مملكة طليطلة ، منذ قلعة أيوب حتى وادى الحجارة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين ، وكانت مدينة وادى الحجارة بالأخص مثار نزاع بينهما ، وبالرغم من أنها كانت من أعمال مملكة طليطلة ، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا يتزعون إلى الانضمام تحت ساطان سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، وكان سليمان يعمل على بث الاضطراب فيها ، على يد رسله وأعوانه ، فلما نصبت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة ولده وولى عهده أحمد فنزلتها ، ثم دخلتها بمعاونة بعض أهلها انضماليين معه (٥٤٣٦ هـ - ١٠٤٤ م) . وما كاد المأمون بن ذى النون يقف على هذا الاعتداء ، حتى هرع فى قواته إلى وادى الحجارة ، ونشبت بينه وبين أحمد بن هود معارك كانت الغلبة فيها لابن هود ، فارتد بقواته ، وابن هود يطارده حتى حصره فى مدينة طليطلة ، الواقعة على نهر التاجه غربى طليطلة ، وشدد ابن هود فى الضغط على المأمون ومضايقته ، ثم كتب إلى أبيه يخبره بما تبأ له ، فكتب إليه أبوه أن يرفع الحصار عن طليطلة ، وأن يترك المأمون وشأنه ، فصعد بالأمر ، وارتد بقواته عائداً إلى سرقسطة ، ونجا المأمون من مأزق شديد الحرج .

ولم يشأ المأمون أن يقف عند هذا الحد ، بل صمم على متابعة الحرب والانتقام من ابن هود ، ففاوض فرناندو الأول ملك قشتالة ، وطلب عونه ، وتعهده

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٣ .

بأن يقر بسيادته ، وأن يؤدي له الجزية^(١) ، فاستجاب فرناندو لدعوته ، وبعث سریات من جنده ، فعانت في أراضی ابن هود المتاخمة لقشتالة ، وأمعنت فيها تخريباً ، وكان ذلك في أوان الصيف والزروع على وشك الحصاد ، فقام الجند النصارى بحصدها ، ونقلها إلى بلادهم ، وجردت المنطقة من سائر الزروع والأقوات ، وقتل النصارى ، وسبوا ما استطاعوا ، ثم عادوا إلى بلادهم ، كل ذلك وابن هود ممتنع في حصونه مجتنب للاشتباك مع المعتدين . وانتهر المأمون هذه الفرصة ، فأغار بدوره على أراضی ابن هود المتاخمة له وعاث فيها :

ورأى المأمون في نفس الوقت أن يقوى أواصر الصداقة مع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، طمعاً في عونه ونصرته على ابن هود ، فوعده ابن عباد بما طلب ، وأسفرت المفاوضات بينها ، عن اعتراف المأمون بالدعوة الهاشمية ، التي احتضنها ابن عباد ، ورفضها في البداية لإسماعيل بن ذى النون ، وأخذت البيعة لهشام المؤيد في طليطلة ، ودعى له على منابرها^(٢) . بيد أن ابن عباد ما لبث أن شغل بحروبه مع ابن الأفطس ، ولم ينل المأمون من عونه شيئاً .

وأما ابن هود فإنه ما لبث أن انحدر إلى نفس الطريق الذي انحدر إليه المأمون وسعى بدوره إلى مخالفة النصارى ، واستعدائهم على خصمه ابن ذى النون . وبعث إلى فرناندو أموالاً وتحفاً طائلة ، على أن يغير على أراضی ابن ذى النون ، فاستجاب فرناندو إلى دعوته ، وبعث سرياته فاخترقت أراضی طليطلة شمالاً ، حتى وادى الحجارة ، وقلعة النهر (قلعة هنارس) ، وأمعنت فيها عيثاً وتخريباً ، فاستشاط المأمون غيظاً ، والتمس مخالفة غرسية ملك نافار أخى فرناندو ملك قشتالة ، وبعث إليه بالأموال والتحف ، فأغار بقواته على أراضی ابن هود المتاخمة له ، فيما بين تطيلة ووشقة وعاث فيها ، وافتتح منها قلعة قلهرة (٤٣٧ هـ - ١٠٤٥ م) ، وكانت مما افتتحه المنصور بن أبى عامر من أعمال نافار الجنوبية ، وقام فرناندو ملك قشتالة مرة أخرى بالإغارة على أحواز طليطلة وتخريبها . وهكذا استباح النصارى أراضی المملكتين الإسلاميتين ، بمساعى ابن هود وابن ذى النون الذميمة ، وانهارت فيها خطوط الدفاع ، وساءت أحوال المسلمين إلى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨ ، وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, f.53

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠ .

أبعد حد. واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود بعض كبرائهم ، سعيًا إلى طلب الصلح والمهادنة ، فقصدوا إليه في سرقة سطة فناشدوه السلم ، وحذروه من العواقب ، ومما تهيأ للنصارى من الظفر ، فتظاهر بالقبول ، وكذلك أبدى ابن ذى النون ميله إلى المهادنة والصلح ، وصرف حلفاءه النصارى إلى بلادهم .

على أن ابن هود لم يكف عن خطته ، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه النصارى . وهاجم مدينة سالم ، وهى نهاية أعمال طليطلة المتاخمة له ، وقتل معظم المدافعين عنها ، ثم استولى على سائر الحصون التى كان قد انتزعها منه المأمون ، وكان معه فى تلك الغزوة ، عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذى النون ، أخو المأمون الثانى عليه يدله على عوراته وثغراته . وهرع المأمون بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها ، وانتهر النصارى من حلفاء ابن هود هذه الفرصة ، فعاثوا فى أراضي طليطلة كرة أخرى ، واشتد الخراب والكرب بأهل طليطلة ، فبعثوا إلى فرناندو يسألونه الصلح والمهادنة ، فطالب منهم أموالاً كثيرة ، واشترط شروطاً فادحة ، -عجزوا عن قبولها ، وبعثوا يقولون له ، لو كانت لدينا هذه الأموال ، لأنفقناها على البربر ، واستدعيناهم للدفاع عنا ، فرد عليهم فرناندو بما يأتى ، وهى أقوال تمثل سياسة اسبانيا النصرانية نحو الأندلس أصدق تمثيل :

« أما استدعاؤكم البرابرة ، فأمر تكثرون به علينا ، وتهددونا به ، ولا تقدرُونَ عليه ، مع عداوتهم لكم ، ونحن قد صعدنا إليكم ما نبأى من أتاننا منكم ، فلنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديماً فى أول أمركم ، فقد سكتتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكتناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم ، أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١) .

وفى الوقت نفسه كانت قوات غرسية ملك نافار ، حليف ابن ذى النون ، تغير على أراضي ابن هود ، وتعيث فيها . وهكذا استمرت الفتنة والنضال بين « هذين الأميرين المشغولين على المسلمين » ثلاثة أعوام من سنة ٤٣٥ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ ، ولم تنقطع إلا بموت سليمان بن هود فى العام ذاته ، وكانت فتنة

وضيعة كبيرة ، ونموذجاً صارخاً لتلك الحروب والمنافسات الانتحارية المدمرة التي انحدر إليها ملوك الطوائف (١) .

وتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء لوفاة خصمه الألد ، وهدأت الأمور في الثغر الأعلى ، إذ قسمت مملكة ابن هود بين أولاده الخمسة كما سيجي ، بيد أن المأمون لم يلتزم السلم والهدوء طويلاً ، بل اتجه إلى محاصرة بني الأفطس جيرانه من الغرب ، ونشبت بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس سلسلة من المعارك المحلية ، لم تسفر عن أية نتائج ذات شأن . وقد أثمرنا فيما تقدم إلى أن هذه المعارك ، قد نشبت بين الفريقين على الأرجح بعد سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١ م) .

وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد عاد في تلك الآونة إلى الإغارة على أراضي مملكة طليطلة ، ولكن في تلك المرة لحسابه الخاص ، وكان هذا الملك القوي ، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة ، أو على الأقل إلى أن يرهقها بمطالبه في أداء الجزية ، ثم يتوصل باستصفاء أموالها إلى إضعافها . ففي سنة ١٠٦٢م (٤٥٤ هـ) خرج في جيش قوى من الفرسان والرماة ، وانقض على أراضي مملكة طليطلة الشمالية ، فخرّبها وعاث فيها عيثاً شديداً ، ولم يجد المأمون في النهاية بداً من أن يدعّن إلى طلب الصلح ، وأن يتعهد بأداء الجزية .

وكان من أهم أعمال المأمون بعد ذلك ، استيلاؤه على بلنسية وأعمالها . وكانت بلنسية يومئذ تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر ، وهو حفيد للمنصور وكان قد ولى حكمها على أثر وفاة أبيه عبد العزيز في آخر سنة ٤٥٢ هـ ، وكان صهرًا للمأمون بن ذى النون ، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول ، فأهانها وأساء عشرتها ، لما كان عليه من ذميم الصفات ، والخلاعة ، والانهاك في الشراب ، والانحطاط في مهاوى اللذات الوضيعة . فحقّد عليه المأمون وأضمر له الشر ، وكانت ثمة أسباب سياسية أخرى لغضب المأمون على صهره ، خلاصتها أنه طلب إليه أن يعاونه بالهند فاعتذر عبد الملك بأنه لا يستطيع بذل مثل هذه المعاونة ، نظراً لتحالف الفتيان العامريين أمراء قسطلونة وشاطبة ومرريبطر ضده ، وتربصهم به . فاعتزم المأمون أمره ضد صهره ، وهناك في استيلاء

(٢) راجع في حروب المأمون وابن هود ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨-٢٧٢ ، وأعمال الأعلام

ص ١٧٨ . وراجع دوزي : Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 74-75

المأمون على بلنسية روايتان الأولى ، أنه قدم إلى بلنسية زائراً لصهره ، فاستقبله عبد الملك هو وغلماؤه وعبيده بقصره ، فأقام لديه أياماً ، ثم دبر له في ذات ليلة كميناً ، فقبض عليه وعلى ابنه ، وأخرجهما ليلاً إلى بلدة شنت برية ، واستولى بذلك على بلنسية بأيسر أمر .

وأما الرواية الثانية فتقول لنا إن المأمون استعد سراً لغزو بلنسية ، واستعان بفرقة من الجند النصراني أمده بها حليفه فرناندو الأول وصاحب السيادة الاسمية عليه ، وأن القوات المتحالفة دهمت بلنسية ، والبلنسيون مثل أميرهم غافلون غارقون في اللهو واللعب ، فلم يستطع البلنسيون دفاعاً ، ومزقت قواتهم ، وقتل منهم عدد جم ، وأسر عبد الملك بن أبي عامر وآله ، ولم ينقذ حياته سوى تدخل زوجة ابنة المأمون . وتسمى الرواية هذه الموقعة بموقعة بطرنة ، وهي بلدة من ضواحي بلنسية ، وتنسب وقوعها إلى سنة ٤٥٥ هـ أو ٤٥٧ هـ أو ٤٥٨ هـ ، بيد أن المرجح أنها وقعت في ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥ م) . وتختلف الرواية في مصير عبد الملك بن أبي عامر ، فيقال إن صهره المأمون اعتقله في شنت برية أو قلعة إقليش ، أو قلعة قونقة (١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر ١٠٦٥) ، واثارت بين أولاده الثلاثة سانشو ملك قشتالة ، وألفونسو ملك ليون ، وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواماً ، وانتهت مرحلتها الأولى في سنة ١٠٧١ م ، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه ، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية ، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون ، وعاش في بلاط طليطلة زهاء تسعة أشهر معزراً مكرمأ ، حتى توفي أخوه سانشو قتيلاً تحت أسوار سمورة ، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا ، فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه . ويقال إنه حينما وصل إليه نبأ وفاة أخيه وهو بطليطلة أخفاه ، وأراد أن يغادرها سراً ، ففطن المأمون إلى ذلك ، وحاول اعتقاله ، ولكنه استطاع الفرار . وعلى أي حال ، فإن ألفونسو ، استطاع خلال إقامته بطليطلة في ضيافة صديقه وحاميه المأمون ، أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها ،

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٦١ و ٢٦٧ و ٣٠٣ ، ودوزي : Hist.

des Musulmans d' Espagne V^e III. p. 79 وراجع أيضاً اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد

المرابطين ، الموحدون (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨) ص ٤٩ .

ومواطن ضعفها ، وأن يستغل ذلك فيما بعد ، في تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه (١) .

وقد أشرنا من قبل عند الكلام على دولة بني جهور بقرطبة ، إلى ما حدث من محاولة المأمون بن ذى النون غزو قرطبة ، وانتزاعها من يد الجهاورة ، وكيف استغاث عبد الملك بن جهور بصديقه ابن عباد ، فبعث إليه بالمدد تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، ورد المأمون عن المدينة ، ولكن قوات ابن عباد استولت عليها بطريقة غادرة ، وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد ابن عباد من قبل ، وانتهى الأمر بالقضاء على دولة الجهاورة (٤٦٢ هـ - ١٠٧٠ م) وندب المعتمد لحكمها ولده الحاجب سراج الدولة عباداً بن محمد بن عباد ، وأبقى معه حامية بقيادة ابن مرتين .

ولكن المأمون بن ذى النون لم يقف عند هذا الحد ، ولبت يتحين الفرصة لتنفيذ مشروعه في الاستيلاء على قرطبة ، وهنا لجأ إلى سلاح التآمر والفساد ، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكيم بن عكاشة ، وكان مغامراً وافر الجراءة ، وكان من قبل من معاوني ابن السقاء ، وزير بني جهور ، فلما قتل ابن السقاء ، قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وزج إلى السجن ، ففر من محبسه ولحق بالمأمون ابن ذى النون ، فاستخدمه وولاه أحد الحصون القريبة من قرطبة ، وكان «شهماً صارماً» . وتفاهم المأمون مع ابن عكاشة ، على تدبير مؤامرة للفتك بالعباديين وأميرهم ، والاستيلاء على قرطبة . فوضع ابن عكاشة خطته ، ولبت يدبر أمره ، ويحشد إلى جانبه من استطاع من المغامرين ، وفي ذات ليلة دخل المدينة في جمع من شيعته بواسطة رجال من أنصاره فتحوا له الأبواب ، ولم يفطن قائد العباديين ابن مرتين إلى ما يحدث من حوله ، وكان رجلاً متهاوناً ، عاكفاً على لهوه وشرابه . وقصد المغيرون دار ابن جهور حيث كان يقيم سراج الدولة ، ودهموه على غرة ، فلقبهم في نفر من رجاله ، وقتل مدافعاً عن نفسه . ثم قصدوا بعد ذلك إلى دار ابن مرتين ، وكان منكباً على لهوه ، فلما وقف على الخبر ، فر تحت جناح الظلام ، ولكنه أخذ بعد أيام قلائل وقتل . وفي صباح اليوم التالي

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ ،

وكذلك : P.y Vives : Los Reyes de Taifas p. 53

كانت خطة ابن عكاشة قد كللت بالنجاح ، فبسط حكمه على المدينة ، وانضم إليه كثيرون من الدهماء ، ودعا الناس إلى بيعه المأمون بن ذى النون وطاعته ، وبعث إليه برأس سراج الدولة . وكان المأمون يقيم يومئذ في بلنسية ، فقدم على عجل ، ودخل قرطبة في موكب عظيم ، وذلك في أواخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . ولكنه لم يلبث طويلاً حتى مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، في أواخر ذى القعدة من نفس العام . واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها . ويقال إنه توفى مسموماً . وتولى ابن عكاشة من بعده حكم قرطبة ، نائباً عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون وخلفه في حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون إيذاناً بتطور الحوادث . ذلك أن المعتمد بن عباد ، مذ قتل ولده وضاعت قرطبة ، كان يضطرم رغبة في استرداد المدينة والانتقام لولده ، وكان جماعة من أهل قرطبة قد بعثوا إليه يدعونه للقدوم ، فأكاد المأمون يخفى من الميدان ، حتى زحف على قرطبة في قواته ، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له بالمقاومة ، ففر من المدينة ، ودخلها جند ابن عباد على الأثر ، وبعث المعتمد في أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طارده حتى ظفرت به وقتلته ، وجيء به فصلب مع كلب إمعاناً في الزرابة به ، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة ، فولاه يحيى بن ذى النون حاكماً لقلعة رباح^(١) ، وكان حريز هذا شاعراً مطبوعاً ذكره الفتح في « مطمح الأنفس »^(٢) .

وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف ، وأطولهم عهداً ، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وامتدت رقعة مملكة طليطلة في عهده حتى وصلت شرقاً إلى بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء . وجمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته قصوراً باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وكان منها مجلسه الشهير المسمى « المكرم » كان آية في الروعة والبهاء . وقد نقل إلينا ابن حيان عن ابن جابر ، وقد كان من شهوده في حفلة من حفلات المأمون الباذخة ، بعض أوصافه . قال : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظي

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٨ و ١٥٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وراجع دوزى :

Hist. Abbadidarum V. II. p. 122 — 126

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة (دوزى) ص ١٩٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١٧٩ .

من بهى زخرفه ، الذى كاد يحبس عيني عن الترقى عنه ، إلى ما فوقه ، إزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ، ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيّار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار وأشكال الثمر . وكل صورة منها منفردة عن صاحبها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلّى إلى ما فوقها . قد فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت فى أماديح مخترعه المأمون . وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس ، بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيّار ، وصور أنعام وأشجار ، يذهل الألباب ويقيد الأبصار . وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأنقن تصوير ، وأبدع تقدير .

ثم قال : « ولهذه الدار بحيرتان ، قد نصبت على أركانها صور أسود مصنوعة من الذهب الإبريز ، أحكم صياغة تنخيل لتأملها ، كالحة الوجوه ، فاعرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء ، هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين . وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح ، محفور من رفيع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت فى جنباته ، صور حيوان وأطيّار وأشجار ... » .

وذكر ابن بدرون أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسبق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حوالها محيطاً بها ، متصلاً ببعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتّر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل (١) .

(١) نقله نقح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣ . وراجع «سراج الملوكة» للطوطى (القاهرة) ص ٤٥ .

ونقل إلينا ابن حيان أيضا ، عن ابن جابر أوصاف ذلك الحفل الباهر الذى أقامه المأمون ، احتفالا بختان حفيده يحيى ، الذى تولى الحكم فيما بعد باسم القادر ، وفيه من صور البذخ والإغداق والسعة ما ينم عن الغنى الطائل ، الذى حققه بنو ذى النون ، واتسم به بلاطهم . بيد أن المأمون كان بالرغم من ذلك ينسب إلى التقدير والشج ، وكان قليل من الشعراء يقصدون إليه للمديح « لقله نائله ، وتفاهة طائله » على حد قول ابن بسام (١) .

والواقع أنه لم يكن ببلاط بنى ذى النون للشعر والأدب دولة زاهرة ، كما كان الشأن فى إشبيلية وألمرية وبطليوس . بيد أننا نجد مع ذلك أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون فى ظل المأمون ، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأس ، صاحب الموشحات المشهورة ، والعلامة الرياضى ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمى « طبقات الأمم » ، وكان يلقي دروسه فى المسجد الجامع ، والعلامة النبائى ابن بصال الطليطلى .

وقد رأينا فيما تقدم كيف ينوه ابن حيان أيضا ، بما جبل عليه مؤسس دولة بنى ذى النون اسماعيل ، من البخل والتقدير ، ومع ذلك فإنه مما يلفت النظر حقاً ، أن ابن حيان لم يجد من يهدى إليه مؤلفه التاريخى الضخم ، سوى المأمون بن ذى النون ، إذ يقول لنا فى مقدمته إنه كان بعد تأليفه ينوى الاستئثار به لنفسه ، وأن يحبته لولده ضناً بفوائده الجمّة على من تنكب إحماده به إلى ذمه ومنقصته ، ثم يقول : « إل أن ، رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنّية ، أتتني على بعد الدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همّة ، الأمير الموثل الإمارة ، المأمون ذى المحدين ، الكريم الطرفين يحيى بن ذى النون » (٢) .

- ٢ -

وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر . ذلك أن هشاماً ولد المأمون ، توفى قبل وفاته أو أنه قد حكم بضعة أشهر فقط ثم توفى (٣) . وكان القادر

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان ، فى أوصاف الحفلات والقصور المأمونية ، القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ - ١٠٤ و ١١٤ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك :

P. y Vives: Los Reyes de Taifas (Cit. Cronica general p. 54, nota)

فتى حدثاً ، قليل الخبرة والتجارب قد ربي في أحجار النساء ، ونشأ بين الحصيان والغانيات ، فغاب على أمره العبيد والموالى . وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن مفككة . وكان المأمون قد قسم الأعمال بين وزيريه الأثيرين ، وهما ابن الفرج والفقيه أبو بكر بن الحديدى ، وكان الأول يختص بتدبير الأجناد ، والنظر فى طبقات القواد ، والشئون السلطانية ، والأعمال الدبلوماسية ، ويختص الثانى بالنظر فى الشئون المالية وشئون الرعية ، وإبداء الرأى والمشورة . وأوصى المأمون قبل وفاته حفيده ، بأنه متى اضطلع بالحكم ، أن يعتمد على عون ابن الحديدى ونصحه ، وأن يأخذ رأيه فى كل أمر ، واتخذ العهود الوثيقة على ابن الحديدى ، أن يخلص النصيح لحفيده ، وأن يشد أزره بكل ما وسع . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى بدأ نفر من خاصة القادر يسعون لديه فى حق ابن الحديدى ، ويوغرون صدره عليه ، ويقنعونه بأنه لا يمكن أن يحكم بصورة حقيقية ، حتى يتخلص من نير ابن الحديدى وطغيانه ؛ وكان المأمون قد قبض من قبل بإيعاز ابن الحديدى على جماعة من أعيان طليطلة ، واعتقلهم بالمعتقل خشية انتقاضهم قرأى القادر بعد أن استقرت لديه فكرة التخلص من ابن الحديدى ، أن يستظهر بهم عليه ، فأطلقهم واستدعاهم إلى محاسه ، فلما حضر ابن الحديدى ورآهم ، استشعر الخطر ، وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، فغادر القادر المكان ، وفتك الحضور بابن الحديدى ، ونهبت دوره ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) .

ولم يلبث القادر أن أدرك سقطته ؛ وأخذ ينجى ثمار جريمته . فقد وهم أنه تخلص من نير ابن الحديدى ، ولكنه وقع فى براثن تلك الطغمة التى آزرته فى الجريمة ، وبدأ أولئك الأعيان الحاقدون ، خصوم جده القدماء ، يحكيون له الدسائس ، ويضعون الصعاب فى طريقه ، ويشيرون الشعب ضده ، حتى ضعف سلطانه ، وبدأت أعراض الثورة تبدو فى النواحي . وكان ابن هود صاحب سرقسطة ، يرهقه بمطالبه وغاراته ، ويستعين ضده بالهند النصارى ، حتى انتهى بأن انتزع منه مدينة شنتبرية . ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبدالعزيز ببلنسية وخلع طاعة بنى ذى النون ، ونادى بنفسه أميراً مستقلاً ، فداخله ابن هود وخطب إليه ابنته أملاً فى أن يستطيع بذلك التغلب على بلنسية . وكادت مدينة

قونقة تسقط في يد سانشو راميرز ملك أراجون ، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال . وحاول القادر أن يرد خصومه ، فبعث جنده تحت إمرة الفتي بشير لمقاتلة ابن هود وراميرز ، ولكنهما انصرفا دون قتال . وعندئذ اضطر القادر أن يتجه ببصره إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأن يلتمس عونه وحمايته . وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل ، وقبل تأدية الجزية . وحذا القادر بالطبع حذوه ، ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط في مطالبه ، ويطالب القادر بالمال تباعاً ، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود ، وقد تسلم منها بالفعل حصون سرية وفتورية وقنالش ، كل ذلك والقادر عاجز عن رده ، مرغم على إرضائه ، حتى كادت خزائنه تنضب ، وكان خصومه في الداخل من جهة أخرى يدبرون السعي لإسقاطه . وأخيراً اضطرت طليطلة بالثورة ، فاضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلجأ مع أهله وولده إلى حصن من حصونه الشرقية ، وهو حصن وبدة (٤٧٢ هـ) وألنى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ، ولا حكومة تبقى المدينة شر الفوضى ، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ، ليتولى أمرهم ، وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً ، وقدم إلى طليطلة ، وقام بالأمر فيها .

وفي تلك الأثناء سار القادر بن ذى النون من ملجئه إلى مدينة قونقة ، وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثنه ، ويطلب منه العون في محنته . فاستجاب ألفونسو لدعوته ، وهو يزعم في قرارة نفسه ، أن ينتهز كل فرصة سانحة ، وسار معه إلى طليطلة في سرية من فرسانه . وكان المتوكل بن الأفطس خلال ذلك يجد في اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب القادر ، من أثاث وفراش وآنية وسلاح وكتب وغيرها ، حتى بعث منها إلى بطليوس المقادير الجمية . فلما شعر بحركة ألفونسو ومقدم القادر ، غادر طليطلة مسرعاً إلى حاضرتة ، وذلك بعد أن قضى في حكمها زهاء عشرة أشهر ، ويقال إن ألفونسو حاصر طليطلة بقواته ، واضطر ابن الأفطس أن يغادرها بطريق الفرار (إبريل ١٠٨٠) (١) .

(١) ابن الخرجي في كتاب الاكتفاء في أخبار الملوك ، ونقله دوزي في : Hist. Abba-

ودخل القادر طليطلة في حمي ألفونسو وجنده النصارى ، بعد أن تصدى له أهلها وحاولوا رده بالقوه ، فنكلت بهم الجند النصارى ، ومزقوهم شرمزق ، وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى ، والفوضى تسود المدينة ، وأهلها فى كدر ووجوم ، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير ، وكان ذلك فى آخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) (١) .

والواقع أن كل شىء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة . ذلك أن ألفونسو السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، وكانت وهى فى يد ملكها الضعيف المتخاذل ، تبدو له ثمرة دانية القطوف ، بعد أن غدا القادر فى يده شبه أسيره . وتقول لنا الروايات القشتالية إن القادر كان حينما طلب من ألفونسو معاونته على استرداد المدينة ، قد تعهد له بأن يحكمها باسمه ، وأن يسلمها إليه متى شاء ، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقر إمارته . بيد أن الحوادث التالية ، وموقف القادر فى الدفاع عن مدينته ، يجعلنا نشك فى أنه قطع مثل هذا العهد . وعلى أى حال فإن سقوط طليطلة فى يد القشتاليين ، لم يحدث دون مهادت ووقائع عنيفة .

وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية ، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، لما رأى من استفحال قوة ألفونسو ، وتغلبه على سائر ممالك الطوائف المتاخمة لمملكته ، قد خشى أن ينساب تيار الغزو إلى أراضيه ، ورأى أن عقد المهادنة والصلح مع ملك قشتالة ، هو خير ضمان لاتقاء شره ، وسلامة مملكته . فبعث وزيره البارع ابن عمار إلى ليون لىفاوض ملك قشتالة ، وانتهى ابن عمار إلى أن عقد معه معاهدة ، يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك ، بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو أن يتركه حراً طليقاً فى أعماله ضد طليطلة ، وألا يعترض مشروعه فى الاستيلاء عليها . وربما كان فى الرسالة التى بعث بها المعتمد فيما بعد إلى

ألفونسو السادس ما يؤيد هذه الرواية، حيث يعرب المعتمد عن ندمه لمسالمة ملك قشتالة، وقعوده عن نصرته لإخوانه . وتزيد الروايات القشتالية على ذلك أن المعتمد ابن عباد قدم في هذه المناسبة أو في مناسبة لاحقة ، إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها التواريخ القشتالية « بزائدة » وذلك لكى يكون مهرها ما استولى عليه من أراضي طليطلة ، حتى لا ينزع النصارى منه هذه الأراضي ، وهى قصة سوف نتناولها في موضعها ، عند الكلام على الفتح المرابطى للملكة إشبيلية .

وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف ، قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة ، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية ، إلا ملك بطليوس الشهم عمر المتوكل ، حسبما ذكرنا ذلك في موضعه، فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجوق قد أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه ، وأنه لن يجراً أحد أن يقف في طريقه . وكان مما يقوى أمله أن أهل طليطلة ، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم ، وأن حزباً قوياً منهم يناصر سياسته وأطباعه ، ويشجعه على العمل ، وكانت الغزوات والحملات المتوالية ، التى شنها ألفونسو على أراضي طليطلة ، حتى ذلك الحين ، سواء لحسابه الخاص ، أو بحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه ، قد نالت من هاتيك السهول ، وخربت كثيراً من ربوعها النضرة ، وأنشأت فيها الضيق والحاجة ، وأخذت العاصمة طليطلة ، تتأثر بهذا الضغط على مواردها ، بيد أن ألفونسو كان يزعم أن يستمر في حملاته المخربة حتى يتم تجريد المدينة العظمى من سائر مواردها . وقد بدأت هذه الحملات الجديدة منذ سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١ م) ، أى منذ عاد القادر إلى عرشه ، واستمرت أربع سنوات كاملة ، وكانت تنظم بتواطئ الحزب الموالى من أهل طليطلة ، وهو الحزب الذى تصفه الرواية القشتالية بالحزب « المدججى » أى الموالى لملك النصارى ، وفى كل عام يحتاج ألفونسو بقواته أراضي طليطلة من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، ويبيد الزروع ، ويسبى الذرية ، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث . وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة ، سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وبتجريدتها من وسائل الدفاع ، وهو ما كان يرمى إليه ملك النصارى .

وكان موقف ملوك الطوائف فى تلك الآونة العصبية من حياة إسبانيا المسلمة ،

موقفاً يثير الألم والحسرة معاً . فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد ، بعد أن تفاهم مع ألفونسو السادس ، على تركه وشأنه في مشاريعه نحو طليطلة ، مشغولاً بمحاربة عبد الله بن بلقين بن باديس صاحب غرناطة . وكان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المتأخمين لمملكة طليطلة من ناحية الشمال والشرق ، مشغولاً بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة . وكانت دول الطوائف الشرقية والجنوبية ، بعيدة عن ميدان الخطر ، لا تستطيع حتى إذا شاءت ، لبعده الشقة ، أن تقوم بإنقاذ طليطلة بصورة ناجعة . وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقي . كل ذلك والموقف يتحرج ، وألفونسو السادس ماضٍ في غزواته المدمرة ، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً ييباً . ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين أن الموقف عصيب ، وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى في يد قشتالة ، إنما هو نذير السقوط النهائي ، وأن انهيار الحجر الأول في صرح الدولة الإسلامية ، إنما هو بداية انهيار الصرح كله ، فبادر جماعة منهم إلى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة لإزاء الخطر المشترك ، ونهض القاضي العلامة أبو الوليد الباجي ، بإشارة المتوكل بن الأفطس ، حسبما تقدم ، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منبراً ، محذراً من عواقب التفرق ، وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها ، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة ، مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها ، واحدة بعد الأخرى . ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء الذين كانوا يستشقون ببصرهم الثاقب ، ما يضره المستقبل من ويل ، ذهبت كلها سدى ، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم ، ولبث ملك إشبيلية وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعه الإنجاد ، يشهد تفاهم الخطب جامداً معرضاً ، وكل همهم أن يحتفظ بما انتزعه من أراضي مملكة طليطلة الجنوبية ، ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة ، سوى أمير بطليوس الشهم عمر المتوكل بن الأفطس ، فقد نزل إلى ميدان النضال ضد ألفونسو السادس ، وحاول مدافعته ، فبعث ولده الفضل والى ماردة في جيش قوى ، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة . ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى المتفوقة عليه في العدد والعدة ، فارتد أسفاً بعد أن خاض معارك دامية . وكان المتوكل قد بذل مثل هذه المحاولة قبل ذلك ببضعة أعوام في سنة ٤٧١ هـ ، وتغلب عليه

أيضاً ألفونسو السادس ، وانتزع منه مدينة قورية من أملاكه الشمالية المجاورة لأراضى طليطلة .

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها . وفي خريف سنة ٥٤٧٧ هـ (١٠٨٤م) اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة ، ونزل بالمنية المسورة الواقعة في منحى نهر التاجه ، وهى المنية الشهيرة التى كان المأمون بن ذى النون قد زودها بالقصور الفخمة والبساتين الياقة ، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهو ، وهى التى تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey . ويقول ابن بسام فى وصفها « المنية المسورة ، التى كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن » (١) . وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة . ثم دخل الشتاء ، وشحت الأقوات ، واشتد الأمر بأهل المدينة . وكان موقف القادر بن ذى النون مريباً ، ولم يكن دون شك متفقاً فى الشعور مع الحزب المناوئ لملك قشتالة المتشدد فى مقاومته ، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا لإطالة أمد المقاومة ، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبط عزمه ، أو أن يتقدم لإنجادهم أحد . وكان الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم ، حتى تخرج الموقف ، واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر أن يرسلوا إلى ملك قشتالة وفدأً للتحدث فى أمر الصلح ، فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سادو (ششند) . وكان هذا الوزير فى الأصل من النصارى المستعربين ، أسر حدثاً ورنى فى بلاط إشبيلية ، وظهر أيام المعتضد بن عباد ، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة ، ثم نزع إلى جليقية ، وخدم فرناندو ، ثم من بعده ولده ألفونسو ، وكان داهية ذا براعة فائقة ، فانهى بأن وطد صولة ألفونسو لدى معظم ملوك الطوائف ، والتزموا بأداء الجزية . فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم ، وأبدى أنه لافائدة من المفاوضات ، وأنه لا أمل بأن يتزحزح الملك النصرانى عن موقفه قيد شعرة ، وأنه لابد من تسليم المدينة . ويقول لنا ابن بسام فى هذه المناسبة إن سسندو أدخل زعماء طليطلة لدى ملكه ، وأن ألفونسو حين أفضوا إليه أنهم ينتظرون العون والإنجاد من بعض ملوك الطوائف ، أنهم وسخر منهم ، واستدعى من خيامه

(١) ابن بسام فى الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٨ . ويقوم اليوم مكانها حصن

سفراء ملوك الطوائف ، وقد كانوا جميعاً يومئذ لديه يسعون إلى خطاب وده ، ويقدمون إليه الأموال ، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لدنه ، يتعثرون في أذيالهم ، وقد فقدوا كل أمل وأيقنوا بسوء المصير^(١) .

وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر ، وقد تفاقم الخطب ، وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها ، وتحطمت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه ، أو من جانب زعماء المدينة ، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئاً ، وغلب صوت العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان . ولم تمض ثلاثة أيام على تلك المواجهة ، حتى عرضت المدينة التسليم للملك قشتالة . ويلاحظ الأب ماريانا ، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة شروط التسليم فيما يلي : « أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك (وقد كانت حديقة نضرة غناء على ضفة التاجه) إلى الملك ألونسو (ألفونسو) ، وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته ، وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين ، وأن يأخذوا معهم أموالهم . وأما الذين يقيمون في المدينة ، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم ، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين يقيمون فيه شعائهم ، ولا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه للوكهم ، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون غيرهم ، وأن يقسم الطرفان كل وفق تقاليده على احترام هذه العهود ، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن » . على أن هذا النص الذي يقدمه ماريانا ينقصه شيء من الدقة في بعض تفاصيله . والمتفق عليه ، أن شروط تسليم طليطلة قد صيغت على النحو الآتي : أن يؤمن أهل المدينة في النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم ، وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم ، وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه للوكهم من الضرائب والمكوس وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتعوا أحراراً بإقامة شعائهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم ، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

والحصون والقصر الملكي ، والمنية المسورة التي كان ينزل بها ملكهم . وأما بالنسبة للقادر فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية ، وقيل بل عرض عليه أيضاً أن يحصل له على دانية وشتنبرية الشرق ، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا خلصت للقادر ، فستكون في الواقع ملكاً له ورهن تصرفه ، وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الإسمى الضعيف ، أعنى القادر^(١)

تلك هي الشروط التي اتفق عليها لتسليم طليطلة ، وتظاهر ملك قشتالة بقبولها ، وتعهد باحترامها وعدم النكث بها . وكان ذلك في اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٠٨٥ م . ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين ، كان يستعد خلالها القادر لتهيئة أسباب الرحيل ، وإخلاء المدينة . وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من مايو (فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، ونزل في الحال بقصرها المشهور ، وهو الذي كان ينزل به أيام محنته في ضيافة المأمون ، وعهد بحكم المدينة إلى سسندو ، فسلك مع أهلها مسلك المودة واللين ، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل في مصايرهم ، فاستمال قلوب الكثيرين منهم ، وأقبل بعض العامة على النصر ، ونصح سسندو إلى ملكه أن يلتزم الاعتدال والروية في معاملة المدينة المفتوحة ، وأن يقف مؤقلاً عند هذا الحد ، وألا يلج على ملوك الطوائف خوفاً من أن تنقلب الآية ، فيتجهوا بأبصارهم إلى وجهة أخرى^(٢) .

واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلائه على سائر أراضي مملكة طليطلة ، الباقية بعد الذي استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية ، أعنى قسمها الواقع شمال نهر التاجه من طليطلة غرباً حتى وادي الحجارة وشتنبرية شرقاً ، وهي تتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد ، هذا عدا القرى والضياع^(٣) .

أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذى النون ، فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله ، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف الذين آثروا مغادرة المدينة المفتوحة

(١) (١٦ . Cap) : Mariana : Historia general de Espana (١٣١) وكذلك :

R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 306

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٣) كتاب الإكفاء للخزرجي ، ونقله دوزي في : Hist. Abbadidarum V. II. p. ٢٩ :

قاصداً إلى بلنسية ، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته ، وكان ملك قشتالة قد وعدّه بأنه إذا تعذر تحقيق غايته في الحصول على بلنسية بطريقة سلمية ، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس . وقد ظهر للقادر بالفعل ، خلال مسيره من موقف الحصون المختلفة ، أنها جميعاً تقف ضده ولم يبق على ولائه منها سوى حصن قونقة ، فنزل به القادر وصحبه ، حتى تهيأ له ظروف العمل . وسوف نعود إلى تتبع أخباره فيما بعد .

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة في تلك العبارات الالاذعة : « وخرج ابن ذى النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه وتستأذن في انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدترته عليه حتفاً مبيداً ، ولم تنشئ عارضاً ، إلا مطرته فيه عذاباً شديداً ، واستقر بمحلة أذفنش ، مخفور الذمة ، مزال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولادونه حرمه ستر ولا حجاب » (١) . ويبدى ابن الخطيب شماتته في القادر وفي أهل طليطلة حين يقول : « واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد . وهلك الذم ، واستؤصلت الرمم ، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق الشقاق والنفاق ، والمثل السائر في الآفاق » (٢) .



وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة ، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة مملكة قشتالة ، ويغدو « قصرها » منزلاً للبلاد القشتالى ، بعد أن كان منزلاً للولاة المسلمين . وقد كانت بمنعتها الماثورة ، وموقعها الدفاعى القذ ، فى منحنى نهر التاجه ، حصن الأندلس الشمالى ، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية ، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها . وانقلب ميزان القوى القديم ، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها فى شبه الجزيرة ، بعد أن استطاعت أن تحافظ

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٨١ .

عليه زهاء أربعة قرون ، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لا شك فيه . ومن ذلك الحين تدخل سياسة الإسترداد الإسبانية « لاريكونكستا La Reconquista » في طور جديد قوى ، وتتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة ، منذ الفتح الإسلامي ، عبر نهر التاجه ، إلى أراضي الأندلس ، تحمل إليها أعلام الدمار والموت ، وتقتطع أشلاءها تباعاً ، في سلسلة لاتنقطع من الغزوات والحروب .

وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة ، فضلاً عن آثاره المادية الخطيرة ، وقع أدبي عميق في سائر ممالك اسبانيا النصرانية ، فقد كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية القديمة ، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا الدينية ، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها ، مركز الصدارة الذي يتمتع به بين زملائه ملوك اسبانيا النصرانية ، ووطد هيئته المملوكية والإمبراطورية ، فأضحوا جميعاً يقرون له بلقب الإمبراطور ، الذي اتخذ لنفسه . ومن جهة أخرى ، فقد كان لتلك النكبة التي حلت بالإسلام في اسبانيا ، أعظم وقع في جنبات الأندلس ، وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً ، وأدركوا بعد فوات الوقت ، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر ، وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص ، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضي وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم . بيد أن النكبة كانت في نفس الوقت نقطة تحول عظيم في تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنازعين ، ملوك الطوائف ، وفي روحهم ، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ، وبند الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً ، إلى ما وراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم في الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم في سير الحوادث بالأندلس ، أعظم الآثار (١) .

واذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة ، فجיעة الشعر الأندلسي ، ونظمت في بكائها القصائد الرائعة . وكان من أشهرها هذه القصيدة الرائية الكبرى ، التي مطلعها :

(١) راجع في حوادث سقوط طليطلة : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ - ١٣٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٢٢ و ٥٢٣ ، وراجع أيضاً R. Menendez Pidal : La Espana del Cid p. 303-307 ، ودوزي P. y Vives : Hist. des Musulmans de l'Espagne, V. III. p. 120 et suiv. Los Reyes des Taifas p. 54&56

لثكلك كيف تبتسم الثغور
أما وأبي مصاب هد منه
سرورا بعد ما يئست ثغور
ثبير الدين فاتصل الثبور
ومنها :

ظليطة أباح الكفر منها
فليس مثالها إيوان كسرى
محضنة محضنة بعيد
ألم تك للدين صعباً
وأخرج أهلها منها جميعاً
وكانت دار إيمان وعلم
مساجدها كنائس أى قلب
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا
ومنها :

كفى حزناً بأن الناس قالوا
أنترك دورنا ونفر عنها
ولا ثم الضياع تروق حسنا
لقد ذهب اليقين فلا يقين
فلا دين ولا دنيا ولكن
رضوا بالرق يا الله ماذا
مضى الإسلام فابك دماً عليه
ونح واندب رفاقاً في فلاة
ولا تنجح إلى سلم وحارب
إلى أين التحول والمسير
وليس لنا وراء البحر دور
نباكرها فيعجبنا البكور
وغر القوم بالله الغرور
غرور بالمعيشة ما غرور
رآه وما أشار به مشير
فما ينقى الحوى الدمع الغزير
حيارى لا تحط ولا تسير
عسى أن يجبر العظم الكسير (١)

(١) راجع فتح الطيب ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها حيث يورد القصيدة بكليها، وهي في أكثر من سبعين بيتاً

الكتاب الثاني

الدّول البربرية

في جنوب الأندلس

الفصل الأول

دولة بني مناد البربرية في غرناطة ومالقة

البربر ونصيبهم من أنقاض الخلافة . بنو مناد . الخلاف بين باديس المنصور وقومه . هجرة زادي بن زيري إلى الأندلس . انصواؤهم تحت لواء المنصور . اشتراك البربر في معركة الخلافة . محاصرتهم لقرطبة وظفر مرشحهم سليمان بالخلافة . تفريق سليمان لهم . نزول زاوي وقومه بالبيرة . إنشاء مدينة غرناطة ونزولهم بها . الحرب بين المرتضى وصنهاجة . هزيمة أهل الأندلس ومصرع المرتضى . توجس زيري من البقاء في الأندلس . رحيله إلى إفريقية . استيلاء جبوس بن ماكسن على غرناطة . حكمه وصفاته . ولده باديس يخلفه . انثار ابن عمه يدير به . فشل المؤامرة . الخلاف بين باديس وزهير العامري . مسير زهير إلى غرناطة . الحرب بينه وبين باديس . هزيمته ومصرعه . مصرع وزيره ابن عباس . استيلاء باديس على جيان . الحرب بين باديس وابن عباد . تدخل باديس في شئون مالقة ثم استيلاؤه عليها . مهاجمة ابن عباد لمالقة وفشله . استيلاؤه على أركش . الوزير اسماعيل بن نغالة اليهودي . صفاته وكفائاته . ولده يوسف . بغض بلقين ولد باديس له وسعيه إلى إسقاطه . يوسف يدير مصرعه بالعم . الخصومة بين يوسف والناتية . تغير باديس على يوسف . اتجاه يوسف إلى ابن صمادح . مخطط صنهاجة على يوسف وسعيهم إلى إسقاطه . مخطط أهل غرناطة على اليهود . قصيدة الإليبري في التحريض على اليهود . افتضاح مؤامرة يوسف ومصرعه . مذبحه اليهود في غرناطة . استرداد باديس لوادى آش . حوادث جيان . تولى الناية الوزارة . انثار الوزراء به ومصرعه . وفاة باديس . أعماله ومنشأته . عمله لتوطيد زعامة البربر . النزعة العنصرية بين البربر وأهل الأندلس . صفات باديس وخلاله . ولاية حفيده عبد الله بن بلقين . استيلاء ابن عباد على جيان . إغارته على غرناطة ورده . تحالف عبد الله مع ألفونسو السادس . اتفاق ابن عباد وألفونسو على فتح غرناطة . فشل المحاولة . تمهد عبد الله بتأدية الجزية لألفونسو . عبد الله والشئون الداخلية . الخلاف بين عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة . الصلح بين عبد الله وابن عباد . سقوط طليطلة وتأثيره . اتفاق عبد الله مع ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين . حملة ابن الخطيب على عبد الله .

كان انهيار الخلافة الأموية ، والسلطة المركزية ، وما اقترن بذلك من الفوضى الغامرة ، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية ، في ميدان النفوذ والسلطان . وقد ظهر البربر في الواقع ، منذ أيام المنصور بن أبي عامر ، واحتلوا مراكز الصدارة في الجيوش الأندلسية ، واتخذهم المنصور له عضداً وسنداً ، وآزر المنصور القبائل الموالية في المغرب لبني أمية ، ضد أولياء الدعوة الفاطمية ،

وشد أزهرهم بالمال والحد ، واستطاع أن يجعل من المغرب ولاية أندلسية . فلما انهار صرح الخلافة الأموية ، بعد انهيار صرح الدولة العامرية ، وتواثب الزعماء والخوارج الطامحون ، إلى انتزاع أشلائها ، واقتسام سلطانتها ، استطاع الزعماء البربر أن يظفروا من ذلك بنصيب وافر . فقامت منهم دولة بني حمود في جنوبي الأندلس ، وأنشأت خلافة جديدة ، أحياناً في قرطبة ، وأحياناً في إشبيلية ومالقة ، وقامت خلالها ومن بعدها ، عدة دول بربرية محلية ، في غرناطة ، وفي رندة ، وفي مورور وشذونة ، وفي قرمونة ، وقامت دولة بني ذى النون في طليطلة ، وحيناً في شرقي الأندلس ، وقامت كذلك دولة بربرية صغيرة في أرض السهلة في شنتمرية الشرق ، وإذا نحن اعتبرنا دولة بني الأفطس في بطليوس من الدول البربرية ، وإنها لكذلك على أرجح الآراء ، استطعنا أن نقدر المدى العظيم ، الذى وصل إليه سلطان القبائل البربرية بالأندلس في عصر الطوائف .

وقد أتينا فيما تقدم على أخبار دولة بني حمود ، وأخبار الدويلات البربرية ، التى قامت في المنطقة الوسطى والجنوبية ، على أنقاض دولة بني حمود ، وبيننا كيف استطاع المعتضد بن عباد ، أن يقضى على هذه الدويلات واحدة بعد الأخرى ، وأن يضمها جميعاً إلى مملكة إشبيلية الكبرى . وبقي علينا أن نتناول في هذا الفصل ، أخبار دولة بني مناد في غرناطة ، وقد كانت بعد دولة بني حمود ، أقوى الدول البربرية في الجنوب .

إن بني مناد يرجعون في الأصل إلى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة ، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى ، وكان منزلهم بأواسط المغرب . فلما غلب العبيديون (الفاطميون) على إفريقية ، وقامت دولتهم بها ، انحاز بني مناد إليهم ، وحاربوا إلى جانبهم الخوارج عليهم . وكان زعيمهم زيرى بن مناد من أعظم أمراء البربر ، وقد حارب قبائل المغرب المخالفة للعبيديين مع جوهر قائدهم ، وقتل في بعض المعارك ، فخلفه ولده بلُكَيْن . ولما سار المعز لدين الله في سنة ٣٦٢ هـ إلى مصر ، بعد افتتاحها على يد جوهر ، اختار بلكين لولاية إفريقية ، ثم خلفه على ولايتها ولده المنصور ، ثم خلف المنصور ولده باديس . وفي خلال ذلك ، كانت المعارك تضطرم في ربوع المغرب باستمرار ، بين أمراء صنهاجة هؤلاء ،

وبين خصومهم من أمراء زناتة وغيرها ، من القبائل الموالية لبني أمية خلفاء قرطبة . وقد تتبعنا فيما تقدم أدوار تلك المعركة ، التي نشبت في المغرب ، بين الدعوة الفاطمية ، وبين الخلافة الأندلسية ، منذ أيام الناصر لدين الله ، واستعر لظاها بالأخص أيام الحكم المستنصر ، ثم المنصور بن أبي عامر ، وكانت صنهاجة تحمل دائما ، وعلى يد بني مناد ولاية إفريقية ، علم الدعوة الفاطمية ، وتحمل زناتة وحلفاؤها علم الخلافة الأندلسية . وقد انتهت هذه المعركة أيام المنصور ، حسبما رأينا ، إلى هزيمة صنهاجة ، وتوطيد سلطان الدعوة المروانية بالمغرب .

وقد حدث أيام ولاية باديس بن المنصور على إفريقية ، حادث كان له فيما بعد أكبر صدى ، في حوادث الأندلس . ذلك أن باديس استبد بقومه آل مناد ، ووقعت بينه وبين أعمامه وأعمام أبيه ، فتن ومعارك ، قتل في أثناءها ، عم أبيه ماكسن بن زيرى بن مناد ، فاستوحش الباقون من عاديته ، وعولوا على مغادرة إفريقية ، وكتب شيخهم زاوى بن زيرى إلى المنصور بن أبي عامر ، يستأذنه الجواز بقومه إلى الأندلس ، للجهاد في سبيل الله ، فأذن لهم ، وعبر زاوى ابن زيرى ومعه أبناء أخيه ماكسن المقتول ، حُباسة وحَبْسٍ وماكسنين في أهلهم وأموالهم إلى الأندلس سنة ٣٩١ هـ ، فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسنا (١) ، واتخذهم له بطانة وعونا ، ونظمهم مع زناتة ، وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم في أواخر أيام المنصور ، ثم في أيام ولديه عبد الملك ، وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم في الجيش ، وغدوا للدولة عضداً . وقد كان إذن المنصور لزيرى وقومه ، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية ، بالجواز إلى الأندلس ، عملا من أعمال السياسة المستنيرة ، وكان غنا مادياً وأدبياً للدولة العامرية .

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ ، وابن خلدون في كتاب البر ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . ولكن هناك رواية أخرى تقول إن زاوى وقومه وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور ، وأنه هو الذي أذن لهم بالجواز . وهذه هي رواية ابن حيان التي أوردها صاحب الذخيرة (المجلد الأول القسم الرابع ص ٦١) ، ويتابعه فيها صاحب البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣) وكذلك ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة) ج ١ ص ٤٤٠ و ٥٢١ . وقد أخذنا نحن بالرواية الأولى ، أولا لأنها رواية عبد الله بن بلكين ، وهو حفيد ماكسن أخى زاوى ، وأدرى بتاريخ أسرته ، وثانياً لأن ابن خلدون ، وهو حجتنا الأولى في تاريخ البربر ، يأخذ بها ، ويحدد لنا سنة الجواز في سنة ٣٩١ هـ ، أعنى قبل وفاة المنصور بنحو عامين .

يبد أن الدولة العامرية لم تعمر طويلا ، فكان السقوط ، وكان انهيار السلطة المركزية ، وبداية عهد الفتنة والفوضى ، وقام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، باغتصاب الخلافة من هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) . ومن ذلك الحين يأخذ البربر بقسط بارز في تلك المعركة المضطربة المشعبة ، التي تدور حول عرش الخلافة . وكان أول باعث لإقحام البربر في تلك المعارك ، ما خصهم به المهدي من الاضطهاد وسوء المعاملة ، ثم تحريض عامة قرطبة على مطاردتهم ، والتف البربر عندئذ حول سليمان بن الحكم خصم المهدي ومنافسه ، وتوالت الخطوب والمعارك ، وفنك أهل قرطبة خلال ذلك بحباسة بن ماكسن ابن أخي زيري ، فازدادوا نقمة واضطراباً ، وحاصر البربر قرطبة ، وفتكوا بأهلها ، ثم دخلوها في مناظر مروعة من العيث والسفك ، وانتهى الأمر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة ، وتلقب بالمستعين ، وذلك في شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) ، وقبض البربر ، وهم الذين عاونوه ونصروه ، على سائر السلطات في القصر وفي الحكومة .

وعندئذ رأى سليمان المستعين ، أن يعمل على تفريق البربر في الكور والثغور ، لإرضاء لهم من جهة ، وتفريقاً لشملهم وإبعاداً لهم عن قرطبة ، من جهة أخرى ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري بن مناد ولاية لبيرة (غرناطة) ، وأقطع بني برزال وبني يفرن ولاية جيان ، وبني دمر وإزداجة منطقة مورور وشدونة ، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب ، وذلك كله حسباً فصلناه من قبل في مواضعه ، في أخبار سقوط الخلافة الأندلسية (١) .

ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلكين في مذكراته ، إن صنهاجة حينما رأت تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، اعزموها الرحيل عن الأندلس ، ولكن أهل لبيرة ، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والحصص والنماء ، ولم يكن لهم من يدافع عنهم ، لجأوا إلى زاوى بن زيري ، ودعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم ومشاركتهم في خيراتهم ونعائهم ، والدفاع عنهم ، وقبل زيري وقومه دعوتهم ، واستبشروا بالنزول في تلك الأرض ، وطابت لهم ربوعها ، وأجمعوا على الدفاع عنها .

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الرابع من «دولة الإسلام في الأندلس» .

وأنهم بعد أن نزلوا بأرض البيرة ، رأوا أنها بموقعها لاتصلح للدفاع ، واتفق رأيهم على أن يبتنوا في البسيط الواقع على مقربة منها ، في وادى شتيل المنحدر من جبل شلّير^(١) ، وهو البسيط الذى يحجبه الجبل ، مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم ، فشرعوا في بنائها . وهكذا قامت مدينة غرناطة ، وكان قيامها نذيراً بخراب البيرة ، فعفت منازلها بسرعة ، وأسبل عليها النسيان ذيله ، وأخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها^(٢) .

استقر بنو مناد إذاً في كورة غرناطة ، لكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة . ذلك أن علياً بن حمود الإدريسي ، لما استولى على عرش الخلافة في المحرم سنة ٤٠٧ هـ (يولييه ١٠١٦ م) ، وقتل سليمان آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، نهض خيران العامري ، فأعلن الخلاف ، وأعاد الدعوة لبني أمية في شخص عبد الرحمن بن محمد من أحفاد الناصر ، ولقبه بالمرتضى ، وانضم إليه في تلك الحركة منذر بن يحيى التجيبي أمير الثغر ، وعدة من ولاة شرقي الأندلس ، وسار في جموع كبيرة لمقاتلة الحموديين ، ولكنه عرج في جموعه أولاً على غرناطة لمقاتلة جيش صنهاجة القوى ، فلقبه أميرها زاوى بن زيرى في قواته ، ونشبت بينهما معركة شديدة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس وتمزيق جموعهم ، ومقتل خليفتهم المرتضى ، وكان ذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) . على أن هذه المعركة كان لها أثر عميق في نفس زاوى ، فبدلاً من أن يرى في كسبها دليل التفوق والاستقرار ، شعر بالعكس مما آتته من مرارة القتال وروعته أن هذا النصر إن كان بداية طيبة ، فقد تعقبه نكسات ومحن لا يستطيعون الصمود لها ، وأن أهل الأندلس لن يتركوا مقارعة البربر ، حتى يفوزوا بالقضاء عليهم . وقال زيرى لقومه ، حسبما يروى لنا الأمير عبد الله : « وقد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبداً (أى أهل الأندلس) ، وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا في كل حين ، وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف ، مع ميل جنسيتهم من الرايا إلىهم » . وهو مايورده ابن حيان على لسان زيرى على النحو الآتي : « إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، إنما جره مع القضاء ، غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا . فإني عرفت ذلك من يوم

(١) هو بالإسبانية Sierra Nevada أو جبل الثلج .

(٢) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ - ٢٢ .

نزولهم ، ولذلك ماكنت أقوى نفوسكم ، وقد نجانا منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدوا إلا رئيسهم ، واستخلافه دين عليهم ، ولست آمن عودهم حملة إليكم فيما بعد ، فلا يكون لنا قوام بهم» . هذا ومن جهة أخرى فقد كان زاوى يخشى من غدر بربر زناته أعدائهم الحقيقيين ، ويخشى بالأخص أن يتحالفوا ضدهم مع أهل الأندلس ، فتكون الطامة الكبرى عليهم . وأخيراً فقد كان زاوى يرى بعد وفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية ، الذى اضطهده وقومه ، وولاية ولده الطفل المعز حفيد أخيه بلكين ، أن الخو قد تهيأ لعودته ، واحتلال مكانته فى وطنه . ومن ثم فقد اعتزم زاوى أن يغادر الأندلس إلى إفريقية ، وقال لقومه : « فالرأى الخروج عن أرضهم ، واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة ، والرجوع إلى الحملة التى انفصلنا عنها » (١) .

وهكذا قرر زاوى بن زيرى العودة إلى إفريقية بالرغم من معارضة ولده ووجوه قومه . وخرج عن غرناطة فى أهله وأمواله ، مستخلفاً عليها بعض شيوخ قومه ، وركب البحر من المنكب ، ومعه الكثير من الأموال والذخائر . وكان خروجه من الأندلس فى سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) . واستقبله حافداً أخيه المعز ابن باديس صاحب إفريقية وبنو عمه أحمل استقبال ، وأنزل فى القيروان أحمل منزل ، وكان بعد مهلك الشيخة من بنى عمه وذوى قرابته زعيم القوم ، وكان النساء من محارمهم نحو ألف امرأة لا يحتجبن عنه . بيد أنه لم يبق بالقيروان فى ظل المعز ، ما كان يؤمل من رئاسة وسلطان (٢) .

قال ابن الخطيب : « وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة والأنفة والحزم » (٣) .

وعلى أثر ارتحال زاوى سعى الفقيه ابن أبى زمنين قاضى غرناطة ، فى أن يعين لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فلحق به فى حصن أشتر على مقربة

(١) راجع البيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٤ و ٢٥ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .
(٢) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٤٠٢ ، والإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٥ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥٢٢ .

من وادى آش . وكان يرباط هنالك مترقباً رحيل عمه . فبادر بالسير إلى غرناطة ، ودخلها في موكبه وطبوله ، واحتلها فلم يعارضه أحد من قومه ، وتريع في رياستها من وقته . وقيل إن عمه زاوى اختاره ليخلفه قبل رحيله . وقيل من جهة أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك ، بينه وبين ابن عمه جلالى بن زاوى ، ولكنه انتهى برحيل جلالى ولحاقه بأبيه ، وخلصت له الرياسة ، ومن ذلك الحين بدأ بغرناطة دولة بنى زيرى بن مناد^(١) .

وبدأت ولاية حبّوس لغرناطة في سنة ٤١١ هـ ، حسبما تقدم في أخبار الفتنة ، فسار حبّوس سيرة حسنة ، وضبط النظام والأمن ، وقسم الأعمال بين أقاربه وبني عمه ، واتسعت رقعة مملكته ، فغلب على قبره ونواحيها وعلى مدينة جيان ، وأتم بناء غرناطة ، وحشد الجند ونظم الجيش ، وكان يشرك بنى عمه في الرأى ، ويجرى في حكمه على طريق الشورى . ووطد حبّوس ملك قومه بغرناطة ، وأقام له بلاطاً فخماً ، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء البربر وفى مقدمتهم بنى حمود أصحاب مالقة ، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى العامرى صاحب ألمرية . ولما قتل يحيى بن حمود (المعتلى) أمام أسوار قرمونة سنة ٤٢٧ هـ على يد القاضى ابن عباد ، وخلفه فى الملك ولده إدريس المتأيد بالله ، كان حبّوس وحليفه زهير العامرى من المعترفين ببيعته ، وقد سارا معاوانته على محاربة ابن عباد ، وسار معهما البرزالى صاحب قرمونة فى قواته ، وزحفت القوات المتحدة على إشبيلية ، وعانت فى بسائظها ، ثم عاد كل إلى قواعده ، وذلك فى أواخر سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) . وفى العام التالى (٤٢٨ هـ) توفى حبّوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس^(٢) .

ويشيد ابن حيان ، وقد عاصر هذا العهد ، بخلال حبّوس ، فيقول لنا إنه كان أحد نائبي برابرة الأندلس الذين يعتد بهم ، وإنه كان على قسوته «يصفى إلى الأدب ، وينتمى فى العرب ، للأثر المقفوف فى قومه صنهاجة . وكان وقوراً حليماً فظاً مهيباً ، نزر الكلام ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ،

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ٤٠٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ .

(٢) راجع فى أخبار حبّوس بن ماكسن : التبيان ص ٢٥ و ٢٦ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥

والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤

شجاعاً ، حسن الفروسية ، جباراً متكبراً ، داهية واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له في كل ذلك أخبار ماثورة (١) .

فخلفه في حكم غرناطة ولده باديس ، الذي قدر له أن يكون أقوى ملوك البربر في جنوبي الأندلس ، وأعظمهم شأنًا ، في تلك الفترة التي كثرت فيها الممالك والرياسات ، ولم ينازعه في الملك أخوه بلُقْمَن بن حبوس ، ولكن كان له في الملك منافس من قومه ، هو ابن عمه يدير بن حُبَّاسة بن ماكسن . وكان يدير ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمه حبوس ، أن ينتزع السلطة لنفسه ، فلما فشل أيام حبوس ، حاول أن يعيد الكرة في أوائل عهد باديس . وكان من مشجعيه ومحرضيه الكاتب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني ، وهو من علماء المشرق الذين وفدوا على الأندلس أيام الفتنة ، ولحق بغرناطة . وكان فضلا عن أدبه الغزير ، يعنى بدراسة الفلك والحكمة ، ويلقى ينبوءاته في روع يدير ، أنه سوف يظفر بعرش غرناطة ، ويحكمها ثلاثين عاماً (٢) .

وكان لأبي العباس كاتب حبوس ، مساعد من اليهود يدعى أبو إبراهيم يوسف ابن اسماعيل بن نغالة كان يتولى جمع المال ، وكان رجلاً متواضعاً حسن السيرة ، فلما توفي أبو العباس تقدم مكانه ، وعلت منزلته ، ولما ولي باديس زادت حظوته وظهرت همته في جمع الأموال . فلما دب القوم ووامرهم لانزاع السلطة من باديس وإجلاس يدير مكانه ، لجأوا إلى أبي إبراهيم ، وحاولوا ضمه إليهم ، فتظاهر بالقبول ، وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزلة ، وحضور باديس لسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين ، ومن ذلك الحين غدا ذلك اليهودي أثيراً عند باديس ، وصار ناصحه الأول ، لا يبرم أمراً دون رأيه .

وكان المتآمرون قد اعتمدوا أمرهم لقتل باديس ، أثناء تنزهه ، بمكان بالضاحية يعرف بالرملة ، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان . فأفصى بالأمر لباديس وحذره في الوقت المناسب ، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم ، ففروا إلى خارج غرناطة ، وفي مقدمتهم يدير بن حباسة والكاتب أبو الفتوح

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٤ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٦٣ و ٤٦٥ .

الجرجاني ، وقد فـرامعاً إلى إشبيلية . ووقف باديس على أسماء كثير من شاركوا في المؤامرة من شيوخ صنهاجة ورجالها ، وهم يقتلهم جميعاً ، فردّه أبو إبراهيم عن عزمه ، وحذره من اتساع نطاق الفتنة ، لأنهم رجاله وجنده وأولى أن يلاينهم وأن يغمرهم بالعطايا ، وأن يضرب بعضهم ببعض ، فنزل عند نصحه ، واستتب له الأمر دون منازع^(١) .

وكان أول حادث خطير واجه باديس ، هو حربه مع زهير العامري صاحب ألمرية . وكان زهير من أنخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة ، واحتلوا معظم القواعد الشرفية ، وكان قد ولي حكم ألمرية بعد وفاة صاحبها الفتي خبران في سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، وامتد سلطانه شرقاً حتى شاطبة ، وشمالاً حتى بياسة وقرطبة . وكان يرتبط بعلائق المودة بجرانه الأقربين بني حمود أصحاب مالقة ، وبني زيري أصحاب غرناطة . وقد رأينا كيف تخالف زهير مع حبوس ابن ماكسن على قتال ابن عباد ، فلما توفي حبوس وخلفه باديس ، بدأت العلائق بين زهير وباديس في الفتور ، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس الألد محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته ، وأرسل باديس إلى زهير رسوله يعاتبه ، ويطلب إليه تجديد المحالفة التي كانت بينه وبين أبيه حبوس^(٢) ، ولم يمض قليل على ذلك ، حتى خرج زهير من ألمرية في قواته ومعه كاتبه ومستشاره الأثير أحمد ابن عباس ، وسار متجهماً صوب غرناطة . ولم توضح لنا الرواية غرض زهير من تلك الحركة . ولكن الأمير عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، يقول لنا في مذكراته ، إن زهيراً « أدركه الطمع في غرناطة » عقب موت حبوس^(٣) . وإذا فقد كان زهير يرمى إلى غزو غرناطة ، وافتتاحها . وعلى أي حال فقد استمر زهير في السير بقواته ، واخترق أراضي غرناطة من شرقها حتى وصل إلى قرية ألفنت^(٤) الواقعة على مقربة من شمال غرناطة . وكان باديس في أثناء ذلك قد عبأ قواته وقد ملأته الدهشة والريب ، لافتحام زهير أراضيها على هذا النحو ، وشعر أنه قد غدا

(١) فصل لنا الأمير عبد الله أحوال هذه المؤامرة بإفاضة (التبيان ص ٣١ - ٣٤) .

(٢) ابن حيان في الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ص ١٦٦ ، ونقلها البيان المغرب

ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) كتاب التبيان ص ٣٤ .

(٤) هي بالإسبانية Daifontes وهي تقع على قيد عشرين كيلوا متراً شمال غرناطة .

في قبضته وتحت رحمته . ولكنه بدأه بالحميل والمودة ، وزوده هو ورجاله بالصلوات والقرى ، ثم لقيه ووقعت بينهما المناظرة ، ومن حول كل رجال دولته ، فاشتط زهير ، وأغلظ لباديس في القول ، وكان كاتبه أحمد بن عباس هو الذي أشار عليه بهذا المسلك ، فغادره باديس مقضباً ، وقد عول على الحرب ، ووافق قومه شيوخ صنهاجة . وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيباً محكماً ، وهدم رجاله قنطرة في مؤخرة القوات المهاجمة ، قطعاً لخط رجعتها ، ورتب من ورائها الكمان في المفاوز المسترة . كل ذلك وزهير في غروره وعجبه ، لا يشعر بما يدبره خصومه . وفي صباح اليوم التالي ، فاجأت قوات صنهاجة جيش زهير بهجومها العنيف ، وكان يقودها بلقين بن ماكسن أخو باديس ، فلقيا زهير بعزم وثبات ، ودفع لردّها قائده هذيل الصقلبي في خيرة قواته من الفتيان العامرين والصفالية ، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة ، صدمت فيها قوات الصفالية وأسّر قائدهم هذيل ، وقتل في الحال بأمر باديس ، فدب الخلل في قوات زهير ، ونكصت على أعقابها ، والبربر من ورائها يحصدونها حصداً ، وفر زهير فيمن فر من أصحابه إلى شعب الجبال المجاورة ، ولكنه أخذ وقتل ، ولم يعثر بجثته ، وأيد معظم قواته قتلاً وأسراً ، وظفر البربر بغنائم هائلة من المال والسلاح والعدة والغلمان والحيام ، وأمر باديس بقتل القواد والفرسان من الأسرى ، وكان من بين الأسرى عدة من الكتاب في مقدمتهم أحمد بن عباس وابن حزم والد الفيلسوف وأبو عمر الباجي وغيرهم ، فأطلق باديس سراحهم جميعاً ماعدا ابن عباس وعدة آخرين من الأسرى ، فقد زجههم في الأصفاد إلى المعتقل . وتمت هذه الواقعة الساحقة على زهير العامري وأصحابه ، في آخر يوم من شوال سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) (١) .

ولم تمص أسابيع قلائل على ذلك حتى قتل ابن عباس في معتقله بالقصبة . قتله باديس بيده تشفياً منه ، لتيقنه من أنه هو ناصح زهير والخرض له على غزوه . ولم ينقذه ما عرضه لافتداء نفسه من المبالغ الضخمة ، ولم تنجح شفاعة الوزير ابن جمهور عميد قرطبة لدى باديس للإبقاء على حياته . وكان ابن عباس من أعلام كتاب عصره ، وافر المعرفة والأدب ، عظيم الوجاهة ، والسراوة ،

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٦٦ - ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩

١٧٢ ، والإحاطة ج ١ ص ٥٢٦ - ٥٢٨ ، والبيان ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان له في حكومة ألمرية ، في ظل صاحبها زهير ، أعظم نفوذ وسلطان^(١) .
وكان من أثر مصرع زهير ، وانهار حكومته على هذا النحو ، أن استولى
باديس على القسم الغربي من أراضي مملكة ألمرية المتاخمة لمملكته ، وهي تشمل
مدينة جيان وأعمالها ، وكذلك جزءاً من أراضي ولاية قرطبة الجنوبية .

وكان لهذا النصر الباهر الذي أحرزه باديس في بداية حكمه ، أعظم أثر في
توطيد سلطانه وإذاعة ذكره . وكان باديس ، مثل معظم أمراء البربر في جنوبي
الأندلس ، يتوجس من أطماع القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية ومشاريعه .
وكانت المعركة الحقيقية ، تدور في هذا القسم من اسبانيا المسلمة ، بين بني عباد
والبربر ، وقد بدأت منذ الساعة الأولى بين بني عباد وبني حمود ، الذين يمثلون
زعامة البربر . ومن ثم فقد كان باديس ، ومن قبله والده حبوس ، يتنصوى تحت
لواء الحموديين ، ويشد أزرهم كلما دعت الظروف ، وقد أشرنا من قبل إلى
ما كان من مسير حبوس في قوات صنهاجة لمعاونة إدريس المتأيد بالله على محاربة
ابن عباد (٤٢٧ هـ) . ولما سير القاضي ابن عباد قواته تحت إمرة ولده إسماعيل
لغزو مدينة قرمونة ، وانتزاعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي ،
استعان البرزالي بإدريس المتأيد وباديس ، فهرعا إلى لإنجاده ، وكانت قرمونة
قد سقطت بالفعل في يد إسماعيل بن عباد ، ونشبت بين قوى العباديين وبين البربر
على مقربة من إستجة معارك شديدة انتهت بهزيمة جيش ابن عباد ، ومقتل قائدهم
إسماعيل ، وذلك في المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)^(٢) . وهكذا أكد
باديس مرة أخرى تفوقه وتفوق قومه صنهاجة على قوات الأندلس المناوئة للبربر .
ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر انتهاء المعركة ، ووجود باديس تحت أسوار
إستجة ، وفد على نعيمه فجأة الكاتب أبو الفتح الجرجاني ، وكان قد فر حسباً
تقدم عند اتهامه بالتآمر مع يدبير لإشبيلية ، وهناك علم أن باديس أمر بالقبض

(١) راجع في ترجمة أحمد بن عباس : الإحاطة ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧٠ ، والذخيرة القم
الأول المجلد الثاني ص ١٧٥ - ١٨٠ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ ، والمعجب لمراكشي
ص ٥٠ .

على زوجه وأولاده ونفيعهم إلى المنكب . وكانت زوجه أندلسية بارعة الحسن ، وله منها ولدان ، وكان يعبدها حباً . فلما اقرب باديس من إشبيلية هرع أبو الفتح إليه يستأمنه ويستجير به . ولكن باديس استقبله بجفاء ، وبعث به مخفوراً إلى غرناطة ، وهناك شُهر وعذب ثم اعتقل أياماً ، دخل من بعدها باديس إلى مطبقة ، وأخذ في تأنيبه وسبه ، ثم قتله بيده ، واحتز رأسه (آخر المحرم سنة ٤٣١ هـ) (١) .

ولما اضمحل شأن بني حمود وافترقت كلمتهم ، بدأ باديس بالتدخل في شئون مملكة مالقة ، تحيناً للفرصة في أخذها . ومن ذلك أنه حينما ثار على إدريس ابن يحيى العالى ، ابن عمه محمد بن إدريس في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، واستطاع أن ينتزع منه الملك ، تقدم باديس لمعاونة الملك المخلوع ، وسار معه في بعض قواته إلى مالقة ، ولكنهم لم يفوزوا بطائل ، فلجأ إدريس عندئذ إلى سبتة ، وبويع محمد بن إدريس وتلقب بالمهدى ، ولكنه لم يفز عندئذ بإجماع الزعماء البربر على مبايعته ، وكان باديس أشدهم معارضة في إقامته ، ذلك لأنه كان يشعر عندئذ ، وبعد أن ضعف شأن بني حمود ، أنه أحق برياسة البربر في الأندلس ، وأخذ من ذلك الحين يتحين الفرصة لتسديد الضربة القاضية لرياسة بني حمود ، وذلك بانئزاع مالقة مقر سلطانهم .

وتم له ذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وذلك بعد أن ارتقى عرش مالقة ، بعد محمد بن إدريس المهدى ، ثلاثة آخر من بني حمود ، وهم إدريس ابن يحيى الملقب بالسائى ، ثم إدريس بن يحيى العالى ، ثم ولده محمد المستعلى . فلما تولى المستعلى نكل الزعماء البربر عن مبايعته ، وفي الحال سار باديس في قواته إلى مالقة واستولى عليها ، وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى وعبر البحر إلى المغرب ، وانتهت بذلك مملكة بني حمود في مالقة ، وبقيت بعد ذلك في الجزيرة الخضراء فترة قصيرة أخرى ، حتى بعث ابن عباد قواته إلى الجزيرة فطوقها ، من البر والبحر ، واضطر صاحبها القاسم بن حمود أن يغادرها بالأمان مع أهله وصحبه ، وذلك في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٥ م) ، وبذلك انتهت دولة بني حمود في الجزيرة أيضاً ، وطويت صفحاتهم بالأندلس .

ولما استولى باديس على مالقة ، عني بتحصينها ، وشيد قصبتها على أجمل

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦ ، والذخيرة القم الرابع المجلد الأول ص ٩٦ .

طراز وأمنعه ، حماية لها من أطماع الطامعين من أمراء الأندلس ، ولاسيما بنى عباد . وقد كان أهل مالقة بالفعل قد سثموا حكم البربر ، وتاقت نفوسهم للتخلص منه ، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد رسلهم سرّاً يستحثونه على افتتاح مالقة ، واستجاب المعتضد لدعوتهم ، وسير إليها حملة بقيادة ولديه جابر والمعتضد ، فزحفت على مالقة وطوقتها ، وكادت المدينة تسقط في أيديهم ، لولا أن اعتصمت حاميتها من البربر والسود بقصبتها المنيعه ، ودافعت دفاعاً شديداً ، بقيادة نائدها الشجاع مخلوف بن ملول ، وهرع باديس في قواته إليها ، ونشبت بينه وبين المهاجرين معركة شديدة مزق فيها جند إشبيلية ، وقتل وأسر منهم عدد جم ، وأسرع جابر والمعتضد ابنا عباد بالفرار في قل جندهما إلى رندة (١) . وكان ذلك في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) . وبعث محمد بن عباد (المعتضد) إلى والده المعتضد من رندة ، قصيدته الشهيرة ، يستعطفه فيها ويعزيه في مصابه وهذا مطلعها :

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر	ماذا يعيد عليك البثّ والحذر
وازجر جفونك لاترض البكاء لها	واصبر فقد كنت عند الخطب تصبر
فان يكن قدّرٌ قد عاق عن وطر	فلا مرد لما يأتي به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة	فكم غزوت ومن أشياحك الظفر (٢)

وكان من مظاهر هذه المعركة ، التي اضطرت بنى باديس وبنى عباد ، ما حدث في نفس هذا العام ، من التجاء بنى بزنيان وأميرهم محمد بن خزرون أصحاب أركش ، حينما أُرهِقهم ابن عباد بغاراته ، إلى باديس ليتسلم هو قاعدة أركش ، ويعطيهم بدلا منها ، مكاناً يتزلون به في أراضي غرناطة ، وقد استجاب باديس لرغبتهم وتسلم منهم أركش ، وخرجوا عنها باهلهم وأموالهم ومتاعهم ، فدهمتهم قوات ابن عباد في الطريق ومزقتهم ، وانتزعت حصن أركش من يد قائد باديس ، وسيطر ابن عباد بذلك على سائر منطقة شنونة ، وكانت من قبل تحت سيطرة البربر (٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ . وراجع كتاب التبيان ص ٤٣ .
 (٢) وهي طويلة . وقد أوردها ابن الأبار في الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦ - ٥٨ .
 (٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧٢ و ٢٧٣ .

وكان باديس قد قطع إلى ذلك الحين ثلاثين عاماً في الحكم ، وكانت مملكته تمتد يومئذ من بسطة شرقاً ، حتى رندة غرباً ، ومن جيتان شمالاً إلى البحر جنوباً ، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة ، وانهك في الشراب ، وترك مقاليد الأمور كلها لوزيره اليهودي يوسف بن نغالة^(١) ، وكان يوسف قد حل في المنصب مكان أبيه اسماعيل بن نغالة وزير جبوس ثم باديس ، وكان هذا الوزير اليهودي قد استأثر بعطف باديس وثقته ، فرفعه فوق سائر كتابه ووزرائه ، وفوضه في جميع أموره ، وعين معظم المتصرفين والعمال من اليهود ، واستطاع بمهارته وحنكته أن يملأ خزائن باديس بالمال ، وأن يمكنه من الإنفاق على جيشه ، ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية . وكان اسماعيل فوق ذلك من أهل الأدب والشعر ، وكان حسن السيرة رضى الأخلاق ، وافر الأناة والحلم ، فلم يثر من حوله خصومة ولا منافسة . ويقدم إلينا ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر عن ابن نغالة ، الصورة الآتية : « وكان هذا اللعين في ذاته ، على ما زوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاء ودمائة ، وورصانة ودهاء ، ومكرًا وملكاً لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومدارة لعدوه ، واستسلا لحقودهم بحلمه » . ثم يقول لنا إنه كان بارعاً في الآداب العبرية والعربية ، وإنه شغف بالعربية ونظر فيها ، وقرأ كتبها ، وألف فيها ، وكتب رسائل يشيد فيها بالإسلام وفضائله ، ودرس الرياضيات والفلك والهندسة والمنطق ، وكتب كتاب « السجيج في علوم الأوائل الرياضية » . وأخيراً إنه كان بارعاً في الجدل يتفوق فيه على سائر الناس ، قليل الكلام ، ماقناً للسباب ، دائم التفكير ، جماعة للكتب^(٢) . وقد ساعدته هذه الصفات كلها ، بلاريب ، على الاستئثار بعطف الأمير وإعجابه وثقته وخلقت من حوله جوا من العطف بين سائر ممن يتصلون به أو يتعامل معهم . واستمر ابن نغالة عن مكانته حتى توفي ، فندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه . وكان يوسف فتى جميلاً غرض الإهاب ، وافر الذكاء والبراعة ، فقام بالأعمال خير قيام ، واستعمل اليهود كذلك على الأعمال ، وأبدى في جمع المال همة مضاعفة ، فتمكنت منزلته لدى باديس ، واجتمعت في يده السلطات شيئاً فشيئاً

(١) كتاب التبيان ص ٤٢ .

(٢) الإحاطة عن ابن حيان ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

حتى غدا كأييه من قبل ، أول رجل في الدولة ، وأمضاهم تصرفاً في شئونها .
وكان بلقيش ولد باديس الأكبر الملقب بسيف الدولة ، والمرشح من بعده
لولاية عهده ، ينظر إلى استئثار الوزير اليهودي بزمام الأمور ، واستئثار بني جنسه
بالتصرف في الأعمال ، وسيطرتهم التامة على الدولة ، ينظر إلى ذلك كله بعين
السخط والحسد ، وكان يجاهر ببغضه لابن نغالة ، وسعيه إلى إسقاطه ، ويفضى
أحياناً إلى خاصته برغبته في إزالته وقتله ، وكان يذكي فيه هذا الشعور تحريض
وزراء الدولة ، ولاسيما على وعبد الله ابنا إبراهيم الشيخ ، وإلقاؤهم في روعه أنه
أحق بهذا النفوذ ، وهذه الأموال التي يتمتع بها اليهود ، وأنه قد أخله وأخل
سائر رجال الدولة بسيطرته عليها (١) .

وكان يوسف من جانبه ، يضع عيونه وجواسيسه من خاصة باديس في
القصر وفي الحريم ، فلا يكاد باديس يأتي بحركة أو تصدر عنه كلمة ، حتى
يقف عليها لفوره ، وكان في نفس الوقت يحيط بلقين بعيونه ، ويتقصى سائر
حركاته وسكناته ، ويقف على نياته نحوه . وكان بلقين مع بغضه ليوسف ، يبدي
له المودة ويتردد على داره ، ويشاطره الشراب ، وكان منهمكاً مدمناً . فاعتزم
يوسف أن يتلخص من بلقين ، قبل أن يقضى هو عليه ، ودعاه ذات يوم مع
خاصته وصحبه ، إلى مجلس شراب حافل ، ودرس له السم في كأسه ، فما كاد يغادر
مجلسه حتى ملكه فيء شديد ، وما كاد يصل إلى داره ، حتى لزم فراشه ، ثم
توفي بعد يومين . فروع باديس لمهلك ولده ، على هذا النحو المفاجئ ، واستطاع
يوسف أن يقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل منهم باديس
عدة ، وفر الباقيون . وكان مصرع بلقين بن باديس في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م) (٢)
وكان هذا الحادث مقدمة لحادث أخطر وأوسع مدى ، وهو الذي اتسم
به عهد باديس قبل كل شيء . ذلك أن باديس ترك المجال لوزيره يوسف ،
وزاد بفقد ولده انطواؤه على نفسه ، وزاد يوسف بذلك استئثاراً وسيطرة على
الدولة ، وبسط على غرناطة وأعمالها نوع من الطغيان اليهودي المرهق ، واستسلم
سائر الوزراء والشيوخ إلى هذا السلطان . ولم يكن يناوئ يوسف ويحاول
مقاومته سوى « الناية » وهو شخصية غامضة ، وأصله من عبيد المعتضد بن عباد ،

(١) التبيان ص ٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٥ ، والتبيان ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٣١ .

وكان متهماً في المؤامرة التي دبرها ضده ولده اسماعيل ، ففر من إشبيلية ، والتجأ إلى باديس وخدمه وحظى عنده ، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة . ثم وقع التنافس بينه وبين يوسف ، وكان الناية يحرض على قتله . ويفضى إلى الأمير بذلك كلما سنحت الفرص . وشعر يوسف بتغير الأمير عايه . وبأن منزله أخذت في الضعف ، ففكر في التفاهم مع أبي يحيى بن صمادح صاحب ألمرية ، واستدعائه للاستيلاء على غرناطة . وكانت تربط ابن صمادح وباديس علائق مودة قدعة ، إذ كان باديس قد وقف إلى جانبه حينما أراد ابن أبي عامر محاربته واسترداد ألمرية منه ، ومهد يوسف لمشروعه بأن عمل على تعيين زعماء صنهاجة ، الذين يخشى بأسهم ، في الأعمال البعيدة ، واستطاع ابن صمادح بالفعل أن ينتزع وادي آش ، الواقعة شمال شرق غرناطة ، وأن يشحنها برجاله ، ومضى يوسف في مفاوضاته وهو محجم متيب من تنفيذ المشروع . كل ذلك وباديس غارق في لهوه ، منكب على لذاته^(١) ، وخصوم يوسف من صنهاجة ، وسائر أهل غرناطة ، يضطرمون سخطاً على الطاغية اليهودي ، ويترقبون الفرص لإسقاطه . ولقي سخط الشعب الغرناطي على اليهود في تلك الآونة ، متنفسه في الشعر ، ونظم الفقيه الورع الزاهد أبو إسحاق الإلبيري^(٢) قصيدته الشهيرة في التحريض على سحق اليهود ، والتخلص من طغيانهم ، وإليك بعض ماورد في تلك القصيدة التي ذاعت يومئذ ذبوع النار في الهشيم ، وأهبت مشاعر الشعب الغرناطي ، وكانت كالشرارة التي أضرمت الحريق ، وأثارت الانفجار :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العربين
لقد زل سيدكم زلة	تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المؤمنين
فعر اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأردلين

(١) راجع كتاب التبيان ص ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ - ٥٣ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن معمود بن سعيد التجيبي الإلبيري . كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً وشاعراً . سعى به الوزير يوسف بن نغالة لأموار نغمها منه لدى سلطانه باديس ، فأبعده عن غرناطة فسكن البيرة القريبة منها ، وانقطع إلى العبادة والزهد . ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود في شعره ووعظه ، حتى وقع الانفجار ، وتم الفتك بهم . وتوفي الإلبيري في أواخر سنة ٤٥٩ ، بعد أن شهد آثار تحريضه في بطش صنهاجة باليهود .

ونالوا مناهم وحازوا المدى
وقد جاز ذاك وما يشعرون
ومنها :

أباديس أنت امرء حاذق	تصيب بظنك مرمى اليقين
فكيف تحب فراخ الزنا	وقد بغضوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاسق	وقارنته وهو بثس القرين
وقد أنزل الله في وحيه	يحذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادماً	وذرحهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم	وكادت تميد بنا أجمعين
وكيف انفردت بتقريبهم	وهم في البلاد من المبعدين
وإني احتلت بغرناطة	فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها	فهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها	وهم يخصمون وهم يقصمون
وهم يلبسون رفيع الكسا	وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سرکم	وكيف يكون أميناً خؤون
وقد لابسوكم بأسحارهم	فما تسمعون ولا تبصرون

ومنها في التحريض على ابن نغالة وقومه :

فبادر إلى ذمعه قسربة	وضح به فهو كيش سبين
ولا ترفع الضغط عن رهطه	فقد كتروا كل علق ثمين
وفرقت عراهم وخذ ما لهم	فأنتم أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غلرة	بل الغدر في تركهم يعثون
فقد نكثوا عهدنا عندهم	فكيف تلام على الناكثين
فلا ترض فينا بأفعالهم	فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إهلك في حزبه	فحزب الإله هم المفلحون (١)

ووقع الانفجار في مساء يوم السبت العاشر من شهر صفر سنة ٤٥٩ هـ

(١) نشر ابن الخطيب في أعمال الأعلام هذه القصيدة بأكملها وهي في ثلاثة وأربعين بيتاً

(٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م) . ففي تلك الليلة اجتمع يوسف بن نغزالة بالقصبة على الشراب مع طائفة من صحبه من الضالعين معه من عبيد باديس وخاصة. والظاهر أن مشروعه لاستدعاء ابن صمادح إلى غرناطة كان قد نضج ، وأن ابن صمادح كان يمكن مع نفر من صحبه في مكان قريب من المدينة ، ينتظر التذير باستدعائه. وكان ثمة في نفس الوقت جماعة من صنهاجة ، ممن يرتابون في مشاريع يوسف ونياته ، ويتقمون على أميرهم تهاونه وتحاذله ، يرقبون حركات اليهودى وسكناته . فحدث والمآمرؤن في مجلسهم ، أن وقعت مشادة بين عبد من الجصور ، وبين حاشية اليهودى ، فانطلق العبد إلى خارج القصبة ، وهو يصيح : لقد غدر اليهودى ودخل ابن صمادح البلدة . وفي الحال هرع الناس وهم يتصايحون ، وفي مقدمتهم رهط صنهاجة المناوئين لليهودى ، واقتحموا القصبة ، فاستغاث يوسف لفوره بباديس ، وحلول الأمير عبثاً أن يهدىء الهاجين ، فهرب يوسف إلى داخل القصر ، ومن ورائه مطاردوه ، حتى عثروا به في بعض خزائن الفحم وقد تنكر وصنع وجهه بالسواد فعرفوه وقتلوه ، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة . وكان الحند والمدينة بأسرها ، قد ماجت عندئذ ، وتحاطف الناس السلاح ، وهجموا على بيوت اليهود في كل مكان ، وأمعنوا فيهم تقتيلاً وتعذيباً ، ونهبوا دار يوسف ، وكانت غاصة بالنفائس والذخائر ، ووجدت له فيما وجد خزانة جليلة من كتب العلوم الإسلامية ، ونهبوا سائر دور اليهود وحوانيثهم ، وطاردوهم وفتكوا بهم في كل مكان ، واستولوا من أموالهم على مقادير هائلة . وهاك من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف أو أكثر من أربعة آلاف على قول آخر ، في تلك المذبحة التى يصفها ابن بسام بأنها ، « ملحمة من ملاحم بنى اسرائيل ، باعوا بذلها ، وطال عهدهم بمثلها » . وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه (١) .

قال ابن الخطيب : « وقبره اليوم (أى قبر يوسف) وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ، ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب البيرة ، على غلوة يعترض الطريق ،

(١) راجع أخبار هذه المذبحة في التبيان ص ٥٤ ، وفي الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٧١ و ٢٧٢ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، وفي أعمال الأعلام ص ٢٣٣ ، والتبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦ و ٢٧٥ و ٢٧٦ وقد اتبعنا ما ورد من التفاصيل في التبيان والذخيرة . وجاء في المصادر الأخرى أن اجماع ابن نغزالة في اصحابه كان في داره ، وأنه هوجم وقتل بها .

ومكانه من الترفه والترف ، والظرف والآدب ، معروف ، (١) .

— ٤ —

وأفاق باديس بعد هذا الحادث من خوله وتهوانه، ونهض لاسترداد وادى آش من يد ابن صمادح ، فسار إليها في قواته ، واستنصر بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فوافاه في بعض قواته على مقربة منها . وضرب باديس الحصار حول وادى آش ، وشد في إرهابها ، وكان بها فضلاً عن الحامية ، بعض وزراء ابن صمادح وأكابر دولته ، ولما اشتد الضيق بالمحصورين بعث زعماءهم إلى المأمون يرجونه أن يتوسط لهم لدى باديس في تسليم المدينة ، والخروج بالأمان ، ففعل وأخلى جند ابن صمادح المدينة ، وسلمت إلى باديس ، واقتطع المأمون من باديس مدينة بسطة ثمناً لمؤازرته ، وبعث ابن صمادح إلى باديس يستسمحه ويعتذر عن تصرفه ، ثم وافاه إلى غرناطة ، وعاد الوثام بين الرجلين (٢) .

وكانت مدينة جيان قد خرجت عن الطاعة، وكان قد لجأ إليها ماكسن الابن الأصغر لباديس حينما سخط عليه أبوه ونفاه من غرناطة، لأرتيابه في ولائه وتوجسه من مشاريعه (٣) . فترل في جيان في كنف حاكمها مسكن بن جبوس، واستبد مسكن بحكم المدينة ، ولم يجد ماكسن سبيلاً إلى منافسته ، وقنع بالسلامة والدعة ، وأخيراً تمكن باديس من إغراء الحامية بالمال والوعود ، فثارت على مسكن وماكسن معاً ، ونادت بالطاعة لباديس ، ففر كلاهما من المدينة ناجياً بنفسه، وقصد ماكسن إلى طليطلة، حيث لجأ إلى ابن ذى النون وخدم في جيشه ، وعادت جيان بذلك إلى سلطان باديس .

وكان باديس بعد مقتل وزيره ابن نغالة ، قد استوزر الناية ، فعلا سلطانه بسرعة ، وانتهى إلى الاستئثار بالأمر على نحو ما كان ابن نغالة . وقدّم الناية بنى برزال ، وآخر صنهجة وأهلهم ، فسخطوا عليه ، وأخذوا يترقبون الفرص لإهلاكه . وكان من مشاريع الناية أن يفتح مدينة بياسة القريبة من جيان ، وكانت عندئذ من أملاك إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى ، ووافق باديس على مشروع

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٨ ، وباب البيرة ما يزال إلى اليوم قائماً بمدينة غرناطة .

(٢) التبيان ص ٥٥ - ٥٧ .

(٣) التبيان ص ٤٩ .

وزيره كارهاً : وانتهى الناية بالاستيلاء على بياسة بعد جهود ونفقات طائلة ، وازدادت بذلك مكانته لدى باديس توطداً . وهنا شعر وزراء الدولة ، وحكام المدن ، أن سلطان الناية يكاد يحجب سلطان باديس ذاته . وخشوا عاقبة تمكنه ، وأذاعوا أنه طامع في الرياسة بالاثمار مع بني برزال ، ودبروا مؤامرة لقتله والتخلص منه : واتفق على أن يقوم واصل حاكم وادي آش وهو صديق الناية وموضع ثقته بتنفيذ الجريمة : ووعدوه بالوزارة . ولم يمض سوى قليل ، حتى وفد الناية على وادي آش لتحقيق بعض الأمور السلطانية ، ونزل عند واصل ، فانتهر واصل الفرصة السانحة . وقتل ضيفه بالليل وهو سكران . وطار الخبر إلى غرناطة ، فانزعج باديس ، وأوضح له رجال الدولة أن الجريمة تمت لخيره ، وإنقاذه من استبداد وزيره . فتظاهر بالاعتناع مرغماً ، وعهد إلى واصل بمنصب قائد الفرسان .

واستطال حكم باديس بضعة أعوام أخرى ، وتوفي في العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ (يونيه ١٠٧٣ م) (١) بعد حكم دام سبعة وثلاثين سنة .

وكان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر في عصر الطوائف وأقواهم جانباً ، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعة ، إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى إستجة ورندة غرباً ، ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً . وباديس هو الذي مصر مدينة غرناطة ، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية ، وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة ، وسميت باسمها القديم « القلعة الحمراء » وهو الاسم الذي خلد على كر العصور ، وغدا فيما بعد علماً على حراء غرناطة ، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه ، وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة (٢) . وأنشأ حسيماً قدمنا قصبة مألقة المنية ، التي مازالت آثارها باقية إلى اليوم ، وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم ، وبذل له المال الوفير ، ووطد الدولة ، ونظم مراتبها وعمالها . بيد أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى ، ولم يسطع بالأخص ، كما سطعت دولة بني ذى النون البربرية في الشمال ، ولم يجتمع حوله

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٠ . وفي ابن خلدون أنه توفي سنة ٤٦٧ هـ (ج ٤ ص ١٦١) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ . وراجع كتابي « نهاية الأندلس » الطبعة الثالثة ص ٢٨٩ .

الكتاب والشعراء كما اجتمعوا في قصور الطوائف الأخرى ، ذلك أن بلاط غرناطة البربري . لبث محتفظاً بطابع البداوة والحشونة ، الذي كان يغلب على دولة آل زيري ، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة ، التي امتازت بها دول الطوائف الأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن سياسة باديس ، كانت متأثرة بالروح العنصري ، وكانت ترمي قبل كل شيء إلى تأييد زعامة البربر وسلاطنتهم في جنوبي الأندلس . وكان يقابل هذا الاتجاه لدى الأمراء الأندلسيين اتجاه مماثل ، فقد كانوا جميعاً يداً واحدة ضد البربر ، في تلك المعركة التي اضطرت زهاء نصف قرن ، منذ استطاع بنو حمود أن يقيموا سلاطنتهم وخلافتهم في جنوبي الأندلس . ولما نضال سلطان بني حمود ، تولى باديس زعامة البربر ، وأخذ يقود نفس المعركة القديمة ضد أمراء الأندلس . وقد كان هؤلاء الأندلسيون ، على قول ابن حيان ، معاصر هذه الأحداث ، « نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، ومن تميز معه من البربر ، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم ، على اختلافهم في الرأي والدعوة » . ويسوق لنا ابن حيان دليل هذا التحزب في موقف الأندلسيين والبربر من الخلاف ، فقد كان أمراء الأندلس يدعون للخليفة هشام الذي نصبه ابن عباد في إشبيلية ، وكان باديس ومن والاه من أمراء البربر يدعون لإمامهم بمالقة ، وهو إدريس بن يحيى بن حمود .

وكانت هذه النزعة العنصرية تحمل باديس في بعض الأحيان ، على أخطر القرارات والمشاريع . ومن ذلك ما حدث حينما قام أحد الفرسان باغتيال أمير رندة البربري أبي نصر بن أبي نور وذلك بتحريض من المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية . فقد ثار باديس لذلك الحادث اما ثورة ، وجال بخاطره أن يفتك برعاياه الأندلسيين في غرناطة ، وأن يزهقهم جميعاً تخلصاً من شرهم وهوامراتهم ، ورتب الخطة لتنفيذ هذا العزم الدموي ، وذلك حين اجتمع الغرناطيون بالمسجد الجامع يوم الجمعة ، ولم يقتنع بنصح وزيره اليهودي اسماعيل بن نغالة وتحذيره من عواقب عمله ، وحشد الجند للتنفيذ ، ولكن ابن نغالة سبقه ، فدس بعض النساء إلى دور زعماء الأندلسيين وغيرهم ، لتحذيرهم من الحضور إلى المسجد ، وهكذا

فشل تدبيره ، ثم عدل عنه بعد ذلك حينما أيد نصيح وزيره بعض شيوخ صنهاجة^(١) وتشيد الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بما كان عليه باديس من القوة والطغيان والخبروت . فيقول لنا عنه معاصره ابن حبان: « إنه أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنًا ، وأشدّهم سلطانًا ، وأكثرهم رجالًا ، وأوسعهم أعمالًا أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختيارًا ، فلبسه بغيًا واستكبارًا ، وأساء الانتقام ، ولم يقل العثرة ، وأخذ بالظنة ، وأسرف في العقوبة ، وشدّ يدًا بالعصية وتقلد الحمية الجاهلية ، واستأثر بالقسوة والخبرية ، فأسلف في ذلك كله أخبارًا مأثورة »^(٢) . ويقول لنا الفتح في القلائد بعبارته المسجعة المنمقة : « كان باديس ابن حبوس بغرناطة ، عاتياً في فريقه ، عادلاً عن سنن العدل وطريقه ، يجترى على الله غير مراقب ، ويسرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب ، قد حجب سنانة لسانه ، وسبقت إساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولم يشرب الماء إلا من قلب دم . أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابتكر ، وما زال متقدماً في مناحيه ، مفتقداً لنواحيه ، لا يرام بريث ولا عجل ، ولا يبيت له جار إلا على وجل »^(٣) .

ويقدم إلينا عنه ابن الخطيب تلك الصورة القوية الحامعة : « كان رئيساً يديساً ، طاغية جباراً شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جلدأً شديد الأمر ، شديد الرأي ، بعيد المهمة ، مأثور الإقدام ، شره السيف ، وارى زناد الشر ، جماعة للمال ، ضحمت به الدولة ، ونهت الألقاب ، وأمنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناح سيفه العمران ، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب بيأسه النظر ، وانفسخ الملك ، وكان ميمون الطائر ، مطعم الظفر ، مصنوعاً له في الأعداء ، يقنع أقتاله بسلمه ، ولا يطمع أعداؤه في حربة »^(٤) .

على أن حفيده الأمير عبد الله بن بلقين ، يحاول أن يقدمه إلينا في صورة أقل جفاءً ، وأكثر إشراقاً حين يقول : « وكان باديس بن حبوس - جدارنا رحمه الله ، كبير النفس ، على المهمة ، حاد المزاج ، لا يستطيع أحد أن يمحرق عليه في أمر

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤ .

(٢) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .

(٣) قلائد العقيان ص ١٨ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٣ .

من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بني عمه ، ثقة منه بسعاداته ، وأن الانخضاع والتمريض في القول لا يعنيه ، ولا يزيد في أيامه . وكان ذلك كله منه في حزم وروية ، لا يفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض ، فوجست أنفُس البعض منه ، وأشربوا هيئته وخافته (١) .

والخلاصة أن باديس كان طاغية من أقوى الطغاة البربر ، الذين عرفهم الأندلس ، ومن أشدهم ذهاء وقسوة وإقداماً ، ومن أكثرهم ظفراً في الحروب . وكان أسوة بسائر ملوك الطوائف ، قد اتخذ ألقاب الملك ، وتلقب بالمظفر بالله ، الناصر لدين الله .

— ٥ —

ولما توفي باديس المظفر بالله ، اتفق رجال الدولة وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقَيْن مكانه ، وكان صبيّاً حدثاً . وكان أخوه الأكبر تيمناً يتولى حكم مالقة منذ أيام جده . أما ماكسن ولد باديس ، فقد كان خارجاً على أبيه حسباً ذكرنا من قبل ، وكان قد عاد إلى مدينة جيان ، وامتنع بها ، وكان سيئ الخلال والسيرة : فلم يلتفت إليه ، ولم يقم أحد بدعوته ، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبي ، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة ، وكان هذا الوزير رجلاً حازماً ، قوى العزم ، شديد السطوة ، مرهوب الجانب ، فضبط الدولة ، واستأثر بالسلطة ، وأحسن السيرة .

وكان المعتمد بن عباد يرقب سير الحوادث في غرناطة . فلما توفي باديس ، وخلفه حافده الصبي ، أدرك أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشاريعه ، فسار في قواته إلى مدينة جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية ، واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) . ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة في قوات كبيرة ، وابتنى بعض الحصون على مقربة منها ، لكي يستطيع بواسطتها إرهاب المدينة . فحشد الوزير سماجة قوات صنهاجة ، وأبدى منتهى العزم في مقاومة المغيرين ، فاضطر ابن عباد أن يعود أدراجه دون طائل (٢) . ورأى الأمير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة ، أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، على نسق معظم أمراء الطوائف ، معاهدة

(١) كتاب التبيان ص ٢٧ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

حلف وصداقة ، يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار . وعلى أثر ذلك سار عبد الله في قوات صنهاجة ، ومعها سرية من الجند النبصارى أمده بها ألفونسو السادس ، وأغار على أراضي إشبيلية المجاورة ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة الواقع في جنوب غربي جيان .

وفي العام التالى سار ألفونسو إلى إشبيلية وغرناطة ، ومعه وزيره ومستشاره النصرانى المستعرب الكونت سسندلو (ششند) ، وهو الذى سبق ذكره في حوادث سقوط طليطلة ، ليطالب بأداء الجزية المفروضة . ويقول لنا الأمير عبد الله في مذكراته ، إنه أبى أن يدفع تلك الجزية ، وإنه لم يخش يومئذ ضرراً من ألفونسو ، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف (١) . وهنا يقوم المعتمد بن عباد بدوره المأثور في انتهاز الفرصة ، وفي استعداء ملك قشتالة . ذلك أنه بعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ، فعقد معه اتفاقاً وحلفاً ، خلاصته أن يتعاون الفريقان في افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد ، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال للملك قشتالة ، وأن يؤدي ابن عباد إليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار (٢) .

وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده ، وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة ، شحنته بالخذ لإرهاق المدينة . وحاول ابن عباد أن يؤثر بواسطة هذا الحصن في أهل المدينة ، ولكنه لم ينل منها مأرباً بالرغم مما أحاق بها من الضيق . ولما منى ابن عباد بالهزيمة في قرطبة على يد ابن ذى النون (٤٦٧ هـ) اضطر أن يخلى الحصن ، فاحتلته جنود غرناطة .

ثم عاد ابن عمار فحرض ألفونسو السادس على غزو أراضي غرناطة ، وزين له سهولة افتتاحها ، وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أن يتفاهم مع الملك النصرانى ، فسار إليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدي جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة جنوب غربي جيان ، وهذه باعها الملك النصرانى إلى ابن عباد . وينقل إلينا الأمير عبد الله بهذه المناسبة ، ما سمعه من أقوال الكونت سسندلو (ويسميه ششلاند) مستشار ألفونسو ، شرحاً لسياسة مليكه في الاستيلاء

(١) كتاب التبيان ص ٦٩ .

(٢) التبيان ص ٧٠ .

على الأندلس ، على النحو الآتي ، قال : « وإنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بأخمس البقاع ، جليقية ، فهم الآن عند التكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف (١) .

والتفت عبد الله للشئون الداخلية ، فعمل أولا على إزالة وزيره سماجة ، وكان هذا الوزير قد غلا في الاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالأمور ، حتى شعر عبد الله بأنه لم يبق له سلطان إلى جانبه . ومن جهة أخرى ، فقد كان هذا الاستبداد يثير سخط رجال الدولة وطوائف الشعب عليه ، حسبا يحدثنا بذلك الأمير في مذكراته ، ومن ثم فقد عمل عبد الله على إقالة وزيره بالحسن ، وسمح له أن يسير في أهله وأمواله الطائلة إلى ألمرية ، حيث نزل بها في كنف صاحبها ابن صمادح ، واستقر هناك بحال ثروة وغناء (٢) .

وحاول عبد الله أن يعمل في نفس الوقت على تنظيم الإدارة ، وعزل الحكام الظلمة ، وبدأ في ذلك بوادي آش ، فعزل حاكمها ابن أبي جوش واعتقله ، ثم عزل حاكم المنكب وعين حكاما آخرين يظن فيهم العدل وحسن السيرة . وعقد الصلح والمودة مع ابن صمادح صاحب ألمرية ، بعد أن سوى النزاع بينهما على حصون الحدود مما يلي فنيانه (٣) .

وكان تميم بن بلقين أخو عبد الله ، قد استقل في تلك الأثناء بحكم مالقة وأعمالها ، وتلقب بالمنتقم بالله ، واستبد وساء في حكمه السيرة ، وأخذ يغير على نواحي المنكب وغيرها مما هو واقع تحت حكم أخيه . فسار إليه عبد الله في بعض قواته ، واستولى على بعض حصون مالقة الأمامية ، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة وهزم عبد الله أولا ، ولكنه عاد فهزم جند مالقة ، وضيق على المدينة ، فبعث إليه أخوه يستعطفه ، وتدخلت والديهما في الأمر ، وخشى عبد الله من جهة أخرى أن يتحول أخوه إذا اشتد عليه ، إلى مخالفة ابن عباد ، فال إلى مهادنته ، وترك له حكم مالقة ونواحي الغربية أي غربي مالقة .

(١) كتاب البيان ص ٧٣ .

(٢) كتاب البيان ص ٨٧ و ٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٣) كتاب البيان ص ٨٩ و ٩٠ .

وثار في نفس الوقت كباب بن تميم حاكم أرشدونة (أرجدونة) وأنصيرة
وعاث فساداً في تلك المنطقة ، فسار إليه عبد الله ، وضيق عليه ، حتى خضع ،
وأخرج بالأمان .

وأخيراً تم عقد الصلح والمهادنة بين عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد ،
ولم يتيسر ذلك إلا بعد مصرع ابن عمار وزير المعتمد ، وهو الذي يصفه عبد الله
« بالقاسق » ، وبأنه كان أس الفتنة ، وسويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع ،
من حدود وغيرها (أواخر سنة ٤٧٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى وقع الحادث بسقوط طليطلة
في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك في فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٤ مايو
سنة ١٠٨٥ م) ، فاهترت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وأفاق ملوك
الطوائف لأول مرة من تلك الغمرة التي خلدت مشاعرهم ، وأعمت بصائرهم
مدى نصف قرن ، سادت فيه بينهم الفتن والحروب الأهلية ، ولبثوا يمزقون
بعضهم بعضاً ، والعدو الخالد يضرب بينهم ، ويؤلب بعضهم على بعض ويتربص
الفرصة لانتزاع كل ما يمكن انتزاعه من أراضى ذلك الوطن الذي نسوا قضيته ،
وضحوا بمصلحته العليا ، استبقاء لمصالحهم الخاصة ، وأطاعهم الدنيا .

كان سقوط الحاضرة الأندلسية الكبرى - طليطلة - إذن نذير الخطر العام
فهض المعتمد بن عباد - وقد كان يحمل في وقوع تلك الحنة أكبر الأوزار -
ونهمز زملائه أمراء الطوائف ، يحاولون جمع الكلمة ، ويزمعون الاستنجاد
باخوانهم فيما وراء البحر ، ويبعثون بصريخهم ، إلى عاهل المرابطين الأمير يوسف
ابن تاشفين ، حسبما فصلنا ذلك من قبل في أخبار مملكة إشبيلية .

ويقول لنا الأمير عبد الله في مذكراته ، إن أول من خطر له الاستنصار
بالمرابطين من أمراء الأندلس ، هو أخوه الأمير تميم وإلى مألقة ، وأنه أراد أن
يستعين بهم ضده ليستدرك ما فاتته من ممالك جده باديس ، ولكن أمير المسلمين
لم يلتفت إلى دعوته (١) .

وقد كان عبد الله على اتفاق مع زملائه أمراء الطوائف في استدعاء المرابطين ،
وقد أرسل رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين ، وتم الاتفاق فيما بين

أمراء الأندلس ، وبين أمير المسلمين على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة ، وعلى أنه لا يعرض لأحدهم في بلده ، ولا يشجع أحداً من يروم الخروج عليه^(١) .

ويحمل ابن الخطيب على الأمير عبد الله ، ويقول إنه كان جباناً معتمد السيف متكاسلاً عن الخيل ، زاهداً في النساء ، موصوفاً بالضعف ، لكنه يكتب ويشعر ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة ، ثم يقول لنا إنه وقف خلال زيارته لبلده أنعمت على ديوان لعبد الله بخطه « ألفه بعد خلعه ، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه ، مما يستظرف من مثله » مشيراً بذلك إلى مذكراته ، وهي التي رجعنا إليها في مختلف المواطن^(٢) .

ونستطيع أن نستشف من هذه المذكرات التي تركها لنا الأمير عبد الله بعنوان « كتاب التبيان » والتي كتبها فيما بعد خلال إقامته في منفاه بأغمات ، وسرد فيها تاريخ آبائه ، وأحوال حكمه ، وحوادث الأندلس في عصره : نستطيع أن نستشف منها ما يؤيد قول ابن الخطيب في جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والملاينة والدعة ، وفي مجانبته للإقدام ، وتخوفه من الحروب وعواقب التضال ، وجهه للسلامة والعافية ، وإنه ليشكر الله في آخر مذكراته أن نجا من المصير الذي حل بابن الأفطس ، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين^(٣) .

(١) التبيان ص ١٠٣ .

(٢) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٣) كتاب التبيان ص ١٧٦ .

الفصل الثاني

الإمارات البربرية الأخرى في جنوبي الأندلس

الإمارات البربرية في الجنوب. خواصها وتكتلها. إمارة قرمونة. بنو برزال وجوازم إلى الأندلس. ولاية عبد الله البرزالي لقرمونة. استبداده بها. حكمه وسيرته. التحالف بين البرزالي وابن عباد. انقلاب ابن عباد عليه. الحرب بين ابن عباد والبربر. وفاة البرزالي وولاية ولده إسحاق. ولاية عزيز المستظهر. إرهاب ابن عباد له. نزوله عن قرمونة لابن ذي النون. نزول ابن ذي النون عنها إلى ابن عباد. بنو يفرن وجوازم إلى الأندلس. نزولهم أيام الفتنة برندة. زعيمهم أبو نور هلال. مصانعة ابن عباد للبربر ثم غدره بهم. بادييس ولد أبي النور. عود أبي النور إلى رندة ووفاته. ولده أبو نصر فتوح ومصرعه. استيلاء ابن عباد على رندة. بنو دمر وهجرتهم إلى الأندلس. نزولهم بمورور. أبو تزييرى الدمري وولده نوح. محمد بن نوح ومصرعه في كين ابن عباد. ولده مناد يخلفه. غارات المعتمد على مورور. إذعان مناد ونزوله عنها إلى ابن عباد. بنو خزرون وتغلبهم على أركش. محمد بن خزرون وخلفاؤه. غارات ابن عباد على أركش. تغلب بنو خزرون عنها وخروجهم منها. مدامة ابن عباد لهم. استيلاء ابن عباد على أركش وأراضيها. انتهاء الدول البربرية في تلك المنطقة.

إلى جانب دولة بني مناد أو بني زيري في غرناطة، كانت تقوم ثمة عدة إمارات بربرية أخرى في هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، منطقة المثلث الإسباني الواقع جنوب نهر الوادي الكبير، والممتد من غربي مملكة غرناطة شرقاً، حتى مصب الوادي الكبير غرباً، ومن الوادي الكبير شمالاً، حتى ثغر مريلة وأرض القرنطيرة جنوباً.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة في هذه المنطقة، يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية. ذلك أن المثلث الإسباني هو أقرب مناطق شبه الجزيرة إلى المغرب، بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الضرورة أمراً ميسوراً، وكذلك تستطيع الأمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة. ومن جهة أخرى فإن اجتماع هذه الإمارات في هذه المنطقة جنباً إلى جنب، كان يحمل معنى التكتل القبلي أو العنصري بصورة واضحة، ويمكنها وقت الخطر من توحيد الصفوف، والتعاون على رد العدو

المهاجم . وهذا مارأينا ينطبق بصورة عملية في المعارك التي لبثت طوال أيام الطوائف ، تضطرم في هذه المنطقة بين البربر وبين خصومهم الألداء بني عباد ، وهم أقوى الممالك الأندلسية المناهضة لهم في معظم النواحي .

وقد قامت هذه الممالك البربرية الصغيرة إلى جانب شقيقتها الكبرى ، دولة بني مناد في غرناطة ، وفي مثل الظروف التي قامت فيها ، وكانت مملكة غرناطة تتولى حمايتها والدفاع عنها كلما دهمها خطر بني عباد ، وكانت هي تلتف في نفس الوقت حول غرناطة ، كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية .

ولم تكن هذه الإمارات البربرية تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة ، ولكنها كانت في الواقع أقرب إلى سيادة العصبة القبلية ، أو رياسة الأسرة ذات البأس والجاه ، ولم يكن لها حكومات أوجيوش منظمة بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت تستند في سلطانها إلى حشود القبيلة أو الأسرة المسيطرة ، وكانت تجري في الحكم على قاعدة الاستبداد المطلق ، وأصول العرف البدوي الساذج ، ومن ثم فلإنها لم تكن محبوبة من رعاياها الأندلسيين . الذين عرفوا منذ بعيد مزايا الحكم المنظم ، ورفاهة العيش المتحضر .

وكانت ثمة من هذه الإمارات — غير مملكة غرناطة — أربع تقوم من حولها . وهي إمارة قرمونة ، وإمارة رندة ، وإمارة مورور ، وإمارة شذونة وأركش .

١ — دولة بني برزال في قرمونة

وكان أهم هذه الإمارات ، إمارة قرمونة الواقعة في منحني الوادي الكبير ، بين إمارة قرطبة شرقاً ، ومملكة إشبيلية غرباً ، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرق إشبيلية . وكانت تشمل غير قرمونة ، مدينة إستجة الواقعة في شرقها . ومدينة المدور الواقعة غربي قرطبة على نهر الوادي الكبير .

وكانت مدينة قرمونة منذ أيام هشام المؤيد ، وقبل انهيار الدولة العامرية ، بيد حاكمها الحاجب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال المعروف بأبي عبد الله البرزالي ، وكان بنو برزال هؤلاء ينتمون إلى بطن من بطون زناتة من بني يفرن ، وكانوا يقطنون بالمغرب بأرض المسيلة والزاب الأسفل . ونحن نعرف أن زناتة كانت أيام الدولة الأموية من القبائل المشايعة لها بالمغرب ضد خصومها الشيعة العبيديين أو الفاطميين ، وكان من خصوم الشيعة في نفس الوقت جعفر ويحيى

ابنا على بن حمدون الأندلسي ، صاحب المسيلة وما جاورها من أراضي المغرب الأوسط . فلما اضطرت الحرب بين بني زيري زعماء صنهاجة وأولياء العبيدين . وبين زناتة وحلفائها ، ومنهم جعفر ويحيى ابنا حمدون ، في أواخر أيام الحكم المستنصر ، وهزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيري بن مناد (سنة ٣٦٠ هـ) ، هاجر جعفر ويحيى في الأهل والصحب والمال إلى الأندلس ، خوفاً من انتقام صنهاجة ، وخدموا الحكم المستنصر ، وحظيا في دولته ، وذلك حسبما ذكرنا من قبل في أخبار الحكم .

ولما استطالت صنهاجة على المغرب الأوسط ، شعر بنو برزال الزناتيين باشتداد وطأتها ، فكتبوا إلى جعفر بن علي الأندلسي ، أن يسعى في جوازهم إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم ، فعمل جعفر على تحقيق رغبتهم ، ووصفهم لدى الحكم بالشجاعة والإنقياد إلى الطاعة ، فأذن لهم بالجواز ، وانتظموا في خدمة الجيش تحت يد جعفر ، واستمروا كذلك أيام الحكم ثم المنصور ، حتى ندب كبيرهم الحاجب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن برزالي أو البرزالي لحكم مدينة قرمونة في أواخر الدولة العامرية ، واستقر أهله وصحبه هنالك في كنفه ، إلى أن وقعت الفتنة ، فخاض بنو برزال غمارها إلى جانب أضرابهم من البطون البربرية الأخرى ، ولما انتثر عقد الأندلس ، واحتفظ كل رئيس بمدينته ، دعا أبو عبد الله لنفسه في قرمونة ، وذلك في سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، واستبد بحكمها ، وضبط شئونها ، ورتب جندها^(١) . وفي بعض الروايات المتعلقة بالطوائف أن أبا عبد الله سار في حكمة سيرة حسنة ، وعامل الرعية بالرفق والعدل فالت إليه النفوس ، وعمرت قرمونة ، وسادها الأمن ، وبابعته مدينة لاستجة ثم أشونة والمدور وغيرها من البلاد^(٢) ، وغدت قرمونة بذلك إمارة لها خطرها وأهميتها في تلك المنطقة ، وغدت بعد غرناطة ، ثاني الإمارات البربرية .

ولكن ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر ، يحمل على أبي عبد الله البرزالي ويصفه « بقطب رحى الفتنة » وينوه بفتكه وعيئه ، وقبح ثاره في تلك المنطقة ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ : وثبة تاريخية في أخبار البربر (الرباط

١٩٣٤) ص ٤٤ .

(٢) نشرت هذه الرواية المتعلقة بالطوائف ، وهي لكاتب مجهول في نهاية الجزء الثالث من

البيان المغرب . راجع منها ص ٣١١ و ٣١٢ .

وقطعه للسبل إلى آخر ماجاء في أقواله ، مما سبق أن ذكرناه في موضعه من قبل (١) . وعلى أى حال فإنه يبدو أن البرزالي ، كان زعيماً قوياً ، وافر الإقدام والعزم والشجاعة . وهذا ما يقرره لنا ابن الخطيب ، إذ يصفه بأنه كان يلى باديس في جلالة الشأن ، وقوة السلطان ، « بقية أمراء البربر المسلمين في هذه الفتنة ، وأعظمهم شأنًا في الدهاء والرجولة ، وأبصرهم بتدبير العساكر ، وأربطهم جأشاً على الخطوب المقلقة » (٢) .

وقد رأينا من قبل كيف كان القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية ، يعتمد في البداية على محالفة البرزالي ضد خصومه ، وكيف كان البرزالي من جانبه يرحب بهذه المحالفة ، اتقاء لشر بنى حمود وأطاعهم في إمارته . وكان من آثار هذا التحالف أن حارب البرزالي إلى جانب ابن عباد ضد بنى الأفتس أصحاب بطليوس ، في حملته ضد باجة سنة ٤٢١ هـ ، وكان من آثاره أيضاً أن توجس يحيى ابن حمود المعتلى صاحب مالقة شراً من مشاريع ابن عباد ، فسار في قواته إلى قرمونة وانتزعها من يد البرزالي ، فاستغاث البرزالي بحليفه ابن عباد ، وبعث ابن عباد قواته مع ولده إسماعيل ، ونشبت بينه وبين المعتلى معركة قتل فيها المعتلى ، واستردت قرمونة وأعيدت إلى البرزالي ، وذلك في المحرم سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

ولكن ابن عباد كانت له نحو قرمونة مشاريع أخرى ، فقد كانت قرمونة حصن إشبيلية من الشرق ، وكان وجودها بيد هذا الزعيم البربرى أمراً لا يحتمل ، ومن ثم فقد تحول ابن عباد فجأة إلى محاصرة البرزالي ، وسير إليه قواته فاستولت على إستجة ، ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة ، وعندئذ استغاث البرزالي ، بزملائه البربر ، وهرع إلى نصرته باديس صاحب غرناطة ، وإدريس المتأيد صاحب مالقة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انتهت بانتصار البربر وهزيمة الإشبيليين ومقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، واسترداد قرمونة ، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) .

وتوفى أبو عبد الله محمد البرزالي بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) بعد أن حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين عاماً .

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب . وراجع البيان المغرب ص ٢٠٦ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

فخلفه والده الأكبر لإسحق بن محمد ، وهو في سن الكهولة . ويصفه ابن حيان بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأس والفروسية ، ولكن دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة ، وكلاهما على ذلك موصوف بالعبث والتزاهة ، والبعد عن آفات الملوك الشائنة (١) . ونظاير أنه لم يحكم طويلاً . بل إن صاحب الرواية الخاصة بالطوائف ، التي سبقت الإشارة إليها ، يغفل ذكره تماماً ، ويقول لنا إن الذي خلف أبا عبد الله البرزالي ، هو ولده عزيز الملقب بالمستظهر وإن أخاه لإسحق بايعه ، وتم له الأمر (٢) .

وسار المستظهر في حكمه سيرة حسنة ، وبايعت له البلاد التي كانت تحت حكم أبيه ، وساد الأمن والرخاء في أيامه ، بيد أنه لم يلبث أن بدأ المعتضد بن عباد في مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه ، واستمرت المعارك بينهما أعواماً ، وهلك في ذلك النضال كثير من البربر ، واضطربت الأحوال في مملكة قرمونة ، وعندئذ بعث عزيز المستظهر إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، يعرض عليه أن يسلمه قرمونة ، نكاية في ابن عباد ، على أن يعرضه عنها ابن ذى النون قسماً من أراضيه الحوفية ، فقبل المأمون هذا العرض ، وانتقل عزيز بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالي إستجة من أراضيه ، وعاش هنالك حتى توفى . وفي أثناء ذلك وقعت المفاوضات بين ابن عباد ، والمأمون ، وتفاهما على أن ينزل المأمون للمعتضد عن قرمونة لقربها من أراضيه ، وأن يتعاون الاثنان على افتتاح قرطبة ، واستلم ابن عباد قرمونة ولكنه لم يف للمأمون بشيء من عهوده (٣) . وفي رواية أخرى ، أن المستظهر اضطرب في النهاية أن ينزل مباشرة عن قرمونة إلى ابن عباد ، بعد ما يثس من القدرة على الاحتفاظ بها ، وأنه سار بأمان ابن عباد إلى إشبيلية ، وهنالك توفى بعد قليل . وكان استيلاء ابن عباد على قرمونة في سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) . وبذلك انتهت دولة بني برزال في هذا القطاع من المثلث الأندلسي ، واختفت واحدة من الإمارات البربرية (٤) .

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٧ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٨ .

(٤) راجع في أخبار ملكة قرمونة ، أعمال الأعلام ص ٢٣٦ - ٢٣٨ ، وذيل البيان المغرب

ص ٣١١ و ٣١٢ . وكذلك : P. y Vives : Historia de los Reyes de Taifas ; p.23

٢ - دولة بني يفرن في رندة

وبنو يفرن هم أيضاً بطن من بطون زناتة، وكانوا بالمغرب من أولياء الدعوة الفاطمية، وقد اشتركوا في الحرب التي وقعت بالمغرب أيام المنصور بن أبي عامر، وقتلهم زيري بن عطية أمير مغراوة وعامل المنصور على المغرب، حتى هزمهم بعد معارك هائلة، وهلك أميرهم يدو بن يعلى وذلك في سنة ٣٨٣ هـ. وعلى أثر ذلك افترقوا إلى شقين، وجنحت منهم شعبة إلى الانحياز إلى الدعوة المروانية، واستأذنوا المنصور في الجواز إلى الأندلس، فأذن لهم وخدموا في الدولة والجيش أسوة بباقي الوافدين من القبائل البربرية. ولما انتهت الدولة العامرية، واضطربت نار الفتنة، وتفرقت القبائل البربرية في النواحي، استقر بنو يفرن في ولاية تاكرونا، واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً لرياستهم^(١)، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرنى. وكان زعيماً «جسوراً جشعاً»، مقداماً، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله، وحصانة قلاعه، ولكنه كان في نفس الوقت عاطلاً عن كل فضيلة وكل خلة حسنة. وبدأ هلال رياسته لمنطقة تاكرونا، حسبما يقول لنا صاحب الرواية المتعلقة بتاريخ الطوائف، عقب وفاة إدريس بن علي بن حمود في سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م)^(٢)، وكانت تشمل أراضى ولاية ريه، ما بين نهر وادي لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع معاقل الأندلس الجنوبية. وقد رأينا القاضي ابن عباد يخطب منذ البداية ود أولئك الأمراء البربر الذين يحتلون أراضى القطاع الأندلسي الجنوبي المتناخم لأراضيه. وجرى ولده المعتضد على سياسته في توثيق أواصر المودة معهم. بيد أن سياسة بني عباد، لم تكن تقوم في ذلك حسبما رأينا، على الصدق والولاء، وإنما كانت تقوم على الخديعة والمصانعة، وقد تجلت حقيقتها في حوادث مملكة قرمونة. وهكذا كان المعتضد يبدى مودته لأبي نور زعيم بني يفرن، وزملائه أمراء بني دمر أصحاب ولاية مورو، وبني خزرون أصحاب ولاية شذونة وأركش،

(١) نبة تاريخية في تاريخ البربر ص ٤٥.

(٢) راجع ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢. ويقول صاحب الرواية إن هلالاً قد بويع له بعد موت إدريس بن علي بن حمود سنة ست وأربعمائة وهو تحريف. فقد توفي إدريس سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٩ م).

وكان يستميلهم بالصلوات والدعوات الودية . وفي سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) وجه المعتضد دعوته لأبي نور ، ولمحمد بن نوح الدمري صاحب مورور ، والقائم ابن محمد بن خزرون أمير بني أرنيان وصاحب شذونة وأركش ، لزيارته في إشبيلية ، فساروا إليه في صحبهم وفرساتهم في أحسن زى وأكل هيئة ، وكان المعتضد قد دبر كمينه لاغتيالهم حسبما فصلناه من قبل في أخبار مملكة بني عباد ، وانتهت هذه الدعوة الغادرة بالقبض على أولئك الأمراء وصحبهم وتكبييلهم بالأغلال ثم هلاك اثنين منهم ، وهما ابن نوح وابن خزرون ، في الحمام ، وأفلت منهم هلال أبو نور ، حيث أطلق المعتضد سراحه وأجلى سبيله .

وفي خلال ذلك كان باديس ولد هلال أبي نور ، قد قام بالرياسة في غيبته أثناء اعتقاله بإشبيلية ، وكان « فاسقاً مجرمًا » فاستبد بالأمير ، وأرهب الناس ببغيه وطغيانه ، وأطلق العنان لشهواته الدنيئة ، فاستباح الحرم وسطا على الأعراض هو وصحبه ، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، ولم يفر حتى أقرب الناس إليه من خاصة محارمه . فلما تخلص أبو نور من الأسر ، وعاد إلى رندة ، وعلم بما وقع من ولده من العظام ، أمر في الحال بالقبض عليه وإعدامه وذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٥٠٧ م) . انه لم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى توفي أبو نور نفسه ، وخلفه في الإمارة ولده أبو نصر فتوح بن أبي نور (١) .

واستطال حكم أبي نصر زهاء ثمانية أعوام . وكان عادلا حسن السيرة . بيد أنه كان ميالا إلى الدعة منهمكاً في الشراب . وكان المعتضد بن عباد من جهة أخرى يتربص به ويتربص الفرصة لهلاكه ، وانتهى بأن دس عليه رجلا من دعائه برندة يدعى ابن يعقوب ، وكان فارساً مقداماً ، فدهم أبانصر ذات يوم في جماعة من صحبه ، وهو في إحدى شرفات القصبة العليا ، وصاحوا بشعار بني عباد ، فحاول أبو نصر الفرار ، ووثب من الشرفة فهوى إلى أسفل ، فارتطم بالصخر وزهق على الأثر ، ولم يأبه الناس لما حدث ، ولم يتعرض للقتلة أحد ، وانتهت بذلك دولة بني يفرن ، واستولى ابن عباد على رندة وأعمالها بأيسر أمر ، وكان ذلك في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (٢) . ونظم المعتضد بهذه المناسبة قصيدته التي مطلعها

لقد حصلت يارندة فصررت للكنة عقدة

(١) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٤ .

٣- دولة بني دمر في مورون

وكانت ثلاثة الإمارات البربرية في تلك المنطقة من الأندلس الجنوبية ، هي إمارة بني دمر في مورور أو مورون^(١) . وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول مدينة مورور ، وجنوباً حتى وادي لكه . وقام بها أيام الفتنة نوح بن أبي تزيiry الدمري زعيم بني دمر . وقد كان بنو دمر من بربر تونس ومن بطون زناتة ، وهم خوارج إياضية . وقد جدهم أبو تزيiry إلى الأندلس أيام المنصور ، وخدم كسائر زملائه الزعماء البرابرة في الجيش ، وانحاز منذ أيام الفتنة إلى تلك المنطقة ، واستقر بها وبسط عليها سلطانه . ولما توفي في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) خلفه ولده نوح بن أبي تزيiry ، واستمر في حكمها زهاء ثلاثين عاماً ، ثم توفي سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فخلفه ولده محمد بن نوح . وكان محمد فقي غرا ، وجندياً جاهلاً ، خلواً من الفضائل . بيد أنه كان مقداماً جسوراً ، « وافر العنف والفنك »^(٢) . وكان حديث عهد بالإمارة ، فاستبد وبغى وتلقب بعز الدولة ، واستطاع بجرأته وصرامته ، أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية الشاسعة ، ويعمل الفكرة في إزالتها ، وكان حسبما تقدم يصانع أولئك الأمراء البربر أحياناً ويهاجمهم أحياناً أخرى ، وقد ذكر لنا صاحب الذخيرة أنه استغل هذه السياسة المزوجة تجاه إمارة مورور الصغيرة ، فأغارت قواته على أراضى مورور ، واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر ، ولم يقابله بمثله^(٣) . وجنح المعتضد بعد ذلك إلى مصانعة ابن نوح ، واستمالته بالصلوات والهدايا ، كما فعل ذلك مع زميله ، أبي نور صاحب رندة ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، ثم دعاهم ومحبهم كما تقدم إلى زيارته في إشبيلية ، ثم قبض عليهم وغدر بهم ، وهلك في ذلك الكمين الخائن الذي رتبته المعتضد في سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) محمد بن نوح وابن خزرون . وفي رواية أخرى أن محمداً بن نوح لبث في

(١) وهي بالإسبانية Morón .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٩ ، وذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) نقله صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٤ .

معتقل المعتضد حتى توفي في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م).

فخلقه في الإمارة ولده مناد بن محمد بن نوح ، وتلقب بعماد الدولة ، وسار على سنة أبيه من الصرامة والحزم ، وقصده البربر من إشبيلية وإستجة وزادت جموعه ، واستمر محافظاً على سلطانه ، والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضيه ، ويحرق بلاده وزروعه ، ويرهقه بطريقة قاسية منظمة . فلما ضاق بهذا العدوان المستمر ، ولما شعر في النهاية أنه عاجز عن الدفاع عن إمارته ، كتب إلى المعتضد ، يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ، ويخرج إلى إشبيلية ، يعيش فيها تحت كنفه ، فأجابه المعتضد إلى رغبته ، وسلم إليه عماد الدولة حصن مورور ، وما يتبعه من حصون وأعمال ، وذلك في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، وانتهت بذلك مملكة بني دمر الصغيرة ، وأضيفت إلى أعمال مملكة إشبيلية الشاسعة . وسار عماد الدولة إلى إشبيلية في أهله وأمواله ، وبالف المعتضد في إكرامه والتوسعة عليه ، وعاش هناك حتى توفي في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) .

٤ - دولة بني خزرون في أركش

وكانت دولة بني خزرون هي رابعة الإمارات البربرية الصغيرة في تلك المنطقة . وبني خزرون هم من أبناء قبيلة يرنيان أو إرنينان من زناتة ، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري ، وهو كبيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية ، قد ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة بكورة شذونة على مقربة من أركش ، وذلك في سنة اثنتين وأربعمائة . ثم تغلب على مدينة أركش المنيعه ، وأقام بها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المحاورة ، وتلقب بعماد الدولة ، وكان زعيما جسورا مقداما ، سفاكاً للدماء ، فهابه الناس واستمر يحكم تلك المنطقة حتى توفي في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) . فخلقه ولده عبدون ابن خزرون ، وبايعته البلاد المحاورة لأركش وقلشانة وشريش ، واستمر حكمه زهاء خمسة وعشرين عاماً ، إلى أن هلك بإشبيلية في الكمين الشائن ، الذي استلرجه إليه المعتضد بن عباد هو وزميلاه محمد بن نوح الدمري ، وأبو نور بن أبي قرة ، حسبما أشرنا إلى ذلك غير مرة ، وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) .

فتولى الأمر من بعده أخوه محمد بن خزرون وتلقب بانقائم ، وأخذ يحصن بلاده ، ويتأهب لمقاومة ابن عباد بعد الذي بدا من غدره . والواقع أن

ابن عباد ما فتحه يترقب الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة التي تجاوره من الجنوب الشرقي ، وتفصله عن إمارة رندة ، وهي التي كان يطمح إلى أخذها في نفس الوقت ، فعمد إلى الإغارة عليها ، وتخريب أراضيها وإرهاقها بكل الوسائل وابتنى حصناً على مقربة من أركش وشحنه بالمقاتلة لمضايقتها بطريقة منظمة ، والقائم صامد يدافع عن أراضيها ما استطاع . وأخيراً ألغى القائم أنه لا يستطيع مدافعة ابن عباد إلى النهاية ، فلجأ إلى باديس بن حبوس أمير غرناطة ، واتفق معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التي تحت حكمه ، على أن يعطيهم أرضاً من بلاده يتزلون بها ويقيمون فيها ، ويثبت باديس بقوة كبيرة من جنده ليعاونهم على الحلاء . وخرج بنو إرنيان من أركش بأهلهم وأموالهم ، يقصدون إلى أرض غرناطة . وكان ابن عباد قد رتب الكائن لاعتراضهم ، فما كادوا يبتعدون بأحلامهم عن القلعة حتى خرجت كائن ابن عباد ، ونشب بين الفريقين قتال مرير ، دافع فيه بنو إرنيان عن أنفسهم وعن أموالهم وحریمهم أشد دفاع ، بيد أنهم مزقوا في النهاية ، وقتل أميرهم محمد بن خزرون وقتل معه قائد جند باديس ، وأبيد معظمهم . ومما يذكر أن محمداً بن خزرون لما شعر بالهلاك أمر غلامه أن يقتل زوجته وكانت رائعة الحسن ، وكذلك أخته ، حتى لا تنفعا في أيدي العدو ، واكتفى ابن عباد بتمزيق بني إرنيان وترك فلولهم دون مطاردة ، ودخل أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها ، وذلك في سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) (١) وهكذا سقطت الإمارات البربرية الصغيرة الأربع ، التي تقع في منطقة المثلث الإسباني الجنوبي ، وضمت كلها تبعاً إلى مملكة إشبيلية القوية ، وذلك خلال أعوام قلائل فقط ، رندة في سنة ٤٥٧ هـ ، ومورور سنة ٤٥٨ هـ ، وقرمونة سنة ٤٥٩ هـ ، وأركش في سنة ٤٦١ هـ .

وأضحى مملكة إشبيلية ، بعد الاستيلاء على تراث هذه الإمارات ، تمتد من ولاية تدمير شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن وسط الأندلس ، من شرقي مملكة طليطلة ، وغربي مملكة قرطبة شمالاً ، حتى أرض الفرنتيرة ، وثمر الجزيرة جنوباً ، وإذا استثنينا مملكتي ألمرية وغرناطة ، فإن مملكة إشبيلية كانت تضم معظم تراث الدولة الأموية الذاهبة في وسط الأندلس وفي جنوبها .

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، والبيان المغرب ج ٤ ص ٢٧١ و ٢٧٢ وذيله ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الكتاب الثالث
دول الفتيان الصقلية وخلفائهم
في شرق الأندلس

الفصل الأول

ملكة المـرية

الفتيان الصقالبة . اشترأكم في حوادث قرطبة . نزوحهم إلى شرق الأندلس . استيلاء خيران العامري على أوريولة ومرسية والمـرية . يؤيد خلافة المرتضى . اختيار الفتیان لعبد العزيز المنصور قريعاً لهم . خيران يبايع محمد بن عبد الملك ثم يختلف معه . حكم خيران في المـرية ومنشأته . شجاعته وإقدامه . وفاته وولاية زهير العامري مكانه . صفاته . وزيره أحمد بن عباس . حملته إلى غرناطة ومصرعه . استيلاء عبد العزيز بن أبي عامر على المـرية . استنلافه لوزيره ابن صمادح عليها . قلب ابن صمادح على المـرية . بنو صمادح وزعيمهم أبي يحيى عامل وشقة . ولده ممن يتولى الوزارة لصهره عبد العزيز ثم يتزع منه المـرية . وفاته وقيام ولده أبي يحيى المعتصم مكانه . صداقته إباديس صاحب غرناطة . خلافه مع عبد العزيز صاحب بلنسية . الثورة في لورقة . تأييد عبد العزيز لها . الحرب بينه وبين المعتصم وباديس . استقلال الثوار بحكم لورقة . الخلاف بين المعتصم وباديس . استيلاء المعتصم على أراضي غرناطة الشرقية . استيلائه على جيان . الخلاف بين المعتصم وعبد الله صاحب غرناطة والصلح بينهما . أدب المعتصم وشاعريته . أقوال ابن بسام . سقوط طليطلة وموقف المعتصم من استدعاء المرابطين . تنافسه مع ابن عباد لدى أمير المسلمين . مساهمة جنده في موقعة الزلاقة . مساهمته في حصار حصن لبيط . وفاته وما يروى حولها . ولده معز الدولة . فراره من المـرية عند مقدم المرابطين .

١ - عهد الفتیان العامريين

لما وقعت الفتنة ، وانتهت الدولة العامرية ، تبرع محمد بن هشام المهدي على كرسي الخلافة ، في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ، ومقتل عبد الرحمن بن المنصور ، بعد ذلك بأيام قلائل ، غادر معظم الفتیان الصقالبة قرطبة ، فراراً من اضطهاد العهد الجديد ، وقصدوا إلى شرق الأندلس ، حيث كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً ، وجوال العمل والمغامرة أكثر انفساحاً . وكان منهم عدة من الفتیان الفحول والخصيان الأذكياء ، ذوى الإقدام والعزم ، مثل مجاهد ، وقد غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ، وليب وقد غلب على طرطوشة . ومظفر ومبارك وقد غلبا على بلنسية ، ونبييل وقد غلب على شاطبة ، وخيران ، وقد غلب على المـرية ومرسية وأوريولة .

ولمّا بهمنا هنا ، من هذه الجمهرة من الفتیان الصقالبة ، خيران العامري ،

وقد كان من أقواهم عزماً ، وأنشطهم إلى خوض غمار الحوادث ، التي تلت سقوط الدولة العامرية . ونحن نعرف أن محمداً بن هشام المهدي حينما تولى الخلافة ثار عليه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في أنصاره ومرشحيه من البربر ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة حول قرطبة وفي الزهراء ، هزم فيها سليمان وحزبه في البداية . وكان الفتيان العامريون يتقدمون على المهدي ما فعله بهشام المؤيد من حبسه بالقصر واضطهاده ، وما فعله بعبد الرحمن المنصور وبني عامر ، فائتمروا به وقتلوه ، وكان من بين مدبري هذه المؤامرة الحاجب واضح الفتي ، وزميله عنبر وخيران ، وكانا قد قدما من شرقي الأندلس إلى قرطبة مع عدد آخر منهم ، ليشتبكوا في حوادث قرطبة ، وليبحثوا عن طالعهم فيها .

ورفع الفتيان الصقالبة ، هشاماً المؤيد إلى كرسي الخلافة مرة أخرى ، وتولى واضح حجابته . ولكن البربر تمسكوا بموقفهم وبمرشحهم سليمان ، واستأنفوا هجومهم على قرطبة وحاصروها ، وقتلوا أهلها بمنتهى الشدة ، ودافع القرطبيون عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، ولكنهم ضاقوا بالحصار والعدوان ذرعاً ، ووجه اللوم في ذلك إلى الحاجب واضح ، فقتله زملاؤه ، وفي النهاية تغلب البربر على كل مقاومة ، واعتلى سليمان كرسي الخلافة باسم المستعين ، وذلك في شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو ١٠١٣ م) .

وكان الفتيان العامريون قد خشوا العاقبة بعد مقتل واضح ، وهالهم في نفس الوقت ، ما ارتكبه سليمان وصحبه البربر من العيث والسفك ، وجرح الكثير منهم خلال القتال ومنهم خيران ، فغادروا قرطبة ناجين بأرواحهم ، وقصدوا إلى شرقي الأندلس مرة أخرى .

وسار خيران أولاً إلى أوريولة في شرقي الأندلس فاستولى عليها ، ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير ، فأخضعها لسلطانه (٤٠٣ هـ) ، وخرج منها بعدئذ بقواته إلى ثغر ألمرية . وكان عليها أفلح الصقلي ، وهو حسباً تصفه الرواية غرّجلف ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، وكان يدل على زملاته الفتيان الصقالبة بقدمه وشيخوخته ، فهاجمه خيران ، وقتله هو وولده ، وانترع منه ألمرية ، وذلك في المحرم سنة ٤٠٥ هـ (يولي ١٠١٤ م) وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية ، ومستودع أمواله وعدته ، كما غدت مركز الدعوة

لإمامة هشام المؤيد ، وهو الذى كان يعتبره فتيان الصقالبة إمامهم ومولاهم .
وقد رأينا فيما تقدم من أخبار الدولة الحمدوية ، كيف ادعى على بن حمود
الحسنى حاكم سبته أيام الفتنة ، أنه تلقى عهد هشام ، وكيف تحالف معه خيران
ثم عاونه بقواته ، كما عاونه بربر غرناطة ، وانتهى الأمر بأن زحفت القوات
المتحدة على قرطبة ، وكتب النصر لعلى بن حمود ، ودخل قرطبة ، ولما لم يعثر
على هشام المؤيد بالقصر ، دعا لنفسه بالخلافة ، وبدأت بذلك دولة بنى حمود
(سنة ٤٠٧ هـ) .

ثم رأينا كيف غادر خيران قرطبة مغضباً متوجساً من غدر على بن حمود ،
وقصد إلى جيان ، ودعا أصحابه بالخلافة لعبد الرحمن المرتضى ، وأيده في تلك
الحركة عدة من ولاية الثغور ، ثم وقعت الحرب بين قوات المرتضى وبربر
غرناطة ، فهزم المرتضى ثم قتل ، وعندئذ سار خيران في أصحابه ، وقصد إلى
ألمرية مرة أخرى ، وكان ذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .

والظاهر أن خيران ، بالرغم من اتخاذه ألمرية قاعدته الرئيسية ، قد لعب
في حوادث شرق الأندلس دوراً ملحوظاً . ذلك أن الفتيان العامريين في شرق
الأندلس ، قد اتفق رأيهم على أن يتخذوا لهم رئيساً من سلالة مولاهم العظيم ،
المنصور بن أبى عامر ، ينضوون جميعاً تحت لوائه من الناحية الأدبية ، فوقع
اختيارهم في ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، وكان فتي حدثاً
ونحن نذكر أنه كان أيام أبيه عبد الرحمن المنصور طفلاً ، ومع ذلك فلقد أسبغ
عليه والده لقب الحجابة ، ولقبه بسيف الدولة ، وكان منذ مصرع أبيه
قد غادر قرطبة سراً ، وسار إلى سرقسطة ، وأقام بها في كنف صاحبها منذر
ابن يحيى التجيبى ، فلما اختاره الفتيان العامريون زعيماً لهم ، غادر سرقسطة ، ولحق
بشاطبة ، حيث أعلنت بيعته ، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) . وفي رواية
أخرى أن سليمان بن الحكم المستعين ، حينما ولى الخلافة لأول مرة ، عمل على رد
اعتبار بنى عامر ، فدفن شلو عبد الرحمن المنصور بالتكريم ، وآوى ولده الطفل
عبد العزيز ، وابن عمه الطفل محمداً بن عبد الملك تحت رعايته ، فبقيا في كنفه وقتاً
قصيراً ، حتى خلع ، واسترد محمد بن هشام الخلافة . فعندئذ غادر الطفلان
قرطبة (١) . ولسنا نعرف ماهو الدور الذى أداه خيران في اختيار عبد العزيز

للزعامة ، وهل كان من مؤيديه أم من خصومه . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك حتى اختلف خيران مع عبد العزيز ، وأعلن الخروج عليه ، وسار من ألمرية إلى مرسية ، وهناك بايع بالزعامة محمداً بن عبد الملك بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان قد غادر قرطبة ولجأ إليه ، فقدمه وصحبه إلى مرسية ، وثار في نفس الوقت أهل شاطبة بعبد العزيز فغادرها سراً إلى بلنسية . وتسمى محمد بالمؤتمن ، ثم بالمعتصم . ثم تنكر له خيران ، وأخرجه من مرسية ، واستولى الفتيان على أمواله ، فسار إلى غرب الأندلس ، وعاش هنالك حتى توفي (١) وهكذا لم يكن خيران ، وهو في عمالته في شرقي الأندلس ، دائماً على وفاق مع أصحابه الفتيان العامرين ، وكانت علاقته بالأخص سيئة مع مجاهد صاحب دانية ، وكانت تقع بينهما المناوشات والمعارك من آن لآخر .



ولنتبع بعد ذلك حكم خيران في ألمرية ، بعد أن فصلنا الحوادث التي خاضها منذ اضطرام الفتنة ، والتي تدل في مجموعها على ما كان يتمتع به هذا الزعيم الصقلي من الحصافة ، والإقدام ، وقوة العزم . استقر خيران في ألمرية ، وبسط حكمه على أعمالها ، وكانت إمارة ألمرية تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطئ إسبانيا الشرقي الجنوبي ، على هيئة مثلث كبير ، غرباً حتى وادي آش وحدود مملكة غرناطة ، وشمالاً حتى بسطة وجيان ، وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية ، وهذا عدا أوريولة ومرسية ، وقد كان يحكمهما بالنيابة زهير العامري . وأبدى خيران في ضبط ألمرية وتنظيمها همة فائقة ، وحصن ألمرية ، وأصلح قصبتها الشهيرة ، وزاد فيها حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، وأودعها أمواله وذخائره ، وما زالت أطلالها الماثلة إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة . وزاد خيران في قبلة جامع ألمرية زيادة اتسع لها الجامع ، وبنى السور الهابط من الجبل إلى البحر ، وجعل له أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة (٢) ونظم خيران جيشه ، واستوزر

(١) يراجع في هذه الحوادث أعمال الأعلام ص ٢١٠ و ٢١١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ،

والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 96-98.

(٢) كتاب ترصيع الأخبار للذري (نصوص عن الأندلس نشرت منه بناية الدكتور

عبد العزيز الأزهري) (مدريد ١٩٦٥) ص ٨٣ .

الكاتب البليغ أحمد بن عباس بن أبي زكريا ، وعامل رعيته بالرفق والعدل ، وفي أيامه بلغت ألمرية منتهى العمران والرخاء ، وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس . وكان خيران رئيساً وافر الدهاء والشجاعة ، والحصافة ، وحسن التدبير ، وكان بصيراً بالحروب ومكايدها ، وقد جرت بينه وبين جيرانه البربر أصحاب غرناطة ، وقائع أبدى فيها قوته وصرامته ، فهابوه ، ولم يفكروا في مناوآته . وكان فوق ذلك كله متواضعاً زاهداً في الألقاب ، فلم يتسم بشيء من تلك الألقاب الضخمة ، التي اتسم بها سائر أمراء الطوائف في عهده ، واكتفى بما كان يوصف به من « الخليفة » و « الفتي الكبير » (١) .

وقد مدحه شاعر العصر الكبير ، أبو عمرو أحمد بن دراج القسطلي ، بقصيدته الشهيرة ، التي مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد وافاك عز وسلطان
هو النجم لا يدعي إلى الصبح شاهد هو النور لا يبغى على الشمس برهان
إليك شحتا الفلك تهوى كأنها وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا ترامى بنا فيها ثبير وشلان (٢)

وتوفي خيران العامري بألمرية في جمادى الآخرة سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فاجتمع في الحال رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير أحمد بن عباس ، ونبأهم بأن خيران ، قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه زهير العامري ، واتفق الجميع بذلك على تولية زهير . وكان خيران حينما شعر بدنوا أجله قد بعث بالفعل يستدعي زهيراً ، نائبه في مرسية وجيان ، فقدم زهير على عجل ، وأدرك خيران قبيل وفاته ، فلما توفي قام في الحال مكانه ، وتسلم زمام السلطان ، ورضى به الناس ورجال الدولة (٣) .

وكان زهير ويكنى أبا القاسم ، من أهم الفتيان العامريين ، وأشدهم بأساً ، « وكان شهماً داهية » بعيد النظر ، وقد لعب في حوادث الفتنة بقرطبة أدواراً أشرنا إليها في مواضعها ، ولما تولى حكم ألمرية اقتنى أثر صاحبه خيران في حسن

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٢ .

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود علي مكي (دمشق ١٩٦١) ص ٨٦ - ٨٨ ، ووردت في الذخيرة (القسم الأول المجلد الأول ص ٧٤ - ٧٨) ، وكذلك ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص ٢١٢ - ٢١٥) وهي طويلة جداً .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

السيرة وحفظ النظام ، وهو الذى زاد فى المسجد الجامع بالمرية من غريبه وشرقيه وجوفيه ، وعظم المسجد بذلك . وبني السقاية ، وكثر الماء فى المرية . وكان يكرم الفقهاء ويشاورهم فى الأمر .

وكانت مملكة ألمرية وقت أن تولى حكمها زهير ، تمتد من ألمرية حتى شاطبة ، شرقاً ، وتمتد شمالاً حتى جيتان وبيتاسة ، وحتى أعمال طليطلة ، ولو أن زهيراً استمع إلى صوت العقل والحكمة ، وقنع بتدبير مملكته الكبيرة ، لكان له فى تاريخ الطوائف شأن آخر ، ولكنه كان يقع تحت نفوذ وزيره الكاتب أحمد بن عباس ، وقد كان هذا الوزير ، بالرغم من صفاته العلمية والأدبية اللامعة ، ميالاً إلى التهور والمغامرة ، وكان يلتقى فى روع أميره مشاريع خطيرة ، ويحرك أطماعه بتحريضه وسيئ نصحه ، والظاهر أنه هو الذى بعث إليه فكرة غزو غرناطة ، على أثر موت أميرها حبوس بن ماكسن ، وتولى ولده باديس الحكم مكانه فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) . فنظم زهير حملته المشؤمة إلى غرناطة ، ولم يلتفت إلى ما طلبه إليه باديس وأخوه بلثقين ، من تجديد أواصر المودة والصداقة التى كانت معقودة بينه وبين أبيهما حبوس ، ثم سار إليها فى قواته الكبيرة ، وقد أخذه الغرور والعجب ، حسباً فصلناه فى أخبار غرناطة ، وهناك التقى بقوات باديس فى ظاهر قرية ألفنت القريبة من غرناطة ، وذلك فى آخر شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ونشبت بينهما الموقعة الهائلة التى انتهت بهزيمة زهير ومصرعه وتمزيق قواته ، وأسر أكابر رجاله ، وفى مقدمتهم وزيره ابن عباس ، وقد قتله باديس أيضاً بعد ذلك بأسابيع قلائل (١) .

فكانت هذه النكبة ضربة أليمة للمملكة ألمرية ، وكان من أثرها أن استولى باديس على الجزء الشمالى الغربى من أراضى ألمرية ، وفيها مدينة جيان أكبر قواعدها الشمالية .

ولما فقدت ألمرية أميرها ووزيرها على هذا النحو ، اجتمع أهلها ، وأسندوا رياستهم إلى شيخ الجماعة أبى بكر الرميحي ، فتولى شئونها ، وضبط النظام والأمن . ثم كتب أهل ألمرية إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية يستدعونه لحكم مدينتهم . وكان عبد العزيز يعتبر أنه صاحب الحق الشرعى فى تراث الفتيان العامرين ، وذلك بحق الميراث والولاء باعتبارهم موالى أسرته ، وكان مذ هلك

زهير ، قد بعث وزيره ابن صمادح إلى باديس ، يلح عليه في إعدام أكابر الأسرى من زعماء ألمرية الذين وقعوا في يده ، ولا سيما الوزير ابن عباس ، حتى لا يعارضه منهم أحد بعد في امتلاك ألمرية ، وبادر عبد العزيز على أثر ذلك إلى ألمرية ، فبايعه أهلها ودخلها في آخر ذي القعدة سنة ٤٢٩ هـ ، ووجد بيت مالها مليئاً بالمال المضروب والذخائر فنقلها جميعاً إلى بلنسية^(١) ، وترك عليها والياً من قبله هو صهره ووزيره أبو الأحوص معن بن صمادح التجيبي ، فكانت ولايته إيداناً بتطور مصابر مملكة ألمرية .

٢ - عهد بني صمادح التجيبيين

ذلك أن عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، لم يكد يفرغ من شئون ألمرية ، حتى جاءته الأنباء بأن منافسه وخصمه مجاهد العامري صاحب دانية وجزائر البليار ، قد تحرك لغزو أراضيه . وكان مجاهد يرقب تقدم عبد العزيز واتساع ملكه بعين الحسد ، فلما شغل بما آل إليه من تراث الفتان في ألمرية ، خرج مجاهد في قواته صوب بلنسية ، فهرع عبد العزيز إلى مدافعته ، وترك صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن صمادح ليرعى شئون ألمرية . وكان معن رجلاً قليل الولاء كثير المطامع ، فأكاد عبد العزيز يغادر ألمرية ، حتى وضع مشروعه للاستئثار بالسلطة ، والاستيلاء على مملكة ألمرية ، وما زال يوطد الأمر لنفسه حتى جاهر بخلع الطاعة ، ودعا لنفسه واستجاب الناس لدعوته ، واستولى على ألمرية وأعمالها وذلك في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، وكان من مؤيديه ومعضديه في هذا الانقلاب باديس صاحب غرناطة . ودخلت مملكة ألمرية بذلك في عهد جديد من تاريخها .

وكان هذا الرئيس الحديد الذي سيطر على أقدار ألمرية ، ينتمى إلى بيت من أعرق البيوتات العربية ، وكان حسباً يوصف من أهل الدهاء والفضل والعلم والأدب^(٢) . وهو معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمادح ، وبه عرف بيتهم . وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ٢١٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٢

وراجع دوزى : Hist. ; V. III ; p.28

(٢) العذرى في « نصوص عن الأندلس » من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤ .

ابن المهاجر بن عميرة ، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس . وفي عبد الرحمن ابن عبد الله يجتمعون مع بني هاشم التجيبين أصحاب سرقسطة ، فهم مثلهم ينتمون إلى تجيب (١) . وكان والده أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح حاكم مدينة وشقة وأعمالها منذ أواخر أيام هشام المؤيد بالله . ولما تولى سليمان الظافر الخلافة في سنة ٤٠٣ هـ أقره على ولايته ، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة في البداية علائق مودة وسلام ، فلما انتهت أيام سليمان ، واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية في سنة ٤٠٧ هـ ، وعادت الأمور إلى اضطرابها ، ساءت العلائق بين منذر وأبي يحيى ، وسار منذر إلى وشقة في قواته واستولى عليها ، وفر أبو يحيى في أهله وولده ناجياً بنفسه . فكان على قول ابن حيان « أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده » . وكان أبو يحيى مع رياسته عالماً محدثاً من أهل الفضل والأدب ، روى عنه ابنه أبو الأحوص معن ، وله مختصر قيم في غريب القرآن . وقد اشتهرت وصيته لابنيه معن وصمادح بأسلوبها البارع ، ومحتوياتها الجامعة لمعظم آداب الدنيا والدين ، ودلائها على وفور علمه ، وجلالة معارفه ، وسمو نفسه (٢) . ووصف لنا ابن بسام في الذخيرة أبي يحيى بأنه كان فارساً مقداماً ، وكان أديباً ذليلاً حسن البيان ، ولكنه كان منكود الطالع ، فلم تدم رياسته طويلاً (٣) .

ولجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، فأكرم وفادته وتوثقت علاقتهما بالمصاهرة ، إذ تزوج ولداه معن وأبو الأحوص ، وصمادح أبو عتيبة بأختى عبد العزيز . ثم أراد أبو يحيى اللحاق بالمشرك ، فمات غرقاً في البحر . وذكر لنا ابن حيان أنه هلك غرقاً في البحر الرومى ، فيما بين جزيرة يابسة

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة (مخطوط الإسكوريال) في ترجمة المعتمد بن صمادح ، لوحة ٨٠ و ٨١ ، ونقلها دوزى مقتضبة في كتابه : Recherches, V. II. App. XX. وذكر ابن الخطيب أن صمادح إنما هو اسم امرأة هي صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله إلى آخر نسبهم ، وأنهم عرفوا باسم أمهم المذكورة (أعمال الأعلام ص ١٨٩) . ولكننا لم نجد تأييداً لهذه الرواية . وبالعكس فإن النسابة ابن حزم يقرر أن صمادح هو جدهم (جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٥) . ويوافق ابن الأبار حسبما تقدم . وراجع الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٧٨ - ٨١ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشى في « الذيل والتكملة » - الجزء الأول - مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٣٦ .

وشاطيء الأندلس ، وكان قد ركب من ثغر دانية ، في مركب تأتق في صنعه واستجادة آله وعتده ، مع نفر عديد من صحبه ، فغرق معظمهم ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ^(١) وبقي ابنه معن في كنف صهره عبد العزيز ، وقد ولاه وزارته ، فلما قتل زهير العامري ، واستولى عبد العزيز على ألمرية ، استخلف عليها وزيره معن . قال ابن حيان : « فكان شر خليفة استخلف . لم يكد يوارى وجهه عبد العزيز عنه ، حتى خان الأمانة ، وطرده من الإمارة ، ونصب له الحرب ، فغرب في اللؤم ما شاء . وتنكب ابن عامر التوفيق لاسترعاة الذئب الأزل على ثلته ، ومسترعى الذئب أظلم ، وكان من العجب أن تملأها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا في عقبه »^(٢) ، وانتهى الأمر باستيلاء معن على ألمرية والدعاء بها لنفسه حسبما تقدم . واستمر معن في حكم ألمرية وأعمالها زهاء عشرة أعوام . وكانت بينه وبين باديس صاحب غرناطة علائق مودة وصداقة . وتوفي سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بعد أن وطد رياسته ، ومهد الملك لعقبه .

فخلفه ولده أبريحي محمد بن معن بن صمادح بإجماع القراية ورجال الدولة ، ولما يستكمل الثامنة عشرة من عمره ؛ وكان أبوه قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، بعد أن عرضها على أخيه صمادح أبي عتبة ، فاعتذر عن قبولها ، واتخذ من الألقاب الملوكية لقبين ، هما المعتمد بالله والوائق بفضل الله ، والرشيد على قول آخر ، وتوطدت في بداية حكمه علائق المودة بينه وبين باديس صاحب غرناطة ، على ما كانت بينه وبين أبيه^(٣) . ولكن الخلاف لبث بالعكس مستحكما بينه وبين خاله عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، وكان باديس يعمل على إذكاء هذا الخلاف وتقويته كلما بدت بوادره . ذلك أنه كان باعتباره زعيم البربر يكره الجهة الأندلسية ، ويحاول دائما أن يعمل على إضعافها ، وكان من أبرز الحوادث المتصلة بهذا الخلاف ثورة ابن شبيب صاحب لورقة على المعتمد وذلك في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) . وكان من الواضح أن هذه الثورة لم تكن بعيدة عن وحي

(١) ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكلة» - ج ١ من مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثاني ص ٢٣٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤

وأعمال الأعلام ص ١٩٠ .

(٣) كتاب التبيين ص ٤٥ .

عبد العزيز . ذلك أن لورقة، وهى آخر قواعد مملكة ألمرية الشمالية الشرقية، تقع على حدود مملكة بلنسية ، وقد استنصر الناصر بعبد العزيز ، فبادر بتلبية دعوته ، وأمدّه ببعض قواته ، وزحف المعتصم فى جيشه على لورقة ، وأمدّه باديس من جانبه بقواته ، ونشبت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة ابن شبيب واستيلاء المعتصم على حصون لورقة ، وعودتها إلى حظيرة مملكة ألمرية (١) . بيد أنه يبدو أن ابن شبيب قد استأنف الثورة بعد ذلك ، واستطاع أن يستقل بحكم لورقة ، وخلفه إخوته الثلاثة فى حكمها بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، واستمر على حكمها باسمه ، حتى سقطت إشبيلية فى يد المرابطين فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (٢) . فلما توفى عبد العزيز فى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ، ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، بعث المعتصم بن صمادح بعض قواته فأغار على بعض حصونه فى تدمير ، وساعده فى تلك الحركة أيضا باديس ، ولكنه باء بالفشل ، وردت جنده على أعقابها (٣) .

ثم تطورت العلاقات بعد ذلك بين المعتصم وباديس ، وثابت للمعتصم أطباع فى الاستيلاء على أراضى غرناطة المجاورة لمملكته . والظاهر حسبما يحدثنا الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة فى مذكراته ، أن الذى كان يوحى إليه بتلك الأطماع ويشجعها ، هو يوسف بن نغالة اليهودى ، وزير باديس ، بل يقول لنا الأمير إن مشروع ابن نغالة كان يرمى إلى تمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة ذاتها (٤) . وعلى أى حال فقد استطاع المعتصم أن يستولى على بعض أراضى غرناطة الشرقية وعلى حصن وادى آش . وقد رأينا فيما تقدم من أخبار باديس أنه ركن إلى الدعة فى أواخر عهده ، ووقع التفكك فى مملكته . وهو قد استرد وادى آش من ابن صمادح فيما بعد ، ولكن الظاهر أنه فقد جيان فى أواخر عهده ، واستولى عليها المعتصم بمدخلة الخوارج فيها . وكانت مملكة ألمرية تشمل

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 105

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) كتاب التبيان ص ٥٣ .

عندئذ من القواعد الهامة غير ألمرية ، لورقة ، وجيان ، وبياسة^(١) التي استطاع المعتصم أن ينتزعها من أملاك على بن مجاهد العامري صاحب دانية، بيد أنه لم يحتفظ طويلاً بمدينة جيان التي استولى عليها المعتمد بن عباد فيما بعد .

ولما توفي باديس وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين ، وقعت بين المعتصم وعبد الله منازعات كثيرة بسبب الحصون الغرناطية الواقعة على الحدود مما يلي فنيانة ، وانتهى الأمر بأن أرغم عبد الله على هدم تلك الحصون استبقاء للمهادنة والسلم بينه وبين أمير ألمرية^(٢) .

وبذل المعتصم جهوداً عظيمة ، في توسيع قصبة ألمرية وتجميلها ، وأنشأ بها قصره الكبير الممتد حتى الجبل ، وإلى جانبه بستانه العظيم ، وأنشأ مجلساً رحباً مفروشاً بالرخام الأبيض ، ومجلساً آخر مقرناً بالرغوف المذهبة ، ويليه من الجهة القبلية أبواب عليها شراجب يمكن منها أن يرى جميع مدينة ألمرية ، وبحرها، وإقبال السفن إلى مرساها وخروجها منه. وجلب المعتصم الماء إلى المدينة ووصلها إلى جامع ألمرية ، وجلب منها فرعاً إلى ما وراء القصبة ، ونظم وصول الماء إلى الرياض الملحقة بالقصر ، كما ابنتى بخارج ألمرية قصوراً فخمة ، وإلى جوارها بساتين تغص بغرائب الأشجار والثمار ، وفي إحداها بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتوحة ، مفروشة بالرخام الأبيض، وكان ذلك البستان الفخم يسمى « بالصمادية » وهو قريب من ألمرية^(٣) .

على أن أهم ما يشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره ، وحمانيته لدولة الشعر والأدب . وقد كان بلاطه الصغير بألمرية، ينافس في مجالسه الأدبية وفي رعايته للأدباء والشعراء ، بلاط إشبيلية .

وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفة من أكابر شعراء العصر ، فقد كان وزيره أبو الأصمغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدرًا يجيد الوصف والمديح ، وكان من شعرائه المختصين به ، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، إمام الموشحات ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وهو من أهل برجة ، وكانت

A. R. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 167 (١)

(٢) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

(٣) العذري في كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٨٥ .

مدائحہ للمعتصم تمتاز بطرافتها ، وبديع تصويرها ، وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالميسر ، أصله من البيرة ، وكان يجيد شعر التهكم اللاذع ؛ وابن الحداد الوادى آشئى ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط المعتصم ، ولكن غضب عليه المعتصم ذات يوم لزلّة ارتكبها فى شعره ، فغادر ألمرية ، ولجأ حيناً إلى بلاط المقتدرين بن هود بسرقة ، ثم عاد إلى ألمرية ، وكان فضلاً عن شاعريته التى تلبو فى مدائحہ الكثيرة للمعتصم ، عالماً بالفلسفة . ومن مديحه للمعتصم قوله من قصيدة طويلة :

لعلك بالوادى المقدس شاطيء	فكالعنبر الهندى ما أنا واطيء
ولنى فى رؤياك واجد ريحهم	فروح الهوى بين الجوانح ناثيء
ولى فى السرى من نارهم ومنارهم	هداة حداة والنجوم طوافيء
لذلك ما حنت ركابى وحممت	عيرائى وأوحى سيرها المتباطيء ^(١)

وقد نوهت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب . فثلاً يقول لنا ابن بسام : « ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة ، أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه ويبرز فيه . غير أنه كان رحب اللقاء ، جزل العطاء ، حليماً عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمته جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبد الله بن الحداد ، وابن عباد ، وابن الشهيد وغيرهم .. » .

ويزيد ابن بسام على ذلك ، أن ما خاضه المعتصم من الفتن والحروب مع خضومة من ملوك الطوائف ، لم يكن مما يتفق وطبيعته الوداعة ، وإنما استلجج إليها ، وأكره عليها إكراهاً^(٢) .

وقد كان المعتصم فى الواقع يؤثر العيش الهادئ بقصره الأنيق المشرف على البحر والمسمى ، « بالصمادحية » وينفق كثيراً من وقته فى المجالس الشعرية والأدبية .

(١) أوردها ابن بسام فى الذخيرة - القسم الأول المجلد الثانى ص ٢١٨ ، وأورد من بعدها قصائد أخرى من مدائحہ للمعتصم (ص ٢١٨ - ٢٣٣) وراجع أيضاً نفس المصدر ص ٢٤١ و ٢٤٢ و ص ٣٧٢ - ٣٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والحلة السيرة (دوزى) ص ١٧٢ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ٨٢ و ٨٣ ، وقلائد العيان ص ٤٧ .

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب ، ولكن بلاطه كان في نفس الوقت مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب ، ومن هؤلاء أبو عبيد عبد الله البكري أعظم جغرافي الأندلس ، وصاحب المعجم الجغرافي اللغوي الشهير ، فقد عاش حيناً في المرية في كنف المعتصم ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته .

وكان بنو صمادح أنفسهم جميعاً من نجوم الشعر والأدب ، فقد كان المعتصم ، وبنوه معز الدولة ورفيع الدولة ورشيد الدولة من شعراء العصر . ولهم جميعاً آثار شعرية انتهى إلينا الكثير منها . وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها (١) وكان المعتصم فوق ذلك كله ، معنياً بشئون الدين ، وإقامة أحكام الشريعة ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخوارج ، يتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث (٢) .

واشتهر المعتصم بن صمادح بشعره وطرائفه الأدبية ، وقد أورد لنا صاحب الذخيرة ضمن ما أوردته من بعض قصائده ، الأبيات الغزلية الآتية :

وتحت الغلائل معنى غريب شفاء الغليل وبرء العليل
فهل لي من نيله نائل ولا بن السبيل إليه سبيل
فما لي إلا الهوى متجر فغير الغواني متاع قليل
فيأربو الحسن في غاية وعصر الشباب وظل المقليل
ذريني أعانق منك القضية بوأرشف من ثغرك السلسيل (٣)

ولما تطورت الحوادث ، وأدت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف ، إلى عاقبتها المحتومة ، واستأسد عليهم ألفونزو السادس ملك قشتالة ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى ظفر بالاستيلاء على طليطلة (صفر ٤٧٨ هـ) ، واتجه ملوك الطوائف وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد ، إلى الاستنصار بأمر المسلمين يوسف

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة كثيراً من قصائدهم (القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤١ - ٢٤٤) . وكذلك في المغرب في حل المغرب ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٣ ، وابن الأبار في الحلة السيرة (المخطوط) لوحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(٢) الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ٨٢ .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤١ .

ابن تاشفين المرابطى ، لم يكن المعتصم فيما يبلو من المتحمسين لتلك الفكرة . ذلك أنه نظراً لموقع مملكته فى الطرف الجنوبي فى شبه الجزيرة ، لم يكن قد آنس بعد خطر النصارى الداهم ، كما آنس ابن عباد وابن الأفطس ، وكان فضلاً عن ذلك يشعر كما يشعر معظم أمراء الطوائف بما يقترن بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة من الاحتمالات الخطيرة (١) . ومع ذلك فإن المعتصم ، حينما عبر أمير المسلمين إلى الأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) لم يتقاعس عن المساهمة فى القوات الأندلسية التى حشدت للتعاون مع الجيش المرابطى ، وذلك حسبما تفصل بعد فى موضعه ، ثم إنه بعد ذلك تقرب من أمير المسلمين يوسف بالهدايا والتحف الجليلة ، والتلطف فى خدمته ، حتى قرب به إليه وأغدق عليه عطفه . وكان يوسف يبدى عطفه وتقديره بالأخص لرجلين من أمراء الطوائف هما المعتصم والمعتد بن عباد ، وكان يقول عنهما لأصحابه إنهما رجلا الجزيرة . ويقول لنا عبد الواحد المراكشى ، إن المعتصم وابن عباد كان يشعر كل منهما نحو الآخر بعاطفة من المرارة والتحاسد ، وأنهما حاولا غير مرة أن يتصافيا باللقاء ، وأن المعتد زار المعتصم بقصره بالمرية ، واحتفل المعتصم بأكرامه أعظم احتفال ، ومع ذلك فقد لبث الضغن كامناً فى نفسيهما . فلما شعر المعتصم بتمكن مترلته لدى أمير المسلمين فيما بعد ، أخذ يدس لديه فى حق المعتد ، ويحاول أن يغير نفسه عليه ، وقد كان فى ذلك فاسد التدبير قصير النظر ، حسبما أثبتت الحوادث فيما بعد (٢) .

ولم يشهد المعتصم موقعة الزلاقة ، معتذراً لدى أمير المسلمين بضعفه وكبر سنه ، ولكن قواته ساهمت فيها بقيادة ولده معز الدولة . واستمر المعتصم بعد ذلك فى الحكم بضعة أعوام أخرى . وكان ألفونسو السادس بعد هزيمته المروعة فى الزلاقة ، قد استطاع أن ينهض من عثارها بسرعة ، وتحول عدوانه عندئذ إلى شرق الأندلس ، حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة . وكانت القوات القشتالية ، قد رابطت فى حصن لبيط (٣) المنيع الواقع فيما بين مرسية ولورقة ، وأخذت ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية ، وكان أمير المسلمين قد

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٠٤ . وراجع كذلك دوزى : Hist., V. III. p. 124

(٢) راجع المجمع ص ٧٣ و ٧٤ .

(٣) هو بالإسبانية Aláido ، وما زالت أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم .

عاد على أثر موقعة الزلاقة إلى المغرب ، فلما وقف على اضطراب شئون الأندلس وتفككها بعد رحيله ، واشتداد عدوان النصارى في المنطقة الشرقية ، عاد فعبّر البحر إلى الأندلس في قواته (٤٨١ هـ) ، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية في حصار حصن لبيط ، وكان المعتصم في مقدمة الأمراء الذين هرعوا إلى المساهمة في ذلك الحصار ، وخصوصاً لقرب ذلك الحصن من أراضيه ، وتعرضها بذلك لعيث النصارى . وطال الحصار مدى أربعة أشهر ، ولم ينجح المسلمون في اقتحام لبيط ، بالرغم من وفرة قواتهم وعددهم ، واضطروا إلى ترك الحصار ، بعد أن فنت معظم حاميته ، واضطر ألفونسو بعد ذلك إلى إخلائه لعقم الدفاع عنه .

وتوفي المعتصم بن صمادح في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن حكم إحدى وأربعين عاماً . بيد أنه شهد قبل أن يتوَّى إلى قبره نذر الخاتمة المشئومة تبدو في الأفق . ذلك أن يوسف بن تاشفين عبر البحر للمرة الثالثة (٤٨٣ هـ) لا لينجد أمراء الأندلس هذه المرة ، ولكن ليقتضى عليهم وعلى دولهم المنحلة المفككة ، وبدأ في ذلك بإمارة غرناطة واستولى عليها ، ثم بعث قواته إلى إشبيلية لتقتضى هنالك على دولة بني عباد . وهنالك روايتان فيما يتعلق بسقوط ألمرية ، الأولى أن المرابطين حاصروها بالفعل ، وامتلكوا معظم حصونها ، وضيقوا على المعتصم ، وهو ملازم سريره يعانى مرض موته ، وأنه ألقى عندئذ عبارته المشهورة : « نُغص علينا كل شيء حتى الموت » . وحينما ألقى جاريته تبكى عند رأسه قال هذا البيت :

ترفق بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل^(١)

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله :

تمتعت بالنعماء حتى ملتها وقد أضجرت عينيَّ بما ستمتها

فيا عجباً لما قضيت قضاءها وملتيتها عمرى تصرم وقتها

وأما الرواية الثانية فتقول بأن المعتصم توفي قبل مقدم المرابطين ، وأنه أوصى

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

قبل وفاته ولده معز الدولة أحمد ، بأنه متى علم بسقوط إشبيلية وخلع أميرها المعتمد وهو قطب الجزيرة ، أن يعبر البحر في أهله وأمواله إلى أمراء بني حماد أصحاب القلعة بشرقي العدو ، وأن معز الدولة تولى حكم ألمرية بعد وفاة أبيه بضعة أشهر . فلما سقطت إشبيلية ، وأسر أميرها المعتمد ، وذلك في رجب سنة ٤٨٤ هـ ، بادر معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار ، ثم ركب البحر في أهله وأمواله في ثلاث سفن أعدها لذلك ، وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة ، واستطاع أن يغادر ألمرية قبل أن يطوقها المرابطون وذلك في رمضان سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) ونزل على آل حماد أمراء القلعة على مقربة من بجاية ، فأكرمت وفادته ، وعاش هناك حتى توفي (١)

(١) أورد هذه الرواية صاحب الحلة السيرة (دوزي) ص ١٧٤ والقاهرة ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ وراجع روض القرطاس (طبعة أبساله ١٨٤٣) ص ١٠١ .

الفصل الثاني

مملكة مرسية

مدينة مرسية وانشاؤها. تغلب خير ان العامرى عليها أيام الفتنة. اختياره محمد بن عبد الملك للزعامة ثم تنكره له . زهير العامرى يتولى حكم مرسية وأوريولة . إمارته لألمرية . نائبه أبو بكر بن طاهر بمرسية . عراقة ابن طاهر وأديه . مصرع زهير وقيام عبد العزيز المنصور مكانه في المريه . إقراره لولاية ابن طاهر لمرسية . حزم ابن طاهر وسراوته . ولده أبو عبد الرحمن يخلفه . استيلاء ابن ذى النون على بلنسية وعزل صاحبها عبد العزيز المنصور . استقلال ابي عبد الرحمن بمرسية . خلاله وعلمه وأدبه . مطامع ابن عباد في مرسية . اتفاق وزيره ابن عمار وأمير برشلونة على افتتاحها . فشل المحاولة . ابن عباد يستأنف الكرة . ابن رشيق يفتح مرسية . القبض على ابن طاهر ثم الإفراج عنه . ندب ابن عمار لحكمها . طمعه في الاستقلال بها . تحريضه لأمرأه النواحي . تحريضه لأهل بلنسية على الثورة . قصيدته في ذلك . متاعب ابن عمار في مرسية . غدر ابن رشيق به واستيلاءه على المدينة . فرار ابن عمار والتجأؤه إلى سرقطة . محاولته فتح حصن شقورة . القبض عليه وتسليمه لابن عباد ثم مصرعه . استبداد ابن رشيق بمرسية . يشترك مع المرابطيين في حصار حصن لبيط . اتهامه لدى أمير المسلمين بالخيانة . تسليمه لابن عباد ثم فراره . استيلاء المرابطيين على مرسية . حياة ابن طاهر في بلنسية ثم وفاته بها .

إن مدينة مُرْسِيَّة ، قاعدة ولاية مرسية أو ولاية تدمير القديمة الواقعة في شرقي الأندلس ، هي مدينة أندلسية محضة ، نشأت وترعرعت في ظل الأندلس المسلمة ، ولم يكن لها وجود عند الفتح . وكانت قاعدة ولاية تدمير عند الفتح هي مدينة أوريولة . وفي سنة ٢١٦هـ (٨٣١ م) ، أنشأ الأمير عبد الرحمن بن الحكم مدينة مرسية لتكون عاصمة لتدمير ، ومقرّاً للعمال والقواد ، وقام على إنشائها عامله مالك بن جابر بن لبيد ، وسميت في البداية بتدمير ، على نسق تدمير الشام^(١) . وكان إنشاء مرسية في بسيط أخضر من الأرض ، يقع في منحني نهر شقورة ، على مسافة قريبة من جنوب غربي أوريولة ، الواقعة على نفس النهر ، قبيل مصبه في البحر الأبيض المتوسط ، ومازالت مرسية حتى اليوم تحتفظ بطابع أندلسي عميق .

(١) الزوخ المطار ، صفه جزيرة الأندلس ، (القاهرة) ص ١٨١ ، بقيت في معجم البلدان تحت كلمة مرسية .

ولما انهارت الدولة العامرية ، واضطربت الفتنة في نهاية المائة الرابعة ، وشعر الفتيان العامريون ، أنه لا أمل لهم في النهوض والسلطان ، خلال الفوضى الشاملة ، التي غمرت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، سار معظمهم إلى شرق الأندلس . وكان من هؤلاء كبيرهم خيران العامري ، فسار أولاً إلى أوربولة ، وهي أمتع قواعد ولاية تدمير ، وبسط عليها سلطانه ، ثم سار منها إلى مرسية واستولى عليها ، وذلك في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . واستخلف عليها نائبه ، وزميله زهيراً العامري ، ثم سار منها في قواته إلى ألمرية ، وانتزعها من صاحبها أفلح الصقلي ، على نحو ما ذكرنا في موضعه ، وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية ، تتبعها مرسية وأوربولة من شرق الأندلس .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف أجمع الفتيان العامريون ، الذين تغلبوا على شرق الأندلس ، على أن يتخذوا لهم زعيماً ، من بيت مولاهم العظيم المنصور ابن أبي عامر ، وكيف وقع اختيارهم في ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، فتمت بيعته في شاطبة ، ثم لحق بعد ذلك ببلنسية ، وبسط سلطانه عليها بتأييد الفتيان ، وتسمى بالمنصور ، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) . ثم أشرنا إلى موقف الخصومة ، الذي وقفه خيران بعد ذلك من زعامة عبد العزيز المنصور ، وإلى ما عمد إليه من ترشيح ابن عمه محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور للزعامة مكانه ، واستقدامه إلى شرق الأندلس ، ونزوله له عن رئاسة مرسية وأوربولة . وتلقب محمد بالمعتصم ، بيد أن أمد رياسته لم يطل ، إذ تنكر له خيران ، كما تنكر من قبل لابن عمه عبد العزيز المنصور ، ثم سار إليه في قواته ، وضيق عليه ، حتى اضطر إلى مغادرة مرسية ، ولجأ إلى أوربولة ، فشدد خيران في مطاردته حتى فر منها ، وسار إلى دانية ، فعاش حيناً في كنف أميرها مجاهد العامري : ثم غادرها إلى غربي الأندلس ، وهناك عاش بقية حياته ، وتوفي في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) (١) .

وعاد زهير العامري نائباً لخيران على مرسية وأوربولة : واستقر خيران بألمرية أميراً عليها ، حتى توفي سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) . وعندئذ خلفه في حكم مملكة ألمرية ، وفي حكم مرسية وأوربولة بالأصالة ،

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

زهير العامري ، واستمر حكمه عليها حتى مصرعه في حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) .

وكان يتولى حكم مرسية وقت أن كان زهير أميراً لألمرية ، نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر . وكان بنوطاهر هؤلاء ، من أعيان ولاية تدمير وسراتها ، وينتمون إلى قيس ، وكان منزلهم بمرسية ، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة . ولما توفي خيران العامري ، وغادر نائبه زهير مرسية ليتولى مكانه إمارة ألمرية ، كان رئيس الجماعة بمرسية أبو عامر بن خطاب ، فخشي زهير ، إن تركه خلفه بمرسية ، أن يثور بها ويتزعها منه ، فصحبه معه إلى ألمرية ، وأسكنه بها حافظاً عليه مكانته ونعمته . والظاهر أن أبا عامر هذا هو حفيد أبي عمر أحمد بن خطاب كبير أعيان مرسية وسراتها أيام المنصور بن أبي عامر ، وهو الذي استضاف المنصور وجيشه عند مروره بمرسية سنة ٣٧٤ هـ ، في طريقه إلى غزوة برشلونة ، وأبدى يومئذ من وافر الشهامة والجود : ما غدا مضرب الأمثال (١) . واستخلف زهير على ألمرية أبا بكر بن طاهر : ندّ أبي عامر وخصيمه لثقتي بولائه وأمانته ، وكان قد استطاع يومئذ أن يفتدي نفسه من أسر مجاهد العامري صاحب دانية ، وأن يعود إلى مرسية (٢) . والظاهر أن ابن طاهر وقع في الأسر حينما غزا مجاهد مرسية ، على أثر وفاة صاحبها خيران ، وتوجسه من مشاريع خليفته زهير ، وكان ابن طاهر عندئذ حاكماً لمرسية حسبما يبدو ذلك من إشارة لابن الأبار ، من أنه بعد عوده من الأسر « عاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لم شعثه ، ووفى بعهده » (٣) .

وضبط أبوبكر بن طاهر مرسية ، وسار في حكمها سيرة حسنة . وكان فضلاً عن عراقة بيته ، وأرومته العربية المؤثثة : وثرائه الواسع ، من أكابر علماء عصره ومن أغزرهم أدباً ، وأبلغهم بياناً ، وكان الشعب المرسي يحيطه بتقديره وحبه ، لما كان يراه من نبيل صفاته ، ووفرة حزمه وإيمانه وصيافته . وبالرغم من أنه كان

(١) الحلة السيرة (دوزي) ص ٢٥١ و ٢٥٢ . (والقاهرة) ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٨٧ . (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٧

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٨٧ .

يستأثر بسائر السلطات ، فإنه لم يتخذ شيئاً من مظاهر السلطان والإمارة ، ولم يتخذ لقباً من الألقاب الملوكية التي كان يشغف بها أضرابه من رؤساء الطوائف ، وإنما كان يسمى فقط بالرئيس (١) .

ولما توفي زهير العامري قتيلاً في حربه مع باديس بن جبوس صاحب غرناطة في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واستطاع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية ، أن يخلفه في إمارة ألمرية ، كانت مرسية وأوريولة من البلاد التابعة لها . وقدر عبد العزيز حزم ابن طاهر ، ورسوخ مكانته ، فلم يتعرض له بشيء ، وأقره على حكم مرسية . وكان ابن طاهر ، مع ولائه الظاهر لعبد العزيز المنصور ، يسير في رياسته وحكمه على قاعدة الاستقلال التام ، ولا ينفذ من أوامر عبد العزيز إلا ما يراه متفقاً مع رأيه وظروف بلده ، ويرسل إلى بلنسية فائض الدخل ، ويقوم بالنفقة على من ينزل طرفه من الجند ، وكان عبد العزيز يقنع منه بهذا المسلك المتسم بالخزم والكرامة والاحترام المتبادل . وفي خلال حكمه الطويل الذي استمر نحو ستة وثلاثين عاماً ، ازدهرت أحوال مرسية ، وعمرها الأمن والرخاء ، وذاعت بها العلوم والآداب لقدوة أميرها الأديب العالم ، واجتمعت له محبة الشعب وتقديره ، وهو ما كان يندر يومئذ في دول الطوائف . وأضحى ابن طاهر في أواخر أيامه من أقوى الرؤساء جانباً ، ومن أغنى سراة الأندلس ، حتى لقد كان يمتلك وحده نصف أراضي بلده ، وكان يعاونه في الحكم والإدارة ولده النابه أبو عبد الرحمن محمد ، ولا سيما في أواخر عهده حيث أصيب بالفالج ، وطالت علته أعواماً ، وتوفي في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) (٢) .

فخلفه في حكم مرسية ولده أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان عبد العزيز المنصور قد توفي قبل ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، وخلفه في حكم بلنسية ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، فأقر عبد الرحمن مكان أبيه على حكم مرسية . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ، صنو أبيه في المراوة والخزم والهيبة ، فسار في الحكم سيرته ، مستقلاً عن حكومة بلنسية ، معتزلاً بطاعتها في نفس الوقت . ونحن نعرف أنه لم يمض على ولاية عبد الملك المظفر لبلنسية أعوام قلائل ، حتى زحف فرناندو ملك قشتالة في قواته على بلنسية وحاصرها ، ثم

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ .

(٢) الحلة السيرة (دوزي) ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

هزم البلنسيين هزيمة شديدة في موقعة بطرنة (٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م) ، وعلى أثر ذلك نفذ المأمون بن ذى النون مشروعه لانتزاع بلنسية من صهره ، زوج ابنته عبد الملك المظفر ، فدخل بلنسية على أثر ارتحال القشتاليين عنها ، وقبض على عبد الملك وولده ، ونفاهما إلى إحدى قلاعهم ، وضمت بلنسية عندئذ إلى مملكة طليطلة .

وهنا ألقى أبو عبد الرحمن بن طاهر ، الفرصة سانحة للاستقلال التام عن حكومة بلنسية وإنهاء ولايته الاسمية لها ، وسار في حكم مرسية وأعمالها أميراً مطلقاً لها . وكانت إمارة مرسية تشمل عندئذ مدينة أوريولة المنيعة ، الواقعة في شمالها الشرقي ، وكذلك بلدة مولة الواقعة في شمالها الغربي تجاة أوريولة ، وإلش وكتندة . بيد أنها لم تكن تشمل لورقة الواقعة في جنوبها الغربي ، وقد كانت لورقة مثل مرسية في البداية تابعة لمملكة ألمرية ، بيد أنها انفصلت عن ألمرية على يد ابن شبيب الناصر بها في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) . وحكمها ابن شبيب المذكور ، واخوته الثلاثة من بعده ، بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، حسبما ذكرنا في موضعه ، واستمرت لورقة بذلك طوال هذه المدة منفصلة عن حكومة مرسية (١) .

وكما أن أبا عبد الرحمن ، كان قرين أبيه في السراوة والقوة والحزم ، فكذلك كان قرينه في العلم والأدب ، بل كان يفوقه في ذلك الضمار . وقد كان أبو عبد الرحمن بن طاهر في الواقع من أعظم علماء الأندلس وكتابها في عصره ، وقد أشاد معاصره ابن بسام بذكره وذكر أدبه في الذخيرة ، وشبهه في أسلوبه بالصاحب بن عباد بالمشرق ، ونوه بروعة رسائله ونبلها ، ولا سيما رسائله الهزلية ، فإنه يتقدم فيها على الجماعة ، ثم وضع عنه كتاباً ضمنه رسائله في أعلام رؤساء الأندلس بخلاصه من محنة اعتقاله (حسبما نذكر بعد) ، وشكر ابن عبد العزيز صاحب بلنسية على السعي في إنقاذه منها ، وهي عدة من الرسائل البارعة ، ضمها ابن بسام مع سواها من رسائله في كتاب عنوانه «سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر» . ويشير إليه ابن عبد الملك في ترجمته بقوله : «وكان أحد المتقدمين في البلاغة ، بارع الكتابة ، فصيحاً ، خطيباً ، وكانت أيامه أيام عدل وأفضال ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وراجع : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. ١٥٥

ودفع باس ، وتسويغ آمال » . ويقول لنا ابن الأبار ، إنه كان من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره في البيان والبلاغة (١) .

ويصفه ابن الخطيب بقوله : « وكان صدر زمانه ، والمثل السائر في بلاغته وبيانه » . وكان أسلوب ابن طاهر يميل إلى الدعابة . « وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه » : وكان بلاط مرسية في عهده منتجج الأدباء والشعراء ، يقصدون إليه ، ويلتفون حوله ، ويغفرونه بمدائحهم ، فيغفرهم برعايته وصلاته . وكان ممن وفد عليه بمرسية الوزير الشاعر ابن عمار ، وزير المعتمد ، وفد عليه أيام خوله ، فأثابه ، ودرس ابن عمار يومئذ أحوال مرسية ، ووقف على قصور معداتها الدفاعية ، ثم دبر مشروعه لافتتاحها فيما بعد (٢) .

— ٢ —

واستمر أبو عبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية زهاء خمسة عشر عاماً ، يتسم عهده بالسلم والرخاء . بيد أنه كان ثمة بعض العناصر الناقمة من خصوم ابن طاهر يسعون إلى نكبته وإسقاطه . وكانت حدود مملكة إشبيلية الكبرى قد امتدت يومئذ ، بعد استيلاء أميرها المعتمد بن عباد على قرطبة وجيان ، حتى نهر شقورة ومدينة لورقة القريبة من مرسية . وكان زعيم لورقة ابن شبيب قد اعترف بطاعة المعتمد ، وأضحى سلطان المعتمد في هذه الأنحاء يهدد مملكة مرسية بطريق مباشر ، فكتب الناعمون من أهل مرسية إلى ابن عباد يدعونه لافتتاحها (٣) ، ويؤكدون له ضعف وسائلها الدفاعية ، وهذا إيضاح لمشروع المعتمد في فتح مرسية . وهناك إيضاح آخر خلاصته أن صاحب هذا المشروع هو أبو بكر ابن عمار وزير المعتمد ، وأنه كان يضطرم برغبة خفية في الحصول على السلطان والإمارة ، أو على حد قول ابن بسام : « كان يطلب سلطاناً ينثر في يديه سلكه ، وملكاً يخلع على عطفه ملكه » . ويؤيد ابن الأبار هذه الرواية ويقول لنا إن ابن عمار

(١) ابن عبد الملك في «الذيل والتكلة» - المجلد الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . وابن الأبار في الحلة السيرة (القاهرة) ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث - المخطوط - لوحة ٩٥ ، والحلة السيرة ص ١٨٨ و ١٨٩ .

وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

قد أشار على المعتمد بفتح مرسية^(١) . وعلى أى حال فقد اعترم المعتمد أن يسعى إلى فتح مرسية ، وعهد إلى وزيره القوى الماكر ابن عمار ، أن يقوم بتنفيذ المشروع . واتباعاً للخطة التى كانت سائدة يومئذ بين ملوك الطوائف فى الاستعانة بالأمراء النصارى ، على مشاريعهم الباغية ، بعث المعتمد وزيره ابن عمار ، إلى الكونت رامون برنجير أمير برشلونة ، ومر الوزير الماكر فى طريقه بمرسية ، فأكرم ابن طاهر منزله . والظاهر أن ابن عمار كان يرى من وراء هذه الزيارة إلى دراسة أحوال مرسية الدفاعية ، وإلى الاتصال سرّاً ببعض الزعماء الناقمين خصوم ابن طاهر . ولما وصل ابن عمار إلى برشلونة عقد مع أميرها الكونت برنجير اتفاقاً على أن يؤدى له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب ، لقاء معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة بالوفاء . وتنفيذاً لهذا الاتفاق قدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقسم من قواته صوب مرسية بقيادة ابن عمار ، ولحقت بها قوة جهازها الكونت برنجير ، وطوقت القوات المتحدة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد لم يسعف برنجير بأداء المال المطلوب ، فارتاب فى الأمر ، واعتقد أنه قد غرر به ، وانسحب بقواته عن المدينة المحصورة ، بعد أن قبض على ابن عمار ، وعلى الرشيد ولد المعتمد .

وكان المعتمد بن عباد يسير عندئذ بقواته صوب مرسية ، وكان قد وصل إلى مقربة من شقورة ، حينما وفد إليه رسل ابن عمار مع بعض الهاربين من جنده من حملة مرسية ، وأعلموه بما حدث ، فارتد بقواته إلى جيان ، ووضع ابن أخى الكونت برنجير ، المودع لديه رهينة ، فى الأصفاد ، ثم وقعت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهى المعتمد بأداء المال المطلوب للكونت ، وأفرج عن ابن عمار والرشيد ، وأفرج المعتمد من جانبه عن ابن أخى الكونت .

بيد أن إخفاق هذه الحملة الأولى على مرسية لم يثن ابن عمار عن عزمه ، فما زال بالمعتمد يحثه على إعداد حملة ثانية ، ويؤكد له أنه تلقى رسائل كثيرة من أهل مرسية يدعونه لافتتاحها ، حتى نزل المعتمد أخيراً على رغبته ، وجهاز له حملة قوية ، وعينه حاكماً لمرسية ، وسائر البلاد التى يفتتحها .

وسار ابن عمار فى قواته إلى مرسية ، واصطحب معه حين مروره بقرطبة ،

سرية من الفرسان ، أمده بها حاكمها الفتح ولد المعتمد ، ومر في طريقه بـمحـصـن بلج ، فاحتفى به حاكمه عبد الرحمن بن رشيق ، وصحبه في قواته إلى مرسية ، فندبه ابن عمار للقيادة ، وعاد إلى إشبيلية . وكان ابن رشيق رجلاً وافر الدهاء ، والمقدرة ، وكانت له أطماع دفينه يخفيها تحت ثوب من الرياء والخديعة . وطوقت جند ابن عباد مرسية ، وشددت الحصار عليها . واستطاع ابن رشيق أن يحقق نجاحه الأول ، بالاستيلاء على بلدة مولة الواقعة في شهاها الغربي ، والتي كانت تمددها بالأتقوات والمؤن . وعندئذ انهار خط مرسية الدفاعي ، واشتد بداخلها الضيق والحربان ، واستمر ابن رشيق في إرهاقه للمدينة المحصورة ، وفي تحريض أهلها على الوثوب بابن طاهر ، وأخيراً عاونه بعض الخونة من أوليائه على فتح بعض أبواب المدينة ، وانتهى الأمر بسقوطها على هذا النحو في أيدي جند ابن عباد ، وذلك في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) (١) .

ودخل ابن رشيق مرسية ، وقبض على أبي عبد الرحمن بن طاهر وألقاه إلى السجن ، وأعلن بيعه المعتمد ، وكتب إلى بن عمار بالفتح . فسار ابن عمار من فوره إلى المدينة المفتوحة ، التي عين حاكماً لها من قبل ، وتقرب من أهلها بالهدايا ولين القول . بيد أنه جنح غير بعيد إلى تحقيق فكرة كانت تخالجه من قبل ، وهو أن يستأثر بحكم هذه المدينة النائية ، البعيدة عن متناول أميره ، ويغلب كباقي الرؤساء أميراً مستقلاً ، وأخذ بالفعل في تنفيذ فكرته ، فتجاهل رغبات ابن عباد وأوامره ، وتصرف في سائر الأمور تصرف الحاكم المستقل ، وبدأ نداءً لأميره السابق ، أو على قول ابن بسام : « وقعد له مقعد الرؤساء ، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء ، مستظهِراً بجر الأذيال ، وإفساد قلوب الرجال ، معتقداً أن الرياسة كأس يشربها ، وفلاة ينتجعها » . وأخذ فضلاً عن ذلك يدس لأمره تلك النواحي ، ويوقع بينهم ، ويحرض أهل بلنسية بنوع خاص ، على الوثوب

(١) راجع في حوادث فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، وعبد الواحد المراكشي في المعجب ص ٦٥ ، ودوزي عن الشامي في : Hist. Abbadidarum. V. II. p. 86 & 87

و Hist. des Musulmans d' Espagne; V. III. p. 108-109

وكذلك : M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 109-110

و R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 259 & 281

و A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 189-191

بالوزير أبي بكر بن عبد العزيز المتغلب عليها يومئذ . وكان قد شفع لدى المعتمد في أمر ابن طاهر حينما قبض عليه ، فأذن بتسريحه ، وسار إلى بلنسية ، ملتجئاً إلى حمايته . وفي رواية أخرى أن ابن طاهر ، نجح في الفرار من سجنه بمعاونة ابن عبد العزيز ، وسار خفية إلى بلنسية . وقد كان لفوز ابن طاهر باسترداد حريته ، وقع طيب في مختلف الدوائر الرفيعة ، ولا سيما دوائر العلم والأدب . وفي ذلك يقول أبو جعفر البتي من قصيدة :

أترضى عن الدنيا فقد تشوف لعمر المعالي أنها بك تكلف
يقولون ليث الغاب فارق غيله فقلت لهم أنتم له الآن أخوف
ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا غدا لكم بارزا من غمده وهو مرهف
إذا غضبت أعلامه قالت القنى فدينك إنا بالمفاصل أعرف
فتكشف وعن سر الكتبية مثل ما رأيك عن سر البلاغة تكشف
رويداً قليلاً يازمان فإنه يغصك منه بالذى أنت تعرف (١)

هذا ، وقد أسر ابن عمار لأبي بكر بن عبد العزيز ، هذا المسعى الجميل في العمل على تسريح ابن طاهر ، وأخذ يكيد له ويحرض أهل بلنسية عليه ، وقد وجه إليهم في ذلك قصيدة ملهبة من نظمته يقول فيها :

بشر بلنسية وكانت جنّة أن قد تدلت في سواء النار
جاروا بني عبد العزيز فإنهم جرّوا إليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا ملكاً يقوم على العدو بثار
هنا محمد أو فهذا أحمد وكلاهما أهل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها عن سواة سوءى وعار عار
نكت اليمين وحاد عن سنن العلا وقضى على الإقبال بالإدبار
آوى لينصر من نأى المثوى به ودهاه خذلان من الأنصار
ما كنتم إلا كأمة صالح فرميتم من طاهر بقدر
هذا وخصكم بأشأم طائر ورمى دياركم بالأم جار

(١) أوردها ابن عبد الملك في ترجمة ابن طاهر في «الذيل والتكلة» - الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . ووردت أيضا في « فلاتة المقيان » ص ٦١ .

بر اليقين ولم يعرض نفسه ونفوسكم لمصارع الفجار
لا بد من مسح الجبين فلانما لطمته عذراً غير ذات سوار
ثم يقول في ختامها :

وأنا النصيح فلان قبلتم فاتركوا آثارها خبراً من الأخبار
قوموا إلى الدار الحبيثة فانهبوا تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية بأغر وضاح الجبين نصار^(١)

ومضى ابن عمار في خطته من تحدى ابن عباد ، والاستئثار بشئون مرسية ، واستعمل عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع ، وانهمك في الشراب واللذات ، وأعرض عن كل نصيح^(٢) . وكان ابن رشيق ، وهو قائد الجند وفاتح المدينة الحقيقي ، يرقب الموقف ، ويتحين الفرص . وكان أبو بكر بن عبد العزيز ، انتقاماً من ابن عمار ، يحرضه على الوثوب به ، وانتزاع حكم المدينة منه ، وفضلاً عن ذلك فقد استطاع أبو بكر أن يحصل بواسطة يهودى من عملائه في مرسية ، على النسخة الأصلية من قصيدة هجاء مقذع ، وضعها ابن عمار طعنًا في ابن عباد وزوجه اعتماد الرميكية ، وأن يرسلها إلى ابن عباد في إشبيلية . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه القصيدة في أخبار مملكة إشبيلية ، وأوردنا بعض محتوياتها اللاذعة . وهكذا كان الجو يظلم حول ابن عمار من كل ناحية ، وزاد الموقف خطورة ، حينما بدأ الجند بتحريض ابن رشيق في المطالبة بأجورهم المتأخرة ، واشتطوا في ذلك ، وابن عمار عاجز عن تهدئتهم . فعندئذ خشى ابن عمار البادرة على نفسه ، وخرج من مرسية ، بحجة تفقد الحصون الخارجية ، فانهز ابن رشيق الفرصة لفوره ، واستولى على القصر وضبط المدينة وأغلق أبوابها . ولم ير ابن عمار أمامه سبيلاً سوى الفرار .

وهكذا لقي ابن عمار جزاء غدره ، من غادر مثله . ويصف لنا ابن بسام هذه الضربة الفادرة من ابن رشيق بقوله : « فقيض له (أى ابن عمار) من عبد الرحمن بن رشيق عدواً في ثياب صديق ، من رجل قدرة خنتر ، وجزيل خديعة ومكر ، فلم يزل يطالع عليه من الثنايا والشعاب ، حتى أخرجه من

(١) نشرت القصيدة بأكملها في فلائد العقيان ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) ابن الأبار عن ابن بسام في الحلة للسيرة ج ٢ ص ١٤٢ .

مرسية كالشهاب » . وطوحت الخطوب عندئذ بابن عمار ، فقصده إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وقضى حيناً في بلاطه ، ثم قصد بعد ذلك إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه في بعض شئونه ، ولكنه توفي بعد قليل في سنة ٤٧٥ (١٠٨١ م) . فلبث في خدمة ولده المؤمن فترة أخرى ، ولم يهدأ له بال حتى أغراه على سجيته بافتتاح حصن شقورة الواقع شمال غربي مرسية ، وهو من أعمال دائية ، فبعث معه المؤمن سرية من جنده ، ولما وصل ابن عمار إلى شقورة ، احتال عليه صاحبها ابن مبارك ، وكان رجلاً وافر الدهاء ، واستقبله داخل حصنه بترحاب ومودة ، ثم قبض عليه وزجه إلى السجن . وما كاد ابن عباد يقف على ذلك الخبر ، حتى فاوض ابن مبارك في تسليم ابن عمار ، وانتهى الأمر بحصوله في يده ، ثم حمله المعتمد إلى إشبيلية . واعتقله بقصره ، ومازال يعمن في تأنيبه وتفريعه حتى انتهى إلى قتله بيده . على النحو المأوسى الذى فصلناه من قبل في أخباره ، وذلك في أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل سنة ١٠٨٥ م) (١) .

وخلصت مرسية لابن رشيق ، واستبد بحكمها وأعان خاع طاعة المعتمد ، واستمر يحكمها وأعمالها أعواماً بقوة وحزم ، حتى كان عبور المرابطين إلى إسبانيا وانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة في موقعة الزلاقة على الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وكان شرقي الأندلس يومئذ ما يزال بمعزل عن حوادث الغرب . ولما شعر ألفونسو السادس ملك قشتالة بانهيار قواه ومشاريعه العسكرية في غربي الأندلس ، رأى أن يتحرك إلى شرقي الأندلس ، حيث كان يسوده الاضطراب والتفرق والضعف . وكان المعتمد بن عباد يتوق إلى استرداد مرسية ، وتوطيد سلطانه في هذا القطاع الثائى من مملكته . وهناك فيما يتعلق بمصير مرسية روايتان الأولى : هى أن ابن عباد حرص صاحب لورقة القائد أبا الحسن بن اليسع ، وكان قد اعترف ببيعته ، والتجأ إلى حمايته ، على مهاجمة مرسية ، وأنه نجح في انتزاعها من ابن رشيق ،

(١) راجع في محنة ابن عمار ومصرعه : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى في المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ . وكذلك دوزى Hist. Abbadidarum

V. II. p.90, 91, 100 & 101.

R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 244 وكذلك

وحكمها باسم المعتمد وموافقة، واستمر في حكمها حتى استولى عليها المرابطون^(١) والثانية ، هي أنه لما عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، ولاسيما أصحاب القواعد الشرقية ، لقمع غارات النصارى في شرقي الأندلس ، والقضاء على مركز عدوانهم في حصن لبيط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطة في محاصرة الحصن المذكور ، كان ابن رشيق ضمن الأمراء الذين اشتركوا في الحصار بقواتهم . ولما انتهى هذا الحصار بالفشل ، وهمت الجيوش الأندلسية بالعودة إلى بلادها ، شكى المعتمد ابن رشيق إلى أمير المسلمين يوسف ، واتهمه بالتحالف سراً مع النصارى ، ومعاونتهم على الصمود في الحصن ، هذا فضلاً عن كونه كان مغتصباً لولاية مرسية منه ، وطلب تسليمه إليه ، لمعاقبته ، واستشار يوسف الفقهاء في الأمر ، فوافقوا على طلب ابن عباد ، وأمر يوسف بتسليمه ابن رشيق مع اشتراط الإبقاء على حياته ، وارتدت القوات المرسية غاضبة إلى بلادها . وحمل ابن عباد معه ابن رشيق إلى إشبيلية ، واعتقله هناك ، ولكنه فر غير بعيد من سجنه ، وعاد إلى مرسية ، وعاش بها حتى توفي . واستولى المرابطون على مرسية في شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م) . واستولوا في نفس العام على معظم أهمالها^(٢) . وهنا يقدم لنا ابن الخطيب رواية أخرى ، هي أن ابن رشيق نزل من تلقاء نفسه عن مرسية لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ، حين جوازه الثاني إلى الأندلس وهو مايدلى بأن ابن رشيق كان عندئذ هو المتولى حكمها^(٣) . وكان القائد ابن عائشة أول حاكم لمرسية من المرابطين . وكانت مرسية قاعدة لتحركات الجيوش المرابطة ، التي حشدت لمقاومة عدوان السيد الكمبيادور ، واسترداد بلنسية من قبضته ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه .

أما ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، فإنه كان قد استقر عقب فراره حيناً

(١) راجع المغرب في حل المغرب (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٠ .

(٢) راجع روض القرطاس لابن أبي زرع (طبعة أوبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ ، وكذلك دوزي :

M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. و Hist.; Vol. III. p. ١٣٢—١٣٣

١٣٦ & ١٤٥،

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٥ .

بيلنسية ، في كنف الوزير أبي بكر بن عبد العزيز . ثم في كنف ولده أبي عمرو عثمان . ولما استولى القادر بن ذى النون على المدينة ، تقرب إليه ، واستمر على حاله من الكرامة والدعة . فلما ثار القاضي ابن جحاف ، وقتل القادر ، واستولى على الحكم ، لم يكن ابن طاهر من أنصار هذا الانقلاب ، وكان يأخذ بالأخص على ابن جحاف أنه سفك دم القادر ، وله في ذلك أبيات يقول فيها :

أبها الأخيف مهلا فلقد جثت عوصا
إذ قتلت الملك بحبي وتقمصت القمصا
رب يوم فيه تجزى لم تجد عنه محصا

ومن ثم فقد كان ابن جحاف يتوجس منه ، ويخشى مناوئته ، ويتمه بالاتصال بالسيد والقشاليين ، والتآمر معهم ضده . وقد كانت هذه التهمة باطلة . ذلك أنه لما دخل السيد وجنده القشاليون بيلنسية في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، لم يستطع ابن طاهر أن يروض نفسه على البقاء فيها ، فعادها فيمن غادرها من الأكابر . وفي رواية أنه كان ضمن من قبض عليهم السيد من أكابر المدينة ثم أفرج عنه بعد ذلك فسار إلى شاطبة ، واستقر بها حيناً ، حتى تطورت الحوادث ، ومات السيد ، واستولى المرابطون على بيلنسية ، وعادت إليها سلطة الإسلام ، فعندئذ عاد إليها ابن طاهر ، وقد أثقلت السنون ، وهدمه الإعياء والمرض ، فعاش بها أعواماً أخرى في عزلة واعتكاف ، ثم توفي في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) ، وقد أرنى على التسعين (١) .

ويلخص ابن بسام المرحلة الأخيرة من حياة ابن طاهر في الفقرة الآتية : « وولد لأبي عبد الرحمن بن طاهر في البقاء ، حتى تجاوز مصارع الرؤساء ، وشهد محنة المسلمين ببيلنسية على يد الطاغية الكنيتطور قصمه الله ، وجعل بذلك الثغر في قبضته سنة ثمانية وثمانين » (٢) .

(١) راجع في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر : الحلة السيرة - ليدن - ص ١٨٦ - ١٨٩ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٦-١٢٨ ، وقلائد العقيان ص ٥٦ وما بعدها . وقد أورد له كثيراً من الرسائل البليغة . وكذلك المغرب في حل المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ .

(٢) الذخيرة - القسم الثالث المخطوط لراحة ه أ

الفصل الثالث

ملكة دانية والجزائر

مدينة دانية وخواص موقعها . مجاهد العامري . أصله ونشأته . نزوحه إلى شرق الأندلس .
تغلبه على دانية والجزائر الشرقية . الفقيه أبو عبد الله المعيطي . مشروع مجاهد لغزو سر دانية .
استعداداته البحرية . أسطوله الغازي . سر دانية وغزوات المسلمين . مسير مجاهد إلى سر دانية واقتحامها .
المعارك داخل الجزيرة وافتتاحها . حلف البابوية وجنوة وبيزة لطرد المسلمين . الحرب الصليبية .
مقاومة مجاهد ومتاعبه . هزيمته وتحطيم أسطوله . أسر ولده وحريمه . غزوات مجاهد للشواطئ الإيطالية
والفرنسية . الفقيه المعيطي وعزله ونفيه . مجاهد يفتدى زوجه وبناته . استقالة أسر ولده على ثم
افتداؤه . عجمته وعوده إلى الإسلام . تثقيفه وإعداده لولاية العهد . تأييد مجاهد للخليفة المرتضى .
اشترائه في محاربة البربر . اشتراكه في حكم بلنسية ثم انفراده به . اختيار عبد العزيز المنصور
لإمارة بلنسية . غزو مجاهد لمرسية وأسر لاه بن طاهر . محاربتة لعبد العزيز صاحب بلنسية . وفاة
مجاهد . عبقرية ومآثره العلمية . التفاف العلماء حوله . قصته مع أبي غالب النحوي . تفوقه في
الفروسية . براعته البحرية . ولده على إقبال الدولة بخلفه . الخلاف بينه وبين أخيه حسن . محاولته
اغتيال بناته ومصاهراته . حكمه وصلاته . شئون الجزائر وحكامها . استجابة على لنداء المستنصر
الفاطمي ورسالته إليه . تسامحه نحو النصاري . ابن غرسية ورسالته ضد العرب . بعض الآراء
والتعليقات حولها . أطاع المقتدر بن هود في دانية . خلافه مع صهره على . مسيره لافتتاح دانية
واستيلائه عليها . اعتقال على ثم فراره إلى العدو . ولده سراج الدولة . على ومواهبه وخلاله .
الجزائر الشرقية واستقلال حاكمها المرتضى . خلفه مبشر بن سليمان . حكمه الزاهر . غارات
البحارة المسلمين في عهده . إغارة الزويج على الجزائر . بيعة ومشروعها لفتح الجزائر . أسطول
الغزو النصاري يهاجمها . استعداد مبشر للدفاع . استغاثته بعل بن تاشفين . وفاة مبشر وولاية أبي ربيع .
خروجه من الجزيرة وأسر . دخول النصاري مدينة ميورقة وفتحهم بأهلها . مقدم الأسطول المرابطي .
انسحاب النصاري واستيلاء المرابطين على الجزائر .

تقع مدينة دانية في شمال اللسان المثلث ، الممتد من ولاية لقنت في البحر
الأبيض المتوسط ، وتبدو برقعها الصغيرة ، وشوارعها القصيرة العريضة ، التي تظللها
أشجار التوت الوارفة ، مدينة متواضعة هادئة ، لا يتبادر إلى ذهنك ، وأنت
تجوب أحياءها القليلة الصامتة ، أنها كانت ذات يوم عاصمة لدولة أندلسية بحرية
كبيرة .

أجل قامت في دانية ، أيام الطوائف ، مملكة تمتاز بصفاتها الخاصة ، التي تميزها
عن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى . فقد كانت أولا تمتاز بموقعها المنعزل

فى شرقى الأندلس ، وتمتد رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية ، فكانت بذلك تغلب صفقتها البحرية على صفقتها البرية . ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين أبعد من أن تتزلق إلى معترك الحرب الأهلية ، التى كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى ، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة ، الذى كان يهدد سائر الطوائف . ومن ثم فإن تاريخ مملكة دانية يتخذ طابعاً آخر ، غير ذلك الطابع الذى رأيناه يغلب على تاريخ ممالك الطوائف الأخرى .

وكانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية ، عند اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، من نصيب الفتيان العامرين . تغلب عليها منهم مجاهد العامرى فى أوائل عهد الفتنة . وقد كان مجاهد هذا من أكابر زعماء العامرين . وكان وفقاً لأرجح الروايات من فحول الموالى أو الفتيان العامرين . وقد كان معظم أولئك الفتيان من الصقالبة ، من أصول إفريقية كالألمان والنبارد والإيطاليين والحلافة وأهل البلقان وغيرهم ، يؤتى بهم أطفالاً ويربون فى البلاط تربية عربية إسلامية . وكان منهم الفحول والحصيان . وكان مجاهد ينتمى إلى الفريق الأول أعنى إلى الفتيان الفحول ، وقد نشأ وربى فى عهد المنصور بن أبى عامر . وفى رواية أخرى أن مجاهداً ينتمى إلى طائفة الموالى العامرين ، وقد رباه المنصور وعلمه ، وقيل أيضاً إنه كان مولى لعبد الرحمن المنصور ، أو أن أباه يوسف كان معتوقاً لعبد الرحمن (١) . وقيل من جهة أخرى إن مجاهداً كان «رومى» الأصل ، أعنى من الفتيان الصقالبة (٢) . ويعتقد العلامة المستشرق أمارى بالاستناد إلى هذه الإشارة أن مجاهداً يرجع إلى أصل إسباني محلى (٣) . بيد أنه مما يؤيد الرواية الأولى ، وهى نسبة مجاهد إلى الموالى ، وليس إلى الفتيان الصقالبة ، اسمه وكنيته ، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن على ، ويؤيدها أيضاً ما كانت تتمتع به شخصية مجاهد من عروبة قوية ، ومن تضلع فى علوم القرآن واللغة ، حسباً نبين بعد (٤) .

(١) جنة المقتبس (مصر) ص ٣٣١ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٤١ .

(٣) M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze 1868) V. III. p. 4

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ . ويقدم إلينا ابن الأبار مجاهداً بأنه أبو الجيش مجاهد بن هبة الله العامرى (الحلة السيرة ج ٢ ص ١٢٨) .

وعلى أى حال فقد كان مجاهد عند اضطرام الفتنة ، إلى جانب واضح وخيران وزهير ، وغيرهم من أكابر الفتيان أو الزعماء العامرين ، اندمج في زمرتهم ، واشترك معهم في بعض الأحداث التي أعقبت الفتنة ، وشاطرهم خطتهم في التروح إلى شرقى الأندلس . ويقول لنا ابن خلدون إن مجاهداً غادر قرطبة عند مقتل الخليفة محمد بن هشام المهدي في أواخر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، وإنه سار عندئذ إلى طرطوشة ، فتملكها ، ثم سار منها إلى دانية . وكان مجاهد كباقي الفتيان العامرين ، من شيعة الخليفة المؤيد بالله ، والخلافة الأموية بوجه عام ، وقد حارب معهم إلى جانب الخليفة المرتضى بالله ضد البربر والقاسم بن حود ، في الموقعة التي هزم فيها المرتضى ولقى مصرعه ، وذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) (١) .

يبد أنه توجد رواية أخرى عن تغلب مجاهد على دانية خلاصتها ، أنه كان عند انهيار الخلافة واضطرام الفتنة ، والياً على الجزائر الشرقية ، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبي عامر ، فلما تمخضت الفتنة عن تمزق الأندلس ، سار من الجزائر إلى دانية ، وتملكها ، وأقام بها دولته (٢) .

وتقول بعض الروايات أيضاً إن مجاهداً ، كان وقت اضطرام الفتنة قائماً بشئون بلنسية ، فثار به عبدان من العبيد أو الفتيان العامرين ، هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فخرج مجاهد من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها . والظاهر من مقارنة الروايات المختلفة أن مجاهداً نزل أولاً في دانية ، وغاب عليها ، ثم وثب منها على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وتملكها ، وذلك في أواخر سنة ٤٠٥ هـ (أوائل ١٠١٥ م) . وتتكون الجزائر الشرقية من أربع جزائر هي مِينُورقة ، وميورقة وهي أكبرها ، وبها مدينة ميورقة وهي عاصمة الجزائر كلها ، ويابسة ، وفرمتيرا ، وهي أصغرها . وهنا وقبل أن نتبع أخبار مجاهد ، يجب أن نذكر واقعة تدعو إلى التأمل ، وهو أن مجاهداً ندب إلى معاونته في الحكم فقيهاً ورعاً هو أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطي ، وكان المعيطي هذا ينتمي إلى بني أمية ، وهو من أشرف قرطبة وفقهاها البارزين ، وكان ممن أزعجته الفتنة ، فغادرها إلى شرقى الأندلس . والظاهر أن مجاهداً كان

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ .

يحيط هذا الفقيه بنوع من التقدير والإجلال . ذلك أنه نصبه «خليفة» بدانية والجزائر وسائر أعماله ، وأخذ له البيعة على الناس ، وسماه بأمر المؤمنين المستنصر بالله ، ونقش اسمه في سكتته وفي أعلامه ، وذلك في جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥ هـ (١) . ويقال إن مجاهداً صحب معه المعيطى في حملته إلى الجزائر الشرقية ، وإنه كان ساعده الأيمن في الاستيلاء عليها . بل يقال إنه هو الذى أوعز إليه بغزو سردانية .

- ١ -

وبينما كانت دول الطوائف الأخرى ، سواء في شرق الأندلس ، أو في غربها ، تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة ، كان مجاهد العامرى يفكر في مشروع ضخم ، ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء الطوائف ، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها . وقد كان مجاهد ، زعيماً قوى النفس ، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً ، وكان يرى أن مملكته الساحلية ، وأملاكه البحرية ، تقتضى أن يكون اعتمادها في القتال على الأساطيل قبل كل شيء ، ومن ثم فقد اقتضت همته أن يجدد دار الصناعة القديمة (دار صناعة السفن) التى كانت بدانية ، وأن يضاعف طاقتها لتمده بالسفن المقاتلة والناقلة من مختلف الأحجام ، واستكثر من السفن والمعدات الحربية ، واستطاع في فترة قصيرة أن ينشئ أسطولاً كبيراً يربط في مياه دانية والجزائر ، وغدت دانية فيما بعد ، في عصره ، وعصر ولده على ، أعظم مركز للأساطيل الأندلسية . وكان مجاهد يتطلع بعيداً من جزائره الشرقية إلى ما وراء هذه المياه من الجزائر الكبيرة الغنية ولاسيما جزيرة سردانية العظيمة ، التى عرفها البحارة المسلمون من قبل ، في كثير من الغزوات المتعاقبة .

وضع مجاهد خطته لغزو هذه الجزيرة الكبيرة ، فحشد أسطولاً قوامه مائة وعشرين سفينة ، وقوة من ألف فارس ، وأقفلت السفن الغازية من دانية والجزائر في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ (أغسطس ١٠١٥ م) ، وعلى الأسطول قائده أمير البحر أبو خروب . وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين سردانية ، يومئذ تستغرق ثمانية أيام . وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام

الغزاة العرب منذ فتح الأندلس ، وقد غزاها العرب لأول مرة في سنة ٧١١ م ، أيام موسى بن نصير . ثم توالى غزوات البحارة المسلمين لسردانية ، فغزوها في سنة ٧٥٢ م ، ثم في سني ٨١٣ و ٨١٦ و ٨١٧ و ٨٣٨ م . بيد أن هذه كانت كلها من الغزوات العارضة ، التي يقنع الغزاة فيها بالسبي والغنائم ، وكانت المقاومة العنيفة التي يلقونها من أهل الجزيرة تحول دون احتلالها والاستقرار فيها . وكانت سردانية في البداية تحت حكم الدولة البيزنطية ، فلما ضعف سلطانها في تلك المياه ، وقعت سردانية تحت حكم اللونبارد ، ثم تحت حكم الفرنج . بيد أن هذه لم تكن سوى حماية اسمية . وكان يحكم الجزيرة منذ القرن الثامن قضاة أو أمراء محليون . وكانت طبيعتها الوعرة ، وشجاعة أهلها الجبلين ، واعتزازهم بحرياتهم ، مما يعاون في دفع الغزاة ، ورد الحملات الغازية العارضة .

بيد أن هذه الحملة ، التي سيرها مجاهد العامري إلى الجزيرة ، كانت تمتاز بضمخاتها ، وضخامة عُددها ، وتمتاز بالأخص بما يقترن بها من عزم راسخ على الفتح والاستقرار . ومن ثم فإنه ما كادت السفن الغازية ترسو على شواطئ الجزيرة - والظاهر أنها رست في خليج كاليارى في جنوبي الجزيرة - حتى شق الغزاة طريقهم إلى الداخل بمنتهى العنف ، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم ، وكان قائدهم مالتوتو في مقدمة القتلى ، وأسر الغزاة جموعاً غفيرة ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال . واستطاع الغزاة أن يحتلوا معظم أراضي الجزيرة ، بالرغم من المقاومة العنيفة التي لقوها ، وأن يسيطروا على معظم حصونها (١) .

وهكذا فتحت سردانية على يد مجاهد العامري ، وذلك في شهر أغسطس أو سبتمبر سنة ١٠١٥ م (ربيع الثاني سنة ٤٠٦ هـ) (٢) . وكان أول فتح إسلامي لهذه الجزيرة الكبيرة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن مجاهداً غلب على معظم أنحاء سردانية وافتتح معاقلاًها ، ثم قرر البقاء في الجزيرة ، حتى يوطد مركزه بها ، واختط بها بالفعل مدينة واسعة شرع في بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، وأنه أحرز من الغنائم والسبي مالا يأخذه الحصر ، حتى كسد السبي في زمانه ،

(١) Amari : ibid., V. III. p. 6 & 7

(٢) وفي جئوة المفتش أن الفتح وقع سنة ٤٠٦ أو ٤٠٧ (ص ٢٣١) .

وانحطت أثمانه (١) . ومن المحقق على أى حال أن مجاهداً لبث في سردانية حتى نهاية سنة ٤٠٦ هـ ، أعنى نحو عشرة أشهر . وفي خلال ذلك كانت البابوية والدول الإيطالية القريبة ، قد اهتزت لهذا الحادث الخطير ، وزاد في روعها ومخبطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطئ الممتد بين جنوة وبيزة واقتحام مدينة لوني ونهبها ، وكانت جنوة وبيزة يومئذ هما أقوى الدول البحرية في هذه المياه ، ولكلثاهما مصالح تجارية عظيمة تمحصر على حمايتها . وفي الحال أعلن البابا ، وهو يومئذ بندكتوس الثامن ، الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد تحالفاً مع جنوة وبيزة على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة . ومما يروى بهذه المناسبة ، أن مجاهداً العامرى أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بحبات القسطل ، معلناً أنه سوف يعود بعدها ، وأن البابا رد بأن بعث إليه كيساً مملوءاً بالحشائش الرفيعة ، قائلاً إنه سوف يلتقى بعدها ممن يرتدون الخوذات . وهكذا عقدت الدول الإيطالية بزعامه البابا ، العزم على تحطيم الغزاة المسلمين ، ورد خطرهم عن هذه المياه .

وهنا يحيط الغموض بالفترة القصيرة ، التى قضاهها مجاهد العامرى في سردانية . ففي بعض الروايات أن مجاهداً عاد بعد هذه الحملة الأولى إلى دانية وجهاز حملة ثانية إلى سردانية ، في صيف العام التالى أعنى في سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦م) وذلك لكى يقضى على كل مقاومة في الجزيرة ، وهذه رواية يصعب تصديقها ، وليس في سير الحوادث ما يؤيدها . والحقيقة هى أن مجاهداً لبث بعد غزو الجزيرة ، يبذل جهده في تحصينها ، وفي الاستعداد للدفاع عنها ، واستمر طوال الوقت في كفاح دائم مع أهل الجزيرة . ولما قدمت السفن الجنوبية والبيزية والسفن النصرانية الأخرى من مختلف الأمم ، ودخلت مياه كاليارى ، استعد مجاهد للمعركة الحاسمة ، ولكن مقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصرانى في أسطوله ، وتوالى العواصف القاصفة ، كانت كلها عوامل فتت في عضده ، وحطمت خطط دفاعه ، فلم يقو طويلاً على المقاومة ، وأصابته السفن النصرانية بهزيمة فادحة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن أمير البحر أباخروب حذر مجاهداً من دخول مياه كاليارى بسفنه ، ولكنه لم يأخذ بهذا

النصح ، وكانت الريح تقذف بمراكبه تبعاً ، والروم لا عمل لهم سوى قتل المسلمين وأسرهم ، ومجاهد خلال ذلك ييكى (١) ، وهكذا تحطمت معظم سفنه وأسرت أو أغرقت ، وقتل معظم أصحابه ، واستولى العدو على سائر غنائمه وسببه ، وعلى أهله وحريمه وولده وفيه نساؤه وبناته ، وعلى ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم ينج من أسطوله الضخم سوى بضعة سفن ، شقت به عرض البحر مسرعة . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامرى فى شهر يونيه أو يوليه سنة ١٠١٦ م .

ويقدم إلينا العلامة المستشرق أمارى رواية أخرى خلاصتها أن مجاهداً لبث فى سردانية عاماً آخر حتى مايو سنة ١٠١٧ م ، وأنه حينما سمع بأمر الأساطيل الضخمة التى جهزت لقتاله ، أنشأ بالجزيرة قلعة يستعين بها على الدفاع . ولكن جنده كانوا خلال ذلك ، قد سثموا المقام بالجزيرة لقلعة الغنائم ورداءة الطقس ، وساد بينهم التذمر . وفى شهر مايو سنة ١٠١٧ م ، أقبل أسطول البيزىين . والخنوئين الضخم ، وعول مجاهد على الانسحاب . ولكنه حينما خرج بأسطوله وذلك فى شهر يونيه ، اصطدم بالأساطيل الإيطالية ، وفاجأته فى نفس الوقت عاصفة شديدة ، أغرقت كثيراً من سفنه ، واصطدم الكثير منها بالشاطئ ، فسار فى فلول أسطوله صوب دانية تاركاً فى الأسر ولده وأخاه وزوجه (٢) .

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم ، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا فى سردانية كما أتبع لهم من قبل أن يستقروا فى صقلية . ولونجح مجاهد العامرى فى مشروعه ، واستقر المسلمون فى سردانية ، لكان مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية ، كتلك التى ازدهرت فى صقلية ، بل وكان مرجحاً أن يطول عهد الإسلام فى صقلية ، وأن يتأخر سقوطها فى أيدي النورمان عصوراً أخرى . ولكن المشروع كان فى الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف ، وكانت الدول النصرانية كلها تتحفظ لحماية هذه الجزائر ، كى تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية ، وكان فى تفوق الجمهوريات الإيطالية البحرى ، فى هذه العصور ، ما يكفل تحقيق هذه الغاية (٣) .

(١) راجع جفوة المقتبس ص ٣٣١ .

(٢) Amari : ibid. ; V. III. p. 9

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢١٩ و ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ، وابن خلدون =

على أن غزو مجاهد الجريء لسردانية ، وغاراته المتكررة بعد ذلك على الشواطئ الإيطالية وشواطئ بروفانس ، جعلت منه شخصية خيالية مروعة ، وتفيض الروايات النصرانية المعاصرة ، من إيطالية ولايتينية ، في غزوات مجاهد وغاراته البحرية ، وتعرفه باسم موجيتوس Mogetus أو موسيتو Museto وتحيطه بهالة من البطولة والروع .

وفي بعض الروايات أن المسلمين غزوا سردانية بعد ذلك مرتين آخرين ، في سنة ١٠١٩ م ، ثم في سنة ١٠٤٩ م ، وذلك بقيادة مجاهد العامري أيضاً ، وأن مجاهداً سقط أخيراً في أيدي النصاري ، وهي رواية لا سند لها . ثم إنه يروى أيضاً أن البحارة المغامرين أو القراصنة حسباً يسمونهم ، من دانية والجزائر ، لبثت تتكرر غاراتهم على الشواطئ الغربية للبحر المتوسط مدة طويلة ، يظلها دائماً اسم «موجيتو» أي مجاهد ، على أنه ملك إفريقية . وإذا كان لنا أن نستخلص من ذلك شيئاً ، فهو الروح الذي كان يبعثه اسم هذا البحار الجريء - مجاهد العامري - في ثغور البحر المتوسط الغربية ، في ذلك العصر .

ومن الأسف أن الرواية الإسلامية تنقصها الإحاطة في هذا الجانب للشائق من حياة مجاهد ، وهي حياته كبشار من أعظم بحارى العصر ، فهي لا تقدم لنا عنه سوى نبذة يسيرة متناقضة ، وهي أكثر اهتماماً بنواحيه العلمية والأدبية .

وعاد مجاهد العامري من غزواته المنكوبة لسردانية ، لياتي الأمور في دانية قد اضطربت وتعتدت . ذلك أن الفقيه أبا عبد الله المعيطي ، لم يحفظ العهد ، ولم يرع الأمانة ، فاستبد بالحكم ، واغتصب السلطة لنفسه ، ومحا اسم مجاهد ورسومة ، وكثرت مظالمه وعيئه ، وابتزازه للأموال ، ومجاهرته بالمعاصي . وما كاد مجاهد يقف على ذلك ، حتى بادر بالقبض على المعيطي ، ونزعه كل سلطة وصفة ، واشتد في تأنيبه وتعنيفه ، ثم أرسله مخفوراً إلى العدو في سفينة أنزلته في بجاية ، وهنالك لجأ إلى البربر ، وعاش مغموراً حتى توفي (١) .

— ج ٤ ص ١٦٤ ، والمقدمة ص ٢١٢ . وراجع بحثاً بالإسبانية عن مجاهد العامري وعلى ابنه :

Roque Chabas : Mochahid ijo de Yusuf y Ali ijo de Mochahid en (Estudios de Erudición Oriental) Homenaje a Fr. Codera . وراجع أيضاً : V. III Amari : ibid.,

وعمد مجاهد إلى تنظيم شئون مملكته ، والعمل على النهوض من عثرته . وكانت أعوص محنة يومئذ أسر ولده وأهله في سردانية ، وقد استطاع أن يفتدى زوجته وبناته وإخوته في مدة قريبة . ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه ، وكذلك أختها ، وآثرتا العيش في أرض نصرانية ، فأعرض عنهما . وبقيت مشكلة ولده على . وكان وقت أسره في سردانية طفلاً في السابعة من عمره ، وكان وحيداً يومئذ ، وكانت أمه نصرانية كذلك . وقد رفض السرادنة كل عرض لافتيائه ، وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده . ومضت الأعوام والغلام يعيش في الأسر بين النصاري ، يربي على دين النصرانية ، ويتحدث لغة القوم . وأخيراً وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه ، وذلك بعد عشرة أعوام من أسره . وكانت وجهة نظر السرادنة في احتجاز الغلام على هذا النحو ، هي استبقاؤه رهينة ثمينة ، لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى ، ولم يرتضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة ، وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم في سلام ، وألا يعود إلى إزعاجهم بأية صورة . وخرج على من الأسر ، وهو قتي يتكلم بلسان «الروم» الذي ربي بينهم ، ويتزيا بزيهم ، ويعتق دينهم . فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام ، فقبله ، وحسن إسلامه ، وعنى مجاهد بتأديبه وتثقيفه . وكان قبل افتدائه من الأسر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة ، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه في ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم ، فقدّمه على أخيه الأصغر ، وعينه لولاية عهده ، وعهد إليه بقيادة الجيش . وكان لذلك فيما بعد أثره في توتر العلاقات بين الأخوين (١) .

كانت غزوة سردانية أعظم أعمال مجاهد العامري ، وهي ألمع صفحة في تاريخه . بيد أنه منذ عاد إلى دانية ، قلدر له أن يخوض سلسلة من الحوادث والأعمال الأخرى .

(١) أعمال الإعلام ص ٢٢١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ . وبحث الأستاذ Chabas السالف الذكر . ويقول لنا ابن بسام إن الذي افتدى علياً من الأسر ، هو أحد آل خدام أمراء بني مناد بالمغرب الأوسط ، وأنه أسدى بذلك إلى والده يداً بيضاء (راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦) .

ففي سنة ٤٠٨ هـ ، اجتمع رأى الفتيان العامرين ، وعلى رأسهم زعيمهم خيران صاحب ألمرية ، على معارضة خلافة علي بن حمود الناصر في قرطبة ، والدعوة لخلافة مرشح أموى جديد هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فأعلن خيران بيعته ، وأيده في بيعته المنذر التجيبي صاحب سرقسطة ، وولاية بلنسية ودانية وطرطوشة وألبونت وغيرها ، وكان ذلك في مؤتمر عقد في بلنسية ، وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى ، وأعلن الخلاف على الناصر ، وسار على رأس جيش متحد من حلفائه ومؤيديه ، ومنهم مجاهد العامري . والتقى جيش الفتيان وحلفائهم في ظاهر غرناطة بجيش البربر ، بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فهزم جند الأندلس هزيمة فادحة ، وقتل المرتضى خلال فراره (٤٠٩ هـ) ، وانهارت بذلك حركة الفتيان لمعارضة خلافة البربر ، وعاد مجاهد إلى دانية .

وفي خلال ذلك تطورت الحوادث في بلنسية ، وكانت تحت حكم الفتين العامرين مظفر ومبارك ، فتوفي مظفر أولاً ثم تبعه مبارك في حادث قتل فيه ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ حسبما فصلنا من قبل في موضعه . فعندئذ خلفه في حكم بلنسية الفتى لبيب العامري صاحب طرطوشة ، ثم شاركه في حكمها مجاهد العامري ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما ، ثم وقع الخلاف بينهما ، وخطط أهل بلنسية على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة النصراني ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية ، إلى جانب مملكته في دانية ، واستمر على ذلك زهاء عامين ، حتى اجتمع الفتيان العامريون مرة أخرى ، وعقلوا البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ، وندبوه أميراً لبلنسية ، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، وعندئذ تخلى مجاهد عن حكمها .

ولسنا نجد بعد ذلك تفصيلاً شافياً لأعمال مجاهد في الأعوام التالية ، بيد أن هناك واقعيتين واضحتين ، الأولى أن مجاهداً غزا مرسية ، والثانية أنه خاض حرباً مع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية . فأما عن الواقعة الأولى ، فإنه يبدو من إشارة لابن الأبار ، أن مجاهداً سار إلى غزو مرسية ، وقت أن كان عليها أبو بكر بن طاهر نائباً عن زهير العامري صاحب ألمرية . ولا توضح لنا الرواية أسباب هذا الغزو ، ولا تاريخه بالضبط ، ولكن الظاهر أنه وقع حوالى سنة

٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) في أوائل ولاية زهير لألمرية ومرسية عقب وفاة خير بن العامري . وقد كان النزاع قائماً داخل مرسية حول حكمها بين بني طاهر ، وبني خطاب ، وكان مجاهد فيما يبدو من مؤيدي بني خطاب ، فلما غلب بنو طاهر على المدينة سار مجاهد لغزوها ، وأسر أبا بكر بن طاهر ، وحمله معه إلى دانية ، ولم يطلقه إلا لقاء فدية طائلة ، بيد أنه ليس هناك ما يدل على أن مجاهداً حكم مرسية أو استقر بها طويلاً . وعندئذ ندب زهير أبا بكر بن طاهر لحكم المدينة واضطحب معه خصمه ومنافسه أبا عمرو بن خطاب إلى ألمرية حسماً للنزاع ، وضماناً للسكينة والسلام في مرسية (١) .

ولما توفي زهير العامري في سنة ٤٢٩ هـ ، قتيلا في حربه مع باديس صاحب غرناطة ، واستولى عبد العزيز المنصور من بعده على ألمرية وأعمالها ، وعلى مرسية وأوريولة ، شعر مجاهد بأن تضخم مملكة بلنسية على هذا النحو سوف يغدو خطراً على مملكته ، فمسات بينهما العلائق بسرعة وانتهت إلى الحرب . وسار مجاهد في قواته من دانية ، واخترق أراضي مملكة بلنسية الوسطى من شاطبة إلى لورقة . وكان عبد العزيز المنصور يومئذ في ألمرية ، فغادرها في قواته ، وكانت شاطبة ولورقة وشوذر (٢) من أعمال مملكته ، قد خرجت كلها عليه وانضمت إلى مجاهد . ووقعت الحرب بين الفريقين (٤٣٣ هـ - ١٠٤١ م) وانتصر عبد العزيز في النهاية على خصومه ، واستعان في محاربته لمجاهد ببعض سرايات من المرتزقة النصارى أمده بها ملك قشتالة ، وعاد مجاهد إلى دانية ، دون أن يفوز بشيء .

وولى مجاهد حكم ميورقة (الجزائر الشرقية) ابن أخ له يدعى عبد الله . وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد ، وبها كانت مرافئ معظم أساطيله ، لأن مياه دانية لاتصلح لرسو السفن الكبيرة . واستمر عبد الله على ميورقة خمسة عشر عاماً حتى عزل في سنة ٤٢٨ هـ ، وندب مجاهد لحكمها مولاه الأغلب فاستمر في منصبه بقية عهد مجاهد ، وقسم من عهد ولده على (٣) .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة (دوزي) ص ١٨٧ ، وطبعة القاهرة ج ٢ ص ١١٦ و ١١٧ . وكذلك الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ .

(٢) وهي بالإسبانية Jôdar

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

وتوفي مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) بعد أن حكم مملكة دانية والجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، ساد فيها النظام والأمن والرخاء .

وقد أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة ، بخلال مجاهد العامري ، وعبقريته الجربية والسياسية ، ومآثره العلمية والأدبية ، وكان أكبرهم تنويهاً بشأنه ، معاصره المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان ، وإليك نبذة مما قاله في ذلك ، نقلها إلينا ابن بسام في الذخيرة ، قال : « كان مجاهد فقي أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته في علم اللسان ، ونفوذه في علم القرآن ، عني بذلك من صباه ، وابتداء حاله إلى حين اكتماله ، ولم يشغله عن التزيد ، عظيم ما مر به في الحروب برأً وبحراً ، حتى صار في المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة ، لانتحالهم الفهم والعلم ، فأمه جلة العلماء وأنسوا بمكانه ، وخيموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة ، وجلة ظاهرة ، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس في الشعراء ، وأحرهم لأهله ، وأنكرهم على منشدته فأقصر الشعراء عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره » (١) .

وذكر لنا في نبذة أخرى نقلها إلينا ابن الخطيب ، أنه كان بين أعلام العصر الذين يلتفون حول مجاهد ، أبو عمرو بن سعيد الداني صاحب القراءات ، وأبو عمر ابن عبد البر ، وابن مغمر اللغوي ، وابن سيده صاحب كتاب المحكم وغيرهم (٢) . وكان منهم أيضاً الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن رشيق ، وكان يحتل في دولة مجاهد أرفع منزلة ، وقد ولاه ميوزقة فحكمها بالسياسة والعدل ، واشتغل هناك بالحديث والفقه (٣) وكان بعض هؤلاء العلماء منقطعاً إليه ، متفرغاً للعمل في كتفه ، مثل ابن سيده الذي ألف معظم كتبه تحت رعايته ، ولازمه حتى توفي ، ثم غادر دانية بعد وفاته خوفاً من سطوة ولده علي (٤) . « فشاع العلم في حضرته

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة أ . ونقلها صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ .

(٢) توفي أبو عمرو الداني سنة ٤٤٤هـ ، وابن عبد البر سنة ٤٦٣هـ ، وابن سيده سنة ٤٥٨هـ .

(٣) هذا قول ابن الأبار (الحلة السيرة ج ٢ ص ١٢٨) ولا نعرف متى كانت هذه التولية .

ولعلها كانت في أوائل عهد مجاهد . وقد توفي ابن رشيق بعد سنة ٤٤٠هـ .

(٤) المقرئ عن المطمع في نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

حتى فشا في جواريه وغلماهه ، فكان له من المصنفين عدة ، يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون في فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرفون دولته ، .

ومما يذكر عن علائق مجاهد بعلماء عصره ، قصته مع إمام اللغة والنحو في عصره ، أبي غالب بن غالب المعروف بابن التبانى المرسى . فإن مجاهداً أثناء تغلبه على مرسية ، وأبو غالب إذ ذاك بها ، أرسل إليه ألف دينار ، على أن يزيد في ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبي الجيش مجاهد . فرد عليه المال ، وأنف من ذلك قائلاً ، « والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجرت الكذب ، فاني لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته لكل طالب علم » (١) .

ولم تقف إشادة المؤرخ المعاصر بخلال مجاهد عند مآثره العلمية ، ولكنه ينوه في نفس الوقت بخلاله كفارس من أعظم فرسان عصره . ويقول لنا ابن حيان إنه « كان بهمة ، وأكثر الناس علماً بالثقافة ، فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان ، وإنه لم يكن في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولباقة ورواء وهيبة ، وحسن عمل في السلاح ، وتقليباً له ، إلى حذق بأبواب الثقافة والرماية ، وتدقيق لمعانيها » (٢) .

كذلك فإنه يبدو أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف وأحذقهم بالشئون المالية والتجارية . وكان نشاطه التجارى الواسع ، المترتب على نشاط سفنه التجارية الكثيرة في مياه غربي البحر المتوسط ، يحقق له ثروات طائلة ، وكانت مملكة دانية في الواقع من أغنى ممالك الطوائف ، وأكثرها تمتعاً بالرخاء .

وقد رأينا مما ذكرناه في غزوة ميورقة ، وغارات مجاهد البحرية على الشواطئ الفرنسية والإيطالية ، أن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره ، وكان من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية . ويصفه دوزى ، بأنه كان أعظم « القراصنة » في عصره ، وبأنه قد اشتهر بغزواته لسردانية وشواطئ إيطاليا وكذلك بحايته للأدباء (٣) .

ومع كل ما تقدم فإن ابن حيان لم يفر مجاهداً من نقده اللاذع ، إذ يبدو أنه

(١) راجع الروض المعمار (سفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ه أ . وأعمال الأعلام ص ٢١٨ .

(٣) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, V. III. p. 3

جنح في أواخر عهده إلى نوع من التناقض والاستهتار ، فتارة يبدو ناسكاً ، معتكفاً متبرئاً من كل باطل ، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلبه ولا لذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، شأنه في ذلك شأن سائر ملوك الطوائف (١) . وكان مجاهد العامري يكنى حسباً قدمنا بأبي الجيوش ، وفي بعض الروايات بأبي الحسن (٢) ، ويلقب من الألقاب الملوكية بالموفق .

وخلف مجاهد العامري في مملكة دانية والجزائر ، ولده علي الملقب بإقبال الدولة . وقد سبق أن أشرنا إلى قصة أسرهِ ، وهو صبي ، في غزوة سردانية ، وعوده من الأسر بعد أعوام طويلة ، فتي تغلب عليه صفات الروم ولسانهم ، وكيف عني أبوه مجاهد برده إلى حظيرة الإسلام ، وبتثقيفه وإعداده ليخلفه في الملك . وكان مجاهد ، قبل عود ولده علي ، قد رشح أخاه الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة لولاية عهده ، فلما صار الأمر بعد ذلك إلى أخيه علي ، تحطمت آماله ، وشعر نحو أخيه الأكبر ، بعاطفة بغض قوى ، ورغبة جامحة في إزالته . وهناك في الواقع بعض الغموض فيما يتعلق بمركز حسن من مسألة الحكم وولاية العهد ، ذلك أنه توجد قطع من النقود التي ضربت في دانية سنة ٤٣٢ هـ ، وعليها اسم حسن سعد الدولة ، كما توجد نقود ضربت في دانية وميورقة في سنتي ٤٣٥ هـ ، و ٤٣٦ هـ ، تحمل اسمه واسم أخيه علي وأبيهما مجاهد . وفي ذلك ما يدل على أن حسناً ، ربما ولي الحكم بالفعل خلال حياة أبيه نائباً عنه ، أو أنه كان مشاركاً لأخيه علي في ولاية العهد ، أو نحو ذلك (٣) . وعلى أي حال فقد سار حسن مغضباً إلى صهره ، وزوج أخته المعتضد بن عباد في إشبيلية ، وأفضى إليه بمشروعه في الوثوب على أخيه ، واسترداد حقه في الملك ، فشجعه المعتضد ، وهو من عرفنا من الجرلة والإقدام على الكبائر ، ولعله كان يرى في معاونته على تنفيذ مشروعه ، سيلاً إلى بسط حمايته فيما بعد على مملكة دانية . وبعث معه إلى دانية غلاماً فتاكاً من غلامانه ، ووضع حسن والغلام العبادي خطهما لاغتيال علي ،

(١) الذخيرة القم الثالث المخطوط لوحة ه أ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠ ، وراجع معجم ياقوت الجغرافي تحت كلمة « دانية »

(٣) P. y Vives : Los Reyes de Taifas : p. 36

واتفقا على أن يكون ذلك يوم جمعة عقب خروج علي من الصلاة . وكان من عادة علي ، عقب الخروج من الصلاة ، أن يتنزه قليلا على شاطئ البحر ، وكان إذا ركب ، كان أخوه حسن وراءه في الموكب ، فلما انتهى علي في ذلك اليوم من نزهته ، وسار عائداً إلى قصره ، انتهز حسن والغلام العبادي فرصة مروره في زقاق ضيق ، وانقض حسن عليه بخنجره ، فأصابه في يده ، ثم حاول أن يثني الطعنة فلم يوفق ورده علي ، وعندئذ حاول الغلام العبادي أن يطعن علياً بالرمح الذي يحمله ، فنشب الرمح في الحائط لضيق الزقاق ، وانقض رجال علي على الغلام العبادي فقتلوه ، وفر حسن ناجياً بنفسه ، وسار مسرعاً إلى بلنسية ، حيث لحاً إلى صهره ، وزوج أخته الآخر ، عبد الملك بن عبد العزيز ، وهناك عاش في كنف أخته مغموراً حتى توفي (١) .

وهكذا فشلت هذه المحاولة الغادرة في اغتيال علي بن مجاهد ، وبريء علي من جراحه واستقر في ملكه ، واتفق الجميع على طاعته وتأييده . وحذا على حذو أبيه في اتباع سياسة الحيدة والمودة مع جيرانه ، وحاول مثل أبيه أن يوثق علاقته مع ملوك عصره بالمصاهرة ، وكانت له بنات حسان يصفهن صاحب الذخيرة بأنهن كن « أحسن من الشموس ، وافئن من الطواويس » ويقول لنا إن ملوك الطوائف تنافسوا في الزواج منهن ، وجعلهن والدهن على عيوناً له على أزواجهن ، معتمداً على ما تحققه له المصاهرة وصلة الرحم ، من الرعاية والحماية (٢) ، فزوج إحداهن للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأخرى إلى المعتمد بن صمادح صاحب ألمرية ، وتزوج هو من ابنة أحمد بن هود المقتدر بالله ، بيد أنه كان من غرائب القدر أن هذه السياسة ذاتها ، وهي سياسة المصاهرة ، كانت أيضاً هي السبب في سقوط علي وضياع ملكه .

ولم نعر على أية تفاصيل شاقية عن الأحداث التي مرت بمملكة دانية أيام علي ابن مجاهد ، ولا عن أعمال علي ذاته ، وكل ما نستخلصه من الإشارات القليلة المتعلقة بحكمه ، أنه جرى على نفس سياسة أبيه في مخاصمة بني طاهر أصحاب مرسية ، وأنه كان متحالفاً مع أصحاب بلنسية ومريبطار وشتامية الشرق . وأما عن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

علاقته مع الملوك النصارى، فإنه كان على علائق المودة والصداقة مع ملك قشتالة، أسوة بالأمون صاحب طليطلة، ولكن على مبدأ الاستقلال لا الخضوع، إذ كانت مملكة دانية، حسباً بيننا من قبل، بموقعها النائي الحصين، بعيدة عن متناول عدوان قشتالة. وكذا كان يرتبط بمثل هذه العلائق الودية مع كونتات برشلونة، وهم أمراء آل برنجير.

وكان على يولى شئون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائماً أنها أهم أقسام مملكته. وكان حاكمها وقت ولاية على، هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان قد ولي حكمها منذ سنة ٤٢٨ هـ. وكان جندياً وبحاراً مجرباً، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطئ النصرانية في قطلونية وبروفانس^(١). ولما توفي مجاهد، استأذن الأغلب علياً بعد ولايته بقليل، أن يسير إلى الحج، فأذن له، وندب لحكم الجزائر صهره سايمان بن مشكيان، فاستمر في حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م)، فولى على مكانه عبد الله المرتضى فحكمها مدة طويلة. ولما سقطت دانية في يد ابن هود، وانقضت دولة على، حسباً يحمي، أعلن المرتضى استقلاله بحكم الجزائر، واستمر في حكمها أميراً مستقلاً حتى وفاته في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٢ م)، فخلفه في حكمها مبشر بن سايمان الملقب بناصر الدولة حسباً نذكره في موضعه^(٢).

وكان من أبرز أعمال على بن مجاهد، استجابته لنداء المستنصر بالله خليفة مصر الفاطمي، أيام الشدة العظمى، التي نكبت فيها مصر بالوباء والمجاعة الفائرة، حيث دعاه إلى المساهمة في إغاثة أهل مصر بالغلل والمؤن، فبادر على إلى الاستجابة، وبعث إلى الإسكندرية مركباً كبيراً مشحوناً بالمواد والأطعمة، (٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م)، فردها إليه المستنصر مشحونة بالتحف والذخائر، وتبالغ بعض الروايات فتقول إنه أرسلها إليه مشحونة بالأموال والذخائر، أو بالياقوت والجواهر والذهب^(٣).

وبعث على إلى المستنصر رسالة شكر تفيض بلاغة وإجلالا، مكتوبة بقلم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.

(٢) راجع: A. P. Ibars: Valencia Arabe, p 171 & p172.

(٣) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٨، وأعمال الأعلام ص ٢٢١ و ٢٢٢.

وزيره أبي الأصبح بن أرقم ، يشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية وجلالها ، ومقام المستنصر بالله . وقد نقل إلينا ابن بسام نص الرسالة المذكورة ، ومما جاء فيها على لسان علي :

« فالآن استمد المريد ، واستقر الضمير ، فتبسم مولى الحضرة رياضاً عطراً ، وراد روضها زهراً ، وشام برقها ممطراً ، واستوضح هلالها مبدراً ، وارشف ماءها حضراً ، فما الشكر وإن جزل ، يوف ثنايا ذلك الإفضال والإنعام » ولا اللسان وإن جفل يتعاطى ذلك الشأو ، ولا الأقلام ، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام . وأى وسع يبارى البحر وهو طام ، وأى طوق يطبق ركنى شام . ولو كانت للمولى بالقدر يدان وساعده إمكان ، وساعفه زمان ، لأم بشخصه كعبة الآمال ، واستقبل بقصده قبلة السعة والإقبال ، واستلم بيده ركن الإنعام والإفضال .. » (١)

وكان على يتبع سياسة المودة والتسامح المطلق نحو النصارى ، ونحو أمانيهم الدينية ، وربما كان ذلك راجعاً من بعض الوجوه إلى ظروف حياته ، وإلى نشأته خلال أسره الطويل ، بين نصارى سردانية ، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام . ولدينا في ذلك وثيقتان صادرتان منه ، الأولى بوضع سائر الكنائس والبيع التي بمملكة دانية والجزائر تحت رعاية أسقف برشلونة ، وأن يتولى هو تعيين سائر رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس ، والثانية بأن يسمح للنصارى المعاهدين في أعمال مملكته ، بأن يذكروا اسم أسقفهم في خطبهم ومواعظهم . ولدينا بالأخص النص العربي للوثيقة الثانية ، وقد جاء فيه : « أشهده لإقبال الدولة ، أيده الله ، على أنه أجاب غلبت الأسقف برشلونة . إلى أن يكون مذكوراً في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله ، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك في شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ، ثم يلي ذلك أسماء الشهود (٢) .

(١) الذخيرة ، انقسم الثالث ، المخطوط ، لوحة ٦٥ ب وما بعدها ، وهي طويلة .

(٢) تحفظ هذه الوثيقة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان برومة . وراجع نصها الكامل في بحث الأستاذ شاباس السالف الذكر عن مجاهد وابنه على في كتاب : *Estudios de Erudición Oriental* ،

Homenaje a Fr. Cedera

A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 175—176. وراجع أيضاً في هذا الموضوع

وكان من أثر هذه الحرية الدينية المطلقة ، أن تحققت في نفس الوقت حرية فكرية شاملة ، وانطلقت الأقلام بما شاءت . وفي هذا الجو المشبع بالتسامح والحرية ، كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وهو مولد من كتاب شرق الأندلس ، يرجع إلى أصل نصراني بشكنسي ، سبي من ماردة صغيراً ، ونشأ في بلاط دانية ، في كنف مجاهد العامري صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠-٤٣٦ هـ) ، وولده على إقبال الدولة (٤٣٦-٤٦٨ هـ)^(١) : كتب رسالته الشهيرة في تفضيل العجم على العرب ، وهي رسالة قوية عجيبة ، تفيض تحاملاً ضد الجنس العربي ، وتنوء بوضاعة مذهبه ، وخسيس صفاته ، وحقارة عيشه وميوله ، وانغماسه في شهوات الجنس ، وتشديد بالعكس بصفات العجم (والمقصود بها مختلف أجناس الفرنج) ، وترفعهم عن الشهوات الدنية ، وفروستهم ، ونجدتهم ، وتبحرهم في العلوم ، وغير ذلك . وقد وجه ابن غرسية هذه الرسالة إلى صديقه الكاتب الشاعر أبي عبد الله بن الحداد ، يعاتبه فيها ، لأنه ينحصر ابن صمادح دون مجاهد وولده على بمدائحهم ، وصاغها في أسلوب عنيف مقذع ، ينبغي بما كان يضمرة هذا الكاتب المولد للجنس العربي من المقت والحقد والكراهية . ولا تحمل هذه الرسالة تاريخاً ما . ولكننا نعرف ، ما تقدم أن ابن الحداد ، الذي وجهت إليه ، كان شاعراً في بلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية ، الذي حكم من سنة ٤٣٣-٤٨٤ هـ^(٢) . والمرجح أنها وجهت إليه حوالي سنة ٤٥٠ إلى سنة ٤٦٠ هـ ، وابن غرسية يقيم بدانية في كنف على إقبال الدولة ، وإليك بعض ما جاء في هذه الرسالة في التنويه بفضائل العجم ، ونقائص العرب :

(١) المغرب في حل المغرب لابن سميذ (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٠٦ و ٤٠٧ ، وأبو الحجاج البلوي في كتاب الف با (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ٣٥٣ . وابن الأبار في المعجم رقم ٢٨٢ في ترجمة أبي العباس الجزيري حيث يقول عنه « وكان بها (أي بدانية) يؤدب أبا جعفر أحمد بن غرسية الكاتب » .

(٢) أن اسم ابن الحداد الذي وجه إليه ابن غرسية رسالته ، هو الذي ورد في مخطوط الإسكوريال رقم ٣٨ الف الجزيري الآتي ذكره . ولكن ورد في الدخيرة لابن بسام (الجزء الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) وكذلك في كتاب الذيل والتكلة لابن عبد الملك المراكشي (مخطوط باريس السالف الذكر) أن الذي وجهت إليه الرسالة هو أبو جعفر الجزار ، وهو باسمه الكامل أحمد بن محمد بن سهل السرقسطي ، وأنه كان من شعراء بني هود ، وكان عالماً أديباً شاعراً ، وكان قد هبط من سرقسطة يريد ألمرية ليلحق بالمعتصم بن صمادح وقد عدل عن الورد إلى دانية ، والاتجاه إلى أميرها على بن مجاهد . بيد أننا نؤثر الأخذ بما ورد في مخطوط الإسكوريال .

« أحسبك أزريت ، وهذا الخيل البجيل اذدريت ، وما دريت أنهم الصهب
الشهب ، ليسوا بعرب ذوى أيتق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد ، نُجد ، بهم ،
لأرعاة شويها ، ولاتهم ، شغلوا بالماذى والمرآن ، عن رعى البعران ، وبجلب
العز عن حلب المعز ، جابرة ، قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن
روع المروع ، حاة السروح ، نمة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ،
وشقورة الحرصان ، لكنهم خطبة بالحرصان ، شعر .

ما ضرهم أن شهدوا مجادا أو كافحوا يوم الوغى الأندادا
أن لا يكون لوهم سوادا

« شرهوا برنات السيوف ، لايربات الشنوف ، وبركوب السروج
الكلب والفروج ، وبالنفير عن النكير ، وبالحنائب عن الحيايب ، وبالحب عن
الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الحمر والزمر ،
وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان ، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم ،
وحصونهم حصنهم ، أقيال آباؤهم من بين الأنام أقتال .

أولئك قومي أن بنوا شيدوا البناء وان حاربوا جدوا وان عقدوا شدوا
حُلُم علم ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية كحملة
الاسترلومينى ، والموسيقى والعلمة بالأرتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة
بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم
البدنية والدينية لاعلى وصف الناقة القدنية ، فعلهم ليس بالسفساف كفعل
نائلة وأساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزق خرباع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبور غالكهم
قاد قبل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم .

أزديك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنت أحمق
فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالقديم المفرى للأديم ، ولكن الفخر
يبابن عنما ، الذى بالبركة عنما ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب الذى
انتشلنا الله تعالى به ولإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فن أهل التثليث وعبادة
الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولاغرو أن كان منكم
حبره وسبره ، فى الرغام يلقي تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف
العذاب مستودعات بمسك الغزال :

لله ما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم محمد النور أبو القاسم

بهذا النبي الأُمِّي ، أفاخر من تفخر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف
السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتقى بالرسالة ، والمتقى للأداء والدلالة ، أصلى عليه
عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على وأصلى جناحه ، سيوفه ورواحه ،
أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

وقد أثار رسالة ابن غرسية مرارة في الأوساط الأدبية المعاصرة ، ورد عليه
من العلماء القرييين من عصره في رسائل شديدة ، انتهى إلينا بعضها . ومن هؤلاء
أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي ، وقد عاش في النصف الثاني من القرن
الخامس ، وكان معاصراً لابن بسام ، وأورد لنا ابن بسام رده على ابن غرسية
في الذخيرة . ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروي المتوفى سنة ٤٩٣ هـ .
وقد ورد رده في الذخيرة أيضاً ، وفي مخطوط الإسكوريال ، في رسالة عنوانها :
« حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة ، بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية » .
ومنهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبي الحवाल المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، وقد رد
على ابن غرسية في رسالة يوردها لنا صاحب الذخيرة ، وعنوانها : « خطف
البارق ، وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق » . ومنهم الفقيه أبو يحيى
ابن مسعدة من فقهاء الموحدين ، وقد عاش فيما يبدو في النصف الثاني من
القرن السادس ، في رسالة طويلة وردت في مخطوط الإسكوريال ، ومنهم أخيراً
أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسي في رسالة « الاستدلال بالحق في تفصيل
العرب على جميع الخلق » (١)

(١) توجد رسالة ابن غرسية ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال لا عنوان لها ،
وتحمل رقم ٥٣٨ الفزيري ، وتحتوي على عدة رسائل تاريخية متنوعة ، وتشغل بها اللوحات ٢٦-٢٩
وتليها رسالة أبي يحيى بن مسعدة في الرد عليها وتشغل اللوحات من ٢٩ - ٤١ ، ثم يليها رسالة ثانية
في الرد على ابن غرسية ، ثم رد أبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي ويشمل اللوحات ٥٣ - ٥٤ .
وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة (القسم الثالث المخطوط المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد) رسالة ابن غرسية
ثم رد أبي جعفر أحمد بن الدودين ، ورد ابن عبد الله القروي . وقد نشر العلامة المستشرق جولد
سيهر رسالة ابن غرسية ما عدا الفقرة الأخيرة منها ضمن بحث له بالألمانية عنوانه : « الشموية
هند مسلمي اسبانيا » Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien

وقد استمر صدى السخط على رسالة ابن غرسية عصوراً حتى أننا نجد كاتباً أندلسياً عاش بعد ذلك بقرنين هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى ، يتناول هذه القضية ، فى كتابه « ألف با » ، ويعقد فصلاً خاصاً عن « فضل العرب » يردد فيه ما قيل فى ذلك ، وما ينسب للعرب من الفروسية ، والشجاعة ، وحب الحرية ، والإباء والجلود ، وفصاحة اللسان والشاعرية ، وغير ذلك من الخلال الماثورة ثم يعطف على رسالة أبى عامر بن غرسية « البشكنسى الأصل » ، ويقول إنه قد « فسق فى رسالته وبدع ، وسب بسبها وجدع » ، ويعدد لنا من تصدوا لارد عليه ، ممن سبق ذكرهم وذكر رسائلهم ، ثم يبدى دهشته من تسامح أهل العصر ، وتركهم لابن غرسية وأمثاله دون عقاب ويقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتى ، وأقروا هذا المحترى على هذا الاجترأ ، وما جاء به من الافتراء ، أم كيف أبلغوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه » (١)

وقد عفى البحث الحديث بدراسة رسالة ابن غرسية والتعليق عليها ، وتناولها العلامة جولدسيهر فى بحثه « الشعبية عند مسلمى اسبانيا » الذى سبقت الإشارة إليه . ويلاحظ جولدسيهر ، أنه يوجد بين عظماء الأمة الأندلسية كثيرون ممن يرجعون إلى أصول غير عربية وبخاصة المولدين ، ومن هؤلاء أئمة من المفكرين مثل بى بن مخلد ، والعلامة ابن حزم ، وإمام اللغة ، أبو مروان عبد الملك ابن السراج ، وغيرهم ، وكذلك كان الشأن فى عنصر الصقالبة ، الذى ازدهر فى ظل أمراء بنى أمية ، وشغل منه الكثيرون أرفع المناصب من قيادة ووزارة وغيرهما . بيد أن عنصر المولدين ، كان أهم العناصر غير العربية فى الأمة الأندلسية وكانت النزعة الشعبية أكثر تمكناً لديهم من أى عنصر آخر . وتعتبر رسالة ابن غرسية من أبرز نماذج الشعبية الأندلسية ، فقد كان مؤلفها مولدا يرجع إلى أصل نصرانى ، وهو يردد فى رسالته ما تضمنته أدب الشعبية فى الشرق الإسلامى من الأسباب والمبادئ . بيد أن رسالة ابن غرسية تمتاز بأنها فى تفضيل

= نشر بمجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Z. der D. Morg. Gesell.) سنة ١٨٩٩ ص ٦٠١-٦٢٠ ونشرها الأستاذ مختار العبادى ضمن بحث له عن « الصقالبة فى اسبانيا » (مزيد ١٩٥٣) ونشرها أخيراً ، ونشر معها الردود التى سبقت الإشارة إليها الأستاذ عبد السلام هارون فى مجموعة نواذر المخطوطات ، (المجموعة الثالثة) (القاهرة ١٣٧٣ هـ) . وقد نشرناها نحن فى نهاية الكتاب . (١) أبو الحجاج البلوى فى كتابه « ألف با » ص ٣٤٧ - ٣٥٣ .

العجم على العرب ، تعنى قبل كل شيء بالإشادة بفضائل الروم أو في الأصغر
أى النصرانى ، فى حين أن معظم رسائل الشعوبية المشرقية تعنى بالمفاضلة بين
العرب والعجم (أى الفرس) .

أما ما كتبه ابن غرسية فى نهاية رسالته من تمجيد النبي العربى ، والإشادة
بمآثره ، ورسالته الروحية ، فيصفه جولديسير بأنه حجاب للتمويه ، وفى رأى
ابن غرسية أن العروبة ليست مفخرة النبي ، « فى الرغام يلقى تبهه ، والمسك
بعض دم الغزال » (١) .

واستمر على إقبال الدولة فى حكم مملكته زهاء ثلاثين عاماً ، ثم ساءت العلاقات
بينه وبين صهره ، حميه أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب سرقسطة . وكان
المقتدر أميراً صارماً وافر الأطماع ، فحارب أخوته واستولى على بعض أعمالهم ،
وانتزع طرطوشة من صاحبها الفقى العامرى مقاتل ، وحاول أن ينتزع لاردة
من أخيه المظفر . ثم اتجهت أبصاره إلى مملكة دانية ، وأخذ يكيد لعل ويشند
فى مضايقته . وكانت أهم الأسباب التى انتحلها لخصومته ، هو أنه أى على قد
استقبل بدانية بعض الأسر القوية ، التى فرت من لاردة بلد المظفر أخى المقتدر
وخصيمه ، ولجأت إلى حمايته . وذكر لنا ابن بسام سبباً آخر لذلك ، وهو أن
المقتدر طالب علياً ببعض القلاع الشمالية الواقعة فى مملكته ، والتى كان يريد أن
يلحقها بثغر طرطوشة ، وأن علياً ، خشية من صولته ، سلم إليه تلك القلاع ،
بيد أنه ضبط فيما بعد كتباً أرسلها على إلى أصحاب تلك القلاع يحثهم فيها على
التحصن والمقاومة (٢) . وأخيراً سار المقتدر فى قواته إلى دانية ، وحاصرها ،
وشعر على أنه عاجز عن مقاومته ، فعرض عليه أن يسلمه المدينة والقصر بما فيه ،
على أن يؤمنه فى نفسه وأهله ، فوافق المقتدر ، ودخل دانية واستولى عليها ،
وذلك فى شعبان سنة ٤٦٨ هـ (إبريل ١٠٧٦ م) . وانتهت بذلك الدولة المهادية.
وجلس المقتدر بالقصر ، وبايعة الناس خاصتهم وعامتهم ، وأقام بدانية وقتاً
ينظم فيه شئونها ، ثم غادرها . وأخذ المقتدر معه صهره علياً وأهله ، إلى
سرقسطة ، وأنزله فى كنفه ، فعاش هنالك محجوراً عليه حتى توفى ، وذلك فى

I. Goldziher: Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien (Z. (١)

der. Morg. Gesell.) B. 53 (1899) s. 607-615.

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٧ .

سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . وفي رواية أخرى ، أنه استطاع الفرار من اعتقال المقتدر ، ولحق بالعدوة ، والتجأ إلى بني حماد أصحاب مجاية وهناك توفي (١) . وحاول ابنه سراج الدولة ، وكان وقت سقوط دانية ، حاكماً لحصن شقورة ، أن يسعى إلى استرداد ملك أبيه ، فسار إلى برشلونة ، واستغاث بصاحبها الكونت برنجير ، فاستجاب إليه بشروط وأمهده ببعض قواته ، واستطاع بالفعل أن يسترد بعض الحصون ، ولكن المقتدر كان له بالمرصاد . ويقال إن المقتدر استطاع أن يدس عليه من اغتاله بالسهم ، فتوفي في سنة ٤٦٩ هـ ، لنحو عام من خلع أبيه (٢) .

وكان علي بن مجاهد أميراً فاضلاً ، رفيع الخلال والمواهب ، وكان مثل أبيه من حماة العلوم والآداب ، وكان لطول إقامته بسر دانية يتحدث ويكتب بالفرنسية والقشتالية ، وينظم الشعر بهما (٣) . وكان ميالاً إلى السلم والدعة ، بعيداً عن أحداث السياسة وتقلباتها ، مؤثراً لجمع المال ، والاشتغال بالمشاريع التجارية (٤) . وفي عهده ساد السلام والرخاء في مملكة دانية ، وازدهرت أحوالها وتجارها . وقد أشاد بذكره عبد الواحد المراكشي في تلك العبارة المؤثرة : « ثم ملكها (أى دانية) بعده ابنه علي بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ، ولا أظهر عرضاً ، ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ، ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية ، مكرماً لأهلها » (٥) .

- ٤ -

ويجدر بنا قبل أن نختم الكلام على مملكة دانية ، أن نتبع مصاير ولاية ميورقة أو الجزائر الشرقية ، التي كانت تؤلف أهم وحدة فيها . وقد رأينا أنه كان على حكمها وقت أن سقطت دانية في يد المقتدر بن هود في سنة ٤٦٨ هـ ، عبد الله المرتضى الذي ندب لحكمها منذ سنة ٤٤٢ هـ . وعندئذ أعلن المرتضى استقلاله ، واستبد بحكم الجزائر ، وبعث إلى دانية ليستقدم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 170, Note 3

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

(٥) المعجب ص ٤١ . وذكره أن علياً تلقب بالموفق من باب السهو، إذ هو لقب والده مجاهد.

أسرة سيده المخلوع على ، فأرسلت إليه ، وعاشت في كنفه معززه مكرمة (١) . واستمر المرتضى بعد ذلك في حكم الجزائر أعواماً طويلة أخرى ، حتى توفي سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

فخلفه في الإمارة مساعده مبشر بن سليمان . ويقول لنا ابن خلدون إن مبشراً هذا ، قد ولى على الجزائر في أوائل عهد على إقبال الدولة في سنة ٤٤٢ هـ ، وإنه كان من شرق الأندلس ، وأسره النصارى صغيراً وجبوه ، وإن مجاهداً وقع عليه بين أسرى سردانية ، فأعجب بمواهبه ، وقربه واصطفاه ، وترقى في خدمته (٢) . وفي هذه الرواية غموض وتحريف . والحقيقة في أمر مبشر أنه كان من أهل قلعة حمير من أعمال لاردة ، وأسره النصارى في صباه وجبوه ، وعاش في برشلونة ، حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر ، وكان قد وفد مبعوثاً إلى الأمير برنجير في بعض الشئون ، فأعجب بمواهب مبشر ، وافتيده من الأسر ، وأخذه إلى ميورقة وقدمه إلى المرتضى ، فسر بخلافه ومواهبه ، وأولاه ثقته ، واستعان به في تصريف شئون الحكم ، واستمر على ذلك حتى توفي المرتضى ، فخلفه في الإمارة حسبما تقدم .

وضبط مبشر شئون ميورقة (الجزائر) بحزم وكفاية ، واتخذ لقب ناصر الدولة . وفي تلك الأثناء كان المرابطون ، بعد أن أحرزوا نصرهم في الزلافة ، قد استولوا على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، ثم زحفت جيوشهم نحو شرق الأندلس ، واستولت على مرسية ثم بلنسية وذلك في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، كل ذلك ومبشر ماض في حكمه للجزائر ، يرقب سير الحوادث خذراً متأهباً .

والظاهر أن الجزائر تمتعت في عهده بفترة من الأمن والرخاء ، واشتهر أمر مبشر ، وقصده الأدباء والشعراء ، ووفد إليه بميورقة أبو بكر بن اللبانة المعروف بالمداني شاعر المعتمد بن عباد ووزيره من قبل ، وامتدحه بقصيدة هذا مطلعها :
ملك يروعك في حلى ريعانه راقب برونقه صفات زمانه
وكانت حملات البحارة المجاهدين في عهده ، وهم الذين تنعمهم التواريخ

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وهو ينسب هذا التصرف إلى مبشر خلف المرتضى .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

الفرنجية بالقراصنة ، تخرج من ثغور الجزائر المختلفة ، وتغير من آن لآخر على شواطئ قطلونية ، وبروفانس وليجوريا ، وكانت سفن النورمان والبيزيين والقطلان من جانبها تغير على شواطئ الجزائر وتعيث فيها . وكان من الحوادث الشهيرة في هذا العهد أن طائفة من السفن الترويجية جاءت بقيادة الملك سيجورد ملك الترويج ، وعاثت في شواطئ اسبانيا الغربية ، ثم عبرت مضيق جبل طارق ، وسارت إلى الجزائر الشرقية ، وهاجمت جزيرة فورمنتيرا الصغيرة المنيعة الواقعة جنوبي جزيرة يابسة ، وكانت قد أودعت بها أموال وذنخائر كثيرة للمسلمين ، تقوم على حراستها حامية صغيرة ، فاقتحم سيجورد الجزيرة ، وأضرم فيها النار ، واستولى على ما فيها من الأموال ، ومات سائر المسلمين المدافعين عنها^(١)

وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتماماً بالاستيلاء على الجزائر الشرقية ، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطئ الإيطالية ، وكان البابا يشجع هذا المشروع ويباركه . وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفاً مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث . وفي صيف سنة ١١١٤ م (أوائل ٥٠٨ هـ) خرج من مياه بيزة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة ومن فرنسا ، وعرج الأسطول أولاً على مياه الجزائر ، ونزلت بعض وحداته في إحدى الجزر الصغيرة . ولما علم بذلك مبشر ، بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة ، ويعرض تسليم الأسرى ، وأن يؤدي تعويضاً عن نفقات الحملة ، فرفض الغزاة ، وسارت سفنهم فرست في مياه قطلونية حتى اقترب الربيع ، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة ، وكانت سفن الغزاة ، قد غدت يومئذ نحو خمسمائة سفينة ، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة ، فحصدن ميورقة ، وبذل جهده في إعداد وسائل الدفاع . واستولى الغزاة على يابسة بسهولة ، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ، ونزلوا فيها ، وضربوا الحصار حول مدينة ميورقة عاصمتها .

واستعد مبشر لحصار طوبل الأمد ، وبعث في الحال صريحه إلى أمير المسلمين

(١) راجع : Dozy : Recherches ; V. II p. 323-326 . وكذلك A. Campaner y

Fuentes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares

(Palma 1888) p. 44-96

على بن تاشفين ، يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر في أيدي النصارى . وكان المرابطون قد استولوا عندئذ على شرق الأندلس كله ، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين في موقعة إقليش (٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) ثم استولوا في العام التالى على سرقسطة (٥٠٢ هـ) ، وقضوا على ملك بنى هود ، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية . وقدّر أمير المسلمين أهمية ميورقة ، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجادها ، ورأى المرابطون أن يضغظوا في نفس الوقت على مملكة برشلونة التي كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله في حصار ميورقة ، فسارت قواتهم شمالا ، واخترقت أراضي قطلونية وعاثت فيها . ولكن الكونت برنجير ، اضطر لإزاء ضغط حلفائه ، أن يبقى معهم حتى النهاية في مياه ميورقة .

واشتد الحصار على ميورقة ، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة وقطعوا عنها كل معونة ونجدة ، وقامى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان ، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم ، وتوفى خلال ذلك الأمير مبشر ابن سايمان ، فخلفه في الحكم أبو الربيع سايمان ، وصمم أن يمضى في المقاومة ، وحاول أن يغادر الجزيرة مع بعض صحبه في مركب صغيرة ، ليسعى إلى طلب النجدة ، فأسره النصارى . واستطاع النصارى أن يقتحموا السور الأول في فبراير سنة ١١١٦ م (أواخر سنة ٥٠٨ هـ) ثم اقتحموا بقية الأسوار تباعاً . وفي أواخر مارس دخل النصارى مدينة ميورقة ، واحتلوا قصر المدينة قصر الحكم ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً وسبياً ، ثم أضرموا فيها النار ، ولم يكن بها عندئذ سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن هلك معظم المدافين عنها في الحصار ، فقتل النصارى منهم جملة كبيرة ، وكان الكونت برنجير صاحب برشلونة ، قد اضطر قبيل سقوط المدينة ، أن يعود إلى مملكته حين علم باشتداد ضغط المرابطين عليها ، وحصارهم لبرشلونة عاصمتها .

وفي أثناء ذلك كان أمير المسلمين على بن تاشفين ، قد تلقى صريخ مبشر على يد بحار جرىء هو عبد الله بن ميمون ، وكان قد استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، وأن يعبر البحر إلى المغرب . وبادر أمير المسلمين فجهز أسطولا ضخماً من خمسمائة سفينة ، وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرناش . وعلم البيزيون وحلفاؤهم بذلك ، فأدركوا

أنه لا محل لأن يخوضوا مع هذه القوات البحرية الضخمة ، معركة غير مأمونة العواقب ، فأقلعوا مثقلين بالسبي والغنائم ، بعد أن استصفوا ثروات الجزيرة ، وغادروها قاعاً صافصفاً . ودخل المرابطون على أثرهم ميورقة ، وذلك في أواخر سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) ، وفي الحال شرعوا في تعميرها ، وعاد إليها القارون من سكانها ، وكانت قد لجأت منهم إلى الجبال جموع غفيرة ، وعين أمير المسلمين حاكماً على الجزائر يدعى وانور بن أبي بكر اللمتوني ، ومن ذلك التاريخ تدخلت الجزائر الشرقية أو ميورقة في حظيرة الإمبراطورية المرابطية الكبرى ، وهي التي كانت قد اشتملت يومئذ على سائر ممالك الطوائف الأندلسية (١) .

(١) تراجع أخبار غزو النصارى لميورقة واستردادها على يد المرابطين ، في ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨ وكذلك ، ١٣٥-١٠٥ p. : *ibid* ; A. Campaner y Fuentes و P. y Vives : *Los Reyes de Taifas*, p. 41

الكتاب الرابع
دول الطوائف
في منطقة بلنسية

الفصل الأول

مملكة بلنسية

١ - عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون

الصقالبة وشرق الأندلس . العبدان مظفر ومبارك . تغلبهما على بلنسية . اشتراكهما وامتزاجهما . تغلب مبارك على شاطبة . أحوال بلنسية في عهدهما . وفود الصقالبة والموالى إليها . الحرب بين مبارك والمنذر التجبى . وفاة مظفر . مصرع مبارك . بلاطهما ووزراؤهما . مديح الشعر لهما . لييب العامرى ومجاهد يخلفان مبارك . اختلافهما وفرار لييب إلى طرطوشة . مبايعة الفتيان العامريين لعبد العزيز المنصور بالزعامة . توليه إمارة بلنسية . خيران العامرى يقدم للزعامة محمد بن عبد الملك المنصور . توليه إمارة مرسية وأوريولة . تنكر خيران له ومغادرته لمرسية . عبد العزيز المنصور ووزراؤه . وفاة خيران وخلافة زهير له فى المرية . مصرع زهير . مبايعة أهل المرية لعبد العزيز . اتساع مملكة بلنسية وموقف مجاهد العامرى . عبد العزيز يعهد بشئون المرية إلى ابن صراح . غدره واستيلاءه على المرية . الحرب بين عبد العزيز والفتيان العامريين . عبد العزيز وعلاقته بالملوك النصارى . وفاة عبد العزيز وقيام ولده عبد الملك . وزيره ابن رويش . موقف المأمون بن ذى النون . مشروعه للاستيلاء على بلنسية . استيلاءه عليها واعتقاله لصهره عبد الملك . مختلف الروايات فى ذلك . مهاجمة القشتاليين لبلنسية . موقعة بطرنة . مقدم المأمون بحجة إخماد صهره . دخوله بلنسية واستيلاءه عليها . وفاة ابن رويش وقيام ولده أبى بكر بن عبد العزيز . استبداده بحكم بلنسية . استيلاء المؤتمن بن هود على دافية . توحش ابن عبد العزيز والتجأؤه لألفونسو السادس . محاولة المؤتمن الاستيلاء على بلنسية وفشله . التفاهم بين أبى بكر والمؤتمن . وفاة أبى بكر وقيام ولده عثمان سكانه . تعاور الحوادث . سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس . وعده لصاحبها القادر باسترداد بلنسية . مسير القادر إلى بلنسية مع الجند النصارى . موقف أهل بلنسية . إعلان الجماعة خلع عثمان ومبايعة القادر . دخول القادر بلنسية واستيلاءه عليها . استبداده واضطراب الأحوال فى عهده . مقدم المرابطين إلى الأندلس . رحيل القشتاليين عن بلنسية . أطماع المنذر بن هود فى بلنسية . مسيره إليها ومحاصرتها . جموعة الجند القتلان . موقف القادر واستغاثته بألفونسو السادس والمستعين بن هود . المستعين بن هود ومشروعه فى الاستيلاء على بلنسية .

كانت دول الطوائف التى قامت فى شرقى الأندلس ، تمتاز بغلبة العنصر الصقباي ، وتفوقه فى سيادتها ، وفى تكييف أحداثها ، وكانت هذه العناصر الصقلية التى ألفت فى شرقى الأندلس ، ميدانا لنشاطها وأطماعها ، هى نفس العناصر التى ظهرت بادية ذى بدء فى ميدان الفتنة القرطبية ، وساهمت فى أحداثها

بقسط بارز ، ثم غادرت قرطبة ، حينما غلبت هنالك على أمرها ، وألفت ملاذها في ذلك الركن الثاني من الأندلس ، بعيداً عن موجة الطغيان البربرية التي اجتاحت قرطبة ، وجنوبي الأندلس .

وكانت بلنسية ، وهي أعظم القواعد الشرقية ، مركز التجاذب في معركة السلطان التي اضطرم لظاها في تلك المنطقة ، وكانت هذه المعركة في البداية متواضعة محدودة المدى ، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقي الأندلس كله ، من طرّكونة شمالاً حتى مرسية ولورقة جنوباً ، بيد أنها فيما عدا بعض اتصالات محدودة بأحداث المنطقة الغربية ، حافظت على سيرها المستقل ، وطابعها الخاص . وذلك أنه لما اضطرمت الفتنة ، وانهازت الدولة العامرية في أوائل سنة ٣٩٩ (١٠٠٩ م) ، واستطاع محمد بن عبد الحبار المهدي أن ينتزع الخلافة لنفسه من هشام المؤيد ، كان على بلنسية - وفقاً لبعض الروايات - فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامري ، فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضاً هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فغادر مجاهد بلنسية إلى دانية ، وترجع العبدان - ويسديهما ابن الخطيب بالأميرين - مكانه في حكم المدينة . ويقدم إلينا ابن حيان رواية أخرى عن تغلب مبارك ومظفر على بلنسية ، خلاصتها أنهما كانا يتوليان وكالة الساقية بالمدينة ، أيام ولاية عبد الرحمن ابن يسار عليها ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وشاء القدر أن ينتزع الإمارة مبارك . ويصف ابن حيان الحادث بأنه « من غرائب الليالي والأيام ، اللاعبة بالأنام » . ثم يقول لنا إن العبدان مبارك ومظفر تولياهما حكم بلنسية ، وامتزجا في ذلك امتزاج الإخوة وعشاق الأحبة ، ونزلا في قصر الإمارة مختلطين « تجمعهما في أكثر الأوقات مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ، لا ينفردان إلا في الحرم خاصة ، على أن جماعة حرهما كن مختلطات في منازل القصر ، ومستويات في سائر الأمر » . وكان لمبارك مع ذلك التقدم في المخاطبة ورسوم الإمارة لصرامته وشدهته ، ولدماثة مظفر وانصياعه لزميله في سائر الأمور .

وذكر في بعض الروايات أن مظفر ومباركاً كانا يقسمان فيما بينهما حكم الولاية ، فكان مظفر يختص بحكم بلنسية ، ومبارك بحكم شاطبة^(١) . وذكر لنا

ابن الخطيب من جهة أخرى، أن شاطبة كان يتولى حكمها منذ انقراض الدولة العامرية ، الفتي خيرة الصقلي ، وتوطد بها أمره ، وكان مبارك يتوق إلى إزالته عنها ، ففي ذات يوم زار خيرة بلنسية ، واستضافه مبارك ودس له السم في الطعام فهلك بعد أيام قلائل ، وتولى نائبه عبد العزيز بن أفلح حكم شاطبة مكانه تحت رعاية مبارك ، وتركه مبارك على حاله إلى أن استولى عليها مجاهد العامري (١). وعلى أي حال ، فإنه يبدو ، أن مظفرأ ومباركأ كانا وفقاً لرواية ابن حيان المتقدمة ، يحكمان معاً مدينة بلنسية بصفة فعلية .

وبلغت جباية بلنسية في عهدهما مائة وعشرين ألف دينار في الشهر ، سبعون منها من بلنسية ذاتها ، وخمسون من شاطبة التابعة لعمالتها ، وكانا يشتدان في تحصيل هذه الأموال ، حتى أرهقت الرعية وأثقل كاهلها .

على أن هذين العبدین لم يقصرا في تحصين بلنسية وصيانتها ، فابتنوا سورها وزودوا أبواب حصينة ، فارتفع طمع الطامعين عنها ، ووفد إليها الناس بأموالهم ، واستقروا بها ، وابتنوا المنازل والقصور الفخمة ، والرياض الزاهرة ، وكان مبارك ومظفر قدوة في ذلك فأنشأ القصور الفخمة ، واقتنى نفيس المتاع والرياش والآلات . وكان موكبهما إلى المسجد الجامع ببلنسية ، يذكر الناس بفخامته وأناقته ، وفاخر ما يرتديانه من اللباس ، بمواكب مولاها عبد الملك المظفر ابن المنصور نفسه .

ووفد على بلنسية في ظل مبارك ومظفر ، كثير من الموالى والصقالبة من الإفرنج والبشكنس وغيرهم ، من طائفهم وعشيرتهم ، وكثير من العبيد الآبقن من مختلف نواحي الأندلس ، وكان من هؤلاء الصقالبة ، الوافدين المشردين ، كثير من الفرسان الشجعان ، وانتسب معظمهم إلى ولاء بني عامر ، واكتسبوا بذلك نفوذاً ، ووفد على المدينة أيضاً كثير من أرباب المهن والحرف ، وكان لذلك كله أثره في تقدم العمران والرخاء بالمدينة (٢) .

وكان من أهم أعمال مبارك العسكرية محاربته لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - اللوحة ٣ أ و ب و ٤ أ . وراجع أيضاً البيان

المغرب ج ٣ ص ١٥٨ - ١٦١ .

سرقسطة . وذلك أن الفتى ليبياً العامري كان يحكم طرطوشة من أعمال الثغرا الأعلى ، فتاب لمنذر رغبة في الاستيلاء عليها ، وهاجها ، ففر عنها لبيب وسار إلى بلنسية واستغاث بمبارك ، فخرج معه في خمسمائة من خيرة فرسانه ، ولقيهم منذر فغلبوا عليه وهزموه هزيمة شنيعة ، وعاد مبارك إلى بلنسية ظافراً ، واستفحل أمره ، ودانت له جماعة الموالي (١) .

واستمر مبارك ومظفر في حكم بلنسية بضعة أعوام ، ثم توفي مظفر ، واستمر مبارك من بعده ، فترة يسيرة . وفي ذات يوم خرج للترفة فحدث حين عبوره فوق قنطرة النهر ، أن عثرت به فرسه ، فسقط منها ، واصطدم ببعض أخشاب خرجت من القنطرة فشج وجهه وبطنه ومات لساعته ، وكان مصرعه في شهر ذي الحجة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) (٢) .

ومن الغريب أن مباركاً ومظفراً بالرغم من جهلهما ، وبعدهما عن ميدان التفكير والأدب ، كانا يستخدمان في بلاطهما طائفة من كتاب العصر النابيين مثل ابن التاكرفي ، وابن مهلب ، وابن طالوت ، وكانا يرتبان هؤلاء الكتاب في دولتهم على نسق مشيخة الوزراء في قرطبة ، ويرجعان إلى رأيهم ومشورتهم في معظم الأمور ، وكانا يعملان في حكم بلنسية مستقلين تمام الاستقلال ، لا يعترفان في ذلك برياسة قرطبة أو غيرها .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مباركاً ومظفراً كان لهما نصيب من مديح الشعر المعاصر ، وقد مدحهما شاعر العصر ، أبو عمر بن دراج القسطلي بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك	لباغ قراك أم لباغ جوارك
وزياك أم عرف المحامر أشعلت	بعود الكباء والألوة نارك
وميسمك الوضاح أم ضوء بارق	حداه دعائي أن بجود ديارك
وطرة صبح أم جيينك سافراً	أعرت الصباح نوره أم أعارك (٣)

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ . ويقول لنا ابن الخطيب إن مظفراً توفي بعد مبارك وإنه على أثر مصرع مبارك ، ثار العامة ونهبوا القصر وقتلوا مظفراً (أعمال الأعلام ص ٢٢٥) .

(٣) نقل ابن الخطيب في أعمال الأعلام أقوال ابن حيان التي نقلها صاحب البيان المغرب ، ورجعنا إليها ، وقد نشر جزءاً كبيراً من قصيدة ابن دراج القسطلي (راجع ص ٢٢٢ - ٢٢٥) . وردت القصيدة كلها بيدوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ن ١٠١ - ١٠٨ ، وهي من غرر قصائده .

ولما توفي مبارك ، خلفه في حكم بلنسية الفتى لييب العامري صاحب طرطوشة ثم شاركه في حكمها مجاهد العامري ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما معاً ، ثم وقع الخلاف بينهما ، ففر لييب إلى طرطوشة واستأنف رياسته بها ، وانفذ مجاهد بحكم بلنسية مع حكمه لدانية في نفس الوقت . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج عليه الفتيان العامريون ، وعقدوا البيعة لسيدهم وحفيد مولاهم ، عبد العزيز ابن عبد الرحمن المنصور ، وذلك في سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) .

وقد سبق أن أشرنا إلى تعلق الفتيان الصقالبة بتراث الدولة العامرية ، وولائهم لإمامة هشام المؤيد بالله ، وإلى الدور الذي قام به زعمائهم مثل واضح وخيران ، في تطورات الخلافة القرطبية ، وقد كانت بيعتهم لعبد العزيز المنصور أثراً من آثار هذا الولاء الراسخ لبني عامر . وكان عبد العزيز وقت مبايعته ، فتى حدثاً في نحو الخامسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة ٣٩٧هـ (١) ، وكان حينها نزلت النكبة بأسرته قد حمل سراً إلى سرقسطة ، وهناك عاش في كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبي ، فلما استدعاه الفتيان العامريون لبيعته لحق بشاطبة ، وهناك تمت بيعته أميراً لبلنسية ، وزعيماً لبني عامر .

على أن هذه البيعة لم تلبث طويلاً دون منازع . ذلك أن خيران العامري ، وكبير الفتيان العامريين ، وصاحب ألمرية ومرسية وأوريولة ، لم يكن على وفاق مع عبد العزيز . والظاهر أنه خشي على سلطانه في مرسية ، وأوريولة ، من هذه الزعامة الجديدة ، أو أنه لم يحصل على ما كان يرجوه في ظلها من نفوذ . ومن ثم فإنه قد تم للزعامة في شرق الأندلس ، مرشحاً جديداً من بني عامر ، هو محمد ابن عبد الملك المظفر بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان يومئذ فتى في نحو العشرين من عمره ، وكان قد فر من قرطبة في عهد القاسم بن حمود ، ومعه أموال جلييلة كانت لأمه ، ولجأ إلى حماية خيران ، فلما وقع الخلاف بين خيران وعبد العزيز ، نادى خيران بزعامة محمد ، ونزل له عن حكم مرسية وأوريولة ، ولقبه بالمؤتمن ثم بالمعتصم . بيد أنه لم يمض طويل على ذلك حتى اضطربت الأمور في تلك المنطقة ، فنارت شاطبة ضد عبد العزيز ، واضطر أن يغادرها إلى بلنسية ، وتكر خيران في الوقت نفسه لمرشحه الجديد محمد المعتصم ، وغادره

مغضباً إلى ألمرية ، ثم عاد في قواته إلى مرسية ، وضيق على المعتصم حتى اضطره إلى الخروج عنها ، وذلك في ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، واستولى الفتيان على سائر أمواله ، ولجأ المعتصم إلى أوريولة فطارده خيران ، وألح عليه ، ففر منها ، ولحق بدانية ، والتجأ حيناً إلى أميرها مجاهد العامري ، ثم غادرها ، وسار إلى غربي الأندلس ، وهناك عاش بضعة أعوام أخرى حتى توفي في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ^(١) .

- ١ -

واستقر عبد العزيز المنصور في حكم بلنسية دون منازع . وكانت له في بداية حكمه علائق مودة متبادلة مع القاسم بن حمود الخليفة بقرطبة ، كذلك انضوى تحت لوائه مجاهد العامري حيناً ، ثم اختلفا وناصبه العداء ، وأخذ مجاهد يتربص الفرص لمهاجمته والإيقاع به . وعمل عبد العزيز على جمع المشردين من أهل بيته ، فأوأمهم ، وأولاهم صادق المحبة ، وأغدق عليهم الأرزاق الوفيرة ، حتى غدا في ذلك أجمل قدوة لأمرء عصره ، واستخدم في ديوانه أربعة من أشهر كتاب عصره ، كانوا يعرفون بالطبائع الأربع ، وهم ابن طالوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرني كاتب رسائله . ولما أعلن القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) ظهور هشام المؤيد ودعا لخلافته ، كان عبد العزيز المنصور في مقدمة الأمراء الذين بايعوه ، واعترفوا بخلافته ^(٢) .

وكانت تطورات الحوادث في مملكة ألمرية ، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية . ونحن نعرف أن مملكة ألمرية ، كانت وقت أن ظفر عبد العزيز برياسة بلنسية ، تحت حكم الفتي خيران العامري ، وهو في نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة ، فلما توفي خيران في سنة ٤١٩ هـ ، خلفه في رياسة مملكة ألمرية ، نائبه وزميله الفتي زهير العامري ، وقد كان مثل خيران من أكابر الفتيان العامريين ، وأكثرهم إقداماً وعزماً . ونحن نعرف كيف

(١) راجع في هذه الحوادث : ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣

و ١٩٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p.97&98

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٤٩ ب ، وأعمال الأعلام ص ١٩٥ ، والبيان

المغرب ج ٣ ص ١٦٤ و ١٦٥ .

حدثت زهير نفسه بالسير إلى غرناطة لافتتاحها ، وكيف لقي مصرعه في المعركة التي نشبت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وذلك في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) . وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور ، الفرضة السانحة لتوسيع مملكته ، وكتب إليه أهل ألمرية يدعونه لرياستهم ، وبعث وزيره وصهره زوج أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقواده وفي مقدمتهم كاتبه أحمد بن عباس ، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوئته في حكم ألمرية . فكان له ما أراد ، وخلصت له ألمرية أولاً لمبايعة أهلها له ، وثانياً لأنها باعتبارها من أملاك الفتيان العامرين موالى أبيه وجده ، تعتبر له ميراثاً شرعياً . وهكذا استولى عبد العزيز على ألمرية وأعمالها ، ماعدا ولاية جيان التي انتزعها باديس لنفسه عقب مصرع زهير .

وغدت مملكة بلنسية بإضافة ألمرية إليها من أعظم ممالك الطوائف . وهنا شعر مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية ، بخطر هذه المملكة القوية الجديدة على سلطانه ، فنهض لمهاجمتها ومحاربتها ، وزحف عليها بقواته ، واجتاح وقعتها الوسطى من شاطبة إلى لورقة ، وثارت حصون شاطبة ولورقة وشوذر على عبد العزيز . وكان عبد العزيز عندئذ في ألمرية ينظم شئونها مع وزيره معن ابن صمادح ، فبادر بمغادرة ألمرية للدفاع عن أرضه ، وندب وزيره معنأ ليسهر على شئون ألمرية ، فكان أن خان ابن صمادح عهد أميره ، وانتزع لنفسه رياسة ألمرية حسبما فصلناه في أخباره .

وخرج عبد العزيز من ألمرية في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) لملاقاة خصومه ، وزحف توال على شاطبة ، فخرج إليه العبيد العامريون ، وهزموه في أول موقعة نشبت بينهما ، ولكنه جمع فلوله وعاد فكرر عليهم ، وظفر بهم ، وقتل منهم جملة كبيرة ، ودخل شاطبة^(١) . وكانت مدينة مرسية تابعة حسبما تقدم للمملكة بلنسية ، وكان عليها من قبل زهير ، نائبه أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر ، وكان حسبما تقدم رجلاً وافر العلم والوجاهة والسراوة ، فضبط المدينة وحكمها بحزم وبراعة ، دون أن يتخذ ألقاباً أو يبدو في ثوب الإمارة ، فأقره عبد العزيز على ولايته . وكان عبد العزيز على علائق طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية ، ولا سيما

فرناندو الأول ملك قشتالة ، وقد استعان عبد العزيز في محاربة خصمه مجاهد العامري ببعض سريات من المرتزقة النصارى . ولم تصب أراضى بلنسية في عهده بشيء من الغزوات المخربة ، التي كانت تجتاح ولايات الأندلس الغربية والوسطى . وربما كان ذلك راجعاً من بعض النواحي إلى أرومته وقربته عن طريق جدته ، إلى الملوك النصارى (١)

واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً . ثم توفي في شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (يناير ١٠٦١ م) .

فخلفه ولده عبد الملك بإجماع أهل الدولة ، وبويع في بلنسية وشاطبة ، واستقر في بلنسية ، ولقب بنظام الدولة ، وبالمظفر . وكان حدثاً يافعاً ، فتولى تدبير الدولة ، وزير أبيه أبو عبد الله محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبي المشهور بابن رويش ، وكان رجلاً وافر العلم والحنكة ، فأحسن تدبير الأمور ، واستقر على يديه النظام والأمن ، بالرغم مما كانت تعانيه بلنسية من نقص في المواد والرجال ، وفساد في الأعمال . وكان يولى المأمون بن ذى النون صاحب طابطة القوى مكانة خاصة ، إذ كان صهر عبد الملك وحماه ، وكان يبدى نحوه عطفاً واهتماماً بمعاونته والدفاع عنه ، وكان عقب وفاة عبد العزيز ، قد سار في بعض قواته إلى قلعة قونقة القريبة من بلنسية ، ليكون قريباً من صهره ، ثم أوفد إلى بلنسية أحد قواده في جماعه قوية من الحند ، وكاتبه ابن مثنى ، ليكونوا إلى جانب عبد الملك ، بحجة معاونته وشد أزره ، والمحافظة على السكينة والنظام (٢) .

يبد أن المأمون كان يضم نحو صهره ونحو بلنسية نيات أخرى ، وكان يُسر له بالأخص أنه يسيء معاملة ابنته ، ويبالغ في إهانتها وإيلاهما . وكان عبد الملك حسبما نخبرنا ابن حيان « منهمكاً في الشراب ، غارباً عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ونقص المروءة ، وكثرة الاستمهال ، والانحطاط في مهاوى اللذات » (٣) ثم كان يُسر له أيضاً أنه يأوى في بلنسية بعض خصومه من السياسيين الفارين من طليطلة ، وأخيراً فقد طاب المأمون إلى صهره أن يعاونه بجنده في حملته ضد ابن عباد ، فأبى عليه ذلك وفقاً لنصح وزيره ، واعتذر بأنه يخشى عدوان أمير

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٤٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ .

دانية ومن يحالفه من الفتيان أصحاب المدن القريبة . كل ذلك حمل المأمون على أن يضع مشروعه للاستيلاء على بلنسية .

وقد سبق أن ذكرنا في أخبار مملكة طليطلة ، خلاصة الروايتين المتعلقتين باستيلاء المأمون على بلنسية ، وأولاهما أن المأمون سار إلى بلنسية في بعض قواته بحجة زيارة صهره ، وأنه خلال إقامته بالقصر ، دبر كيداً لصهره ، وقبض عليه ، وأرسله إلى شنتبرية ، وسيطر بذلك على بلنسية . والثانية أنه زحف على بلنسية بمعاونة الجند القشتاليين ، ودهم المدينة وهي في غفلة ، فاقتحمها ، وأسر صهره عبد الملك وآله ، وهم بقتله لولا أن شفعت فيه زوجته ابنة المأمون ، فبعث به إلى إحدى قلاع في قونقة ، أو إقليش ، واعتقله هناك^(١) .

ونود أن نعرض الوقائع مفصلة وعلى ضوء الروايات القشتالية التي تقدمها إلينا بصورة أخرى .

ذلك أن فرناندو الأول ملك قشتالة خرج بقواته في أوائل سنة ١٠٦٥ م ، (٤٥٧ هـ) متجهاً صوب أراضي مملكة سرقسطة لمعاينة أميرها المقتدر بن هود ، لتخلفه عن دفع الجزية التي كان متعهداً بأدائها ، ولأنه من جهة أخرى قد وقع الاعتداء على النصارى في سرقسطة وغيرها من بلاد مملكته ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وعاث فرناندو في أراضي مملكة سرقسطة الجنوبية ، وخرّبها بشدة وأحرق المزارع والقرى ، واجتاح على هذا النحو سائر الرقاع والوديان الواقعة خارج الحصون والقلاع المسورة ، وأشرف في غزوته المخربة على ظاهر بلنسية في الربيع ، وضرب القشتاليون الحصار حول المدينة ، وروع البلنسيون ، وروع ملكهم الضعيف عبد الملك داخل الأسوار ، وتأهبوا للدفاع عن مدينتهم . ولما رأى القشتاليون مناعة الأسوار ، وأهبة أهل المدينة لحأوا إلى الحيلة ، فتركوا الحصار ، وتظاهروا بالارتداد نحو الشمال إلى بلدة تسمى «بطرنة» ، واعتقد أهل بلنسية أن القشتاليين قد ارتدوا عن مدينتهم خائنين ، فخرجوا وعلى رأسهم أميرهم عبد الملك ، لمطاردة الفارين في ثياب فخمة وكأئهم في عيد ، وعندئذ فاجأهم القشتاليون وهاجموهم بشدة ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسرّاً ، فارتدوا إلى مدينتهم والقتل يعمل فيهم ، واستطاع عبد الملك أن ينجو بحياته ، وعاد القشتاليون إلى محاصرة المدينة .

وفي تلك الأثناء كان المأمون بن ذى النون قد هرع بقواته لإنقاذ صهره والدفاع عن المدينة المحصورة ، وذلك بالرغم من أنه كان مقرأ بسيادة فرناندو ، ويؤدي له الجزية ، وكان فرناندو قد شعر وهو تحت أسوار المدينة بالمرض يدهمه ، فأثر الارتداد بقواته إلى ليون ، وهناك توفى بعد قليل في ديسمبر سنة ١٠٦٥ م . وهنا رأى المأمون بن ذى النون أن يحقق مشروعه القديم في الاستيلاء على بلنسية . وكان يدفعه إلى ذلك أسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها ، فدخلها فاتحاً لا منقذاً ، وعزل صهره عبد الملك ، ثم قبض عليه وعلى ولده ، ونفاهما إلى قلعة إقليش أوقونقة . وفي رواية أنه أشفق عليه ، وعينه والياً لقصبة شلبة الواقعة شمال غربي بلنسية ، وضمت بلنسية وأعمالها بذلك إلى مملكة طليطلة ، وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (نوفمبر سنة ١٠٦٥ م) (١) .

وعهد المأمون بتدبير شئون بلنسية إلى أبي بكر محمد بن عبدالعزيز (ابن رويش) وكان ابن عبد العزيز قد توفى قبل هذه الحوادث بقليل في أوائل سنة ٤٥٦ هـ . ويقول لنا عنه معاصره المؤرخ ابن حيان « إنه كان على خمول أهله في الجماعة من أرجح كبار الكتاب الطالعين في رسم هذه الفتنة المدلعة ، وذوى السداد من وزراء ملوكنا ، ذا حنكة ومعرفة وارتياض وتجربة وهدى وقوام سيرة ، إلى ثرى وصيانة » . وفي بعض الروايات أن هذا الوزير النابه توفى منتحراً لما توقعه من سوء العواقب . فخلفه في الوزارة ولده أبو بكر بن عبد العزيز ، ولم يمكث في منصبه طويلاً حتى سقطت بلنسية في يد المأمون ، ويقال إنه غدر بأمره عبد الملك ، وعاون المأمون في أخذها ، فكافأه المأمون عن خيانتة بأن عينه نائباً عنه في حكم المدينة . وكان أبو بكر مثل أبيه عالماً حازماً ، فضبط بلنسية ، وسار في حكمها سيرة حسنة ، واتبع الرفق والعدل ، وأجزل العطاء للعامل والجند . وشغل عنه المأمون بمغامراته في سبيل فتح قرطبة ، وانتراعهما من يد بني عباد المتغلبين عليها . واستمر في محاولاته حتى انتهى أخيراً إلى تحقيق مشروعه في الاستيلاء على عاصمة

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث Modesto Lafuente : Historia general de

Espana (Madrid, 1861) V. II. p. 390

و A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 178-180

و R. M. Pidal : La Espana del Cid V. I. p. 151

وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 41

الخلافة القديمة ، ودخلها ظافراً وذلك في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . بيد أنه لم يلبث أن مرض وتوفي بعد ذلك بأشهر قلائل في أواخر ذي القعدة من نفس هذا العام . وانتهر أبو بكر بن عبد العزيز هذه الفرصة ، فأعلن استقلاله بحكم بلنسية ، وأصلح أسوارها ، ودانت له المدينة بالطاعة ، واستمر في حكمها دون منازع .

ولما غزا المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مدينة دانية، واستولى عليها من صاحبها على إقبال الدولة بن مجاهد العامري في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) ، توجس أبو بكر من سطوته وطمعه في بلنسية ، فخاطب ألفونسو السادس وانضوى تحت حمايته ، وتعهد له بأداء الجزية . وكان المؤتمن ولد المقتدر يتطلع بالفعل إلى امتلاك بلنسية ، يدفعه إلى ذلك صحبه ومستشاروه، وذلك لأهمية موقعها ووفور غلاتها ، فخاطب بدوره ملك قشتالة، ودفع إليه مائة ألف دينار ليعاونه على فتحها ، وزحف فرناندو بالفعل على بلنسية ، فخرج إليه أبو بكر بنفسه ، وخاطبه برقة ولباقة ، وأقنعه بعقم محاولته ، فانصرف عنه ، ووعدته بحمايته وفشلت محاولة المؤتمن . وكان ملك قشتالة يقدر أبا بكر ويعجب بخلاله ، وكان يقول في مختلف المناسبات ، رجال الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششنانده (١) .

وعندئذ رأى أبو بكر أن يلتمس حماية المؤتمن نفسه ، ففاوضه ، وقدم إليه ابنته عروساً لابنته أحمد المستعين . فوافقه المؤتمن ، ورأى من جانبه أن هذه المصاهرة قد تكون سيلاً لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية في مملكة قوية موحدة . واحتفل بعقد هذا الزواج بسرقسطة في حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء (رمضان ٤٧٧ هـ - فبراير ١٠٨٥ م) . ولم يعيش أبو بكر طويلاً بعد ذلك ، إذ توفي في السابع من صفر سنة ٤٧٨ هـ (يونيه ١٠٨٥ م) بعد أن حكم عشرة أعوام (٢) .

(١) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - لوحة ٩ أ و ب

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ . وقد وهم ابن عذارى في حقيقة شخصية أبي بكر بن عبد العزيز ، فذكر أنه أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر ، ونسبه بذلك إلى بني عامر ، وهو خطأ واضح . وراجع في هذه الحوادث : R.M.Pidal; ibid; V.I.p.310 وكذلك : A.P. Ibars : Valencia Arabe; و P. y Vives : Los Reyes de Taifas p.57

فخلفه في حكم بلنسية وأعمالها ولده أبو عمرو عثمان بن أبي بكر. وبويع في التاسع من صفر ، لأيام قلائل فقط من سقوط مدينة طليطلة ، في يد القشتاليين في فاتحة صفر ٤٧٨ هـ . وكان هذا الحادث الحلل الذي هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها فذير تطورات خطيرة في شرقي الأندلس ، وفي مصاير مملكة بلنسية بوجه خاص .

وقد كان ألفونسو السادس ، حينما استولى على طليطلة من يد صاحبها القادر ابن ذى النون ، حفيد المأمون ، قد تعهد له أو وعده ، ضمن عهده لقاء الاستيلاء على المدينة ، أن يمكنه من استرداد بلنسية التي خرجت عن طاعته ، بل قيل إنه وعده بمعاونته ، على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعلم أنه يتمكن القادر من الاستيلاء على هذه المدن ، فإنها تغدو في الواقع تحت حمايته ، ويغدو شرقي الأندلس كله ، واقعا تحت سيادته ، عن طريق القادر . وخرج القادر في آله وصحبه ومناعه قاصداً إلى بلنسية ، وصدته خلال الطريق سائر القلاع القديمة ، التي كانت تحت حكمه وأغلقت أبوابها دونه ، ماعدا قلعة قونقة (كونيكة) ، فقد لبثت على طاعته ، ورحب به صاحبها ابن الفرج ، وأكرم منزله . ورأى القادر أولاً أن يسير غور الأحوال في بلنسية ، فبعث إليها ابن الفرج ليدخل صاحبها عثمان ابن عبد العزيز ، وحاول ابن الفرج أن يروج لقضية سيده ، وهو حاكم المدينة الشرعي ، فكثر الجدل وافترق الرأي ، ورأى فريق من الشعب أن تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين بن هود ، وانحاز فريق آخر إلى القادر ، وسرت الفوضى إلى المدينة . وفي خلال ذلك عاد ابن الفرج إلى قونقة ، ودعا القادر إلى السير إلى بلنسية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، فسار القادر إلى المدينة ومعه سرية قوية من الجند النصاري أمده بها ألفونسو السادس ، تحت إمرة قائده ألبار هانيس الذي تسميه الرواية الإسلامية البرهانس . ولما وصل القادر في ركبه إلى المدينة ، بعث إلى أهلها رسوله برسالة ، يتودد فيها إليهم ، ويقدم إليهم أطيّب الوعود ، فاجتمع أهل المدينة ، وتشاوروا في الأمر . ورأى « الجماعة » قبول مطالب القادر ، باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل ، واستبعاد مطالب ابن هود ، وإن كان ابن هود لم ينقطع عن المجاهرة بها ، والترويج لها ، وخشية من أن تتعرض المدينة لهجوم القشتاليين ، أعلنت « الجماعة » خلع عثمان بن

عبد العزيز ، وكان قد قضى في منصبه تسعة أشهر فقط ، وبعثت إلى القادر توافقاً على مقدمه وتسلمه للمدينة . فسار القادر في موكبه إلى بلنسية ، ودخلها في مظاهر حافلة ، وتسلم القصر من القاضي ابن لبون ، ونزل فرسانه في بيوت المدينة ، ونزل ألبار هانيس وجنده القشتاليون في ضاحية الرصافة على مقربة منها ، وكان ذلك في شوال سنة ٤٧٨ هـ (فبراير ١٠٨٦ م) (١) .

وهكذا استولى يحيى القادر على بلنسية ، وقامت دولة بني ذي النون ، مرة أخرى في شرقي الأندلس ، بعد أن درست في طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع — القادر — في مثل الظروف التي كانت عليها في أواخر أيامها بطليطلة ، دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها للملك قشتالة ، ولحراب الجند النصارى . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف إذا تحكّم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وتولى القاضي ابن لبون حجابته ، وغدا يده اليمنى ، وتقرب إليه الأعيان والقضاة بالأموال والهدايا . وثقلت وطأة القشتاليين على المدينة في نفس الوقت ، وأرهبوها بمؤنهم ومغارمهم ، وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس ، وعاث النصارى في المدينة وضواحيها ، فاشتد السخط على القادر ، وعلى شيعته القشتاليين ، واضطرب جبل النظام والأمن . ومع ذلك فقد مضى القادر في عسفه وطغيانه ، قال على الأعيان والأكابر ، يطاردكم بطلب المال سداداً لمطالب القشتاليين ، وقبض على بعضهم من أجل ذلك ، واعتقل ولدي ابن عبد العزيز وغيرهم ، وحشد حوله كثيراً من أوباش الجند المرتزقة يعيشون في المدينة ، ويعتدون على الأموال والأنفس ، وغدت السيادة الحقيقية على المدينة لألبار هانيس وجنده ، وغادر كثير من الأعيان والأكابر ، بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق (٢) .

وفي خلال ذلك كانت تجرى في جنوب الجزيرة حوادث هامة ، فقد عبر المرابطون بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (أغسطس ١٠٨٦ م) غيائاً لأمرائها ، وللإسلام ، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية ، لرد هذا السيل المنهر ، وغادر ألبار هانيس وجنده بلنسية

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٨ ب . وراجع V.I. Pidal : *ibid* ;

P. y Vives : *Los Reyes de Taifas*, p. 306 & 310-312 وكذلك :

R. M. Pidal : *ibid* ; V. I. p. 313-316 (٢)

ليخوضوا المعركة إلى جانبه ، وكان أن كتب النصر الباهر لجيوش الإسلام على جيوش النصرانية في موقعه الزلافة وذلك في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م).

وتنفس أهل بلنسية الصعداء لرحيل القشتاليين ، وانتعشت نفوسهم لانتصار المسلمين ، وتحطم قوى ملك قشتالة ، وبادر القادر من جانبه ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، يلتمس صداقته ومخالفته ، أسوة بباقي أمراء الأندلس . بيد أن هذه المخالفة النظرية ، لم تفده بشيء لأن أمير المسلمين ، كان ما يزال في شغل شاغل عن الالتفات إلى شئون شرق الأندلس .

سرى الاضطراب إلى بلنسية ، وبدأ حكام الحصون المختلفة ، في التحرك والعصيان ، وشعر القادر أنه عاجز عن أن يملك زمام الموقف ، وأن الأمور سوف تنتهى به إلى أسوأ العواقب ، إذا تركت بلنسية إلى مصيرها ، وقد كانت بلنسية في الواقع في هذه المحاولة التي افتقدت فيها كل زعامة قوية ، وكل إدارة حازمة ، تضطرم حولها الأطماع من كل صوب .

ذلك أن المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، كان يرقب فرص الاستيلاء على بلنسية ، وخصوصاً منذ استطاع أبوه أن يتغلب على مملكة دانية ، وأن يضمها إلى أراضيه وذلك في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وبذلك امتدت مملكته من لاردة شمالاً حتى دانية وأعمالها جنوباً ، وكانت بلنسية بذلك تشطر مملكته إلى شطرين ، وتحول دون وحدة أراضيه . فلما رأى المنذر اضطراب الأحوال في بلنسية ، شعر أن الفرصة المشوذة قد سنحت ، فسار في قواته صوب بلنسية ، ومعه سرية من المرتزقة القطلان ، وضرب الحصار حول المدينة (١٠٨٨ م) ، وكان يؤازره في داخلها كثير من الأنصار ، كانوا يؤيدون قضيته ، ويودون أن تسلم إليه .

وهنا استولى الاضطراب والذعر على القادر ، وفكر بالفعل في تسليم المدينة ، لولا أن نصحه ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، وكان قد لجأ إلى بلنسية مذ غلب عليه ابن عمار وزير المعتمد ، بالترث وشجعه على الصمود والدفاع . وبعث القادر في نفس الوقت إلى ألفونسو ملك قشتالة يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وخصم المنذر . وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية ، ويشعر دائماً بالأسف والألم لفشل محاولة

أبيه المؤتمن في هذا السيل ، وضياع الأموال الطائلة التي دفعها من أجل ذلك
لملك قشتالة ، وكان له بسبب مصاهرته لأبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية
السابق ، داخل المدينة حزب يناصره ، ويود أن تنضم بلنسية إلى مملكة سرقسطة ،
فلما تلقى صريخ القادر ، بادر بالإستجابة ، وهرع إلى بلنسية في بعض قواته ،
فتظاهر بالسير إلى إنجادها ، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها^(١) .

الفصل الثاني

ملكة بلنسية

٢ - السيد إلكبيادور وعهد السيادة القشتالية

السيد إلكبيادور . أصله ونشأته . بده حياته الحربية . رسول ألفونسو السادس إلى ابن هباد . تغير ألفونسو عليه وإبعاده عن قشتالة . ملوك الطوائف واستعانتهم بالجند النصارى . مسير السيد إلى شمال شرق الأندلس . التحاقه بخدمة المقتدر بن هود . وفاة المقتدر . الحرب الأهلية بين ولديه المؤمن والمنذر . إنضمام السيد إلى المؤمن ونفوذه لديه . وفاة المؤمن وقيام ولده المستعين . التحاق السيد بخدمته . حملة ابن بسام على بنى هود . مسير المستعين والسيد إلى بلنسية . يعقدان ميثاقا بشأنها . مقدمهما في قواتهما إلى بلنسية . انسحاب المنذر بن هود عنها . موقف القادر بن ذى النون ومساعيه السرية . المستعين يكشف للسيد عن حقيقة مشروعه . موقف السيد ومطله . السيد يبلو على حقيقته . مخادعته ومفاوضاته السرية . مسيره إلى قشتالة وتقاومه مع ألفونسو . وقوف المستعين على غدر السيد ومقاطعته . تحالفه مع الكونت برنجير . عود السيد ونزوله بأراضى السبلة . يخضع ابن رزين لأداء الجزية . السيد يقدو قائد عصاية ناهية . السيد والكونت برنجير . مسير السيد إلى بلنسية . إخضاعه لمريبطر ونزوله في الكدية . القادر يضع نفسه تحت حمايته ويمده بالأموال الوفيرة . قصة أموال القادر . خروج السيد إلى ألبونت وإرغامه صاحبها على أداء الجزية . فرضه الجزية على سائر النواحي المجاورة . صدى أعمال السيد في قشتالة . تغير ألفونسو عليه . تطور الأمور في الثغر الأعلى . توجس المستعين ابن هود من المرابطين . عوده إلى الاستعانة بالسيد . مقدم السيد إلى سرسطة وتحالفه مع الملوك المجاورين . تعليق ابن بسام . شروع ألفونسو السادس لغزو بلنسية وتحطيم نفوذ السيد . تحالفه مع جنوه وبيزه . مسيره إلى بلنسية . رسالة السيد إلى ألفونسو . حرج موقف ألفونسو وتركه لحصار بلنسية . عيث السيد في أراضى قشتالة . عود ألفونسو إلى مصانعه والمفوعة . الاضطراب في بلنسية . القاضى ابن جحاف يتزعم الثورة ضد القادر والسيد . مفاوضته للمرابطين . دخول قوة مرابطية بلنسية . ابن جحاف يقتحم القصر بمجموعة . مقتل القادر واستيلاء ابن جحاف على ذخائره . اختيار ابن جحاف لحكم المدينة . استعداده للطوارئ . مسير السيد إلى بلنسية ومحاصرتها . المفاوضة بين ابن جحاف والسيد . شروط الاتفاق بينهما . فكث السيد وغدره . مطالبه المرهقه لا بن جحاف والخلاف بينهما . ابن جحاف يفلت المدينة . استنائه بالمرابطين وغيرهم . اشتداد السيد في محاصرة المدينة وعيته في أحوازها . عصف الحصار بأهل بلنسية . المفاوضة بين أهل بلنسية والسيد . شروط الهدنة والتسليم . انتهاء الهدنة وتوقيع عهد التسليم . دخول السيد بلنسية . وعوده للخلافة . تسلمه أموال القادر من ابن جحاف . مطالبته له بياقيها واستحلافه عليها . حلف ابن جحاف بالثنى . اكتشاف السيد لخبايا الأموال والخلى . قبضه على ابن جحاف وإحراقه . أقوال ابن بسام . إحراق بعض أعلام بلنسية . طغيان السيد وعصفه . شمر في محنة بلنسية . صدى سقوط بلنسية في الأندلس والمغرب . اعتزام

أمير المسلمين العمل لاستردادها . إرساله حملة إلى الأندلس . سير المرابطين إلى بلنسية . الذعر بين
النصارى في بلنسية . حصار المرابطين لها . مفاجأة السيد للمحاصرين . استغاثة السيد بملك أراجون
وآلفونسو السادس . المعارك بين السيد وبين المرابطين . غزو المرابطين لأراضي طليطلة وقونقة .
مرض السيد ووفاته . زوجه خينا تتولى الدفاع عن المدينة . استغاثة آلفونسو . قدوم آلفونسو في
قواته إلى بلنسية . اجتماع القوات المرابطية بقيادة المزدل . توجس آلفونسو واعتزاه الانسحاب .
مغادرة خينا للمدينة ومعها أموال القادر . انسحاب آلفونسو وجنوده . إحراقه للمدينة . دخول
المرابطين لبلنسية وانتهاء مغامرات النصارى . السيد وشخصيته . اختلاف الآراء في تصويره
وتقديره . مبالغة الرواية القشتالية في تصوير بطولته . الأساطير القشتالية حولها . السيد في الشعر
وفي الأغاني . حقيقة السيد . السيد جندي قدير . أوصاف ابن بسم للسيد . السيد مغامر لا ذمام له
ولا مبدأ . نزعة المكافئية . السيد ليس بطلاقومياً . السيد والتفكير الغربي . رأي دوزي ورينان .
رأي منتدب بيدال . السيد في الرواية العربية . تاريخ بلنسية لابن علقمة .

لم يسر المستعين بن هود وحده إلى إنجاد بلنسية ، بل كان معه جيش آخر ،
يسير أيضاً لإنجاد بلنسية في الظاهر ، وكان على رأس هذا الجيش صديق
المستعين وحليفه . وصديق أبيه المؤمن ، وجده المقتدر من قبل : الفارس
القشتالي الأشهر : السيد إلكمبيادور .

إن قصة السيد إلكمبيادور : تملأ فراغاً كبيراً في الروايات والتواريخ القشتالية ،
ونجد كذلك صداها في التواريخ العربية . وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص
بمغامراته في بلنسية ، وافتتاحه إياها ، وسيطرته عليها بضعة أعوام ، ثم وفاته ،
مدافعاً عنها ضد المرابطين . فهذه الأحداث هي ألمع صفحة في تاريخ السيد ،
وهي التي اتخذت منها التواريخ القشتالية عناصر بطولته ، بل هي التي رفعت
في نظر التواريخ والأساطير القشتالية إلى مرتبة بطل إسبانيا القومي . ومن ثم
فإنه يجدر بنا قبل أن نمضي في تسطير هذه الأحداث ، أن نقول كلمة موجزة
في نشأة السيد وحياته الأولى .

إن السيد : هو فارس قشتالي ، واسمه الأصلي رودريجو أو روى ديات
دى بيار ، أما لقبه « بالسيد » El Cid فهو تحريف لكلمة « السيد » العربية ،
وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ، ويحارب معهم ، وأما
وصفه بالكمبيادور : El Campeador ، فعناها المحارب الباسل . وقد
أطلقت عليه لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال (١) . وقد ولد « السيد » في مدينة

(١) ويعرف السيد إلكمبيادور في الرواية العربية « بالكنيطور » (نسخ الطيب ج ٢ ص ٥٧٧)
ويسميه ابن بسم رذريق الكنيطور ، وهو أدق تعبير للاسم القشتالي ، « رودريجو إلكيادور » =

برغش على ما يرجح في سنة ١٠٤٣ م ، وكان أبوه لايان كالفو قاضي قشتالة في عهد الملك فرويلا الثاني . ولا يعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى ، بل كل ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره في ميدان الحوادث ، عقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون في أواخر سنة ١٠٦٥ م ، ونشوب الخلاف بين أولاده ، فقد انضم «السيد» يومئذ إلى ولده سانشو (سانجه) وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، لمحاربة راميرو ملك أرجوان ، وقد هزم في جرادوس سنة ١٠٦٨ م . ثم كان إلى جانب أخيه سانشو سنة ١٠٧١ م ، حينما نشبت الحرب ، بينه وبين أخيه ألفونسو ملك ليون ، وقد هزم سانشو في البداة ، ولكنه عاد وجمع قلوبه تحت جناح الظلام ، ودهم أخاه يارشاد «السيد» وهزمه وأسره .

ولبت «السيد» بحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة ، حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سمورة في العام التالي (١٠٧٢ م) . فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو . الذي تولى عرش قشتالة أيضاً بعد مصرع أخيه . ولما اشتد بأس ألفونسو على ملوك الطوائف ، وأخذ يرهقهم بمطالبه في الجزية ، كان رسوله إلى ابن عباد صاحب إشبيلية في سنة ١٠٧٩ م هو «السيد» نفسه ، وقد اشترك «السيد» يومئذ مع قوات ابن عباد ، في معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله صاحب غرناطة ، وقد كان يغير على أراضيه مع سرية من الفرسان النصاري ، فهزم عبد الله ، وسر المعتمد لذلك ، وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .

وقضى السيد في بلاط ملك قشتالة ، عامين آخرين . ولكن الظاهر أن الدسائس كانت تعمل ضده حتى قيل إنه احتجز لنفسه الهدايا والتحف ، التي تلقاها من المعتمد برسم مليكه . هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط وقوفه ضده إلى جانب أخيه سانشو ، وانتصاره عليه ، وقد كان يشعر من ذلك الحين

= (الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ أ) . وكذا يسميه ابن الأبار بالكنيتي طور (الحلة السيرة ، دوزي ص ١٨٩ ، والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٠٣ . ويقول لنا ابن عذارى إن كلمة «القنيتي طور» معناها «صاحب الفحص» ج ٣ ص ٣٠٥ .

بعاطفة من الحسد إزاء هذا الفارس المظفر ، لازمته طول حياته^(١) ، ومن ثم فقد انتهى إلى إبعاد السيد عن بلاطه ، وعن سائر أراضيه ، وذلك في سنة ١٠٨١ م .

وهنا يبدأ الفصل الروائي حقاً في حياة السيد إلكيادور ، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعته ، ويخرج على كل اعتبار ديني أو قومي ، فيؤجر نفسه وصحبه ، تارة للأمرء المسلمين وتارة للأمرء النصارى ، ويندس إلى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهناك ، ويطلب الغنم والسلطان ، حينما استطاع ، وبأى الوسائل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة ، يومئذ مما يفسح المجال لأطماع ، جندي مغامر كالسيد . فهناك الحروب الأهلية المستمرة ، وهناك الرغبة المستمرة في الاستعانة بالجنود النصارى ، وإغداق الأموال عليهم ، وقد رأينا في أخبار دول الطوائف ، وأخبار ملوكهم ، ما يؤيد هذه الحقيقة المؤلمة كل التأييد . وكانت هذه الحروب الإنتحارية تجرى يومئذ في سائر أنحاء الأندلس ، وكانت في الوقت الذي خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص في الإمارات الشمالية ، التي استقر فيها بنو هود ، فيما بين سرقسطة ، وثور الشاطئ ، وفيما بينها وبين بلنسية . فلإلى هذا الميدان المضطرم ، هبط السيد وجنوده المرتزقة ، والتحق أولاً بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة ، وكان المقتدر قد استعان على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة ، بجنود من البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره ، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر . ثم توفي المقتدر بعد قليل سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه ، فخص ولده المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة . ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستعان المنذر بسانشو راميرز ملك أراجون وكونت برشلونة ، وحارب السيد إلى جانب المؤتمن ، ولد حاميه والمحسن إليه ، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر ، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً ، فاحتنى به أهلها أيما احتفاء ، وبالعالم المؤتمن في إكرامه وإثابته . وكان المؤتمن يعتر بصداقة السيد ومخالفته ، ويعلى من شأنه ويأخذ بنصحه في معظم الأمور ، ولا يرى في ذلك غصاضة وانحرافاً ، وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد أشد البغض ، ويستعين في محاربته بالأمرء القطلان أصحاب برشلونة . ولما توفي

المؤمنين في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، خلفه في سرقسطة وأعمالها ولده المستعين ،
والتحق السيد بخدمته أيضاً ، واستمر على نفوذه ومكانته في المملكة . ويحمل
ابن بسام على حماية بني هود للسيد ، واستخدمهم إياه ، وإعلائهم لشأنه في
قوله : « وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه (أعنى السيد) من الحمول ،
مستظهرين به على بغية الطويل ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على
صفحات أنجادها ، ويركز علمه في أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم
أقاصيها ودانها شره » (١) .

ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السيد في خدمة المستعين في بضعة الأعوام التالية .
بيد أننا نرى السيد والمستعين في سنة ١٠٨٨ م ، كلاهما يسيران في قواته صوب بلنسية .
وهناك رواية خلاصتها أن المستعين والسيد ، حينما ورد صريخ القادر ، عقداً
ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية وافتتاحها ، نص فيه على أن تكون الأسلاب كلها
من نصيب السيد ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين (٢) .
وهناك رواية أخرى ، هي أن المستعين دعا السيد إلى مرافقته في جيشه لإغاثة
بلنسية ، دون أن يفرض اليه بنيته في الاستيلاء على المدينة ، وقدم إليه أموالاً
جليلة لكي يحشد بها القوات اللازمة ، وكان السيد في هذا الوقت بالذات يدعو
الجند إلى رايته ، للمحاربة مع المسلمين ، وقد اجتمع له منهم ، حسبما نخبرنا
ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية عدد كبير ، وكانت قوة المستعين لاتعدو أربعمئة
فارس ، أما جيش السيد فكان يضم ثلاثة آلاف فارس ، وهي قوة ضخمة
وفقاً لمقاييس العصر .

وهكذا أشرف المستعين والسيد في قواتهما على بلنسية ، إجابة لصريخ ملكها
وإنجاداً له في الظاهر ، وكلاهما يضطرم في الواقع بنيات ومشاريع أخرى . وكان
المنذر صاحب لاردة وطرطوشة ، ما يزال مرابطاً بقواته حول المدينة ، فلما علم
بمقدم السيد ، وابن أخيه المستعين ، أدرك أنه لا طائل من الانتظار وعول على
الانسحاب (٣) ، وبعث إلى القادر يعرض عليه صداقته ومحالفته ، استعداده

(١) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - لوحة ١٨ ب .

(٢) وردت هذه الرواية في كتاب « الاستكفاء » لابن الكردبوس . ونقله دوزي في :

Recherches ; V. II App. II.

(٣) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر .

لمعاونته ضد ملك سر قسطة ، فأجابه القادر إلى عقد الحلف المنشود ، ولكنه لما رأى المنذر بعد ذلك يبتعد بقواته عن بلنسية في طريق العودة إلى بلاده ، أدرك أنه لا مفر من الالتجاء إلى القشتاليين ، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون إنجاده وإنقاذه .

ودارت عندئذ سلسلة من المفاوضات والمواثيق السرية ، بين أولئك الزعماء المخادعين المخاتلين ، فبعث القادر إلى السيد خفية عندما اقترب من بلنسية ، يرجوه عقد المودة والتحالف بينهما سرّاً ، ودون علم المستعين ، وبعث إليه في الوقت نفسه طائفة من الأموال والتحف الحليلة . ولما وصل السيد والمستعين إلى بلنسية ، أفضى إليه المستعين بحقيقة نياته ، وأنه إنما قدم إلى بلنسية لا لإنجادهما ولكن لافتتاحها ، وطلب إليه النصيح والعون ، ولكن السيد ماطل في مهاجمة المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو ، وأن المدينة في الواقع هي من أملاك ألفونسو وقد أعطاها للقادر ، فأية محاولة لافتتاحها تعتبر اعتداء على حقوق الملك ألفونسو نفسه ، وأنه لا بد قبل إجراء مثل هذه المحاولة ، أن يأذن الملك ألفونسو نفسه بذلك ، وأخيراً أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل ضد مليكه وسيده الطبيعي ، أعني ملك قشتالة .

وهنا يبدو السيد على حقيقته ، ويكشف عن خلاله الأصلية ، خلال مغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معا ، ويتنهر الفرصة بأي ثمن ، فهو ينصح القادر سرّاً بالألاّ يسلم المدينة لأحد ، وهو يعد القادر والمستعين كل بمغزل عن الآخر أنه سوف يعاونه على تحقيق بغيته في الوقت الملائم ، ويؤكد للمستعين أنه على أهبة لأن يساعده على أخذ بلنسية ، إذا حصل على موافقة الملك ألفونسو ، ثم يعترم السيد أن يقطع علائقه القديمة مع صديقه وحاميه المستعين ، ويبعث سرّاً إلى عمه وخصمه المنذر بن هود ، يعقد معه اتفاقاً بالصدّاقة والتحالف ، وأخيراً يبعث السيد إلى ألفونسو ملك قشتالة ، يؤكد له أنه فيما يعمله ويفعله ، إنما هو تابع له ، وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم في أراضي المسلمين ، دون أية نفقة من الملك — إنما هم تحت تصرف الملك ، يتزلون ضرباتهم « بالكفرة » ، وفي وسعهم أن يحصلوا على شرقي الأندلس بسهولة . وقد وافق ألفونسو على

رسالة السيد ، وأذن له أن يجول بفرسانه حيث شاء في أراضي المسلمين (١) . ولم يكتف السيد بذلك ، بل رأى بعد أن قام بعدة غارات ناهية في الأنحاء القريبة ، ودرس طبيعتها وأحوالها ، أن يذهب بنفسه إلى الملك ألفونسو ، ليعقد معه الإتفاق اللازم لإخضاع هذه المناطق ، فسار إلى قشتالة ، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على وثيقة الموافقة ، وفيها يصرح للسيد ويؤكد ، بأن كل الأراضي والحصون التي يستطيع السيد أن ينتزعها من المسلمين ، تغدو ملكاً خاصاً له ، ثم لأولاده وبناته وسائر عقبه من بعده ، ميراثاً شرعياً . وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى نفاق السيد وغدره ، وانصرافه إلى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، فقطع علاقته معه ، واتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء السيد ، وعقدت بينهما ، أوامر التحالف ، وقدم المستعين إلى الكونت أموالاً جزيلة ، وبعثه إلى محاصرة بلنسية . ولكن القادر اعترم أن يصمد لهذا الحصار الحديد ، حتى يعود السيد من قشتالة . وأخيراً عاد السيد من قشتالة ومعه سبعة آلاف مقاتل ، ونزل بجيشه في أراضي السهلة ، التابعة لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق (مايو ١٠٨٩م) فخرج إليه ابن رزين ، وتعهده من جديد بأداء الجزية لملك قشتالة ، وكان يؤديها قبل موقعة الزلاقة ، واتفق على أن تكون الجزية عشرة آلاف دينار في العام ، فقبل السيد عهده ، وغادر أراضي السهلة وسار بجيشه صوب بلنسية .

وغدا السيد عندئذ قائد جيش خطير من المرتزقة ، أو بالحرى رئيس عصابة ناهية ، تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب ، وهابه سائر الأمراء والحكام في تلك النواحي ، وأخذوا جميعاً يترقبون الفرص لمقاومته وسحقه . وكان أشدهم نشاطاً في ذلك خصمه القديم الكونت برنجير أمير برشلونة ، وكان الكونت يحاصر بلنسية بقواته منذ حين ، والظاهر أنه حين اقرب السيد بقواته من بلنسية ، وقعت بينه وبين الكونت معركة هزم فيها الكونت ، وأسر مع نفر من بطانته ، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم ، ورفع الكونت الحصار عن بلنسية ، وعاد بجيشه شمالاً إلى برشلونة .

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 352-354 . وقد نقل الأستاذ بيدال هذه الفقرة الأخيرة

المتعلقة برسالة السيد إلى الملك ألفونسو ، من أقوال ابن علقمة صاحب تاريخ بلنسية المفقود ، التي نقلت منه شلور كثيرة في التواريخ القشتالية .

وكان السيد قد عسكر بقواته أولاً نجاه مريبطر شمالى بلنسية ، ثم سار بعد ذلك جنوباً إلى بلنسية ، وأخضع في طريقه مريبطر ، وأرغم صاحبها ابن لبون على أن يؤدي له جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار . ونزل أخيراً بجندهم في « الكدية » ضاحية بلنسية الشمالية التي يفصلها عن المدينة نهر « طوريا » ، ففي الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف ، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته ، ويؤدي له الجزية ، واتفق على أن يدفع له في كل أسبوع ألف دينار ، على أن يقوم بحمايته من سائر أعدائه . وقيل إن الجزية التي ارتضى القادر أن يؤديها للسيد مقابل حمايته بلغت مائة ألف دينار في العام ، وهو مبلغ طائل في هذا العصر (١) .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل عن مصدر هذه الأموال الوفيرة التي كان يقدّمها القادر في كل مناسبة على السيد وغيره ، ممن كان يستصرخهم لحمايته . والجواب عن ذلك أن القادر ورث عن جده المأمون صاحب طليطلة أموالاً طائلة ، وطاققة عظيمة من الحلّى والجواهر والتحف . وكان ألفونسو ملك قشتالة حينما عاون القادر على استرداد عرشه في طليطلة ، عندما أقصته الثورة عنه ، يرهق القادر بمطالبه المالية المتوالية ، لما كان يعلمه من غناه الطائل ، وكانت سياسة ألفونسو ترمى إلى استصفاء أموال ملوك الطوائف بطريقة إرغامهم على دفع الجزية ، وغيرها من أنواع الإبتزاز السياسى والعسكرى ، وقد رأيناهم جميعاً يسارعون إلى الأداء، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال الوفيرة . وكان القادر من أكثرهم ثراءً واقتداراً . وكان يخفى أموالاً طائلة حملها معه حينما سار متفياً إلى بلنسية ، بعد أن فقد ملكه في طليطلة ، وهناك أخفاها بمنتهى الحيلة والحذر ، وقد أثارت هذه الأموال الدفينة فيما بعد شره السيد ، واستطاع أن يحصل عليها عقب دخوله بلنسية حسبما تفصل بعد .

وخرج السيد من مقره في « الكدية » إلى جبال البونت القريبة ، حيث كان يحكم عبد الله بن قاسم ، وعاث في أراضيه ، وأرغمه على أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، ثم عاد جنوباً وعسكر في بلدة « ركبانة » الواقعة غربي بلنسية . وهكذا أخضع السيد لصولته سائر إمارات هذه المنطقة :

(١) هلا ما ذكره ابن الكردبوس في روايته السالفة الذكر : Recherches; V.II. App. II.

بلنسية ومريبطر ، وألبونز وشتنمية الشرق ، وفرض عليها جميعاً الإلتواءات الفادحة ، واستقر بقواته على مقربة منها تتردد بعونه في أراضيها ، وتشعرها بصيغة مستمرة أنها رهينة سلطانه ورحمته .

في ذلك الحين تطورت الأمور في قشتالة ، وكان لهذا النجاح الضخم الذي أحرزه السيد على هذا النحو في شرقي الأندلس صداه السيء في نفس الملك « الإمبراطور » ألفونسو السادس (١) ، وكان السيد قد تخلف عن معاونة ألفونسو في معركة حصن لبيط « أليدو » التي نشبت بينه وبين المرابطين سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ، وانتهز خصوم السيد في البلاط هذه الفرصة ، فأثاروا نفس الملك عليه ، وصوروا له تصرفه بالعقوق والخيانة ، وأوعزوا إليه بمعاقبته . وفعل الأمر الملك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأن القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة في الأمور الجنائية ، ولا يسمح بذرة من التهاون أو الرأفة في تهمة الخيانة (٢) .

وتطورت الأمور أيضاً في الثغر الأعلى ، وشعر المستعين بن هود ملك سرقسطة بأن المرابطين بعد استيلائهم على مرسية وحصن لبيط ، أضحووا على مقربة منه ، وأضحوا يهددون سلامته وملكه ، فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى ، وعقد معه صلحاً وحلفاً جديداً . وسار السيد في جيشه إلى سرقسطة ، وعسكر على مقربة منها على ضفة النهر الأخرى ، وهناك عقد محالفة مع ملك أراجون وأخرى مع ملك نافار ، وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع خطر المرابطين الداهم ، وإتقاذ شرقي الأندلس من سلطانهم . ولبت السيد حيناً في سرقسطة ينظم شئونها وخططها الدفاعية . وهذا ما يشير إليه ابن بسام في النخيرة بقوله المسجع : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حذب ، وتطلع على أطرافه من كل مربق ، آسد كلباً من أكلب الجلالة ، يسمى بلذريق ويدعى بالكينيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له في الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكارة إطلاعات ومطالع » (٣) .

R. M. Pidal : ibid. p. 360 (١)

R. M. Pidal : ibid, p. 367 & 368 (٢)

(٣) النخيرة - القسم الثالث - المخطوط ، لوحة ٨ ب و ١٩ . وراجع :

R. M. Pidal : ibid; p. 415 & 416

ولم يجد ألفونسو ملك قشتالة لمعاقبة السيد، على مطله وغدره وخيانه، وتحطيم نفوذه البالغ، الذى أخذ يزعجه ويشرحفيظته، خيراً من أن يفتح بلنسية، التى كان السيد فى الواقع سيدها الحقيقى، وكانت أمنع معقل لسيادته ونفوذه، وأخصب مصلر لموارده، فعقد حلفاً مع جمهوريتى جنوه وبيزه، لكى يعاونانه بأساطيلهما من البحر على أخذها، ثم سار فى قواته إلى بلنسية، وعسكر فى جبالة أوكبولاء من ضواحيها، وطلب من أصحاب القواعد والحصون المجاورة أن يؤدوا إليه الجزية التى كانوا يدفعونها للسيد، وبعث إلى القادر بأن يحجز الجزية وسائر الإيرادات التى كان يتلقاها السيد. فلما علم السيد بذلك وهو فى ظاهر سرقسطة، وبأن ملك قشتالة جاء ليزعه نفس المنطقة التى أعطاه إياها، اعترم أن يقابل القوة بالقوة، وبعث إلى ألفونسو يعرب له عن دهشته واستنكاره. وعن ثقته بالله، ويتنبره بأنه لن يصبر على تلك الإهانة بل سينتقم لها، وبأنه سوف يرى كيف أمىء نصحه وتوجيهه^(١).

والواقع أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر ألفونسو بحرج موقفه. وذلك أن السفن الجنوية والبيزية لم تأت حسبما تقرر، وقد قلت أاؤن فى عسكره، وأخذ يعانى الصعاب، فعندئذ أمر برفع الحصار، وغادر بلنسية لدهشة قواده وصحبه، وارتد راجعاً إلى قشتالة. وماكاد يبتعد عنها حتى أشرفت السفن الحليفة وكانت نحو أربعائة. بيد أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً. فغادرت بلنسية وسارت إلى طرطوشة، ولكنها استطاعت أن تصمد لها. وفضلاً عن ذلك فقد أراد السيد أن ينتقم من الملك ومستشاريه، فسار نحو قلهرة ولوجرنيو، وضرب الأراضى التابعة لرجال البلاط من خصومه، وعاث فى أحواز قشتالة، واجتاح منها منطقة شاسعة، وأمعن فيها قتلاً وتخريباً^(٢). فعندئذ رأى ألفونسو أن يعود إلى سياسة اللين، وأصدر عفوه عن السيد، وكتب إليه بذلك، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه، وسمح له بأن يعود إلى قشتالة متى شاء، فكتب إليه السيد يشكره ويرجوه ألا يصغى لنصحاء السوء. وكان ذلك فى أوائل سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ).

(١) R. M. Pidal : ibid, p. 418

(٢) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر فى : Recherches; V. II. App. II

وفي ذلك الحين اشتد الاضطراب في بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النبر المرهق الذي فرضه السيد على المدينة . وكان قاضي المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جنحاف المعافري ، يتزعم أقوى الأحزاب في المدينة ، وهو الحزب المناوئ للسيد والقشتاليين بوجه عام ، ويناهض الحزب « الإسباني » أو الحزب الذي يلتف حول القادر ، وكان يثير في الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة ، وكان المرابطون قد اقتربوا في ذلك الوقت من بلنسية ، باستيلائهم على مرسية ودانية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة ، ووعد بتسليم بلنسية إذا ساعده على محاربة أقادر والسيد ، فاستجاب ابن عائشة لدعوته ، وبعث إليه سرية من الجند المرابطين بقيادة أبي ناصر المرابطي ، فأكادت تدخل بلنسية حتى اشتد بها المهرج والاضطراب ، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب « السيد » في المدينة ، واقتحم القصر ، وبحث عن القادر حتى عثر به ، وكان قد اختفى في بعض حمامات القصر ، ومعه صندوق من الحلوى والجواهر الخاصة بزوجه السلطانة زبيدة . فقتل في الحال ، وحملت رأسه على رمح وطيف بها في شوارع بلنسية ، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ (٢٨ أكتوبر سنة ١٠٩٢) . واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التي كان يحتفظ بها القادر . وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » . وفي اليوم التالي ، الرابع والعشرين من رمضان ، اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة ، فتولى زمام الأمور ، وأخذ يحشد الجند ، ويحصن أطراف المدينة ، ويستعد للطوارئ (١).

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة ، سار في الحال في قواته صوب بلنسية ، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة في طريقه ، ونزل في « جبالة » (كبولا) ، وهناك اجتمع إليه أنصار الملك المقتول (أواخر سنة ١٠٩٢ م) . وفي الحال ضرب الحصار حول المدينة ، بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، واستولى على معظم الأنحاء القريبة ، واقتحم « الكدية » صاحبة المدينة الشمالية ، وفرض عليها سلطانه . وأنشأ ابن جحاف داخل المدينة فرقة من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم ، لتقاوم الحملات الخربة التي كان

يشنها السيد على أحواز المدينة . وكثر الجدل في الداخل بين مختلف الأحزاب والطوائف . وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين ، ويتعهد له بأن يتركه ملك بلنسية الوحيد ، وأن يمدّه بالعون والحماية ، فجنح ابن جحاف إلى التفاهم ، وأخذ يدبر الأمر ، وأثر البلنسيون كذلك التفاهم والصلح ، وانتهت المفاوضات بين السيد وأهل بلنسية على ما يأتي : أن يغادر المرابطون المدينة آمنين ، وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر ، وأن تؤدى له الحزبة السابق تقريرها ، ومقدارها ألف دينار في الأسبوع مع متأخراتها ، من وقت أن بدأت الحرب ، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد ، وأن يرتد الجيش القشتالي إلى « جباله » ويبقى هنالك ومعه السيد . وهكذا عقدت شروط التسليم ، وعادت بلنسية بمقتضاها ، كما كانت بلداً خاضعاً يؤدى الحزبة كما كان أيام القادر (١) .

ولم يمانع المرابطون في عقد الصلح على هذا النحو ، لما تولاهم من السأم في بلد لا تهدأ له نائبة ، وغادروا المدينة بسلام . وعاد السيد فرباط بقواته في « جباله » . ولكن سرعان ما نقض عهوده ، شيعته التي تلازمه في كل عمل وكل موطن ، وأخذ يتردد في جنده على ضواحي المدينة وبيعت فيها ، ويرهق ابن جحاف بمطالبه المالية ، التي لا يرتوى منها شرهه قط ، وابن جحاف يعاني في نفس الوقت من الاضطراب الداخلي ، ومن مناوأة الزعماء المحليين ، ولا سيما بني طاهر أصحاب مرسية السابقين النازلين ببلنسية ، وكان هؤلاء يتصلون سراً بالسيد ، ويتآمرون معه على ابن جحاف . ثم طلب السيد من ابن جحاف أن يأذن له بالتزول مع بعض صحبه في قصر وحدائق « بله نوبه » وهي ضاحية بلنسية في الشمال الشرقي ، ويتزل باقي جنده في « ريوسا » في جنوبها الغربي تجاه الرصافة، فوافق ابن جحاف مرغماً ، وكان السيد يرمى بذلك إلى إحكام تطويق المدينة ، لا سيما وهو يحتكم من قبل على ضاحية الكدية . وعاد السيد بعد ذلك فاشتط في مطالبه ، وطلب إلى ابن جحاف أن يسلم كل موارد المدينة، وأن يقدم إليه ابنه رهينة بولائه . فعندئذ رفض ابن جحاف ، وأغلق أبواب المدينة ، وكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين ملك

سرقسطة ، فأرسل إليه بعده خيراً ، وكتب كذلك إلى ألفونسو السادس ، فبعث إليه بعده بالعون . واعتزّم ابن جحاف مقاومة السيد إلى آخر لحظة ، واستؤنفت الأعمال العدوانية بين الفريقين ، وضرب السيد حول المدينة حصاراً صارماً ، وعاث في الأنحاء المجاورة ، ولم يدخر وسعاً في قطع الأقوات عن المدينة المحصورة خوفاً من أن تصمد له حتى يدمه المرابطون ، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً ، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى ، وفنك بهم الجوع أيما فنك ، « وأكلوا القيران والكلاب والجيف » وغدوا كالأشباح هزلاً (١) . وقد وصف المؤرخ البلنسي المعاصر ، محمد بن علقمة في تاريخه الذي سوف نشر إليه فيما بعد ، بعض ما قاساه البلنسيون من الحن في تلك الآونة العصيبة ، فذكر « أن رطل القمح بلغ ثمة مثقال ونصف ، وأوقية الحب ثلاثة دراهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم بستة دنائير . وفي ربيع الأول (٤٨٦ هـ) عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء ، فأمر ابن جحاف اقتحام الدور بحثاً عن القوت . وأعاد استصراخ ابن هود ، ورغبه في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر . وترقى ساير الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بني آدم . وهجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ، ووزع لحمه . وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ليلاً يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . وبان على الناس الإحراق بالنار ، فبيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم على صوامع الأرباض وبواسق الأشجار . ودخل جمادى الأولى وعمت الأقوات بالحملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك اللحم إلا التزر اليسير ، وتوالى اليبس واستحكم الوباء . ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسوية والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه أبي الوليد الوقشي في التكلم لابن جحاف (٢) وعندئذ اجتمع أعيان المدينة ، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد في التسليم وعقد الصلح ، فأذعن وترك لهم المفاوضة ، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد ، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة ،

(١) اللخيرة لابن بسم ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ١٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣

الملحق ص ٣٠٥ .

(٢) من أوراق مخطوطة من البيان المغرب نشر بها المؤلف بمخرانة جامع القرويين بفاس .

وللى ابن عائشة قائد المرباطين فى مرسية، فى طلب الغوث والإنجاد ، وذلك فى مدة خمسة عشر يوماً ، وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالإشراف على المدينة ، وأن تسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

« أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين (المستعربين) الذين يعيئون بين المسلمين ، وأن يرباط السيد بجيشه فى « جبالة » (كبولا) وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها » .

عقدت الهدنة على هذه الشروط ، وسافر الرسل فى طلب النجدة ، ولكن مضت الخمسة عشر يوماً دون أن يعود أحد منهم . فى صباح اليوم التالى، وهو يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ)^(١)، خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المسلمين والنصارى ، ووقعوا عهداً بتسليم المدينة ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يسلم ابن جحاف لى السيد سائر أموال القادر . وفى الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد إلكيبادور وجنده ، واحتشد البلنسيون ، وهم كالأشباح هزلاً ، أوكأنهم كالموتى خرجوا يوم الحشر من القبور ليمثلوا أمام الخالق^(٢) ، ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين بلدهم .

ودخل السيد وجنده بلنسية ، وفى الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ، ونزل السيد بالقصر ، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ دخول السيد بلنسية . فيقول ابن بام وهو معاصر للحدث أنه وقع فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) - الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ ب . ويوافقه صاحب الدليل فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦ . ولكن ابن الأبار يقول لنا إن دخول السيد بلنسية كان فى سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م (الحلة السيرة دوزى ص ١٨٩ والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) . وهذه أيضاً رواية ابن الكردبوس فى « كتاب الاكتفاء » Recherches, V, II. App. II . وهذا التاريخ هو الأرجح ، وهو يوافق الرواية القشتالية ، وبه يأخذ الأستاذ مننديث بيدال مؤرخ السيد ، فيقول إن دخول السيد بلنسية كان فى ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م . (Pidal : ibid; p. 485)

(٢) وهو تصوير ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية ، وقد نقلت روايته المفقودة فى التواريخ القشتالية (Pidal : ibid; p. 484) .

فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلمات أهلها ، وأن يحبهم ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلافة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضباعها ، ولم يستمع أحد إلى تلمز أو ظلامة ، وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره ، وأبقاه في منصبه قاضياً للمدينة ، ولكنه شدد عليه في السؤال عما إذا كان قد بقى لديه شيء منها ، وطلب إليه الخلف أمام أعيان الشهود من الملتين ، فحلف ابن جحاف بأنه لم يخف شيئاً وليس لديه شيء منها . وأنذره السيد بأنه إن وجد لديه شيئاً مما تقدم ، فإنه سوف يستبيح دمه ، ووافق على هذا العهد أعيان الملتين ، المسلمون والنصارى . وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبأ الحللى والنخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله ، فكان ذلك نذيراً بتكبته المروعة ، التى ترك لنا عنها المؤرخ البلنسى المعاصر ، وشاهد العيان السابق ذكره أبو العباس بن علمقة ، صوراً مؤسية مبكية .

ذلك أن السيد أمر في الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته ، وعذبه عذاباً شديداً ، ثم أمر بإعدامه حرقاً ، فأقيمت له وقدة كبيرة في ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة ، ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة . قال ابن علقمة ، وكان من شهود المأساة « إن القنيطور أمر بتعذيبه أى ابن جحاف فعذب عذاباً شديداً ، ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها ، وأصير الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه يديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه » (١) . وقال ابن بسلام ، بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف : « أخبرنى من رآه في ذلك المقام ، وقد حضر له إلى مرفقيه ، وأضرمت النار حوله ، وهو يضم ما بعد من الحطب يديه ، ليكون أسرع إلى ذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله له في صحيفة حسناته ، ومحا به سالف سيئاته ، وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجه وبناته ، فكلمه فهن بعض طغاته ، فبعد لئى ما لفته عن رأيه ، وتخلصهن من يدي نكرائه . وأضرمت هذا المصاب الحليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً ، وجلجل سائر طبقاتها حزناً وعاراً » (٢) .

(١) أورده البيان المغرب في الدليل ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٢) الذخيرة - القسم الثالث المخطوط لوحة ١٩ ب .

وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية ، ومنهم أبو جعفر البتي الشاعر المشهور (١) ، وبدا السيد عندئذ في ثوبه الحقيقي ، ثوب الفاتح المتجبر والطاغية المنتقم ، قال على البلنسيين ، وأظلم ، واشتط في إرهابهم بصنوف المظلم والمغارم . وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ ، أن التف حول السيد رهط من الخونة المسلمين ، ومعظمهم من الأشرار والسفلة ، انضوا تحت لوائه ، وأخلوا يديهم في المدينة فساداً ، ويعتدون على إخوانهم ، يقتلون الرجال ، ويبيعون النساء والأطفال ، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم ، وكان يطلق يومئذ على تلك العصابات المجرمة اسم « الدوائر » (٢) ، وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين ، واحتل النصارى دورهم وأحياءهم ، وغدا السيد ، وهو يزاول سلطانه بالقصر ، كأنه ملك متوج ، وسيد مملكة عظيمة ، وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرق الأندلس كله .

وفي محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجة :

عانت بساحتك العدا يادار ومعا محاسنك البلى والنار
فلذا تردد في جنبك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمحصت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحداث في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية في أيدي النصارى ، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة ، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس ، ورسائل أعيانها ، تصف ما أصاب بلنسية وشرق الأندلس من الدمار ، وتقطع الأوصال ، والذل على يد النصارى . قال ابن بسام : « وتجرد أمير المسلمين عندما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجهانه وجماع شأنه ، وشغل يده ولسانه » . واعترم أمير المسلمين أن يسترد المدينة الأندلسية العظيمة ، فسار إلى سبتة وحشد الحند ، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة ، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطي ، وإلى أمراء شرق

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتي نسبة إلى بنة من قرى بلنسية . وكان من أكابر الأديباء وعلماء اللغة .

(٢) راجع رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر : Recherches; V. II. App. II

الأندلس ، أصحاب شتمرية الشرق ، وألبونت ، ولاردة ، وطرطوشة ، أن يجمعوا الجند للسير إلى استنقاذ بلنسية . وعبرت الجند المرابطية إلى الجزيرة في سبتمبر سنة ١٠٩٤م ، أعني لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية ، واجتمعت الحشود الأندلسية ، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية ، فوصلت إلى « كوارت » ثم إلى « مسلاته » ، الواقعتين غربى بلنسية جنوبى النهر ، فى شهر أكتوبر (رمضان ٤٨٨ هـ) ، وصلوا صلاة الفطر فى مسلاته ، ثم بدأ الهجوم على بلنسية .

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية بمقدم الجيش المرابطى . فشاخ الذعر بين النصارى ، وأمر السيد بأن يجمع من أهل بلنسية ، سائر السلاح والقطع الحديدية ، وأخرج من المدينة سائر المسلمين الذين يشك فى ولائهم . وتكررت هجمات المرابطين على المدينة بشدة ، ولما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة وصمودها الراسخ ، ضرب حولها الحصار المطبق . ولم تمض أيام قلائل ، حتى خرج السيد فى قواته بالليل ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، وهاجمه بشدة ، فأوقع فيه الاضطراب والذعر ، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والعنادر والمؤن ، وقتل من المسلمين عدد جم ، ثم عاد فامتنع داخل المدينة . واستمر الحصار طويلا . وبعث السيد إلى بيدرو الأول ملك أراجون يستصرخه للغوث ، وعقدت بينهما محالفة ضد المسلمين ، وكسب أيضاً إلى ألفونسو السادس . وتجددت المعارك بين المرابطين وللقشتاليين فى أحواز بلنسية ، واستولى السيد خلالها على مريبطر ، وعلى عدد آخر من الحصون . وفى يناير سنة ١٠٩٧م وقعت بين قوات السيد وحليفه بيدرو ملك أراجون ، وبين المسلمين ، معركة شديدة عند جبل « مندير » ، هزم فيها المسلمون ، وعاد بيدرو إلى بلاده ، وعاد السيد إلى بلنسية .

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطى قد سار من الجنوب نحو أراضى طليطلة وعاث فيها ، وهزم قوات ألفونسو السادس عند « كونسويجرا » ، وفى تلك الموقعة قتل دون ديجو ابن السيد الوحيد . وفى نفس الوقت سار ابن عائشة حاكم مرسية فى جيش ضخم إلى أحواز قونقة ، وهزم القشتاليين بقيادة البارهانيس ثم اخترق أراضى مملكة بلنسية حتى « الجزيرة » ، وهنالك التقى بفرقة من جنود السيد ، فأبادها تقريباً ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا عائدين إلى بلنسية .

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ ، وهدمه الإعياء ، وأدى قلبه مصرع ولده الوحيد، فتوفى غمًا وألمًا، وذلك في يولييه سنة ١٠٩٩ . فتولت مكانه زوجته خمينا الدفاع عن المدينة ، واستطاعت أن تصمد أمام هجمات المرابطين ، زهاء عامين آخرين . وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستصرخ به ، وتعرض تسليم المدينة إليه ، فهرع ألفونسو إلى بلنسية في بعض قواته ، ودخل بلنسية في مارس سنة ١١٠٢ م . وكانت القوات المرابطة قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر ، تحت إمرة قائدها الأمير أبي محمد المزدلي ، تستعد للوثبة الحاسمة ، فلما قدم ألفونسو بقواته ، اجتنبت لقاءه ، وعسكرت في كوليرا الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة . وقضى ألفونسو شهراً في بلنسية ، ثم خرج إلى أحواز كوليرا ، وانتصف زروعها ، وهالته ضخامة الجيش المرابطي ، فارتد إلى المدينة وهو عازم على إخلائها ، ولم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوي في مواقع نائية . وغادر بلنسية سكانها النصاري ، يحملون أمتعتهم وأموالهم ، وخرجت خمينا زوجة السيد ، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون ، والأموال العظيمة التي انتهبا السيد خلال غزواته ومغامراته ، وقد استولى ألفونسو فيما بعد على معظمها ، ثم خرج ألفونسو وجنده ، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن في أراضي قشتالة (٤ مايو سنة ١١٠٢ م) . بيد أنه أمر قبل خروجه بإحراق المدينة ، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة . وفي اليوم التالي ، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م ، الموافق شعبان سنة ٤٩٥ هـ (١) ، دخل المرابطون بلنسية وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ، وعاد السلم يخيم على تلك الربوع ، وانهار باختفاء السيد ، أكبر عامل في بث الروح والاضطراب إلى شرق الأندلس ، ووقفت مغامرات النصاري في تلك الأنحاء مدى حين (٢) .



(١) يقول صاحب الذخيرة إن استرداد المرابطين لبلنسية كان في رمضان سنة ٤٩٥ هـ ، ولكننا باحتساب التوافق بين التاريخين الميلادي والهجري ، نجد أن شهر مايو سنة ١١٠٢ م يوافق شعبان سنة ٤٨٥ هـ . ويأخذ ابن خلدون بنفس التاريخ ، فيضع استرداد بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ (ج ٤ ص ١٦٢) .

(٢) يراجع فيما تقدم ، الذخيرة لا بن بسام - القسم الثالث المخطوط - لوحة ٢٦ أ و ب وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p.508, 533, 538, 539 & 581

والآن وقد انتهينا من تتبع حوادث مملكة بلنسية منذ قيامها في ظل الطوائف وفصلنا بهذه المناسبة أخبار السيد إلكينبادور ، مذ ظهر في كنف بني هود أصحاب سرقسطة ، حتى غلب على شرقي الأندلس ، ثم افتتح بلنسية ، وحكمها حتى وفاته بضعة أعوام ، نود أن نقول الآن كلمة عن شخصية السيد ، وعن دخاله .

لقد اختلفت الآراء في تصوير السيد وتقدير بطولته . فالآداب النصرانية ، والآداب القشتالية ، بوجه خاص ، تحاول أن تجعل منه مثلاً أعلى للبطلية القومية ، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المفرقة ، وتذهب في بعض الأحيان إلى اعتباره ، فضلاً عن كونه بطلاً قومياً لإسبانيا النصرانية ، قديساً يحيط الجلال بسيرته ، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار ، يحجون إلى مزاره ، ويلتمسون البركة من رفاته . وكان قد دفن أولاً في دير سان بيدرو دي كاردينا على مقربة من برغش ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش . وما يروى في ذلك أن تابوت السيد فتح في أيام الإمبراطور شارل كان ، في سنة ١٥٤١ ، فانتشرت منه رائحة ذكية ، ووجدت الحثة ملفوفة في رداء عربي ، ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيماً في تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير ، روى جميع أرجاء قشتالة . وأشد ما تبدو هذه الأساطير في الشعر ، وفي الملاحم والأغاني القشتالية ، التي وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحوقون . ففيها يصور السيد ، بأنه الفارس الكامل ، الشهم ، الذي لا يقهر في الحرب ، وبأنه مثل الوطنية الحقة ، وزهرة الجلال والفضائل النصرانية . ومن أشهر الملاحم التي وضعت عن السيد ، وأقربها إلى عهده ، قصيدة أو ملحمة ، Mio Cid (سيدى) الشهيرة ، التي كتبت بأراضي مدينة سالم بعد وفاة السيد بنحو أربعين عاماً فقط ، وهي فضلاً عما تحتويه من مختلف صور العصر وحوادثه وعاداته ، تقدم لنا صورة كاملة لجلال السيد ، وتشيد بوطنيته وإخلاصه ، بالرغم من جور مليكه ، كما تصف رفقته ولينه ، وهو الظافر ، نحو المسلمين المغلوبين ، وما ينطوى عليه قلبه ، وهو الفارس الأمثل ، من الحب العائلي ، حتى أنه كان خلال المعارك ، يتصور أعين زوجته خمينا وبناته ، متطلعات إليه ، إلى غير ذلك من الصور والنعوت (١) .

يد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغاني، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته، فإن الرأي المتزهد المجرد من المؤثرات القومية والدينية، يحملنا في الحال على الحكم عليه، وعلى خلّاله بأقصى النعوت الأخلاقية والأدبية. لقد كان السيد جندياً عظيماً، وقائداً بارعاً، ما في ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله كفارس وقائد مظفر، فيقول لنا ابن بسام مثلاً في وصفه ما يأتي: «وكان هذا الباققة وقته، في درب شهامته، واجتماع حزامته، وتناهي صرامته، آية من آيات ربه... وكان - لعنه الله - منصور العلم، مظفر على طرائق العجم، لقي زعماءهم، فقل حد جنودهم، وقتل بعدده اليسير، كثير عديدهم، وكانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب». ويزيد ابن بسام على ذلك أنه بلغه أن السيد كان يقول، وقد طما طمعه ولح به جشعه: «على للريق فتحت الأندلس، وللريق يستنقذها»^(١). ولكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السيد، كان إلى جانب هذه الجراءة، والبراعة العسكرية والمغامرات المظفرة، يتصف بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التي تأبأها خلال الفروسة، فهو حسباً رأينا من وقائع حياته التي استبقيناها من أوثق المصادر، ولا سيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين الأستاذ منديث بيدال، يبدو مغامراً لا مبدأ له ولا ذمام، يسعى إلى الكسب أينما كان، وهو يبدأ حياته في خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه ثم يخرج عليهم، ويتنكر لهم، وهو يقطع مختلف العهود، ثم ينقضها، متى رآها عقبة في سبيل أهوائه، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال، ويبدو في معظم حملاته العسكرية، قاطع طريق، ورئيس عصابة ناهبة، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم، وهو جشع لاقتناء المال، لا ينحبو له في سبيل ذلك ظمأ، وهو يناوىء مليكه وأمنه، ويخرج عليه غير مرة، ويعيث في أراضي بلاده، وينتهك حرمانها، تحقيقاً للمآربه الشخصية، وأغراضه المادية. وعلى العموم، فهو يبدو مغامراً، يجمع في شخصه كل رذائل عصره، وهو بذلك أبعد من أن يبدو بطلاً قومياً مثالياً، وأشدّ بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً.

(١) الأخيرة - القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ أ و ب.

والتفكير الغربي نفسه يختلف في تقدير السيد ومنزلته من البطولة، فالعلامة المستشرق دوزى مثلاً يخصص لحوادث حياته كتاباً^(١)، وينتهي فيه إلى أن السيد ليس إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعهِ، ويجمع في شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله. ويجاريه في هذا الرأي العلامة الفرنسي رينان، ويقول «إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قبلما فقد السيد». ولكن العلامة متنبهت بيدال، مؤرخ السيد، يخالف كل هذه الآراء، ويبالغ في تقدير السيد، ويخصص لتقدير بطولته شنوراً طويلة، ويقول «إن للشعر والتاريخ يتفقان في شأنه، وأنه بالعكس لا يوجد يطل ملاحم أكثر لمعاناً في ظل التاريخ»^(٢).

ويخصص ابن بسام، وهو معاصر لمعظم الأحداث التي خاضها السيد، لشخصية السيد وأعماله، شنوراً كثيرة. بيد أنه قد كتبت عن السيد، وعن مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة، كتبها مؤرخ بلنسي، وشاهد عيان للحوادث، هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدي المعروف بابن علقمة. وقد ولد ابن علقمة ببلنسية في سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م)، وتوفي بها سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وكان أديباً شاعراً. وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة التي مرت بوطنه بلنسية، والتي شهداها عن كثب، فألف تاريخاً لحوادث عصره، ولاسيما تغلب السيد على بلنسية، وما اقترن به من المآسي، أو كما يقول ابن الأبار، إنه «ألف تاريخاً في تغلب الروم على بلنسية، سماه «البيان الواضح في الملم الفادح»، وذلك قبل سنة ٥٠٠ هـ^(٣). وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا، الذي ضاع ولم يصلنا، فضلاً عن ابن الأبار، وهو بلنسي أيضاً، كثير من المؤرخين اللاحقين، ومنهم صاحب رواية الطوائف الواردة بذيل البيان المغرب، حيث يقول: «وقد

(١) كتاب دوزى المشار إليه «هو»: Le Cid d'après de nouveaux documents

(Leyde 1860)

وقد نشر بتمامه في الطبعة الثالثة من كتاب دوزى: Recherches; V. II. p. 1—233

(٢) R. M. Pidal: La Espana del Cid; V. II. p 593 - 604

(٣) راجع «التكلمة» لابن الأبار ج ١ رقم ٥١٤، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و٣٠٦،

وابن الخطيب في «الإحاطة» (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩١. وراجع أيضاً: Pons Boigues

Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles;

(Madrid 1898) p. 175

ألف ابن علقمة كتاباً في أمرها وحصارها (أى بلنسية) يبيكى القارئ ويذهل العاقل ، ثم ينقل عنه قصة القاضي ابن جحاف (١) . وكذلك ابن الخطيب فإنه يذكره في مقدمة «الإحاطة» ضمن تواريخ المدن الخاصة (٢) . هذا وقد أثبت البحث الحديث أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة، قد نقلت كثيراً مما ورد في تاريخ ابن علقمة ، ولاسيما تاريخ ألفونسو العالم Crònica General عن السيد وعن حوادث بلنسية (٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ .

(٣) يراجع في تاريخ السيد وحوادث بلنسية : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ،

ونفح الطوب ج ٢ ص ٥٧٧ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٣ و ٢٠٤ . والذخيرة ، القسم الثالث ،

المخطوط ، اللوحات ١١٩ إلى ٢٢٦ . وكذلك : دوزى في كتابه المشار إليه : "Le Cid" و Recherches

sur l'Histoire et Littérature d'Espagne au moyen Age. (V. II. App. I-XVIII)

وكتاب الأستاذ بيدال السابق ذكره ، وهو مؤلف ضمن في نحو ألف صفحة .

وأخيراً يراجع كتاب A. P. Ibara : Valencia Arabe; Vol. I. p. 227-332

الفصل الثالث

إمارة شنتمرية الشرق

بنو رزين . نزولهم بأرض السهلة . كبيرهم هذيل بن عبد الملك . قيامه بشنتمرية وتلقبه بالحاجب . عز الدولة . الحصومة بين هذيل ومنذر التجيبي . هذيل واتباعه لسياسة الحياد . صفاته وبذخه . جواريه وجلساته الفنية . وفاته وقيام ولده أبي عبد الملك مروان مكانه . تلقبه بالحاجب جبر الدولة . حكمه الطويل وصموده للحوادث . صفاته بين الفم والمديح . تأديته الجزية لألفونسو السادس . نكوله عقب موقعة الزلاقة . السيد يثير على أراضيه ويعيث فيها . اتفاته مع السيد وعوده إلى دفع الجزية . ابن لبون صاحب مريبط يرتجى إلى حماية عبد الملك ويسلمه حصته . شروط هذا التسليم ونكت عبد الملك بمهوده . مشاريع عبد الملك نحو بلنسية . إغارة السيد على أراضيه . خضوعه وعوده إلى دفع الجزية . جهده يحاول اغتياله . نجاته ثم وفاته . عبد الملك والشمر . يحيى بن عبد الملك الملقب بحسام الدولة . صفاته ملك تشالة وهديته إليه . استيلاء المرابطين على بلنسية . زحفهم نحو انثرا الأمل . استيلائهم على شنتمرية الشرق وخلعهم لأمرها يحيى . انتهاء دولة بني رزين .

كانت هذه الإمارة الصغيرة — إمارة شنتمرية أو شنتمرية ابن رزين (١) — تقع في بسيط سهل خصيب من الأرض ، يقع في جنوبي الثغر الأعلى ، وفي شمال شرقي الثغر الأوسط ، عند منابع نهر خالون فرع إبرة ، وتحدّها من الشرق سلسلة من الجبال تسمى بنفس الاسم ، أي جبال بني رزين ، وقد عرف بنو رزين هؤلاء أصحاب شنتمرية الشرق ، باسم جدهم الأعلى رزين البرنسي ، أحد أكابر رجال البربر اللسانين إلى الأندلس في جيش طارق بن زياد ، وهو ينتمى إلى هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى ، وكان منزل بني رزين بقرطبة ، ولجدهم رزين بها آثار كثيرة (٢) ، ثم نزحوا إلى الثغر ، ونزلوا بأراضي السهلة ، وهي التي تتوسطها شنتمرية ، واستقروا هنالك سادة وحكاماً . ولما انتشر عقد الأندلس الكبرى إبان اضطرام الفتنة ، تطلع كبيرهم يومئذ أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصابع

(١) سميت شنتمرية الشرق تمييزاً لها من شنتمرية الغرب ، وهي الواقعة في جنوب غربي ولاية الغرب الأندلسية على المحيط الأطلنطي ، وتشغل مكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية ، وتعرف شنتمرية الشرق الإسبانية بمدينة Albarracin وهو تحريف لاسم بني رزين أمرائها أيام الطوائف .

(٢) تاريخ ابن حيان — مخطوط مكتبة القرويين — لوحة ٢٤٥ ب .

إلى الاستقلال بما في يده من الأراضي ، أسوة بما فعله جاره إسماعيل بن ذى النون ، فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة ، واستبد بحكم شتمرية وأعمالها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وتلقب بالحاجب عز الدولة . واعترف فى نفس الوقت بطاعة الخليفة سليمان المستعين الاسمية ، وقنع منه سليمان بذلك ، وأقره على ما بيده من الأعمال ، وحاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبى صاحب الثغر الأعلى ، أن يخضعه لصولته ، أسوة بما تم له نحو بعض أصاغر أمراء الثغر ، فأبى هذيل ووقف فى سبيل أطماعه . واضطربت بينهما الخصومة ، وامتنع هذيل بعاصمته المنبعا ، وتحالف مع الموالى العامرين أعداء منذر ، واعترف معهم بدعوة هشام المخلوع ، وقطع دعوة سليمان ، واستطاع يبقظته ، وموقع بلده البعيد عن متناول العدوان ، أن يجتنب عوامل الشر ، وأن يسير فى حكم إمارته آمناً مطمئناً .

وكان له فى خصب أراضيه ، وانتظام عمارتها ، موارد طيبة للجباية ، فكثرت أمواله ، وغدا ينافس فى ذلك جاره إسماعيل بن ذى النون ، وكان مثله فى طغيانه وصرامته ، وشدة بخله ، وكان يتبع سياسة الحيدة المطلقة ، ولا يتدخل فى أى نزاع أو حلف ، فما ينساق إليه زملاؤه أمراء الطوائف ، وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يحافظ على سلام مملكته ، واستطاع بالأخص أن ينجو من ضغط قشتالة ومطالبها فى اقتضاء الجزية .

وكما أن الرواية تشيد بطغيان هذيل ، وجبروته ، وجهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه قتل والديه بيده ، فهى كذلك تقدمه إلينا فى صورة أخرى أكثر بهجة وإشراقاً ، فتقول لنا إنه كان فتى بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم ير فى الأمراء أبهى منه منظراً ، ثم تشيد بطلاقة لسانه ، وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة . وقد اشتهر هذيل بالأخص بحياته المترفة الناعمة ، ورفيع ذوقه فى الفنون ، وشغفه باقتناء أجمل وأروع الجوارى والقيينات فى عصره ، حتى لقد ذكروا أنه اشترى جارية الطيب أبى عبد الله الكتنافى بعد أن أحجمت عنها الملوك لغلاء ثمنها ، ودفع فيها ثلاثة آلاف دينار ، وكانت وحيدة عصرها . وقد وصف لنا ابن حيان فى تاريخه تلك القينة الشهيرة فقال : « لم ير فى زمانها ، أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ، ولا ألين عطاءً ،

ولا أطيّب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أبدع أدباً ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك ، مما يقصر عنه علماء الزمان ، وكانت محسنة في صناعة الثقاف ، والمجادلة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرفهة ، لم يسمع لها في ذلك بنظير^(١) ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة في عصره من الحوارى والقينات البارعات في الحسن ، وفي الغناء والموسيقى ، وكانت «ستارته» أعنى جلساته الفنية أشهر ستائر ملوك الأندلس . وقيل عنه اجتمعت لديه مئتين مائة وخمسون ، وكان لديه من الوصفاء الصقالية ستون وصيفاً ، لم تجتمع عند أحد من نظائره . وكان إلى جانب ذلك ، وافر الجود والكرم ، فسيح الخنايب للقصاد ، وعلى الحملة فقد كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه ، وقد استمر في حكم إمارته الصغيرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، مرت كلها في أمن وسلام ورخاء ، وتوفى بالسهلة في سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م)^(٢) .

فخلفه في الإمارة ولده أبو مروان عبدالمالك بن هذيل بن رزين ، وكان في حياة أبيه يسمى حسام الدولة ، وتلقب عند ولايته بذي الرياستين الحاجب جبر الدولة . وقد حكم أبو مروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً ، وشهد طائفة كبيرة من الأحداث تحتاج هذه المنطقة ، ولاسيما في الثغر الأعلى وفي مملكة بلنسية ، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث ، وأن يبقى في رياسته ، بل أن يوسع نطاقها . وقد اختلف الرأي في تصوير أبي مروان وخلاله ، فترى معاصره ابن حيان ، يحمل عليه بشدة ، وفي عبارات لاذعة ، ويقول لنا إنه «كان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلاً لامتجاهلاً ، وخاملاً لامتخاملاً ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه ، بعيد الذهبية بأمره ، زارياً على أهل عصره ، إن ذكرت الخليل فزيدها ، أو الدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٢١ أ و ب و ٢٢ أ و ب . ونقله البيان المغرب

ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٤ .

(٢) راجع في أخبار هذيل بن رزين : الحلة السيرة (دوزى) ص ١٧٩ - ١٨٢ ، والبيان المغرب

ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٣ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥

و ٢٠٦ . وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف في النقل والتلخيص .

فجبرها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فيه فبديع همدان ، أو الخطابة فقس سحبان ، أو النقد فقدمة العلم ، أو العلم فليس منه ولا كرامة ، تحلى من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف^(١) . هذا بينما يقدم لنا عنه ابن الأبار صورة أفضل ، مما سمعه من الرواة ، فيقول لنا « إن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ، قرب جنده من نفسه ، وتحبب إليهم ، واختلط بهم ، حتى كان لا يمتاز عنهم في مركب ولا ملبس ، ووقائعه في الثغر مشهورة^(٢) » .

ويفرق الفتح بن خاقان كعادته في مديحه ومديح دولته ، ويقول لنا إنه كان منتهى فخر قومه ، وقطب مدارهم ، وإنه رجل « اتخذته البسالة قلباً ، وضمت عليه شفافاً وخبلاً ، لا يعرف جبناً ولا خوراً ، ولا يتلو غير سور الندى سوراً . وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ترتفع فيه المكارم أخلاف ، وتدار بها للأمانى سلاف » . إلى غير ذلك من العبارات الرنانة^(٣) . ويشاطره ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان « كان له طبع يدعوه فيجب ، ويرى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدياء كان منه بالأمة ، وقلة استجداء لمن غنى بالأخذ عنه من الأئمة » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه كان شاعراً مجيداً^(٤) .

ولم نعر في مختلف المصادر ، على كثير من التفاصيل ، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله ، خلال حكمه الطويل ، وكل ما وقفنا عليه من ذلك يتلخص في أنه استمر في حكم مملكته ، بعيداً عن الأحداث والعواصف التي هزت ممالك الطوائف الأخرى . بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس في سنة ٤٧٨ هـ ، أن يؤدي له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو في الزلاقة ، في العام التالي ، وهيض جناحه نوعاً ، نكل عبد الملك عن دفع الجزية . وفي تلك الأثناء كانت أعمال السيد إلكيبادور ومغامراته في منطقة بلنسية ، تزجج سائر الإمارات الإسلامية

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٨٥ .

(٣) قلائد العقيان ص ٥١ .

(٤) الذخيرة ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ .

المجاورة . ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شؤنه مع الملك ألفونسو السادس ، وليحصل منه على حق فتح بلنسية ، وأنه خرج من قشتالة في ربيع سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، عائداً إلى شرق الأندلس ، ومعه سبعة آلاف مقاتل واخترق في طريقه أراضي السهلة (شتمرية) ، وعسكر في « كالاموشا » في شمالها الشرقي ، ولبت حيناً في تلك الوديان النضرة ، يجمع محاصيلها ، وأقواتها . ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإحمال ، قصد بنفسه إلى معسكر السيد ، واتفق معه على أن يتركه في سلام ، على أن يؤدي الجزية للملك ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلاقة ، وأن يدفع في الحال إلى السيد بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . وعندئذ رفع السيد معسكره ، وغادر أراضي السهلة إلى بلنسية (١) .

ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبون صاحب مريبطر (ساجنتو) ، أنه لا يستطيع الصمود لهذا الإرهاق ، وأنف من مفاوضة السيد ، وأثر أن ينتمى إلى حماية أبي مروان عبد الملك ، وأن يسلمه حصنه ، فقبل عبد الملك هذا العرض ، وتعهد لابن لبون ، بحمايته ورعايته وأن يجرى عليه رزقاً كافياً ، وتسلم منه حصن مريبطر في نوفمبر سنة ١٠٩٢ م (أواخر ٤٨٦ هـ) ، ثم سار إلى السيد ، وفأوضه في عقد المودة والإبقاء على الحصن ، على أن تكون سائر الحصون الواقعة في أراضيه مفتوحة للبيع والشراء ، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن . وسار ابن لبون بعد ذلك في أهله وأمواله محبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل في كنفه . بيد أنه لم يمض سوى قليل حتى تنكر له عبد الملك ، وأخذ في مضايقته والتفتير عليه ، وقامى ابن لبون من ذلك حتى كره البقاء ، وما نظمته يومئذ في محنته :

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها	إليك غنى فإ في الحق أغنني
من كسريتي لي روض ومن كتبني	جليس صدق على الأمرار مؤنني
أدرى به ماجرى في الدهر من خبر	فعنده الحق مسطور ومخترني
وما مصابي سوى موتى ويدفني	قوم وما لهم علم بمن دفنوا
ولما استولى عبد الملك على مريبطر ، ورأى اضطراب الأحوال في بلنسية ،	

ثابت له فكرة في محاولة الاستيلاء عليها ، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها إلى السيد ، وفاوض يديرو (بطره) ملك أراجون في معاونته على تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ، فلما وقف السيد على هذه التطورات انقض بقواته على أرض السهلة ، وعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وسبي جموعاً كبيرة ، وبعث الجميع إلى « جبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسي ، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) (١) .

وفي أواخر حكمه ، وقد شاخ يومئذ ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودي بحياته . وذلك أن صهره ، زوج أخته ، عبيد الله حاكم لاذكون الواقعة شمال شرق العاصمة ، كان يضمّر له الشر ، ويود لإزالته ليحكم مكانه ، فدعاه ذات يوم إلى حفل عقده بمحصنه ، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون ، فلما تمكن الشراب من عبد الملك ، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم ، واتفق أن كانت أخته حاضرة ، وهى زوج عبيد الله القاتل ، فصعدت إلى شرفة عالية ، وصاحت واقتيلاه ، فهرع الناس إلى مكان الجريمة ، وألقوا عبد الملك وقد ألّحن جراحاً ، وبه رمق ، فأرادوا الفتك بقاتله ، فأمرهم بالقبض فقط على عبيد الله وابنه ، ثم برىء عبد الملك من جراحه ، وخرج دميماً مشوهاً ، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه ، وسملت عيناه ، ثم صلب ، وقطعت رجل ابنه . وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) بعد أن حكم نحو ستين عاماً (٢) .

وكان عبد الملك بن رزّين ينظم الشعر ، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً ، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان ، إذ يصف شعره بأنه « أهتف من كل هاتف » . ويقول لنا ابن الأبار « إن ضعيف منظومه أكثر من قويه » . وكان على الرغم من أدبه وشعره ، متعسفاً مع الشعراء مقصرأ في إجازتهم . ومن نظمته في الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف :

أنا ملك تجمع في خمس هي للأنام محبي محبت
هي ذهن وحكمة ومضاء وكلام في وقته وسكوت

(١) R. M. Pidl; ibid; p. 453-455

(٢) الحلة السيرة (دوزى) ص ١٨٥ و ١٨٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥ .

وقوله :

يارب ليل أطال الهجر مدته فأياس القلب عن إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى قد تبين لي عند التأمل أن الدهر من سدفه
وقوله في الغزل :

أترى الزمان يسرنا بتلافي ويضم مشتاقاً إلى مشتاق
وتعص تفاح الحدود شفاهنا ونرى مني الإحداق بالأحداق
وتعود أنفسنا إلى أجسامها فلطالما شردت على الآفاق^(١)

وخلف عبد الملك بن رزین ولده يحيى الملقب بحسام الدولة ، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل ، مدمناً للشراب ، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس ، والتاس مودته ، واجتناب سطوته ، فبعث إليه هدية حافلة من الحلوى والخيل والبغال ، ومختلف التحف النادرة ، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه . فكان يحيى لسخفه وسقم عقله ، يفخر باقتناء هذا القرد ، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة^(٢) . والواقع أن ملك بني رزین كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة . ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحتوا يومئذ شرق الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم في تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية في شعبان سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى . وكان عبد الملك بن رزین ، قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين^(٣) ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافياً لتحقيق خطة المرابطين في القضاء على سائر دول الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفي اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧هـ (إبريل ١١٠٤م) دخل المرابطون مدينة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبد الملك بن رزین ، وانتهت بذلك دولة بني رزین الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً ، ولم يبق من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة ، وقد كانت هي الأخرى تدنو سراعا من الخاتمة المحتومة .

(١) راجع الذخيرة - القسم الثالث - المخطوط لوحة ٢١ أ و ب ، والحلة السراء ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠ ، وقلادة العقيان ص ٥٣ - ٥٦ ، وقد ورد بها الكثير من شعر ابن رزین .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١ . وينسب دوزي هذه الواقعة إلى عبد الملك بن هليل ، ويقول لنا إنه حل هديته بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف على أخذ طليطلة : Hist. V. III. p. 121

(٣) ابن الأبارق الحلة السراء (دوزي) ص ١٨٢ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٠ .

الفصل الرابع

إمارة البوننت

البوننت وموقعها . قيام عبد الله بن قاسم بها . انفضاؤه تحت لواء الخلافة الأموية . إيواؤه المرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليها للخلافة . وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه . تلقبه بيمين الدولة . ولده أحد بن محمد الملقب بيمز الدولة . وفاته وولاية ولده الطفل . خلع الأمير الطفل وولاية عمه عبد الله بن محمد . حكمه الطويل . زحف السيد على البوننت . خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك قشتالة وأداؤه الجزية . استيلاء المرابطين على البوننت . عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية .

على مقربة من شتمة الشرق ، وإلى الجنوب الشرق منها ، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف ، هي إمارة البوننت أو ألبنت . وتقع مدينة البوننت^(١) هذه ، في وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة ، على مقربة من نهر طورية في حى الجبال . وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو من زعماء البيوت العربية في تلك المنطقة ، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضى . وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وذلك في أواخر سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م)^(٢) . ولم يشترك عبد الله في شيء من الحوادث ، التى كانت تجرى يومئذ ، في شرق الأندلس أو جنوبه ، نظراً لبعدها عن مسرح الحوادث . بيد أنه كان من أنصار الخلافة الأموية ، يعترف بطاعتها ويدعو لها ، مع طائفة الفتيان العامريين . وكانت بلدة البوننت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وأخيه هشام ، يعيشان في كنفه ، وتحت رعايته ، ومن البوننت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة ، باسم المرتضى . ولما قتل المرتضى في المعركة التى نشبت بين أنصاره ، وبين البربر أمام غرناطة ، في سنة ٤٠٩ هـ ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم ، ولبت في البوننت

(١) ومى بالإسبانية Alpuente

(٢) المقرئ نقلا عن المجارى في نفع الطبيب ج ٢ ص ٥٨ .

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله ، ولبت مقبلاً في ألبونت مدة عامين وسبعة أشهر ، وهو مخطب له في قرطبة . ثم سار بعدئذ إلى قرطبة ، ودخلها في ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، حيث جددت له البيعة ، واستمر في كرسى الخلافة عامين آخرين (١) .

واستمر عبد الله بن قاسم في حكم إمارته الصغيرة ، حتى توفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمين الدولة ، وحكم ألبونت زهاء اثنتي عشرة عاماً . ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت في عهده . ولما توفي في سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، خلفه في الحكم ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة ، وحكم حتى وفاته في سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمد ، وكان في نحو السابعة من عمره ، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم ، وهو الذي دبر ولاية الأمير الطفل . ولكن هذا العمل لم يرق في نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل ، وأخى والده أحمد ، وكان يرى نفسه أحق بالولاية ، وتؤازره في ذلك جماعة قوية من الأنصار ، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه ، وصرف الأمير الصبي إلى حجر أمه ، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر ، وتسلم عبد الله مقاليد الحكم وتلقب بيمين الدولة ، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى ، وتزوج من والدة الصبي أرملة أخيه اتقاء لأطباعها ودسائسها ، وسار في حكم الإمارة دون منازع .

واستمر عبد الله بن محمد في حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً ، ولم تقع في عهده الطويل حوادث ذات شأن ، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته ، حسبما فصلنا ذلك من قبل في تاريخ مملكة بلنسية . ففي سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) زحف السيد بقواته على إمارة ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة ، وإلى أن يؤدي جزية قدرها عشرة آلاف دينار ، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبي مروان بن زرير صاحب شنتمرية الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، استولوا

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ومنها ألبونت .
وفي رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا في حكمها حتى سنة
٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) (١) . ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن المرابطين
استولوا على شنتمرية الشرق في سنة ٤٩٧ هـ ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل
ذلك على ألبونت الواقعة في جنوبها ، وذلك في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) (٢) .

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم ، وقد
أورد له الحجارى صاحب « المسهب » هذه الأبيات :

خلعت عن الملك لكننى	عن الصبر والمجد لا أخلع
رمانى الزمان بأرزائه	وغيرى من خطبه يجزع
فليس فؤادى بالملتضى	ولا مقلتى حسرة تدمع
ولى أمل ليته لم يكن	فكم ذا يغر وكم يخدع

ومن قوله من قصيدة :

أما لكل نبيه فى العلا حيل	تفضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأى محافظة	على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعاً بمحادثة	إن الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر	والذكر يبق وعمر المرء ينقرض (٣)

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) راجع فى أخبار إمارة ألبونت : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥ .

وأعمال الأعلام ص ٢٠٨ . وكذلك : R. M. Fidal; ibid. p.360 & 448

(٣) راجع فى رسائل عبد الله وقصائده : قلائد العقيان ص ١٢٧ - ١٣٢ ؛ والمغرب فى

حل المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٨ .

الكتاب الخامس
دول الطوائف
في الثغر الأعلى

الفصل الأول

مملكة سرقسطة

حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

١ - عهد بني نجيب

ملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى ، بنو نجيب وتغلبهم عليه . مؤامرة عبد الرحمن التجيبي ضد المنصور وفشلها . ولده يحيى . المنذر بن يحيى وإمارته للثغر . تأييده للخلافة الأموية . محاربته مع الفتيان العامريين . تدخله في حوادث بلنسية . مسالته للملوك النصارى . بذخه وأهته . مديح ابن دراج له . ولده يحيى . منذر بن يحيى الحاجب . مصرعه على يد سليمان بن حكيم . الفتنة في سرقسطة . سليمان بن هود . استيلائه على سرقسطة وبداية عهد بني هود . تلقبه بالمستعين . حروبه مع المأمون بن ذى النون . استغاثته بملك قشتالة . استعانة المأمون بملك نافار . تفاقم العدوان بين الفريقين . وفاة المستعين . تقسيمه لمملكته بين أولاده . الحرب الأهلية بينهم . أحمد بن هود المقتدر . الصراع بينه وبين أخيه المظفر . كينه لقوات أخيه وفتكه بها . استيلاء المقتدر على طرطوشة . طرطوشة تحت حكم الفتيان العامريين . غزوة النورمانيين لبربشتر . أصل هذه الحملة وظروفها . صفتها الصليبية . حصار النورمانيين لبربشتر واحتحامهم لها . فظائع النورمانيين وفتكهم بأهلها . رواية ابن حيان . فداحة الفناء والسيابا . تأملات ابن حيان عن الحادث . نظرائه وتكهناته البعيدة . صدق النكبة في الأندلس نهوض المقتدر لاسترداد بربرشتر ونقاطر المجاهدين إليها . استيلاء المقتدر على المدينة . الفتك بالنصارى وإبادتهم . إعتداه فرناندو ملك قشتالة على أعمال سرقسطة . خضوع المقتدر لأداء الجزية . للمقتدر وعلاقته بالملوك النصارى . استعانتهم بهم . مشاربهم العسكرية . المقتدر وأخوه يوسف المظفر . السيد إلكيادور في خدمة المقتدر . استيلاء المقتدر على مملكة دانية . وفاة المقتدر . تقسيمه للمملكة بين ولديه . صفات المقتدر بن هود وخلالاه . شغفه بالعلوم والرياضية . فخامة بلاطه . إنشاؤه لقصر الجعفرية ومجلس الذهب .

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها ، ليس فقط بضمخامة رقعتها ، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر ، بين الدول الإسبانية النصرانية ، بين قطلونية من الشرق ، وناغاراً أو نبرة من الشمال الغربي ، وقشتالة من الجنوب والغرب ، وكانت في الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، وأرسخها جذوراً في الاستقلال . ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائي في شمال شرق الجزيرة ، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

الأخرى ، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها ، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطربة من حولها .

وكانت مملكة سرقسطة ، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، وقبل أن تنتظم في سلك ممالك الطوائف ، تعرف بولاية الثغر الأعلى ، وهو يشمل في الجغرافية الأندلسية ، مدينة سرقسطة وأعمالها ، تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، وطركونة ، وطرطوشة ، ويشغل المنطقة الواسعة الحصبة التي يخترقها نهر إيبرو (إبرة) من مصبه عند مدينة طرطوشة ، حتى مدخله عند مدينة قلهرة في ولاية نافار ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة ، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة أيوب ودروقة : ففي هذه المنطقة الشاسعة التي تكثر فيها الوديان الياض والمواقع الاستراتيجية ، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة ، مشتملة على سائر نواحيها .

وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مسرحاً لمغامرات بني قسى زعماء الثغر المولدين ، حسبنا فصلنا ذلك في مواضعه من العصر الأول (١) .

وفي أواخر هذا القرن ، في عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوية ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة ، وذلك على يد زعيمهم أبى يعقوب محمد بن عبد الرحمن التجيبى المعروف بالأنقر . وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه ، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة في الثغر ، واستمر بنو تجيب في سرقسطة ، والمترون من زعماء المولدين في باقي قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة ، أحياناً على ولايتهم لحكومة قرطبة ، وأحياناً يخرجون على طاعتها ، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثورتهم ، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة ، بيد أنه عفا عن بني تجيب ، ورد زعيمهم محمد ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكماً لسرقسطة ، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية ، ولما كان لبني تجيب في الشمال من العصبة والأنصار .

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » (العصر الأول) .

وفي أيام المنصور بن أبي عامر ، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم في الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية ، وزعامتها المحلية ، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ، صاحب سرقسطة أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله . وقد فصّنا أخبار هذه المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامية^(١) ، وبيننا كيف استطاع المنصور أن يقبض على عبد الرحمن التجيبي ، وعلى عبد الله ، ثم قضى بإعدامهما ، بيد أنه مع ذلك ندب لحكم سرقسطة ، يحيى بن عبد الرحمن التجيبي استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه ، وذلك في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) .

واستمر يحيى التجيبي في حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة ، وانهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس ، وكان جل عنايته في تلك الآونة العصبية أن يحافظ على بلاده من عدوان النصارى ، وأن يوطد سلطانه في مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث . ولما توفي ، خلفه ولده المنذر بن يحيى التجيبي .

ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبي أول أمير للثغر في عهد الطوائف . فحكم سرقسطة وأعمالها ، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين ، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور ، ولما تطورت الحوادث في قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، كان المنذر بن يحيى إلى جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين في معارضته ومقاومته . ولما رشح هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمرتضى ، وساروا معه هم وأنصارهم في قواتهم لمقاتلة البربر ، وخلع على بن حمود ، سار معهم المنذر بن يحيى في بعض قواته ، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة حليفه الكونت رامون أمير برشلونة ، وكان من ضباطه في تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن في تطور الحوادث في الثغر الأعلى هو سليمان بن هود . ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التي اضطربت يومئذ في ظاهر غرناطة بين القوات الأندلسية ، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، وكيف

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » (المصر الأول) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى (٤٠٩ هـ - ١٠١٨ م) (١) .

وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال ، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة ، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر . ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك في أواخر سنة ٤٠٨ هـ ، وخلفه في حكمها الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها ، ثم شاركه في حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك في موضعه ، عاد أهل بلنسية فسخطوا على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير ، وإفساحه له مجال التدخل في شئونها بصورة ظاهرة ، وثاروا عليه ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، واستمر مجاهد في حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية . ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك ، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى ، فسار في بعض قواته صوب بلنسية ، واستعد مجاهد للقائه ، ووقعت بينهما بعض معارك خشي الناس عواقبها ، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع ، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ، وتعيينه أميراً لبلنسية ، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) وعندئذ انسحب مجاهد إلى دانية ، وعاد المنذر إلى سرقسطة (٢) .

واستمر المنذر في حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام آخر حتى توفي في سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى ، ولاسيما رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة ، وكذلك كانت تربطه مثل هذه العلائق بسانشو الكبير (شانجه) ملك نافار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة ، وألفونسو الخامس ملك ليون . وقد بالغ المنذر فيما يبدو في صداقته لأولئك الملوك النصارى ، حتى أنه نظم في قصره بسرقسطة ، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء ، هما سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين ، فسخط عليه الناس من أجل ذلك ، ورموه بألسنة حداد ، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسألة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧ . وراجع Dozy : Hist. V. II. p 315—318

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أولئك الملوك النصارى ، وكف عاديّتهم عن بلاده ، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة المودعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين . ومن ثم فقد تمتعت سرقسطة في عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء ، وغدت باتساع عمرانها وتقدم أحوالها ، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة ، وأدرك الناس بعد وفاته ، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب (١) .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ ، فلأ قصره الفخم بالحوارى والعلمان والحشم ، ونفيس الذخائر والتحف ، وكان يتحف أصدقاءه ملوك النصارى بالهدايا الفاخرة ، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم . وكان بين وزرائه بعض أكابر كتاب العصر ، مثل أبي العباس بن مروس من تدمير ، وأبى عامر ابن أزرق ، وابن واجب وغيرهم .

وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن درّاج القسطلّى في مديح المنذر حينما وفد عليه قصيدته المشهورة التي مطلعها :

بشارك من طول الترحل والسرى صبح بروح السّفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذي حجب الدجى فجرا بأفهار الندى متفجرا
ومنها :

فلئن تركت الليل فوق داجياً فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرأ
وحللت أرضاً بدلت حصباؤها ذهباً يرف لناظريّ وجوهرأ
ضربوا قيداحهم على ففاز بي من كان بالقيدح المعلّى أجدرأ (٢)
ولما توفى المنذر ، خلفه ولده يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وحكم سرقسطة وأعمالها بضعة أعوام أخرى ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) . والظاهر أنه لم يحكم سياسة الصداقة التي كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن يتزل له عن بعض القلاع والحصون .

وخلفه في الملك ولده المنذر بن يحيى ، وتلقب بالحاجب معز الدولة . ولستأ نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير في المدة التي حكمها ، وهى نحو عشرة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع دوزى

Recherches, V. I. App. XIV & XVII

(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة . وقد وردت في ديوان ابن درّاج الذى سقت الإشارة إليه ص ١٢٤ - ١٣٠ . وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة - القسم الأول المجلد الأول - ص ٥٦ - ٥٨) .

أعوام . بيد أن لدينا تفاصيل مقتله ، وذهاب ملك بنى نجيب على يده . وكان ذلك في غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (أغسطس ١٠٣٩ م) حينما نفذ إلى قصره في ذلك اليوم رجل من بنى عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم ، جاء بزعم السلام عليه ، وكان يضم له السوء منذ بعيد . وكان المنذر يجلس بين نفر قليل من خدمه الصقالية ، وليس عليه إلا غلالة ، وهو يقرأ في كتاب في يده ، فانقض عليه وطعنه في عنقه بسكين كان قد أعده ، فقطع أوداجه ، وفر الخدم في الحال ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهيم حاول الدفاع عن سيده ، فصرعه عبد الله بخنجره ثم أجهز على منذر ، واحتز رأسه ، وأبرزها من شرفة في القصر مرفوعة على عصا ، وهو يصبح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً ، يريد بذلك الدّعى الذى نصبه القاضي ابن عباد في إشبيلية ، وزعم أنه الخليفة هشاماً المؤيد ، وذلك في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء الطوائف ، ورفض يحيى التجبى يومئذ الاعتراف به ، وتابعه في ذلك ولده المنذر . ولما شهد الناس رأس منذر بهتوا وعقد للذعر السنهم ، وأرسل القاتل في الحال إلى القاضي والأعيان ، فحضرُوا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله ، وجثة منذر مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه ، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل في سبيل الإصلاح العام ، ودعا بالحكم لسليمان بن هود ، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنوعه للولاية فانصرف الناس ، وقد بيتوا القضاء عليه .

وفي تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحيى التجبى قد ذاع في كل مكان ، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر ، واشتد المهرج في سرقسطة ، وكادت تعصف بها الفتنة ، وهجم الناس على القصر لانتزاع القاتل ومعاقبته ، فتحصن بالقصبة ، وصمم على الدفاع عن نفسه ، بيد أنه لما أيقن أنه سوف يقع في أيدي مهاجميه لاحتالة ، جمع ما استطاع من ذخائر القصر ونحفه ، وخرج هارباً من باب خلئ في القصر ، ولحق بقلعة روضة أحد معاقل سرقسطة المنيع ، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه ، وحمل معه في نفس الوقت أخوين للمنذر ، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم ، في الأصفهاد ليكونوا رهائن لديه ، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخرّبوه ، وعم المهرج والفوضى .

وفى تلك الآونة ظهر فى الميدان رجل ، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة ، ويتترع مقاليد الحكم . ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، وهو كبنى نجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق ، وجدهم الأعلى هو هود وهو الداخلى إلى الأندلس وينتسب إلى الأزدي . وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من كبار الحند بالثغر الأعلى ، فغلب على مدينة لاردة ، وقتل صاحبها يومئذ ، وهو أبو المطرف التجيبى ، ثم غلب على تطيلة من أطراف الثغر ، وكان بها فى جمع من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى ، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة ، هرع إليها فى صحبه ، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة ، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور . ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة ، وأن الملك القليل لم يكن هو المنذر معز الدولة ، وإنما كان أبوه يحيى المظفر ، وهو الذى كان يحكم يومئذ ، ويضع تاريخ هذا الحادث فى سنة ٤٣١ هـ (١) .

ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل ، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا يحيى بن المنذر بن يحيى ، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود (٢) . بيد أن هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة ، وهى التى اتبعناها فيما تقدم ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب (٣) .

وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود فى صحبه إلى سرقسطة ، واستولى عليها فى غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٠٣٩ م) وسواء أكان استيلاؤه عليها نتيجة لدعوة أهلها ، واختيارهم إياه لولايتها ، أم كان عملا من أعمال القوة وهو الأرجح ، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع ، وبذلك انتهت رئاسة التجيبيين للثغر الأعلى ، بعد أن لبث زهاء قرن ونصف ، وبدأت فى سرقسطة والثغر الأعلى رئاسة أسرة جديدة هى أسرة بنى هود ، التى يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف ، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها (٤) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠ .

(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة فى البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ - ١٨١ ، وقد عاد صاحب البيان فأورد رواية مماثلة : ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

(٤) الحلة السيرة (دوزى) ص ٢٢٤ . والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦ .

والتي لعبت في عصر الطوائف ، ولاسيما في حوادث الثغر الأعلى وشرقي الأندلس ، أعظم دور .

٢ - عهد بني هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة في غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة ، التي كانت بيد بعض الفتيان العامرين ، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله ، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه ، فاشتهر أمره ، وتوطد ملكه بسرعة ، واستمر في حكم مملكته الحديدة ثمانية أعوام . وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون . وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين ، من ناحية الجنوب الغربي من مملكة سرقسطة وناحية الشمال الشرقي من مملكة طليطلة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن بني ذى النون كانوا خثولة للمنذر بن يحيى آخر أمراء سرقسطة من بني تجيب ، وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه ، فكان ذلك عاملا آخر في اشتداد هذه الحصومة . ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة وادى الحجارة ، وقد كانت من أعمال طليطلة ، فبعث إليها سليمان بن هود ولده أحمد في جيش قوى فنازلها واحتلها ، وذلك في سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) ، وهرع إليها المأمون بن ذى النون في قواته ، ونشبت بين الجيشين معارك هزم فيها ابن ذى النون ، فارتد في قواته إلى طلبيرة ، وابن هود يطارده ، ويشدد الضغط عليه ، ولم ينبج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد بتركه وشأنه .

وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع ، وبيننا كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة ، فاستغاث به واعترف بطاعته ، وكيف أمده فرناندو بمجنده ، فعاثت في أراضي مملكة سرقسطة وخربتها ، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة ، وبذل له أموالا وتحفاً جلييلة ، فبعث فرناندو جنوده فعاثت في أراضي طليطلة حتى وادى الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس) . ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك نافار واستماله بالأموال الجلييلة ، فأغار على أراضي مملكة سرقسطة المجاورة له ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضي طليطلة مرة أخرى . وهكذا تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون « الأميرين المشغومين

على المسلمين ، وفقاً لقول ابن حيان ، وضع لها سائر أهل الأندلس . واستمر ملكا قشتالة ، ونافار ، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة ، فيغير الأوله على أراضى طليطلة لحساب ابن هود ، ويغير الثاني على أراضى سرقسطة لحساب ابن ذى التون ، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بوفاة ابن هود وذلك في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل (١) .

وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة ، فاختص أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة ، ويوسف بولاية لاردة ، واب بولاية وشقة ، والمنذر بولاية تطيلة ، ومحمد بولاية قلعة أيوب (٢) ، واستقل كل بحكم مدينته ، وأعمالها . بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملاً سليماً ، وكان بالعكس نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية . وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطاعاً ، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما في أيديهم . وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل ، وهم لب صاحب وشقة ، والمنذر صاحب تطيلة ، ومحمد صاحب قلعة أيوب ، وأن يستولى على مدينتهم ، ثم يحجزهم ، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم . بيد أن أخاه يوسف صاحب لاردة ، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر ، كان له نداء ، وكان بطلا شهما ، وهو الذى استطاع وحده أن يقف في سبيل أطاعه ، وأن يحبط محاولاته ودسائسه .

وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، وكان أهل الثغر حينها رأوا ما صنعه أحمد بأخوته ، وما لجأ إليه من الوسائل العاشمة في اغتصاب ولاياتهم . قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه ، وخرجت معظم القواعد عن طاعته ، وانضمت إلى أخيه ، ولم يبق له سوى سرقسطة . فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه ، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد . ذلك أن مدينة تطيلة ، وهى من القواعد التى انضمت إلى يوسف المظفر ، دهمتها المجاعة والغلاء ، فاستغاث به أهلها ، فدعا أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن ، فاجتمع منها قدر عظيم ، ورأى يوسف

(١) راجع في أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ - ٢٨٣ ، وأعمال الأعلام

ص ١٧٨ . وكذلك Dozy : Histoire V III., p. 74 & 75

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca ، وتطيلة Tudela ، وقلعة أيوب Calatzyud

أنه لا يستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر أخيه ، ففاوض غرسية ملك نافار ، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المأون عبر أراضيها إلى تطيلة ، فأجابه إلى طلبه . وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية ، يبذل له ضعف الأموال التي بعثها إليه أخوه ، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المأون حين مرورها داخل أرضه ، فاستجاب الملك النصراني إلى ذلك الإغراء الدنيء ، وتم ما دبره أحمد . ذلك أن قافلة المأون ، وكانت تتكون من بضعة آلاف من الجنود ، وعدد كبير من الخيل والدواب ، ماكادت تجوز أراضي نافار ، شمالى شرقى تطيلة ، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التي رتبها بمساعدة غرسية ، وفتكت بها ، وأيد معظم رجالها قتلاً وأسراً ، واستولى النصراني على أسلحتهم ، وما كان معهم من المأون ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وكانت واقعة شنيعة نتجت عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار . وكان من أثرها ، أن ضعف أمر يوسف ، وتوطد سلطان أحمد ، واشتد بأسه ، وهابه الناس ، واسترد القواعد التي كانت تحت يده (١) .

وكانت ضربة المقتدر التالية ، استيلائه على ثغر طرطوشة . وكان هذا الثغر الذي يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر ، إذا استئفينا ثغر طركونة الواقع على حدود إمارة برشلونة ، والذي كان من أعمال لاردة ، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين . وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لييب العامرى ، وكان حازماً قوى البأس ، وحاول المنذر بن يحيى التجبى أن ينتزعها منه فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمدّه بجنده ، ورد عنها المنذر ، ولما توفي مبارك فى سنة ٤٠٨ هـ ، خلفه لييب فى حكم بلنسية بدعوة من أهلها ، ولما اختلف على ذلك مع زميله مجاهد العامرى ، عاد إلى طرطوشة واستمر فى حكمها حتى توفي فى ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، فخلفه فى الحكم فى آخر من الصقالبة العامريين يدعى مقاتل ، وتلقب بسيف الملك ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) . فخلفه الفتي يعلى من موالى العامريين أيضاً ، ثم حكمها من بعده الفتي نبيل . وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان الصقالبة على طرطوشة بعين السخط ، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر

الهام من أعمال مملكته . وأخيراً سنحت هذه الفرصة ، حينما اضطرت طرطوشة ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر في قواته فسلمها إليه نبيل في الحال وخرج عنها ، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقلية بها (٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م) (١).



على أن أعظم حادث أو عبارة أخرى أعظم بحنة نزلت بالمسلمين في عهد المقتدر بن هود ، هو غزو النورمانين لمدينة برزبر (٢) ، وفتحهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ . وقد دون لنا ابن حيان ، وكان يعيش في قرطبة وقت وقوع هذه الحنة ، تفاصيلها بإسهاب ، وبعبارات مؤثرة مبكية . ذلك أن حملة كبيرة من النورمانين (أو الأردمانين في الرواية العربية) تقلدها الرواية بعشرة آلاف فارس ، بقيادة جيوم دى مونرى ، نزلت بشاطئ قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضي مملكة سرقسطة الشمالية . وقد اختلفت الرواية في تكيف ظروف هذه الحملة وفي مصدر قدومها ، وفيمن نظمها وقادها . بيد أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها ، أنها حشدت في ولاية نورمانديا الفرنسية ، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا ، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ في طلب المغامرة والكسب ومعهم جموع كبيرة من الفرسان الفرنسيين . أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى . وكان جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا في أواسط القرن الحادى عشر ، وخدم الكرسي الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . أما بواعث قيادته لهذه الحملة ، ولماذا قصدت إلى شاطئ قطلونية ، فما يحيط به الغموض . على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التى تستر بالصفة الصليبية ، والتي تقصد العيث والنكاية ، والغنم والسبي في أراضي المسلمين أينما كانت . ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة ، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا اسكنلر الثانى (٣) . والرواية الإسلامية صريحة واضحة في أن هذه الحملة قد قدمت

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وكذلك :

P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 38 & 39

(٢) هى بالإسبانية : Berastro

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes p. 453

من فرنسا . فهي تقول لنا : إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) إلى الأندلس في جموع كبيرة ليس لما حد ، ولا يحصى لما عدد إلا الله ، وانتشروا على ثغور سرقسطة ^(١) . ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه الحملة قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه ، أم جازت إلى قطلونية بطريق البحر . وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان في قطلونية واجتازوا إلى أراضي مملكة سرقسطة ، إذ كانت تحمي مؤخرتها أرض نصرانية هي مملكة برشلونة . وقصدوا أولاً إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية ، فنازلوها أياماً ، ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر ، وهي لا تقل عن وشقة أهمية وحصانة .

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إيره بين مدينتي لاردة ووشقة ، في الشمال الشرقي لسرقسطة ، وكانت يومئذ من أمتع القواعد الإسلامية الشمالية . فنزل عليها النورمان ، وضربوا حولها الحصار ، وذلك في أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) . ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة المحصورة ، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر ، فكان ذلك منه جبناً ونذالة ، أدرك عواقبهما فيما بعد ، ولم يستطع يوسف نفسه لإنجادهما ، فتركها لمصيرها . واستمر الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة ، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر ، وتخوض مع الأعداء معارك شديدة ، ثم ترتد إلى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة ، وعزت الأقوات ، وقع الفرج والتنازع بين أهلها ، وعلم النورمان بذلك ، فشددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة الخارجية ، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، وقتلوا من المهاجرين نحو خمسمائة ، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة ، لولا أن حدث حادث عجل بوقوع الكارثة . ذلك أن القصبة كان عمدها بالماء سرب داخلي تحت الأرض متصل بالنهر ، فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة ، وانقطع

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ . وراجع أيضاً الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠

حيث يقول لنا في كلامه عن بربشتر : « وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة ، أهل غاليش والروذمانون » . وغاليش هي فرنسا ، والروذمانون هم النورمان .

الماء عن المحصورين ، واشتد بهم الظمأ وبدأ لهم شبح الموت جائئاً ، فبعثوا إلى النورمان يعرفون التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم وأولادهم ، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق النورمان على ذلك . وفي رواية أخرى أن النورمان أبوا ذلك ، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم ، حتى اقتحموا عليهم المدينة . وعلى أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة ، وأمعنوا في أهلها قتلاً وسبياً ، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل ، وقاضيا ابن عيسى ، ونفر قليل من الأعيان .

وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع ، وتقدر عدد القتل والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً^(١) أو خمسين ألفاً ، بل بمائة ألف في رواية أخرى ، وهلك عدد كبير من النساء ، حينما تطارحن على الماء لإرواء ظمئن ، فكبسهم العدو للأذقان موتاً . ولما خرجت الجموع من المدينة في ظل الأمان المقطوع ، ورأى قائد النصارى كثرتهم ، هاله ذلك ، وخشى أن تأخذ الجموع الحمية ، فهبوا لاستنقاذ أنفسهم ، فأمر ببذل السيف فيهم ليخف من أعدادهم ، فقتل منهم عندئذ ما يزيد على ستة آلاف . ومات خلال الزحام كثير من الشيوخ والأطفال ، وتبدل كثير من الأسوار اتقاء الزحمة ، وامتنع نحو سبعائة رجل بالقصبة ، فمات معظمهم عطشاً . على أن ذلك لم يكن أشنع مانزل بالمسلمين بل كانت تنظرهم فظائع أخرى لا يخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين وأنلهم ، ونحن نترك القول هنا لابن حيان ، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من تلك المناظر البشعة المؤسفة :

« ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك في الزحمة ، ظلوا قياماً ذاهلين ، منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودى فيهم بأن يرجع كل ذي دار إلى داره ووطنه بأهله ، وأزعجوا لذلك ، فنالهم من الازدحام ، قريباً مما نالهم في الخروج عنها . ولما استقروا بالدور مع عيالهم وفرياتهم ، اقتسمهم المشركون ، فأمر سلطانهم ، فكل من صارت في حصته دار حازها ، وحاز ما فيها من أهل وولد ومال . فيحكم كل عالج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم ، يأخذ كل ما أظهره إليه ،

ويقرره عليه فيما أخفى ، وبعذبه أشد العذاب ، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح ، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك . فإن عداة الله يومئذ ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ، وعلى أعينهم إلباغاً في نكايتهن ، يغشون الثيب ، ويفتضون البكر ، وزوج تلك ، وأبو هذه ، موثق بقيد أسره ، ناظر إلى سخنة عينيه ، فعينه تدمع ، ونفسه يتقطع . ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله ، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثه ، فبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ، والحول والقوة لله العظيم .

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبي والغنائم ، ولاسيما النساء والأطفال . يقول ابن حيان « زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة في حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل » ثم يقول بعد ذلك « ولما عزم ملك الروم (يريد قائد النورمان) على القبول يومئذ من بربرشتر إلى بلده ، تخبر من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الأيتام ، والحدود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهم إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف ، ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف « بكر منتخبة » (١) .

وربما كان في تلك الأرقام — أرقام القتل والأسرى والسبايا — مبالغة . ولكنها تدل على أى حال ، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التي وصفها لنا المؤرخ المعاصر ، على فداحة الخطب الذي نزل بأهل بربرشتر ، وعلى مبلغ تجرد أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية ، وهو خطب كان حسبما يصفه ابن حيان « أعظم من أن يوصف أو يتقصى » . ولما وصلت أنبأؤه إلى قرطبة في أوائل رمضان (٤٥٦ هـ) ، حيث كان يقيم المؤرخ ، وذاعت في مختلف الأنحاء اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك الفظائع والشناعات التي لم يسمع بمثلا .

وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان ، ونظراته النقدية الصائبة ، وإليك من أقواله تلك الفقرة التي تدل بالنذير والنبوءة الصادقة ، وتفيض

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠ . وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربرشتر .

بالتوجه لأحوال عصره . قال : « قد استوفينا في شرح هذه القادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه ، على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لاحالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذي سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ما لحق الذي قبله ، فمثل دهرنا هذا — لاقدس — بهم الشبه ، ما إن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خبره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا في سبيل الرشد بأنقياء ، ولا على معالي النغي بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرى ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراض دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بنهم ، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أو ماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن فتقهم ليس بمفص إلينا ، قد نخلنا عليهم بالدعاء نخلنا بالقناء ، عجائب فانت التقدير ، وعرضت للتغيير ، والله عاقبة الأمور وإليه المصير (١) .

ولما غادر الغزاة النورمان بريشت بعد اقتحامها ، والفتك بأهلها ، والاحتواء على أموالها ، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة ، وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل ، واستقدموا إليها كثيراً من أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم ، وساروا عائدين إلى بلادهم ، وفي ركبهم ألوف من سبي المسلمين نساء ورجالا ، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة . بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة . وكان صدى النكبة قد نفذ

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بريشت ، عن الذخيرة القسم الثالث المخطوط لוחات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب . وراجع في ذلك أيضاً البيان المغرب ومخطمه أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك Dozy : Histoire V. III. p. 78 & 79 - Recherches - 3eme Ed. V. II. p. 335-353 وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها .

إلى الأعماق ، واهتز لها أمراء الأندلس قاطبة ، وفي مقدمتهم المقتدر بن هود ، وهو الذى شهد لها عن كثب ، ولحقه من جرائها أكبر وزر ، وانجى إليه أشد اللوم لتقصيره فى إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها ، وهى من أخص قواعد ثغره . واستنفر الناس للجهاد ، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من المتطوعة والرماة ، ساروا إلى الثغر جهاداً فى سبيل الله ، وبعث المعتمد بن عباد نجدة من خمسمائة فارس ، وسار المقتدر بن هود فى قواته ، وقوات الأمداد المختلفة إلى بربشتر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (ربيع سنة ١٠٦٥ م) وضربوا حولها الحصار ، وامتنع النصارى داخل المدينة ، لما رأوه من كثرة جموع المسلمين ، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية الرماة ، ونجحوا فى إحداث ثغرة كبيرة فيها ، ثم اقتحموا المدينة بشدة ، فغادرها النصارى من الناحية الأخرى ، وحملوا على محلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة مزق فيها النصارى وهلك معظمهم ، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم وأبنائهم ، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلاً وهى مبالغة واضحة ، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة فى أن خسائر النصارى كانت فادحة ، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة ، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف ، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح وأموال كثيرة . وكان استرداد بربشتر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر^(١) . وبذلك جبر الصدع ، ورفعت المعرة ، وأثلجت صدور المسلمين . وعلى أثر هذا الفتح الحليل اتخذ بطله ابن هود لقبه المقتدر بالله^(٢) .

وشغل المقتدر بن هود فى الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التى اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى . وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية النصرانية الثلاث ، أراجون ونافار وقشتالة ، هدفاً مستمراً لأطباع الملوك

(١) راجع الروض المطار ص ٤١ .

(٢) الذخيرة القم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ . والبيان المغرب ج ٣ ص

النصارى ، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية ، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها . وفى خلال ذلك ، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالهند النصارى ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال . وكان فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ١٠٦٠م (٤٥٢ هـ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوية الغربية ، واقتطع منها حصن غرماج ، وبعض حصون أخرى ، فاضطر المقتدر أن يذعن لدفع الجزية . ولما توفى فرناندو فى سنة ١٠٦٥ ، وخلفه ولده سانشو فى ملك قشتالة ، وفى حقوق الجزية على سرقسطة ، حاول أن يتدخل فى شئون سرقسطة ويبعث إليها بقواته فى سنة ١٠٦٧ فحاصرتها ، اقتضاء للجزية المطلوبة ، وكان يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردرىجو دياث أو السيد إلكيادور ، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة فى حوادث شرق الأندلس ، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والأقمشة الفاخرة ، أداء للجزية المطلوبة ، وأن يبعث برهائنه فى الوقت نفسه ، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة (١) .

وكان المقتدر فى الوقت الذى تصفو فيه علاقته مع جيرانه النصارى ، يستمد العون منهم فى مشاريعه العسكرية ، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر ، كما حدث فى سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضى مملكة سرقسطة ، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة ، فبعث إليه ولده سانشو فى بعض قواته ، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل ، وكان ردرىجو دياث — السيد فيما بعد — يومئذ من ضباط الجيش القشتالى .

ولما خلاص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو ، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها فى نفس الوقت سانشو راميرز ملك أراجون ونافار ، بعد أن ورث عرش نافار ، وكان المقتدر يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك نافار . وكان يستعين فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس (النافاريين) والقطلان ، واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره .

وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة ، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

ابن عباد وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلوات ودية وثيقة — بخبره فيها بقصته مع أخيه المظفر، ويرميه فيها بالظلم والحسد، ومجانبة العدل والإنصاف، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم، فأبى، واضطر إلى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وأزمره البقاء في قصبة منتشون. ثم يقول معتزلاً عن مسلكه: «وللنفس يعلم الله مما حماني عليه ارتماض وإشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك لإزعاج وإفلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سيلاً، ولا جعلني إلى سواه محيلاً، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق» (١) والظاهر أن الحوادث التي يشير إليها المقتدر في رسالته قد وقعت في سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م). وفي بعض الروايات القشتالية، أن المقتدر بعد أن استولى على أملاك أخيه اعتقله بقلعة روضة، وهناك استمر في اعتقاله حتى توفي بعد ذلك بثلاثة أعوام (٤٧٥ هـ)، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هو ما يرويه المقتدر نفسه في رسالته.

ولما أعيت المقتدر الحيل في إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية، انتهى رأيه إلى الاستعانة بمخدمات ذلك الفارس القشتالي، الذي عرفه من قبل بين ضباط قشتالة محارباً بارعاً، وهو ردرينجو دياث دي بيبار، وكان يومئذ قد ساءت علاقته مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه، فخرج يبحث عن طالعه، وهكذا عقدت العلاقة بين «السيد» وبين المقتدر، وكان المقتدر أول من أولاه رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين، وكان ذلك في سنة ١٠٨٠ م قبيل وفاة المقتدر بقليل (٢).

ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة، استيلاءه على مملكة دانية من صهره، زوج ابنته على إقبال الدولة في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما فصلنا ذلك من قبل في أخبار مملكة دانية. وقد خدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد إلى شرق الأندلس، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة، بل ربما أعظمها جميعاً. وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرق الأندلس، سبيل التطاع إلى مملكة بلنسية.

(١) وردت هذه الرسالة في المخطوط رقم ٤٨٨ الفزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال

(لوحة ١١٨ و ١١٩).

(٢) الأخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب. وكذلك: R. M. Pidal: ibid

والتدخل في شئونها ، حسبما سبق شرحه في موضعه في أخبار مملكة بلنسية ، وتوفي أحمد بن سليمان بن هود المقتلر بالله في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) من كَلَب شديد أصابه من عضه كلب ، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤمن بسرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت في ظل بني هود ، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية ، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعها ، تؤثر سياسة التسامح الديني ، وكان النصراني يعيشون في ظل بني هود ، في ظروف حسنة ، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية ، وقد شجع هذا التسامح الذي أثار عن بني هود نحو رعاياهم النصراني ، راحبا فرنسا ، على أن يكتب إلى المقتلر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية ، وبعث رسالته المذكورة مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتلر تعاليم الدين المسيحي ومزاياه^(١) ، فاستقبل المقتلر الرسولين برفق وكياسة ، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من جرأة وتهجم صارخ ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبي الوليد الباجي ، وكان يومئذ يعيش في سرقسطة في كنفه وتحت رعايته ، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب ردا ، يفند فيه دعاوى الراهب في رسالته ، ويبين ما تنطوي عليه هذه الدعاوى من بطلان وتناقض . فكتب الباجي رده المشهور على هذه الرسالة ، وهو رد مسهب ، يفيض منطقاً وبلاغة ، وفيه يفند الباجي مزاعم الدين المسيحي ، وألوهية المسيح وغيرها ، بقوة ، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح ، ويدعو الراهب بالعكس إلى اعتناق الإسلام ، وينوه بمعجزة القرآن وروعته ، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها .

وكان المقتلر بن هود من أعظم ملوك الطوائف . ويصفه الحنجاري في المسهب بأنه « عميد بني هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم » . وكان فضلا عن

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسي في مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٨ الفيزري ، عقب رسالة ابن غرسية والرد عليها ، ودونت من بعدها رسالة أبي الوليد الباجي في الرد على الراهب المذكور ، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة ، وقد نشر الأستاذ دنلوب D. M. Dunlop في مجلة الأندلس Al-Andalus Vol. XVII, 1952 ، وقرنها بترجمة انجليزية .

مقدرته السياسية والعسكرية التي رأيناها تبدو في كثير من أعماله ومشاريعه ، وبالرغم مما كانت تنطوي عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة ، يتمتع بكثير من الخلال البديعة ، فقد كان أميراً عظيماً يحيط نفسه بحج من المهابة والروعة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب في عصره ، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، ووزيره الكاتب اليهودي المسلم أبو الفضل ابن حسداى السرقسطي ، وكان كلاهما من أعلام عصره في البلاغة والأدب . بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك ، وقد كتب كتباً في الفلسفة والرياضة^(١) . وكان قصر المقتدر وهو المسمى بقصر « الجعفرية » نسبة إلى كنيته ، وهي « أبو جعفر » ، من أعظم وأفخر القصور الملكية في تلك العصور ، وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه بهو الرائع الذي زينته جدرانها بالنقوش والتحف الذهبية البديعة ، والذي كان يسمى لذلك بالبهو الذهبي ، أو مجلس الذهب . وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكي خلافاً لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع ، وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على عمارته وزخارفه العربية . وما زالت بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم في قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية *Palacio Aljafénia* ، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة ، ولم يبق من بنائه الإسلامي سوى بقية مشوهة من مسجده السابق .

وكان المقتدر ، فوق شغفه بالعلوم ، أديباً ينظم الشعر ، وقد نسب إليه الحجارى صاحب المسهب قوله :

لست لدى خالتي وجيهاً هذا مدى دهري واعتقادي
لو كنت وجهاً لما يراني في عالم الكون والفساد^(٢)

(١) Dozy : Histoire ; Vol. III. p. 163-R. M. Pidal : *ibid*, p. 282

(٢) راجع المغرب في حل المغرب (القاهرة) ج ١ ص ٤٣٧ .

الفصل الثاني

ملكة سرقسطة

منذ عصر المؤمنين حتى سقوطها في أيدي المرابطين

الصراع بين المؤمنين والمنذر . معركة قلعة المنار . حاكم رومة وكنيته لنصارى . موقف السيد الكيبادور . تحالف المنذروسانشو راميرز . السيد ونفوذه لدى المؤمنين . حملة ابن بسام على بني هود . وفاة المؤمنين . صفاته العلمية . ولده أحد المستعين . سير الفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرتها إليها . يرفع الحصار عند مقدم المرابطين . حروب المستعين . تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه . الخطر على ملكة سرقسطة . استيلاء ملك أراجون على منشون . تهديده لوشقة . إتهام المستعين إلى الاستنجاد بالمرابطين . سفارته لأمر المسلمين . استعانت به بك قشتالة . محاصرة سانشو راميرز لوشقة . وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار . سير المستعين وحلفاؤه لإنجاده . موقعة الكرازة . هزيمة المستعين وسقوط لوشقة . استيلاء المرابطين على تلك الطوائف الجنوبية والغربية . استيلائهم على شرق الأندلس . استنصار المستعين بالسيد . انشغال السيد في بلنسية . إتهام المستعين إلى المرابطين . سفارته الثانية لأمر المسلمين . وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه الفونسو مكانه . سيره إلى تطيلة . سير المستعين لإنجاده . سقوط تطيلة ومقتل المستعين . ولده عبد الملك عماد الدولة . دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين نخلع بني هود . استصراخ عماد الدولة لأمر المسلمين . زحف المرابطين على سرقسطة واستيلائهم عليها . انتهاء حكم بني هود . التجاه عماد الدولة إلى حصن رومة . خضوعه لحماية ملك أراجون . ولده سيف الدولة . نزوله من رومة لألفونسو ريمونديز . سرقسطة أيام بني هود . اشتجارها بالدراسات الرياضية والفلسفية . ابن باجة وحياته العلمية . أبو بكر الطرطوشي وكتابه سراج الملوك . نظريته في عصبة الدولة ورد ابن خلدون عليها . سرقسطة ومساهمتها في الحركة الأدبية . دورها في التبادل الحضاري والثقافي . دورها في التبادل التجاري .

عادت الحرب الأهلية القديمة التي اضطربت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة ، تضطرم من جديد بين يوسف المؤمنين صاحب سرقسطة ، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة .

وقد استعان كلا الأخوين في تلك الحرب الانتحارية بالنصارى ، فكان المؤمنين يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل « السيد » وجيشه من المرتقة القشتاليين وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد ، يستعين بسانشو راميرز ملك أراجون ، ورامون برنجير أمير برشلونة .

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة ، وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة ، وشحنها بالمقاتلة ، ولما شعر أخوه المنذر بخطرهما على أملاكه سار في قوة مشتركة من حلفائه ، أمير برشلونة وبعض صغار الأمراء الإفرنج في شمال قطلونية ، وحاصر هذه القلعة ، فسار المؤتمن والسيد في قواتهما لإنجادهما ، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنيجر (١٠٨٢ م) .

ووقع في ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علاقته ببلاط سرقسطة . ذلك أن حاكم قلعة روطة التي كان معتقلاً بها المظفر ، اعتزم الخروج والثورة بالتضام مع سجينه ، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه ويعدّه بتسليم القلعة ، فسار ألفونسو إلى روطة في بعض قواته ، وكان المظفر قد توفي عندئذ فجأة ، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر ، وبعث ألفونسو بعض أكابر ضباطه ، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة ، وماكادوا يجوزون إلى الداخل ، حتى أنهال عليهم وابل من الصخور ، فقتلوا جميعاً (١٠٨٢ م) وعاد ألفونسو ، وهو يضطرم أمسى وتحرقاً إلى الانتقام .

وكان السيد عندئذ في تطيلة ، فلما وقف على هذا الحادث الحزن ، هرع في حصبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه ، ويلتمس العفو ، والإذن بالعود ، فغفا عنه الملك ومحبته معه إلى قشتالة . ولكن مقامه بها لم يطل . ذلك أن ألفونسو عادت إليه هواجسه القديمة نحو السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة ، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة . ويحاول الأستاذ بيدال أن يستدل بتصريف السيد في هذا الحادث على أنه لم يكن في خدماته لبلاط سرقسطة جندياً أجيراً ، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية (١) .

وعاد السيد إلى مهمته القديمة في محاربة أعداء المؤتمن ، وخرج مع المؤتمن في قواته ، وعاناً في أراضي أراجون ، ثم عادا إلى حصن مونتشون . ورد سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس . وغيرها من حصون الحدود (أبريل ١٠٨٣ م) . ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز ،

وسارا في قواتهما لمحاربة السيد ، والتقى الفريقان في أحواز موريللا على مقربة من طرطوشة ، فهزم المنذر وحليفه ، واستولى السيد على معسكرهما ، وعلى كثير من الأسرى . واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أجل استقبال .

وعلا شأن السيد في بلاط سرقسطة ، وتوطدت مكانته ، واشتد نفوذه على المؤتمن . فكان لا يبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته : وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها ، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانة الممتازة التي أحرزها السيد في بلاط سرقسطة ، وإلى الحملة اللاذعة التي شهرها ابن بسام من أجل ذلك على بني هود^(١) ، كما أشرنا إلى ما كان يجيش به المؤتمن من الأطماع نحو مملكة بلنسية ، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته في هذا المشروع وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقة أن يحبط هذا المشروع وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن ، أحمد المستعين .

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام ، إذ توفي في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه ، فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها ، ولده أحمد ، وتلقب بالمستعين ، وبقي الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر .

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية ، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً ، وفلكياً ممتازاً ، وكتب في العلوم الرياضية ، ونسألته المسماة « الإستكمال »^(٢) ، التي ترجمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي ، والتي توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطي . بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربي .

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين ، ويعرف بالمستعين الأصغر . وما كاد يبدأ حكمه حتى ألقى نفسه أمام حدث خطير . ذلك أن ألفونسو السادس ما كاد ينتهي من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها ، وذلك في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م)

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

حتى اعترم العمل لانتزاع سرقسطة ، فصار إليها في قواته ، وضرب حولها الحصار ، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت . وحاول المستعين أن يرده عن عزمه ، وأن يقنعه برفع الحصار ، فعرض عليه أموالاً جلية فرفض ألفونسو ، وأصر على أخذ المدينة^(١) ، وأذاع عماله في سكان الأراضى المجاورة أنه سوف يطبق أحكام القرآن ، ولن يقتضى منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع ، وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمي طليطلة موضع عنايته ورعايته . واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءت الأنباء في أواخر صيف ١٠٨٦م (أوائل ٤٧٩ هـ) بمقدم المرابطين ، وأنهم عبروا إلى الأندلس ، فحاول عندئذ خديعة المستعين ، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم ، وبعث إليه يقول إنه يقبل الحزبية التي عرضها ، فأجاب المستعين ، وكان على علم به ، أنه لن يدفع إليه درهما واحداً^(٢) .

وعندئذ اضطرب ألفونسو أن يرفع الحصار ، وأن يهرع في قواته إلى الجنوب ، بعد أن بعث بصريحه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به في قواتهم . ثم كانت واقعة الزلافة ، وهزيمة ألفونسو الساحقة ، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦) ، فضعف أمر قشتالة والملوك النصارى ، وانصرف المستعين حيناً إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة ودانية طوراً ، ومحاربة ملك أراجون طوراً آخر . بيد أنه لم يظفر من وراء هذه المعارك بطائل ، وكانت الهزيمة نصيبه في معظم الأحيان .

وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية ، منافساً في ذلك لعمه المنذر . وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته في هذا السبيل ، ومغامرات حليفه « السيد » ، وكيف تظاهر في البداية بمعاونته على تحقيق مشروعه ، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره ، وكيف حاول بعد ذلك أن يستعين بمخالفة برنجير كونت برشلونة على محاصرة بلنسية وأخذها ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة ، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو المسيطر على هذا الميدان ، وهو المستأثر بتتبع الحوادث في بلنسية ، وترقب فرص الاستيلاء عليها ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلاً شافياً .

(١) روض القرطاس ص ٩٣ .

R. M. Pidal : ibid; p. 331 (٢)

وماكاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة ، حتى بدا الخطر على مملكة سرقسطة داهماً من ناحيتين : ناحية جيرانها النصارى من الشمال ، وناحية المرابطين من الجنوب . فأما عن الشمال ، فقد بدأ سانشو راميرز ملك أراجون بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة ، وأن يتعهد بأداء الجزية التى أبأها من قبل . ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر خطورة . وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة ، وابتنى لإزائها حصناً ، وكان من الواضح أنه يبغي الاستيلاء على هذه المدينة الهامة . والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لايحقق له ما يطمح إليه من السلامة ، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء دينه قد يغدو أنجح ، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة . ومن ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب ومعه هدية جليلة ، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى ، وإنقاذ وشقة ، وهى جناح سرقسطة الدفاعى ، ودرعها من الشمال . والظاهر أن أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين ، ومنعه بذلك من الارتقاء فى أحضان النصارى ومحالقتهم فى النهاية ضد المرابطين ، وأدرك فى نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجاده لتبقى بذلك حاجزاً بين المرابطين وبين النصارى ، فاستقبل عبد الملك بترحاب ، وصرفه صرفاً جميلاً ، ورد على المستعين بخطاب رقيق ، وبعث إلى ولاته فى شرق الأندلس بإرسال المدد للثغور ، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين . ولم ير المستعين فى نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة ، فأمدّه بفرقة من جنده بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاوز ولايته مملكة سرقسطة .

وفى تلك الأثناء كان سانشو راميرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها الحصار ، مصمماً على ألا يبرحها حتى تسقط فى يده . وكانت وشقة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، فصمدت للحصار بعزم وشدة ، ثم توفى سانشو راميرز فجأة ، وذلك فى شهر يونيه سنة ١٠٩٤ م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ، فاستمر فى متابعة الحصار ولده بيدرو الأول . وتوالى الأشهر ، ووشقة صامدة كالصخرة .

وبعث أهل وشقة في نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود المستعين ، فجهز جيشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل الميرة الضخمة ، وأمدده حليفه ملك قشتالة بفرقة من الجند النصارى ، وسار المستعين في قواته حتى اقترب من وشقة ، وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده ، وآنس وفرتها وحسن استعدادها ، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها ، ولكن بيدرو عول بالعكس على خوض المعركة ، فترك الحصار ، وسار في قواته لملاقاة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، في « الكرازة » الواقعة على مقربة من وشقة ، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ، واشتد فيها الطعان من الجانبين ، وكثر القتل بين المسلمين وحلفائهم ، وهزم المستعين في النهاية هزيمة شديدة ، وقتل من المسلمين عدد جم تقدره الرواية باثنتي عشر ألفاً أو نحوها ، وكان بين القتلى غرسة أوردونس قائد جند قشتالة . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة في يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ في ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة ، الذي تحدده الرواية الإسلامية . وتقول الرواية الإسلامية : إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين ، يئسوا من النصرة ، والإنقاذ ، ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان . وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً ، ودخلها بيدرو في موكب الظافر ، وفي الحال صير مسجدها الجامع كنيسة ، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون^(١)

هذا عن حوادث الشمال ، وأما عن حوادث الجنوب ، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لبيط ، وانتهى بالاستيلاء عليه . ثم عاد فعبّر إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وفي تلك المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، غرناطة ، وإشبيلية ، وألمرية ، ثم

(١) نقلنا أنوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقة من أوراق مخطوطة من البيان المغرب نشرناها في خزانة القرويين بفاس . وراجع في حوادث سقوط وشقة وما تقدمها : أعمال الأعلام ص ١٧٣ ، والحلل الموشية ص ٥٣ - ٥٥ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباح وترجمة محمد عبد الله عنان (ص ١٠٤ و ١٠٥) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع أيضاً : P. y Vives

R. M. Pidal : ibid, p. 526 & 527 و Los Reyes de Taifas p. 49

بطليوس ، واستولت الجنود المرابطة كذلك على مرسية ، وأوريوالة بكل ذلك فيما بين سنتي ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ . وفي أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية ، قد توفي في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وخلفه في الملك ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، تحت وصاية بني بيطر وهي أسرة قوية ذات نفوذ . وفي سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) سار جيش موابطى بقيادة الأمير ابن عائشة ، واستولى على دانية . وشاطبة وشقورة . والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل .

وهنا شعر المستعين بخطر الموابطين الداهم على مملكته ، فأتجه إلى حليفه القديم السيد إلكبيادور ، واستغاث به ، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة بحسب حسابها في شرقي الأندلس ، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر ، أي خطر الموابطين على مركزه في تلك المنطقة . فاستجاب إلى دعوة المستعين ، وعقد بينهما حلف جديد ، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة ، وعسكر على ضفة النهر الأخرى ، وهناك عقد حلفاً آخر مع ملكي أراجون ونافار . وكان الغرض من عقد هذه المحالفات كلها ، التعاون لدفع خطر الموابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة . ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب ، واستمر في مغامراته في منطقة بلنسية ، حتى تم له الاستيلاء عليها في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيو ١٠٩٤ م) ، وأن الجيوش المرابطة لبثت تحين الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامي العظيم ، حتى تم لها تحقيق مشروعها ، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير أبي محمد المزدي في شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) .

وكانت حوادث الشمال قد تطورت في تلك الأثناء ، وظهرت نيات سانشو راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة ، وبدأ حصاره لمدينة وشقة ، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على محالفة السيد وعونه ، ولا سيما بعد استيلائه على بلنسية ، وانشغاله بالمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، فاتجه إلى الموابطين ، وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب يطلب العون من أمير المسلمين ، حسبما فصلنا من قبل . وقد رأينا كيف هزم المستعين وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه .

يقول ابن عذارى ، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة ، سبأ بصر العدو إلى منازل سرقسطة ، حضرة ابن هود ، فخطب الطاغية ، أذفونش بن فردلند

(ألفونسو السادس) فواطه على منازلها ، فترل عليها في جموع لا ترام ، فجعل صاحبها يصعد ويصوب في أعمال الحيلة ، وتجنب تلك الجماعة ، ورأى تخذيل الأذفونش ، فأرغبه في المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها (١) . ولكننا لم نجد في الرواية النصرانية ما يؤيد أن ملك قشتالة قام في هذا التاريخ (سنة ١٠٩٧ م - ٤٩٠ هـ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة : قد أضحي رهناً لخطط المرابطين وغاياتهم ، ولا سيما بعد أن أصبحوا على مقربة من أراضيهم ، ومن ثم فقد رأى في النهاية أن يستدعي مودتهم ، وأن يستمر في التقرب منهم ، والتماس عونهم وحمايتهم . وفي سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين مرة أخرى (٤٩٦ هـ) ، ومعه هدية جليلة من حملها أربعة عشر ربيعاً من آنية الفضة . وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على بولاية عهده . فقبل الهدية ، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية ، فرقت في أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى ، وحضر عبد الملك حفل البيعة ، ثم عاد إلى سرقسطة (٢) .

وشعر المستعين بشيء من الطمأنينة ، واعتزم أن ينحصر جهوده لمقارعة ملك أراجون ومشاريعه العدوانية ، وكان بيدور ملك أراجون قد توفي يومئذ وخلفه في الملك أخوه ألفونسو الذي عرف فيما بعد بالخباب . وهو الذي تسميه الرواية الإسلامية «بابن رذمبر» . وكان أميراً مقداماً شديد البأس . ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة ، سوى مدينة تطيلة ، فسار إليها في قواته ، وخف المستعين لإنجادها . ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد تدعى بلتيرة (قالتيرا) ، فهزم المسلمون ، وقتل المستعين ، وذلك في رجب سنة ٥٠٣ هـ (يناير سنة ١١١٠ م) (٣) .

(١) هذا ما ورد في الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة (دوزي) ص ٢٢٥ ، وللقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال

الأعلام ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباح ص ١٤٠ ؛ وكذلك P. y Vives : Los Reyes

de Taifas p. ٤٩ . ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى

الجهاد في سنة ٥٠١ هـ ، وقوغل حتى تطيلة وأرنيط (أرنيط) وافتتحها ، ثم أدركه النصارى عند

المودة ومهاجموه بشدة ، فهزم وقتل (أعمال الأعلام ص ١٧٤) .

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبإيعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى ، وأن يخرجهم من جيشه ، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق ربتهم ، ولكنه لم ينفذ وعده . وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة ، وحسن الطالع يؤتى المرابطين تباعاً ، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة في موقعة إلباش في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، وهى الموقعة التى أيدت فيها القوات القشتالية ، وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية . ولما رأى أهل سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لا يستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى ، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، وهو فى مراكش ، يناشدونه خلع بنى هود ، وتسلم سرقسطة ، فاستفتى على فقهاءه ، فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة ، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية ، أن يسير إلى سرقسطة . ولما علم عماد الدولة بذلك ، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه ، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة ، وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجراً بينه وبين النصارى ، فرق على الملتصه ، وكتب إلى قائده أن يكف عنه^(١) . ولكن الأمر كان قد قضى عندئذ . ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين ، غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روضة المنيع ، واستقر به ينتظر الحوادث^(٢) . وفى رواية أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة ، تأهب عبد الملك لمقاومته ، واستنصر بألفونسو ملك أراجون ، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج وقتل ، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك ، واستدعوا عامل أمير المسلمين ، فاستولى على سرقسطة وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ^(٣) . وفى روض القرطاس أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة ، ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ ، وأخرج منها بنى هود وملكها^(٤) .

(١) الحلل الموشية ص ٧٢ .

(٢) راجع : Dozy : Histoire, Vol. III. p. 154 .

(٣) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٥ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٤ .

وهكذا انتهى حكم بني هود في سرقسطة ، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل نجيب في سنة ٤٣٠ هـ . وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى في الواقع ، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين ، إذا احتسبنا عهد بني نجيب بها . وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط في أيدي المرابطين . وتاريخها في الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) يرتبط بتاريخ المرابطين .

على أن سقوط سرقسطة ، لم يكن آخر العهد ببني هود . ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين ، استقر بقاعدة روضة الحصينة^(١) ، الواقعة على نهر خالون أحد أفرع إبرة « الإيرو » الجنوبية . وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصنها ، وزودوها بالأبنية الفخمة ، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى ، كلما نزلت بهم نازلة . واستمر عماد الدولة مقبياً بروطة ، وهو يشهد الصراع المضطرب بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة . فلما سقطت في يد النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون (ابن رذمير) واستمر على حاله ، حتى توفي بروطة في شعبان سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . فخلفه في الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، وكذلك بالمستعين بالله ، واستمر في حكمه لروطة ، وما حولها من الحصون والأراضي ، حتى حمله ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وهو الذي تعرفه الرواية الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسلطين ، على التنازل عنها ، وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة ، نزل فيه بأهله وأمواله ، أوبيعض أملاك بجوار طليطلة أقطعه إياها ، وذلك في سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)^(٢) ، وهي حوادث نستوفينا فيما بعد في تاريخ المرابطين في شبه الجزيرة .

(١) هي بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هي رواية ابن الأبار في الحلة السراء ، ص ٢٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء في الوقائع أو التاريخ . ويضع ابن الأثير تاريخ تسليم المستنصر بالله حصن روضة في سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) (ج ١١ ص ١٣) . راجع كذلك :

P. y Vives : *ibid*; p. 50

وقد كانت سرقسطة في عهد بني هود، كما كانت لإشبيلية في عهد بني عباد، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب، وقد نبغ بعضهم في ميدان التفكير، ولاسيما أبو جعفر المقتدر، وولده يوسف المؤتمن، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، في الفلسفة والرياضة والفلك، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد اشتهرت سرقسطة في هذا العصر بنوع خاص، أعني في القرن الحادي عشر الميلادي بالدراسات الفلسفية والرياضية. وكان من أعلام أبنائها في هذا العصر، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذي يعرف في الغرب باسمه اللاتيني Avempace. وقد نشأ ابن باجة في أواخر القرن الحادي عشر بسرقسطة ودرس بها، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط في أيدي الإشبانية ونبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة، هذا فضلاً عن براعته في الشعر والأدب. ولما ولي الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتوني حكم سرقسطة من قبل المرابطين، نذب ابن باجة لوزارته، واختص به، وأغدق عليه عطفه ورعايته، بالرغم مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية. ولما سقطت سرقسطة في أيدي الإشبانية (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية، ثم إلى شاطبة، ثم نرح من الأندلس إلى المغرب، وعاش هناك حتى توفي في سنة ١١٣٨ م. وقد كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل، وترك لنا عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التي تتم عن روعة خياله ورائق نظمه. وهو يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسيين، وقد كان لآرائه ونظرياته تأثير كبير في تفكير الفيلسوف أبي الوليد بن رشد الحفيد^(١).

ونبغ في سرقسطة أيام بني هود في عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف السياسي أبو بكر الطرطوشي، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» الذي يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التي وضعت أسس السياسة الملوكية في التفكير الإسلامي. ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب في مقدمته ويعتبره من الكتب التي سبقته في موضوعه^(٢). وقد وضع للطرطوشي كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ - ٤١٦.

(٢) ابن خلدون في المقدمة (بولاق) ص ٣٣.

في مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحي ، وتأثر في كتابته بتفكير فيلسوف العصر ، العلامة ابن حزم القرطبي ، وتوفي الطرطوشي بالإسكندرية سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) .

وقد أوحى ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ ، إلى الطرطوشي بكثير من نظرياته الاجتماعية ، ومنها نظرية عصبية الدولة ، فإن الطرطوشي يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية ، إنما تقوم « على الجند أهل العطاء المفروض مع الأهله » أي الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر . ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول إنها لا تنطبق على الدول في أولها ، وإنما تنطبق على الدولة في نهاية عهدها ، بعد التهديد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة لأهله ، وأن الطرطوشي قد أدرك الدولة اليهودية عند هرمها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش في ظل المستعين بن هود بسرقسطة ، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة ، وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة (١) . والظاهر أن الطرطوشي قد تأثر تأثراً شديداً بما شهدته من اعتماد بني هود في حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولا سيما أيام السيد إلكيبادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعاونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك في نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين ، حسبما ذكرنا في أخبارهم .

وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية في القرن الحادى عشر الميلادى ، كباقي عواصم الطوائف الأخرى ، مركزاً لحركة أدبية قوية ، وقد نبع بها في ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ ، وابن حسداى ، وأبى عمر بن القلاس ، وغيرهم ، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة ، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم .

(١) راجع سراج الملوك لطرطوشي (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩ و ٢٣١ ، ومقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١ . وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 284 & 285

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً في التبادل الثقافي والحضارى بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة ، والدول الفرنجية الشمالية ، وقد هيا لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه ، أن تضطلع بهذا الدور الحضارى الخطير . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت في ذلك العصر ، مهبط الفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون في بنى هود وفي بلاطها الباذخ ، ساحة رحبة ، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى ، الذى كان ينتشر يومئذ في أرجاء قطلونية وأراجون ونافار ، ومنها كانت تنقل المقطوعات الغنائية الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر في الملاحم والأناشيد القومية . وقد انتقلت هذه المؤثرات ، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى جنوبى فرنسا ، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية .

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة ، في ترويج التبادل التجارى والمنهى بين الشرق والغرب ، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط ، وثرغها الكبيرين طرّكونة ، وطرطوشة ، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية ، وثغور إيطاليا . وكان بنو هود يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية ، وقد كانوا في الواقع من أغنى ملوك عصرهم ، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف ، وأكثرها روعة وبذخاً ، وإن لم تكن لهم شهرة في الجود والبذل ، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل ، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزة النصارى لخدمة سياستهم ، واستطاعوا بدفع الإتاوات الوفيرة للملوك النصارى ، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن ، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلاً بمنجاة من تلك الغزوات المخربة ، التى كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى .

الكتاب الثاني

موقعة الزلاقة والفتح المرابطي

الفصل الأول

نشأة المرابطين

وقيام الدولة المرابطية بالمغرب

أصل المرابطين . قبيلة لمتونة وحياتها في القفر . دخولها في الإسلام . أول ملوكها . افتراق كلمتها .
الأمير ابن تيفالوت اللمتوني . مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالي مكانه . رحيله إلى المشرق . لقاءه بالفقيه
أبي عمران الفاسي . عبد الله بن ياسين . رحيله مع الأمير إلى الصحراء . بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها .
صرامته وانصرافهم عنه . منادرتهم لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة . وفود أعيان صنهاجة إليه . قيام
جماعة المرابطين . أطاع عبد الله الدفينة . تكاثر تلاميذه . يدعوهم إلى الجهاد . دعوته إلى اتباع أحكام
الدين . مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها . سلطانه الروحي على القبائل . يحيى بن إبراهيم الكدالي يتولى
السلطة الزمنية . وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتوني مكانه . ورعه وفتوحه في الصحراء . صلى حركة
المرابطين في المغرب . أحوال المغرب في ذلك العهد . استدعاء فقهاء درعة وبجلماسة للمرابطين . سير
المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها . استيلائهم على سجلماسة . عبد الله بن ياسين يأمر بإزالة المنكرات .
وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبي بكر مكانه . سير المرابطين إلى بلاد السوس . يوسف بن
قاشفين يقود الجيش . افتتاحه لقواعد السوس . الطائفة البجليّة وبمحمّا . سير المرابطين إلى الأطلس .
افتتاحهم لأغمت . استيلائهم على تادلا . قبائل برغواطة ومذهبا الوثني . مطاردتهم ومحاربتهم
على يد بلكين بن زيري والفتي واضح . سير المرابطين لقتالهم . إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته .
قيام أبي بكر اللمتوني مكانه . بدء الدولة المرابطية . متابعة حرب برغواطة . افتتاح مكناسة ولواة .
أنباء الخلاف في الصحراء . أبو بكر يندب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء . تقسيم
القوات المرابطية بين الزعيمين . أبو بكر يصلح شئون الصحراء . يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح
باقي المغرب . نجاحه واشتداد بأسه . اختطاطه لمدينة مراکش حاضرة المغرب . تنظيم يوسف
للجيش . افتتاحه لمدينة فاس . مسيره إلى بلاد غمارة . فقد فاس واستردادها . عود أبي بكر من
للصحراء إلى المغرب . تأثره بظلمة شأن يوسف وضخامة ملكه . لقاء الرجلين . زينب زوجة يوسف
ودورها في ذلك . انصراف أبي بكر إلى الصحراء . يوسف يتم فتح المغرب . افتتاحه لطنجة .
افتتاحه للمغرب الأوسط . قيام الدولة المرابطية الكبرى . يوسف بن تاشفين . نشأته وغلغله . يحكم
أعظم إمبراطورية إسلامية في الغرب . ألقابه وانصواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يوسف وشئون
الأندلس . صريخ ملوك الطوائف إليه . ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية في شأنه . أصل
الفكرة ومبناها . الإعتراض عليها . سقوط طليطلة وأثره في إذكائها . سفارة الأندلس إلى يوسف .
المهود المتبادلة . مطالبة يوسف بشفر الجزيرة . يوسف يلبي نداء الطوائف . سير الجيوش المرابطية
إلى سبتة . جوازها إلى شبه الجزيرة . دعاء يوسف خلال الجواز .

يجدر بنا أن نقف الآن قليلاً لنلقى بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين ، الذين شملت دولتهم الكبرى ، في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، سائر أنحاء المغرب من لوية إلى المحيط غرباً ، وإلى السودان جنوباً ، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف ، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه .

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة ، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة ، أعظم القبائل البربرية ، وهي بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى . وينتمي إلى صنهاجة ، عدا لمتونة ، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة ، ومسرانة ، ومداسة ، وكدالة ، ووتريك ، ولمطة وغيرها . وقد لعب الكثير منها في تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة . وفي بعض الروايات أن صنهاجة ، وهي الأم الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمنية ، وأنها فخذ من ولد عبدشمس ابن وائل بن حابر ، وهي كسائر الروايات الماثلة في أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة ، تقوم على القصص والأسطورة (١) .

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام في قلب الصحراء ، ما بين جنوبي المغرب والسودان ، في تلك المنطقة التي كانت تسمى منذ أيام الرومان إقليم « موريتانيا » . وكانت تؤثر حياة الفقر على أية حياة أخرى « انتبازاً عن العمران ، واستثناساً بالانفراد ، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والتمهر » ، وكانوا يعتمدون في قوتهم على لحم الإبل ولبنها ، ولا يعرفون حرثاً ولا ثماراً ، ولا يأكلون الخبز (٢) . وكان شعارهم « اللثام » ومن ثم فقد عرفوا « بالملثمين » . وقيل في سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك في عداد الرجال (٣) ، وقيل بل كانوا يقلدون في ذلك قبيلة حبر التي يدعون الانتساب إليها .

وذكر لنا أبو عبيد البكري ، في معجمه « المسالك والممالك » ، فيما يتعلق بأمر اللثام الذي يلتزمه المرابطون ، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون ، النقاب ، وهو

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، وروض القرطاس ص ٧٦ .

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي (١١٣٠٦) ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ .

فوق اللثام ، حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل ، ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ، وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم^(١)

وكانت لمتونة ، كسائر القبائل البربرية ، تدين بالمجوسية ، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس ، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك . وفي أيام عبد الرحمن الداخل ، أعنى في أواسط القرن الثاني الهجري ، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجي اللمتوني ، قبسط سلطانه على سائر نواحي الصحراء ، وحارب القبائل الوثنية ، ونشر الإسلام بين كثير منها ، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين ، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها . ولما توفي في سنة ٢٢٢ هـ ، خلفه في الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان^(٢) ، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً ، حتى وفاته في سنة ٢٨٧ هـ ، فخلفه ولده تميم ، واستمر في الحكم إلى أن ثار عليه في سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه . وعندئذ افرقت كلمة الجماعة ، وانقسموا شيعاً ، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفات اللمتوني المعروف بتارسنا ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا على رياسته . وكان أميراً فاضلاً ورعاً ، شغوفاً بالجهاد ، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام ، إذ استشهد في غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية . فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة ، وهي شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد ، واستمر على رياسته لصنهاجة ، وقيادتها في حروبها ضد أعدائها ، حتى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م)^(٣) ، ثم استخلف في الرياسة ولده إبراهيم

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبي عبيد البكري والمنشور بعناية المستشرق البارون دي سلان (الطبعة الثانية) ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه التسمية في روض القرطاس ص ٧٦ . ولكن ابن خلدون يسميه يلتان (ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) هذه رواية ابن أبي زرع (ص ٧٧) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء (ج ١ ص ٩٩) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسة يحيى في سنة ٤٤٠ هـ (ج ٦ ص ١٨٢) .

ابن يحيى ، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه ، ليقضى فريضة الحج .
والظاهر أيضاً أن يحيى الكدالى كانت تحلوه في تلك الرحلة مثل أخرى ، فهو
قد رأى ما كان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله ، فرحل إلى
المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة . ولما عاد من المشرق ، عرج في
طريقه على مدينة القيروان ، وهناك التقى وصحبه بالفقيه أبى عمران القاسى شيخ
المذهب المالكى يومئذ ، وتأثروا بوعظه وعلمه . وشكا إليه يحيى من جهل قومه ،
وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم
الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية
هذه الدعوة ، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى
أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى ، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه في
رباط خاص أنشأه لذلك ، فلما مثل لديه يحيى قرأ خطاب الشيخ أبى عمران على
تلاميذه ، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى ، وكان
من أنبه تلاميذه وأكثرهم علماً ورعاً . وكان قد رحل إلى الأندلس ، وأنفق فيها
بضع سنين يدرس في ظل الطوائف ، فزاد علماً وتجربة . فسار مع يحيى إلى
الصحراء ، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة ، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم^(١) .

- ١ -

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام ،
وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يثت تعاليم الدين بين أولئك
البدو الصحريين ، ويبصرهم بأحكام الإسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن
المنكر . بيد أنه اشتد في مؤاخذتهم ، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام
مثل الزواج بأكثر من أربع ، وكان من الأمور الشائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد
المفرقة ، فأخذوا ينصرفون عنه ، ويعرضون عن تعاليمه ، لما رأوا من صرامته ،
وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق . وعندئذ عول عبد الله ، وتلميذه وصديقه
الوفى يحيى بن إبراهيم ، على انتباز أولئك البدو الجهلة ، والانقطاع إلى العبادة
والزهد ، في أحد المواضع النائية ، وانضم إليه في ذلك سبعة نفر من كدالة

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ ، وابن خلدون
ج ٦ ص ١٩٢ . وراجع الحلال الموشية ص ٩ .

ويحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة . ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة في جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر جهاتها ، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا ، لبعد النيل عن صحراء المغرب الحنوية بمسافات شاسعة ، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن « نهر النيجر » كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم ، يمتد إلى الأقطار السودانية الغربية . ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم ، وهذا الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة في أقواله عن رحلته في مملكة مالي السوداء (١) . وإذا فإن الموضع الذي انقطع فيه عبد الله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان فيما يرجع جزيرة تقع في منحنى نهر « النيجر » ، على مقربة من تنبكتو ، وهذا ما يؤيده وصف صاحب روض القرطاس (٢) .

وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة في هذا الموضع ، وابتنوا به رابطة للصلاة والعبادة ، وما لبث أن اشتهر أمره ، ووفد عليه كثير من أشراف صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة ، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم ، وساهم « بالمرايطين » للزومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة والصلاة والزكاة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويشوقهم إلى الجنة ، ويحذرهم عذاب النار ، ويلهب حماسهم للجهاد في سبيل الله ، ومقاتلة المخالفين لأحكام كتابه . وكان عبد الله بن ياسين ، حسبنا أسلفنا واعظاً موهوباً ، وخطيباً ذليلاً مؤثراً ، وكان هذا الفقيه الورع ، يضطرم في أعماق نفسه بمشاريع وأطاع دفينة أخرى ، غير تلقين أحكام الدين ، وبث الورع والخشوع في نفوس أصحابه . ذلك أنه ما كاد يرى كثرة تلاميذه - فقد بلغوا الألف عندئذ - ويوقن بولائهم ، وانقيادهم لأوامره ، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية ، وبعثهم إلى أقوامهم لينذروهم ، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات ، واتباع أحكام الدين الصحيح ، ففعلوا ما أمروا به ، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ، ومجانبة التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم ، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه ، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم ، وحذرهم عقاب الله ،

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٧٩ .

ونصحهم باتباع أحكامه ، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى ، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين ، وكان صحبه يزدد عددهم كل يوم ، حتى بلغوا بضعة آلاف .

وخرج عبدالله بن ياسين لقتال كدالة ، فغزاهم في نحو ثلاثة آلاف ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً (٤٣٤ هـ - ١٠٤٢ م) . ثم سار لقتال لمتونة ، وضيّق عليهم حتى أذعنوا للطاعة ، وبايعوه على الكتاب والسنة . وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا في الطاعة والبيعة حذو لمتونة . وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى ، حتى خضعوا جميعاً . وكان من تعاليمه أن يضرب النائب مائة سوط حتى يطهر ، ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع . وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحي على سائر قبائل تلك الصحارى ، وجعل السلطة الزمنية ليحيى بن ابراهيم الكدالي ، وإن كان هو المستأثر في الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهي ، وجي عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفيء ، واقتنى الخيل والسلاح ، واشتد بأسه ، واشتهر أمره في سائر جنبات الصحراء ، وفي المغرب والسودان . ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم ، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكابن اللمتوني ليتولى شئون الحرب والجهاد (١) .

وكان يحيى بن عمر اللمتوني أميراً ورعاً زاهداً ، وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين . وما يروى في ذلك أن عبد الله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده ، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم ، وحياة الأمير هي حياة عسكره . وفي موته فناء جيوشه . وقاد الأمير يحيى عدة حملات ، وافتتح جميع جهات الصحراء ، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها . وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها في قواعد المغرب . وكان المغرب يومئذ ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة ، وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك

وامارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ، ولاسيما صنهاجة وزناتة ومغراوة ، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتين وبنيه بعده ، وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ، ومعظم أعمال المغرب الشمالى ، حتى أوائل القرن الخامس ، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطيء فى سلا وما يليها ، واستقر بنو خزرون المغراويون بدرعة ومجلماسة وأعمالها ، وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب . واستقرت برغواطة جنوباً بشاطيء المحيط . وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة ، فرصة طيبة للظامعين والمتوثبين . وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة ، تتطلع إلى أولئك القوم الحدود ، الذين يضطرمون بالحلماسة الدينية وينادون بالإصلاح ، والتزام أحكام القرآن والسنة . فى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء مجلماسة بكتبهم إلى عبد الله ابن ياسين ، وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين ، يشكون مما يقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف ، والخروج على أحكام الدين ، ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرق . وكانت درعة ومجلماسة يومئذ تحت حكم بني وانودين من زعماء مغراوة ، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين ، فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين . فى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتونى ، وقصدوا أولاً إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها ، واستولوا عليها واستولوا فى أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود ، ونهض مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قتل فيها مسعود ، وأيد معظم جنده ، واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم . ثم ساروا إلى مجلماسة ، فاقتحموها ، وقتل من كان بها من جند مغراوة . وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين ، وتطبيق أحكام الدين ، وندب لحكم مجلماسة عاملاً من اللمتونين ، وكانت هذه بداية الفتح المرابطى للمغرب (١) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ . يضع ابن أبى زرع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٤٧ هـ (روض القرطاس ص ٨١) . وراجع السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكري ، ان عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة ، سار جنوبا وغزا في سنة ٤٤٦ هـ ، مدينة أودفست ، وهي من أعمال مملكة غانة السوداء ، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوما . وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب ، فدخلها المرابطون واستباحوها ، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئا^(١) .

وفي سنة ٤٤٧ هـ توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، فعين عبد الله بن ياسين مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر . وكانت الخطوة الثانية في افتتاح المغرب ، هي غزو بلاد السوس ، ففي ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون نحو جنوب غربي المغرب قاصدين بلاد السوس ، وجعل الأمير أبوبكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وهي أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها ، عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها . وكان بتارودنت طائفة من الرافضة تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها ، على بن عبد الله البجلي الرافضي ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعي (أواخر القرن الثالث الهجري) ، ونشر بها مذهبه ، وهو يتضمن كثيرا من التعاليم المثيرة ، فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقي منهم إلى السنة ، ودوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين ، وأمرهم باتباع العدل والسنة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة .

وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس ، وقصدوا إلى بلاد المصامدة ، وتوغلوا في جبال درن ، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس ، وسائر بلاد منطقة جدميوه ، وبايعتهم قبائل تلك الناحية . ثم ساروا إلى مدينة أغمات ، وكانت يومئذ لمغراوة ، وأميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ، ولكنه لما رأى عيب المقاومة ، فر منها في أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ إلى حمية بنى يفرن أمراء تادالا . ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات في سنة ٤٤٩ هـ ، وأقام

(١) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج منه كتاب « المسالك والممالك » والمنشور بعناية البارون دي سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨ .

بها نحو شهرين حتى استراح جنده . ثم قصد إلى بلاد بني يفرن وهاجم قاعدتهم تادلاً واقتحمها ، وقتل من بها من بني يفرن ، وظفر بلقوط المغراوي فقتله ، وكانت زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبيلها ، فترجها الأمير أبوبكر اللمتوني . وبعد أن نظم عبد الله بن ياسين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة .

وكانت هذه القبائل تدّين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط ، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس ، ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها ، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة المطلقة ، فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد ، كان يتلو بعض سوره ، وزعم أنه المهدي الذى يخرج فى آخر الزمان ، وجعل الصلوات خمساً فى النهار وخمساً فى الليل ، والصوم فى شهر رجب ، وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء إلى غير ذلك . وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق عليها برغواطة . وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة . ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الوطن والحوار ، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف^(١) . وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً فى تلك المنطقة ، منطقة تامسنا ، وشاطئ المحيط الممتد من شمالى أزموذج جنوباً حتى آسنى ، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده . واشتهر منهم فى أواخر القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح ، واشتدت شوكتة وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهوره . وحارب ملوك العدوتين المغرب والأندلس ، من الأدارسة وبني أمية والشيعية ، قبائل برغواطة ، وحاربهم بلكين بن زبرى زعيم صنهاجة ، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصارى فى قومه ، فهزم وقتل ، وأمن بلكين فيهم تقيلاً . ثم حاربهم المنصور بن أبى عامر ، وبعث لقتالهم الفتى واضح ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٣ .

فأنخن فيهم . وحاربهم بنو يفرن . وهكذا استمرت قبائل برغواطية ، هدفاً للعداء والنقمة ، حتى كان ظهور المرابطين في أوائل القرن الخامس .

وكان من الطبيعي أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين . ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين ، وقائده أبو بكر اللمتوني في جموع المرابطين إلى أرض برغواطية ، وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير ابن محمد بن معاذ ، المتقدم الذكر . ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي إمام المرابطين ، ومنشئ طائفتهم ، بجراح بالغة توفى منها في نفس اليوم . وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين وحشهم على الثبات في القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة . وكان مصرعه في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ودفن في مكان يعرف بكريفة أو كريفلت على مقربة من تامستا ، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد ، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم . وفي الحال اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبي بكر بن عمر اللمتوني للرياسة مكان إمامهم المتوفى ، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١)

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ، ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه ، وقد ألقى في تلك القبائل الصحيرية الساذجة ، مادة طيبة لبث تعاليمه ، واستطاع أن يذكى في نفوس أولئك المرابطين - أتباعه - تلك الحماسة الدينية البالغة ، التي حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب ، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدي القبائل الحصيمة . بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه ، مشغولاً بالنساء ، يتزوج في كل شهر عدداً منهن ويطلقهن : ويسعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن . وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة ، وهو إجراء يصفه المؤرخ بالشذوذ (٢) .

وقد ذكر لنا أبو عبيد البكري في معجمه « المسالك والممالك » بعض الأحكام الشاذة التي كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

(١) روض القرطاس ص ٨٤ . ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين في سنة ٤٥٠ هـ (ج ٦ ص ٢٠٩) .

(٢) روض القرطاس ص ٨٤ .

تحت إمامته، وفي مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك يطيب باقيها ، وهو مالا تسوغه الشريعة ، من أى مذهب ، ومنها أن الرجل إذا دخل في دعوتهم ، وأبدى توبته على سالف ذنوبه ، قيل له أنك ارتكبت في سالف شبابك ذنوبا كثيرة ، ويجب أن يقام عليك حدودها ، وتطهر من إثمها ، فيضرب حد الزاني مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها . وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه ، وأدخلوه قسراً في رباطهم ، وإن علموا أنه قتل قتلوه ، سواء أتاها تايبا طائعا ، أو غلبوا عليه مجاهراً عاصيا . ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ، وغير ذلك من الأحكام القاسية التي لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقي (١) .

ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين ، وقيام أبي بكر اللمتوني مكانه في الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية . وهو أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياطين . وكان أول ما عني به بعد دفن الإمام ، هو متابعة حرب برغواطة ، فحشد سائر قواته ، وجد في قتالهم ، وأثنى فيهم ، حتى مزق طوائفهم ، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة ، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة . وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم ، وقسمها بين المرابطين ، ثم عاد إلى مدينة أغمات ، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) . ثم غادرها في قوات ضخمة من صنهاجة وجزولة ، والمصامدة ، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة ، وسائر أراضى زناتة ، ثم سار إلى مدينة لواتة ، وكانت بيد بني يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً ، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٤٥٢ هـ ، وعاد بعدئذ إلى أغمات .

ولبث أبو بكر في أغمات بضعة أشهر أخرى ، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، ونبأه باختلاف المرابطين هناك ، ووقوع الخلاف

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المستخرج من كتاب المسالك والممالك ، والمنشور

بين لمتونة ومسوفة ، فخشى أبوبكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة ، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم ، ومطلع سلطانهم ، فقرر أن يعود إلى قومه ، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة . فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجته الحسنة زينب بنت إسحاق النفزاوية ، بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحرية ، فتزوجها يوسف فيما بعد ، وأمره بمتابعة قتال مغراوة وبني يفرن وزناته ، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما يعلمونه عن يوسف « من دينه وفضله وشجاعته وحزمه وشدته وعدله وورعه وسداد رأيه وبمن نقيته » (١) .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب ، وتولى أبوبكر إمرة الآخر . وخرج أبوبكر في جيشه في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٣ هـ (ديسمبر ١٠٦١ م) واخترق بلاد تادلا وسلماسة ، ثم سار جنوباً إلى الصحراء ، وهناك قام بإصلاح شئونها ، والقضاء على أسباب الخلاف بين أقوامها ، وتوحيد كلمتهم : ثم حشد قوات جديدة ، وسار في جيشه الضخم إلى بلاد السودان ، فغزا الكثير من نواحيه ، وتوغل في أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر . وفي تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين ، يؤدي مهمته العظيمة في افتتاح باقي أقطار المغرب ، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش المرابطي ، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل ، إلى أربعة أقسام ، اختار لها أربعة من أقدر قواده ، وهم سير بن أبي بكر اللمتوني ، ومحمد بن تميم الكدالي ، وعمر بن سليمان المسوفي ، ومدرك التلكاني ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف ، وجعلهم في مقدمة قواته ، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المغرب ، وتولى هو قياد بقية الجيش يسير به في إرهم . وأخذت تلك الجيوش المرابطية في محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناته وبني يفرن ، ودوختها وغلبت على سائر أراضها ، وهرعت القبائل بمنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب ، ويمنح البعض الآخر إلى الاستسلام والطاعة . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحي المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات في أواخر سنة ٤٥٤ هـ ، وقد عظم أمره ، واشتد بأسه ، وذاع صيته في سائر أنحاء المغرب .

(١) دوض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

وفكر يوسف عندئذ أن نخط لنفسه محلة ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً
لذخائره ، ووقع اختياره في ذلك على أرض تقع شمال غربي مدينة أغمات ، وكانت
لبعض المصامدة ، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل
في بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان ذلك مولد مدينة مراًكش الشهيرة
(سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م) . وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان ، ومعناه بلغة
المصامدة « إمش مسرعاً » . إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق . واختار
يوسف أن تكون قاعدته في قلب بلاد المصامدة ، إذ كانوا أشد قبائل المغرب
قوة وأكثرهم جمعاً ، وكانوا قوام جيوشه ، ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة
الحديدية تقع في حمى جبل درن من شعب الأطلس . ونزل يوسف في محله
بالحيام أولاً ودون أن تبنى أسوارها ، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد ،
واختط بها الناس وحفرت بها الآبار . على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتوسع
رقعتها . ويقام سورها العظيم ، إلا في عهد علي بن تاشفين ولد يوسف ، وذلك
في سنة ٥٢٦ هـ . وقد كان القسم الذي أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة ،
يشمل القسم الذي يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين ، وهو الذي
يعرف اليوم بالسجينة . وقد غدت مراكش في فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية
وأجلها ، وغدت من ذلك التاريخ ، قاعدة الدول المغربية العظيمة ، ماعدا دولة
بني مرين ، ولعبت في تاريخ المغرب أعظم دور . وما زالت تحتفظ حتى اليوم
بكثير من روعتها وجلالها القديم (١) .

وعمل يوسف في ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه ، فاقتنى من العبيد نحو
ألفين ، وبعث إلى الأندلس واشترى عدداً كبيراً من العلوج أو الأرقاء النصاري ،
وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابه ، اشتهرت فيما بعد
ببلائها في مواقع كثيرة ، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ
على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير (٢) .

وما كاد يوسف ينتهي من إنشاء حاضرتة ، وتنظيم جيشه ، حتى تأهب لفتح
مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة ، وأعظم مدائنه يومئذ . وكانت الجيوش

(١) راجع في إنشاء مراكش : روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ،
والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧ . وراجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة مراكش .
(٢) الحلل الموشية ص ١٣ .

المرابطة ، قد تضخمت في تلك الأثناء ، وعنى يوسف بتنظيمها ، وتجهيزها بالرماء والعدة ، والبنود والطبول ، ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة . وجزولة ، وزناتة . والمصامدة . وفي أواخر سنة ٤٥٤ هـ سار يوسف لافتتاح مدينة فاس ، فتلقتة قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة ومغيلة ومدبونة وغيرها ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انهزمت فيها تلك القبائل ، وامتنعت بصدينة ، فاقترحها يوسف ، وقتل بها عدة آلاف . ثم سار إلى فاس ، ونازل أولا قلعة فازاز وهي من حصونها الأمامية ، ثم زحف على فاس ذاتها ، وبها صاحبها معنصر المغراوي ، وافتتح حصونها تباعاً ، ثم اقتحمها ، وذلك في سنة ٤٥٥ هـ ، واستعمل عليها عاملاً من لمتونة . وسار بعد ذلك إلى بلاد غمارة ، وغلب على كثير من نواحيها ، حتى أشرف على طنجة . وفي خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوي إلى فاس ، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف ، واحتلوها ، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها ، فسار إليها في جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار بشدة ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن ، وذلك في أوائل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) .

- ٣ -

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف ، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم في حياة يوسف ، وفي مصاير دولة المرابطين . وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتوني بعد أن نظم شئون الصحراء ، وقضى في غزواته بضعة أعوام ، نجى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، ومن ضخامة السلطان واستقراره ، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور ، وربما جال بخاطرة أن يعزل يوسف ، وأن يسترد هو سلطانه ، باعتباره أمير المرابطين الشرعى . ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبي بكر من الصحراء إلى المغرب كان في سنة ٤٦٥ هـ ، وإنه نزل بمحله خارج مدينة أغات ، فخرج صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة ، لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب ، وأغدق عليهم الهدايا والصلوات^(١) . وأدرك أبو بكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف من الضخامة والتوطد ، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته ، وأنه لم يبق

له أمل في انتزاع شيء مما في يده . بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبي زرع وابن خلدون أن مقدم أبي بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل . ذلك أن زينب النفزاوية زوجة يوسف ، لعبت دوراً في لقاء الرجلين . وقد توفيت زينب في سنة ٤٦٤ هـ . وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبي بكر بدقة الموقف ، وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجته زينب النفزاوية في الأمر ، وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها ، وأبعدهن نظراً ، وكان مذ زوجها يرجع إليها في عظام الأمور ، ويعتمد على نصحتها ، وذكاؤها ، وحسن سياستها فأشارت عليه بأن يسقبل أبا بكر بالحفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد ، ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبي بكر ، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش . وشعر أبو بكر مما أبداه يوسف ، ومن تعاليه في السلام عليه وهو راكب فرسه ، أنه حريص على سلطانه ، مستعد للدفاع عنه ، وزهد في التنافس والقتال ، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق ، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب ، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في بعض غزواته وذلك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) (١) .

وقضى يوسف أعواماً أخرى في إتمام فتح المغرب ، حتى سيطر على معظم نواحيه ، ودوخ سائر قبائله . وفي سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) نراه وقد أشرف على طنجة ، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت (أوسواجات) البراغوطي وهو في نفس الوقت صاحب سبتة . وكان سكوت من موالى بني حمود ، وقد ولي حكم سبتة في أواخر أيامهم ، ثم استولى على طنجة ، وقوى أمره في ذلك الركن المنعزل من المغرب ، وأطاعته قبائل غمارة ، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً . فلما زحفت الحيوش المرابطية إلى تلك الناحية ، اعتزم سكوت الدفاع عن ملكه ، وكان شيخاً في التسعين من عمره ، ولكنه كان فارساً مقداماً . فالتقى بالمرابطين في وادي منى على مقربة من طنجة ، وقاتل حتى قتل ومزق جيشه ، وسقطت طنجة في أيدي المرابطين ، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦

بسبته . وفي سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط ، واستولى على مدينة وجدة ، ثم استولى على تلمسان ووهران ، واستمر في سيره المظفر حتى تونس فافتتحها ، واستولى بذلك على سائر شواطئ المغرب وثغوره الشمالية ، وقضى على سلطان سائر الأمراء المخليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور يومئذ ، وشمل سلطانه جميع الأقطار المغربية ، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً (١) .

وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد ، وهو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله ابن ياسين ، واستحالت بسرعة على يد أبي بكر اللمتوني ثم يوسف من بعده ، من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم . وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والحندي العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميري الصنهاجي اللمتوني ، فهي بذلك تنسبه إلى حمير ، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى . وقد ولد بالصحراء في سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) . بيد أننا لانعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى ، وتذكره لنا الرواية لأول مرة في سنة ٤٤٨ هـ ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتوني ليكون قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب . وكان يوسف يومئذ في الثامنة والأربعين من عمره . ومن ذلك التاريخ فقط ، تتبع الرواية أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة ، وهي التي فصلناها فيما تقدم . وتنوه الرواية بورع يوسف وزهده ، وبساطته وتواضعه ، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة في الملك والنعيم ، آية في التقشف ، يرتدى الصوف طول حياته ، ولا يرتدى سواه قط ، ولا يأكل سوى الشعير ولحوم الإبل والبانها . وكان بطلاً شجاعاً حازماً ، مهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره ، وأحوال رعيته ، مجاهداً لا يفر عن متابعة الجهاد ، منصوراً مظفراً في معظم الوقائع التي خاضها ، جواداً كريماً ، عادلاً رقيقاً ، ينأى عن إرهاب رعيته بالمغارم المحرمة ، ولا يفرض منها إلا ما يجيزه الشرع ، من الزكاة والأخماس والأعشار ، وجزية أهل الذمة . وأما عن شخصه ،

فقد كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أكحل العينين ، أفتى الأنف ، جعد الشعر ، رقيق الصوت (١) .

وقد حكم يوسف بن تاشفين ، أعظم امبراطورية إسلامية قامت في الغرب الإسلامي ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، ممتدة فيما بين تونس والمحيط ، وما بين البحر وحدود السودان ، قد انتهى بعد ظفـره في موقعة الزلاقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما تفصل بعد ، إلى افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة ، وبذا كانت تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتى سرقسطة في شمال شرقى اسبانيا ، وحتى شتيرين وأشبونة في قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين في بداية أمره يلقب بالأمر ، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين : وأصدر مرسومه ، بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك في سنة ٤٦٦ هـ (٢) . وفي أواخر عهده ، بعد أن ملك الأندلس ، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيراً ومعه هدية جليلة ، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك ، وما أولاه من النصر ، وطلب تقليده الولاية ، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية ، والخلع والتشريف (٣) ومما يؤكد لنا انصواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية ، ذكره في سكتة لاسم الخليفة العباسى (٤) .

- ٤ -

ننتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف ، وهى مرحلة تدخله في حوادث شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مرحلة تتخذ في البداية طابع الجهاد في سبيل الله ، ثم تنقلب بعد ذلك ، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطى .

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨ ، والخلل الموشية ص ١٢ .

(٢) الخلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وقد أورد لنا نص هذا المرسوم .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

وقد سبق أن ذكرنا في أخبار مملكتي إشبيلية وبطليوس ، ما انتهى إليه
راء الطوائف . عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة
ومملكة بني ذى النون في سنة ٤٧٨ هـ . وتهديده لهم جميعاً بالويل والقضاء ، من
وجوب الاستنصار بإخوانهم في عدوة المغرب ، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى
يوسف بن تاشفين . لينهض إلى نجدهم وإغااثهم . وقد اختلفت الرواية في
تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه . والقول المشهور في ذلك ، هو أن
سقوط طليطلة ، كان هو العامل الجوهرى ، الذى حمل ملوك الطوائف ، على
أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين . بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا
الانجاء يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة . فقد سقطت طليطلة
في يد ملك قشتالة في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكننا نجد صريخ
الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ ، فقد وفد في ذلك العام
على يوسف جماعة من أهل الأندلس . وشكوا إليه ما حل بهم من عدوان النصارى
وطلبوا إليه النجدة والعون . فوعدهم بتحقيق أمنيته^(١) . ثم توالى صريخهم
بعد ذلك . ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى
في رسالته التى بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية ،
فيقول : « ولما بلغنا من استحواز النصارى ، - دمرهم الله - على بلاد
الأندلس ومعاقلها ، والتزام الحزبة لرؤسائها ، واستيصال أقالمها ، وإيطابهم
البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويقلل حدهم ،
وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخطبنا
عن الحواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى
وقت الأقدار »^(٢) . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية ، ويوردها بصورة أخرى ،
فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف ، ملتمساً لإنجاز
وعده في إنجاد الإسلام في الأندلس ، وكتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة ،
فاهتز أمير المسلمين للجهاد ، وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فتازلها
براً ، وطافت بها سفن ابن عباد بحراً ، ثم اقتحموها عنوة في ربيع الآخر

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة ، وقد نشرناها في باب الوثائق في نهاية الكتاب .

سنة ٤٧٦ هـ ، وأسر صاحبها يحيى بن سكوت ثم قتل . وجاز ابن عباد بعد ذلك ، وقصد إلى أمير المسلمين ، ولقيه بفاس مستنقراً له في الجهاد ، ونزل له عن ثغر الجزيرة ليكون رباطاً للجهاد^(١) . ويقول لنا ابن أبي زرع ، إن أمير المسلمين لما عاد إلى مراكش في سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس ، ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد ، يعلمه بحال الأندلس ، وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على معظم ثغورها ، ويسأله الإنجاد والعون ، فأجابه يوسف بأنه إذا فتح الله عليه سبته فإنه سوف يتصل بهم ، ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التي قام بها ألفونسو في نفس العام ، في أراضي لإشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى وصل إلى طريف ، وخاض الماء بفرسه قائلاً ، هذا آخر الأندلس قد وطأته ، وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبرائها على الاستنصار بيوسف وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث ، وأنهم سوف يكونون معه بدءاً واحدة في جهاد العدو . فلما توالى كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح سبته ، فحاصرها وافتتحها في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ ، فسر بذلك أمير المسلمين ، وسار في الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس^(٢) . وفي أقوال ابن أبي زرع شيء من الغموض والتناقض في التواريخ . ولكنه مع ذلك يؤيد الواقعة الجوهريّة ، وهي أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين ، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام ، وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملاً جديداً في تقوية هذا الاتجاه وإذكائه .

ولأنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس ، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو في إرهابه بطلب الجزية ، وأرسل إليه ابن شاليب اليهودي في اقتضاها ، وذلك في سنة ٤٧٥ هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش ابن عباد برسل ألفونسو ، وخروج ملك قشتالة في قواته للانتقام من ابن عباد ، واجتياحه لمملكته ، وتخريبه لمدينتها ومروجها ، من لإشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف ، وذلك حسباً فصلناه في موضعه من أخبار مملكة لإشبيلية . والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ ، وإن يكن متأخراً ، فداحة الخطأ الذي

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد وهم ابن خلدون في واقعة عبور المعتمد إلى المغرب وزيارته لأمر المسلمين . والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة .
(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ .

ارتكبه ، بخضوعه لملك قشتالة ومخالفته ، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر ، واعتزم عندئذ أمره في استدعاء المرابطين . وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم ، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطيرهم تلك الفكرة ، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطر ، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة ، وتخريبه لأراضيهم ، وجشعه في استصفاء أموالهم باسم الجزية ، بيد أن ابن عباد ، وقد كان كبير ملوك الطوائف ، وكان يواجه في نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة من عدوان ملك قشتالة ، كان حرياً بأن يتقدمهم في اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها . على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة ، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته ، وقد أجابهم ابن عباد بكلمته المأثورة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله ، من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصراني (١) .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين ، فكان نذيراً لاشك في خطورته . وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين ، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملاً يداعبهم ، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة ، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت ، ومن ثم فإن الصريح الذي كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة ، يتخذ عندئذ صورته الرسمية ، وتشاطر الأندلس كلها ، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه ، ويبعث ابن عباد وزميله المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين ، على يد أبي بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة ، وأبي إسحق بن مرقانا قاضي بطليوس ، وأبي جعفر القليعي قاضي غرناطة ، وأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد (٢) . وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب وقصدوا إلى أمير المسلمين في مراكش ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

(١) راجع الروض المطار ص ٨٥ .

(٢) راجع الحلة السيرة ج ٢ ص ٩٩ ، والروض المطار ص ٨٦ ، ونفح الطيب ج ٢

ذلك على يوسف مستعطفة باكية ، ترجوه الغوث والإنجاد ، فيستمع إلى قولهم ، ويعدهم خيراً . والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكي تلتمس العون ، دون قيد ولا شرط . وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة ، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف في محاربة النصارى ، وأن يؤمن أمراء الطوائف في ممالكهم ، وألا تحرض رعييتهم على شيء من الفساد . ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملاً بنصح وزيره الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد ، لكي يكون قاعدة آمنة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلاصها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين^(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة ، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده ، وينذره بسوء المصير . وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الألفس في هذا المعنى ، وإلى مار د به كل من الأميرين المسلمين ، على الملك النصراني ، وذلك في أخبار مملكتي إشبيلية وبطليوس .



وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره : بعد استشارة قومه وفقهائه ، وقرر أن يلجى صريح أهل لأندلس ، وأن يبادر إلى غوثهم ، ولم يك ثمة شك في أن يوسف وقومه المرابطين ، كانت تحذوهم نزع الجهاد في سبيل الله ، بيد أن أولئك الحند الصحراويين الذين نشأوا في غمار القفر والبدواة ، كانت تحذوهم في نفس الوقت رغبة في رؤية الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والنعاء ، وأن يبلوا حرب النصارى^(٢) . ومن الصعب علينا في هذا الوطن ، أن نستشف نيات يوسف التي كشف عنها فيما بعد ، في افتتاح الأندلس وامتلاكها ، بيد أن ترجح أنه لم يكن يجيش بمثل هذه النية في البداية ، وأنها خطرت له فيما بعد ، بعد أن درس أحوال الأندلس ، وأحوال أمرائها . واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد ،

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والحلل الموشية

ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة ، فصار إليها ، والجيوش تتلاحق في أثره من الصحراء ، وبلاد الزاب ، ومختلف نواحي المغرب ، وأصلح مرافقها وحشد السفن لعبور قواته ، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء ، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفي ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيو ١٠٨٦ م) عبر البطل الشيخ في بقية قواته . وماكادت السفن العابرة تتمخرع باب المضيق ، حتى اضطرب البحر وتعالّت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطي حسباً يحدّثنا بنفسه وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزّه » . ثم يقول لنا ، إنه ماكاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، في ربح طيبة وبحر هادئ ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة في سلام (١)

(١) روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه في خطابه بالفتح إلى المعز بن باديس . (ويراجع الخطاب المذكور في باب الوثائق في نهاية الكتاب) .

الفصل الثاني

موقعة الزلاقة

مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية . المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن . لقاء الملكين . زيارة يوسف لإشبيلية . كتيبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة في الجهاد . مقدم أميرى غرناطة ومالقة ومعر اللولة بن صمادح في قواتهم . مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس . مسيرها إلى سهل الزلاقة . ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين . استعانته بسائر ملوك النصرارى . مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين . مواقع الفريقين . عدد قوات المسلمين والنصارى . الجيش الإسلامى وأقسامه . كتاب يوسف إلى ألفونسو . رد ألفونسو ورد يوسف عليه . بداية المعركة . عنف هجوم النصرارى . ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية . مهاجمة ألفونسو للمرابطين . اندفاع المرابطين لإنجاد اخوانهم . تغير وجه المعركة . مهاجمة النصرارى لمعسكر المرابطين . تطويق قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى . المعركة الهائلة . تمزق صفوف القشتاليين . اشتداد هجوم المرابطين من الناحيتين . كثرة القتل بين النصرارى . نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة . جرح ألفونسو وفراره . تقدير خسائر الفريقين . مسير ألفونسو في قلوه إلى طليطلة . مبالغة الرواية الإسلامية في تقدير خسائر النصرارى . ذبوع أنباء النصر في الأندلس والمغرب . رسالة يوسف عن الفتح . لقب أمير المسلمين وهل اتخذ يوسف عقب الزلاقة . إحجام يوسف عن مطاردة النصرارى وبواعثه . عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها . اثناء على المعتمد بن عباد وثباته . تنويه أمير المسلمين ببطلوته . يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده . إسرعه بالعود إلى المغرب . ما يقال في بواعث هذه الحركة . نصر الزلاقة وطابعه . المعنى الصليبي الذى ينطوى عليه لقاء المسلمين والنصارى . دعوة ألفونسو عقب هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية . شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصيغتها الصليبية . ما قيل حولها من الأساطير . أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة . انتعاش قوى الأندلس . تحرر ملوك الطوائف من تير قشتالة . ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس . الإسلام يغتم في اسبانيا حياة جديدة .

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، في يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) ، وجيوشه الحرارة تحيط بها من كل صوب . وماكاد يبطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ في تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار في قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى ، على طول الطريق إلى

إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيماً سر به يوسف . ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه في وجوه أصحابه وفرسانه ، وتعانق الملكان ، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه ، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف ، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم ، وقرت عينه بما رآه من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفي اليوم التالي سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وكان يوسف قد كتب في أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة في الجهاد في سبيل الله ، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية بضعفه وكبر سنه ، وتوجسه من عدوان النصارى في حصن لبيب (أليدو) ، وبعث ابنه معز الدولة في فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين في جيوشه الحرارة ، ومعه ابن عباد في قوات إشبيلية ، وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس ، فلقبهم أميرها عمر المتوكل على مقربة منها ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة ، وأنفق أمير المسلمين أياماً في بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمداغة النصارى (١) ، ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة . وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة في سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو قورية ، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة (٢) .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، وذلك في أواخر يولييه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م (جمادى الأولى سنة ٤٧٩) ، فترك الحصار على عجل ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٣ و ٣٤ ، والروض المطار ص ٨٧ - ٩٠ ، وسهل الزلاقة

يعرف بالإسبانية Sagrinas ، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو ، أحد أفرع وادي يانة .

وتنفس منحنى المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو راميرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يومئذ قائماً بمحاصر طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار) ، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبي فرنسا وإيطاليا . واعتزم ألفونسو أن يلقي الأعداء في أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوق قواته في العدد والعدة ، والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامي (١) .

واستقرت الجيوش النصرانية ، في مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامي ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادي يانة الممتد شمالاً في اتجاه نهر « التاجه » والذي يسمى اليوم « جريرو » . وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبار هانيس ، وكانت تتألف في معظمها من جنود أراجون ، والمتطوعة . وقد اختلفت الرواية في تقدير قوات المسلمين والنصارى . وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً . وأما الجيش الإسلامي ، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً ، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين في العدد (٢) . وكان الجيش الإسلامي ، ينقسم حسباً قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ، ويشغل أهل شرقي الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية ، فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطي المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية . ولبت الجيشان الحصيان ، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ،

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 331 & 332

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفع الطيب ج ٢

ص ٥٢٨ ، والمعجب للمراكشي ص ٧١ .

مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة ، عملاً بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام ، أو الجزية أو الحرب (١) ، ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسرى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه مهموراً بتلك العبارة ، « الذي يكون ستره » (٢) .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين في تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد ، يوم الخميس ، يقول له إن غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده السبت يوم اليهود ، وهم كثير في محلنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد في الليل تنبئ أن معسكر النصاري في حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين (٣) .

وقد حدث في الواقع ما نوقعه المسلمون ، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالي ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) (٤) ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المطار ص ٩٢ . وهذا ما يقرره يوسف نفسه في

خطابه عن الموقعة إلى المغرب (راجع روض القرطاس ص ٩٧) .

(٤) تختلف الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ المعركة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البيهقي)

إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج ٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن الأثير معه في السنة ،

ولكنه يقول إنها كانت في أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) . ويقول المراكشي إنها كانت في

رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) . ولكن ورد في روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفي الحلل الموشية

(ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وهذا هو التاريخ الصحيح ،

وهو الذي يذكره يوسف بن قاشفين في خطابه بالفتح إلى علوة المغرب ، حيث يقول في ختامه

« وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وربعمائة =

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال ، واشتبك الحيشان في معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التي يقودها ألبارهاونيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتي يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت في وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، فقاتلوا النصارى بشدة ، وأنحن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل في جند الأندلس ، وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنقاذهم أحد . وفي الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين ، التي يقودها داود بن عائشة ، وردّها أيضاً عن مواقعها . ففي تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التي يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبي بكر اللمتوني لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم . واضطربت المعركة في هذا الجناح رائعة ، ترجع بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو ، في ذلك الوقت قد تقدم في هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذي يحميها . ولكن حدث في نفس الوقت ، أن لحأ يوسف إلى خطة مبتكرة ، إذ تقدم في قواته الاحتياطية من لمثونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى المهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصراني ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين ، وأنحن فيهم من وراء ، وطبولة تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء ، ثم أضرم النار في محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها في الهواء ، فلما علم ألفونسو ما حل بمعسكره ، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة ، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصراني أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالک استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمي (روض القرطاس ص ٩٨) . وهذا التاريخ نفسه أعني ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ ، هو الذي تضمه الرواية النصرانية للموقعة . والظاهر أن أصحاب التواريخ المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح .

الثبات ، ويرغبهم في الاستشهاد ، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان . وينوه الأستاذ بيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها في اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الحيوش الإسبانية ، مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض ، ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال في صفوف متراسة متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم في القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألقوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم في السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراسة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها^(١) .

واشتد هجوم المرابطين في نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبارهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين في صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعركة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، إذا استمروا في موقفهم ، وعندئذ بادر ألفونسو في فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع ، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل ، فسار وصحبه تحت جناح الظلام ، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعائة أو خمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ في كل ناحية شر تمزيق ، وتعال أكوام الأشلاء والجرحى ، وطرود الفارون في كل مكان ، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة ، ولم يتخذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

وأمضى المسلمون الليل في ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى ، وفي صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم في مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة . ويشير يوسف في رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس ، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ، وراجع أيضاً :

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد .

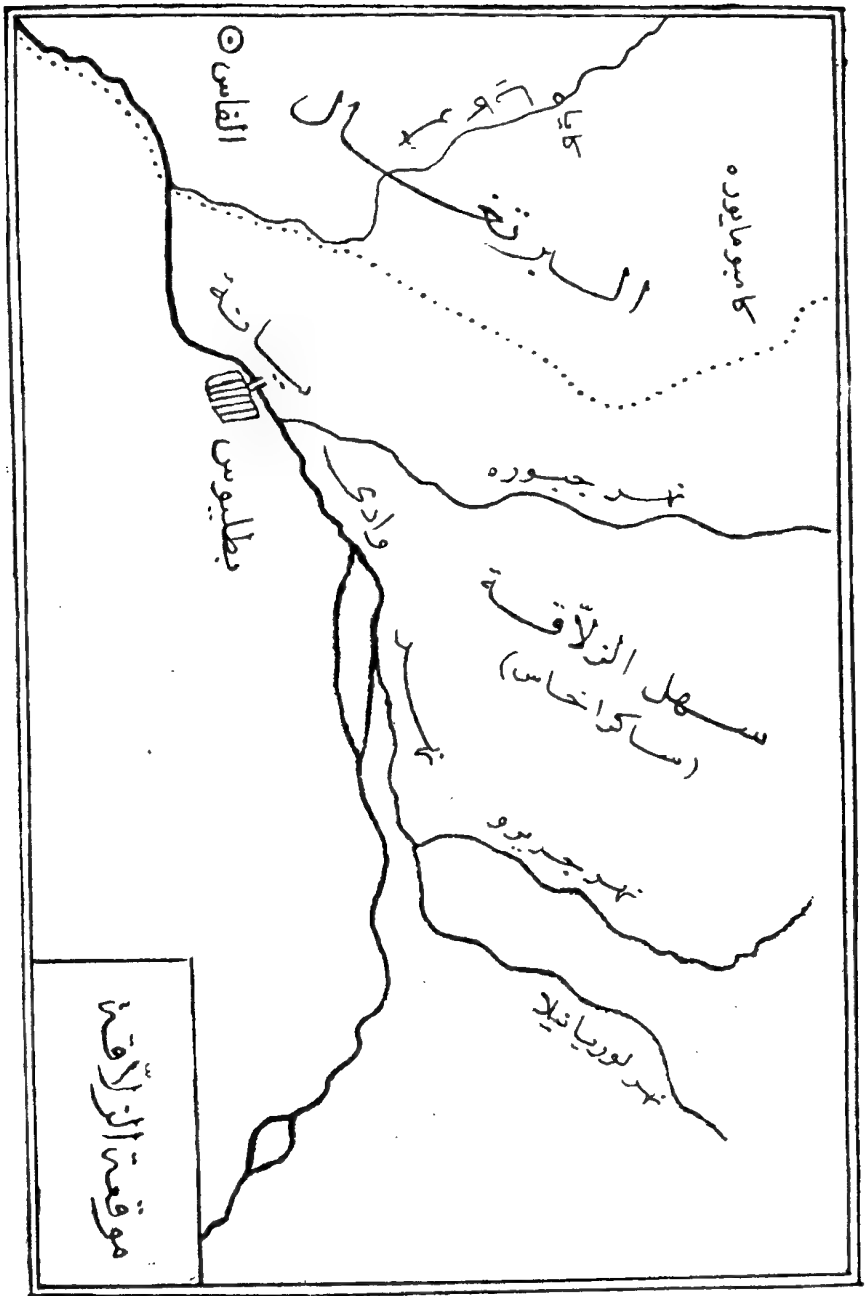
وتقول الرواية الإسلامية ، إنه لم ينج من الجيش النصراني سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مشخين بالجراح ، فأت معظمهم في الطريق . ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة (١) . وهذا هو نفس ما يقرره يوسف في خطاب الفتح الرسمي الذي بعث به إلى المغرب حيث يقول : « وتسلى ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينال ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعائة فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس » (٢) . بيد أنه في رسالته التي بعث بها إلى المعز بن باديس ، والتي يصف لنا فيها معركة الزلاقة تفصيلاً ولا سيما الدور الذي قام به مع جنده ، يقول لنا ، إنه علم أن الذي انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفي رجل ، قد أثنى معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا في المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف (٣) ، ويقول لنا يوسف في رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين ، هذا في حين أن النصراني قد هلك معظمهم : وتذهب في تقدير خسائر النصراني إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف (٤) : بيد أن هناك أقوالاً أكثر اعتدالاً ، فيروى مثلاً أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصراني فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدي المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التي وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى ، لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتي ألف راجل ، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش في مائة فارس ، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هي التي وردت

(١) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٤٣ .



في خطاب الفتح الرسمي الذي بعث به يوسف إلى المغرب^(١) . وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى ، ولبس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف في مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه في معركة ، يطبعها من الشدة والتفاني والحجاسة الدينية ، ما طبعت به موقعة الزلاقة . لا بد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين ، الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر في الحال في سائر جنبات الأندلس ، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية . واستبشر المسلمون في شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدو ، وكتب رسالته المسببة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وهي التي أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر في سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف اتخذ لقبه «أمير المسلمين» عقب نصر الزلاقة^(٢) وأن أمراء الأندلس ، حينئذ هتأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب ، ولكننا رأينا فيما تقدم ، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، والزحف إلى أراضي قشتالة ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ، وهي كانت معقد المحنة التي دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين . ولو بذل المرابطون هذه المحاولة ، في الوقت الذي حطم فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها ، لكللت بالنجاح بلا ريب .

وقد قيل لنا في ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله ، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى في الموقعة ، في ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ .
(٢) روض القرطاس ص ٩٦ .

الفارين من المسلمين أولاً ، حتى لا يهلكهم النصارى . ونسبت في ذلك إلى كلا الرجلين نيات مريبة^(١) .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى ، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده . ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس ، وموقف كل منهم خلال المعركة ، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد ابن عباد بتقديرها وثنائها . فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى في بداية المعركة : قوات بطليوس وغرناطة وألمرية ، وارتدت منهزمة صوب بطليوس ، ولم تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوابع النصر . ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين حسبما أسلفنا ، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء ، وأثنى جراحاً ولم يغادر ميدان المعركة ، حتى تداركته النجدات المرابطة^(٢) . وينوه أمير المسلمين بنبات المعتمد وبطولته في ذلك اليوم في خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول : « ولم يثبت فيهم (أى رؤساء الأندلس) غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيب الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهناؤه بالفتح الخليل والصنع الحميل^(٣) » . وينوه بذلك أيضاً في رسالته إلى المعز بن باديس ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال ، ويشئى عليه الثناء الجم . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين في نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده وولى العهد الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه في مراکش وتركه مريضاً بسبته ، فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس أنه لولا ذلك المصائب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة^(٤) . بيد أنه قيل في ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان يرجع بالأخص إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس ، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم^(٥) . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين في قواته إلى إشبيلية فاستراح بظاهاها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب ، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

(١) راجع الروض المطار ص ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٥ ، والخلل الموشية ص ٤٢ ، والروض المطار ص ٩٢ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٧ .

(٤) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧ .

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله : « إنه كان من حسن الطالع بالنسبة للتصارى أن يوسف الظافر في الزلافة ، قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبي بكر سير ، واضطر أن يعود إلى مراکش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المهزم ، واجتناء الثمرة التي يمكن أن تجني من مثل هذا النصر العظيم ، وهي الاستيلاء على طليطلة . وهي فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت في ذهنه بصورة عملية ، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولاموت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة . وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة . وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقة ، مع نفر قليل من صحبه ، فإن قواته لم تتضعضع ، كما يتصور ، بدليل أنه لم يمحس سوى قليل ، حتى غدا في ظروف تسمح له بالهجوم ، ولكن الحظ كان ضده دائماً (١) .



وقد كان يوم الزلافة من أيام الإسلام المشهودة في انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية في سهول الزلافة ، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التي كانت اسبانيا أول مهاده لها . والتي اضطرت بعد ذلك بقليل في المشرق ، في الوقت الذي كانت تضطرم فيه في اسبانيا . فوقعة الزلافة تعني في الواقع أكثر من هزيمة للملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التي اجتاحت بوادي المغرب ومدنه في فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لتصرة الدول الإسلامية باديء ذي بدء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك ، كانت عنيفة رائعة ، توجست النصرانية منها ، واستشفت في اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذي كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى في عهد الناصر لدين الله ، والثانية في عهد الحاجب المنصور ، وفي كلتا المراتين ، ردت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا .

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبي ، الذى ينطوى عليه لقاء الزلافة . فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى إفريقيا والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألقت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، إذ كانت عمته الملكة كونستانس ، بمشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك الكونت دى سان چيل أمير تولوشة . وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب ، بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم (١) .

واقصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى ، حيث كان بنو هود أمراء سرقسطة ، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان ، ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وكانت طوائف المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية ، لتشارك فيها .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلافة ، وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر ، من المغرب إلى الأندلس ، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم (٢) . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين ، توالى عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلاً ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن قصباً مسلماً من أهل طليطلة ، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمة الساحقة ،

R. M. Pidal : *ibid.*, p. 310 (١)

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ .

مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً^(١). ومنه مبالغات الرواية الإسلامية في فداحة خسائر النصارى ، ومبالغتها في نفس الوقت في قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الواقعة الشهيرة ، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلافة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة في الانتعاش والهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسي روح الحماسة الدينية ، التي كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وتراهمهم على أعتاب الملوك النصارى ، وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الحزى الذى لحقهم عصرهم بالخضوع للملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كانت يقتضيها منهم برسم الحزينة . بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، التى ترتبت على هذا النصر الباهر . ففي سهول الزلافة ارتد سيل النصرانية الخارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذر بها بالحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجعلت الأندلس ، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة ، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

(١) اللحل الموشية ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة الزلافة : روض القرطاس ص ٩٣ - ٩٨ ، واللحل الموشية ص ٣٣ - ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ - ٧٣ . والروض المطار ص ٧٦ - ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ - ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ - ٥٣ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire, V. III. p. 129-130 ، وكذلك R. M. Pidal. ibid., p. 331-340

الفصل الثالث

الفتح المرابطي

القسم الأول

صريح أهل شرق الأندلس إلى يوسف . النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان . مسير
المتعمد إلى مرسية وفشله في استردادها . عبور ابن عباد إلى العدو واستنصاره بيوسف . عبور يوسف
إلى الأندلس للمرة الثانية . كتيبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرق الأندلس . محاصرة القوات المرابطة
والأندلسية لحصن لييط . صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه . الخلاف بين أمراء الطوائف
وشكاويهم المتبادلة . القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد . غضب جند مرسية وأثره في المعسكر
المحاصر . مقدم ملك قشتالة لإنجاح الحصن . إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب . مقدم
يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة . مشروعه في الاستيلاء على الأندلس . بواعث هذا المشروع .
موقف ملوك الطوائف . مخالفة بعضهم لملك قشتالة . فتاوى الفقهاء في شأنهم . طمع المرابطين في
خصب الأندلس . العامل الدفاعي وأثره . مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها . مسيره إلى غرناطة .
عبد الله بن بلقين ومخالفته السرية مع ملك قشتالة . محاصرة المرابطين لغرناطة . سوء الأحوال داخل
المدينة . خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين . دخول المرابطين غرناطة . استيلائهم على مالقة .
انقبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالهما إلى العدو . مقدم ابن عباد وابن الأقطس وجفاء يوسف
نحوهما . الوحشة بينهما وبين يوسف . تآهب الجيوش المرابطة لافتتاح قواعد الأندلس . خطة
يوسف لافتتاح إشبيلية . فتاوى الفقهاء ضد المتعمد . المتعمد وملك قشتالة . أهباته الدفاعية . استيلاء
سير ابن أبي بكر على طريف . زحف الجيوش المرابطة على رندة وجيان وقرطبة . سقوط جيان .
مهاجمة قرطبة واقتحامها . مقتل حاكمها الفتح بن عباد . قصة زائدة الأندلسية . الأسطورة النصرانية
حولها . الزعم بكونها ابنة المتعمد وزواجها من ألفونسو السادس . التفسير الحقيقي للأسطورة .
حقيقة شخصية زائدة . نصوص تاريخية قاطمة .

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاقة في
شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، حسبما أسلفنا ، ولبت في حضرته مراکش حتى أوائل
العام التالى ، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات ، ويتفقد أحوال البلاد ، وكانت
شئون الأندلس خلال ذلك مازالت تلاحقه ، وكان أهل الأندلس ، قد أيقنوا
عقب موقعة الزلاقة ، أنه لاسبيل لنجاتهم ، وخلصهم من إرهاب النصارى ،
سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين ، ومن ثم فقد عادت كتب

أهل الأندلس ووفودهم ترى على يوسف ، وتستجير به من عدوان النصارى . وكان الصريح هذه المرة أتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، وكانت شئون شرق الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب ، من جراء تدخل القشتاليين فى شئون بلنسية ، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعهم القادر بن ذى النون ، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور فى تلك المنطقة . بيد أنه كان ثمة مصدر آخر للعدوان المباشر فى منطقة مرسية ولورقة وبسطة ، هو حصن أليدو Aledo (وتسميه الرواية العربية حصن لبيط) ، وكان ألفونسو السادس قد بعث فى ربيع سنة ١٠٨٥ م ، على أثر استيلائه على طليطلة ، قواته بقيادة غرسيه خمينس إلى الأندلس الشرقية ، لتغير عليها ، وتعيث فى أراضيها ، فاجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة . ثم عمد القشتاليون ، لكى يبسطوا قبضتهم على تلك المنطقة ، إلى إنشاء حصن ضخم ، وافر المناعة ، فى مكان يسمى أليدو (لبيط) يقع بين مرسية ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسية وألمرية ، وبثوا فيها الرعب والروع ، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم ، حتى ضج أهل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى ، وكثر صرختهم واستغاثاتهم ، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فى طلب الإنجاد والغوث (١) .

وكان المعتمد بن عباد ، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين . وكان ألفونسو عقب هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لبيط وضاعفها ، وأوعز إلى قائده غرسيه خمينس بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضى لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد ، لكونه قد خرج عليه ، وعمل على استدعاء المرابطين (٢) ، وبلغت حامية هذا الحصن الضخم يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس ، وكان يشاطر المعتمد هذا الاهتمام ، المعتمد بن صمادح صاحب ألمرية ، لما كان ينزل بأراضيه من عيث نصارى أليدو (لبيط) ، وكان المعتمد يتوق فى نفس الوقت إلى استرداد سلطانه الحقيقى فى مرسية ، وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى ، فحشد حملة من جنده ، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف ، وسار أولاً إلى لورقة ، فامتنت

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid., p.319

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ ، وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 361

عليه ، فغادرها إلى مرسية : وضرب حولها الحصار : ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين ، وأن يقنعهم بأن يتركوه في سلام : وهكذا فشلت الحملة وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح (١) .

فاعتزم المعتمد أمره في استدعاء يوسف : للمعاونة في قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته ، فلقى أمير المسلمين بوادى سبو ، وأفضى إليه بملتمسه ، وشرح له ما يلقاه المسلمون في منطقة مرسية ولورقة وغيرهما ، من عسف النصارى وغاراتهم ، وشنيع عيبتهم ، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه ، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب ، من فقهاء الأندلس وأعيانها ، يلحفون في رجاء الإنجاد والغوث . لقمع بغى القشتاليين ، والاستيلاء على أليدو مركز بغيتهم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعده يوسف وتأكيده ، وأخذ في إعداد السلاح وآلات الحصار (٢) .

— ١ —

وأوفى يوسف بوعده ، وعبر البحر إلى الأندلس في قواته في شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨) . فلتقاه ابن عباد في الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفيرة ، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد ، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لبيط . وكان يوسف يبغي بعد الاستيلاء على حصن أليدو ، أن يعمل للقضاء على سلطان « السيد » في منطقة بلنسية ، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقي الأندلس ، ومعه المعتمد في قواته ، وانضم إليه في الطريق تميم بن بلقين صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، كل في قواته . ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو ، وافاه هناك ابن رشيق صاحب مرسية في قواته ، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها . وضرب المسلمون الحصار حول الحصن ، وكان فضلاً عن حاميته الضخمة ، التي تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه المنطقة الذين التجأوا إليه . وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن ،

(١) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 134

(٢) روض القرباس ص ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٤٨ .

وضربوه بشدة ، ولكن الحصن كان في منتهى المناعة ، فلم تنجح الآلات الضخمة في هدمه أو ثلم أسواره ، ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنهى العنف والشدة ، وامتنعوا داخل حصنهم . وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وشعر أمير المؤمنين من جراء ذلك بخيبة أمل مرة ، بيد أنه شعر كذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس المشاركين في الحصار ، فقد كان الخلاف والوقية على أشدهما بين أولئك الأمراء الطامعين المتنازعين ، فكان تميم صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، يشكو كل منهما الآخر ، ويتهمة باغتصاب حقوقه في الميراث والسيادة ، وكان ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما في حق صاحبه لدى أمير المسلمين ، ويتهمة بمختلف التهم . وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمر المسلمين ، واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية ، واتهمه بما هو شر من ذلك ، وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً ، وقد دفع إليه جباية مرسية ، وأنه يعاون حامية الحصن في الخفاء ، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم ، ومال إلى تصديقها ، واستفتى الفقهاء في أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدائته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله ، غادروا المعسكر في جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التي كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، ولحق به الضيق والغلاء ، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير في قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، فأثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين في معركة غير مجدية . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد بداخله من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل ، ولما رأى أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه ، وعاد أدراجه ، وذلك في سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) . واحتل ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره النصارى .

ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى ، فاتجه نحو لورقة ،

بعد أن ترك جيشاً مرابطاً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل في منطقة مرسية وبلنسية ، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده ، وسار يوسف إلى المرية فالجزيرة ، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس (١) .

— ٢ —

ولم يمض عام آخر ، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته ، للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة ، وكان ذلك في أوائل سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولم يكن جوازه في تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد ، من أمراء الأندلس ، كما حدث في المرتين السابقتين ، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة ، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة ، هو الاستيلاء على الأندلس .

وقد اختلفت الروايات في تصوير البواعث ، التي حمت يوسف على اتخاذ هذا القرار . بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات ، أن يوسف قد تأثر منذ البداية بما شاهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف ، وضعف عقيدتهم الدينية ، وانهماكهم في مجالى الترف والعيش الناعم ، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم بالمغarm الجائرة ، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة ، التي انغمس فيها رؤساء الأندلس وشعوبهم اقتداء بهم ، هي التي قوضت منعتهم ، وفتت في رجولتهم وعزائمهم ، وأضعفت همهم عن متابعة الجهاد ، ومداغة العدو المتربص بهم ، وأن الشقاق الذى استحکم بينهم ، ولم ينقطع بعد الزلافة ، سوف يقضى عليهم جميعاً ، إذا تركت الأمور في مجراها ، وسوف يمهّد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة في أقرب وقت . ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العائنين المترفين (٢) .

ذلك هو التصوير العام ، للبواعث التي حملت يوسف بن تاشفين ، على افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة أخرى ، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم ، تواقفوا على

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٤٧ - ٥٠ . وراجع :

R. M. Pidal : ibid., p. 364 & 365 ، وكذلك : Dozy : Histoire, V. III. p. 139 & 140

(٢) راجع المراكشي في المعجب ص ٨٩ .

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التي تركها بالأندلس ، فسأه ذلك (١) ، ومنها ما وقف عليه يوسف ، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة ومملأته ، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه ، وإمداده لذلك بالأموال والهدايا ، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة (٢) ، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد ، وقد عمد كلاهما في الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها (٣) .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة ، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء في أمره ، وقد تلقى في ذلك فتاوى الفقهاء من المغرب والأندلس ، بوجوب خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع الأمر من أيديهم ، بل لقد تلقى مثل هذا الرأي من أكابر فقهاء المشرق ، وفي مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالي ، وأبي بكر الطرطوشي نزير مصر يومئذ وغيرهما (٤) . وإذا فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه ، سند أحكام الشرع ، وتأيد أهل الرأي ، قبل الإقدام عليه .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم ، ذلك الباعث الطبيعي ، الذي يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب ، ونعني شهوة الفتح والتوسع ، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه ، وهم أولئك البدو الصحراويون ، قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها ، وطيب هوائها . ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن « طمع يوسف في الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها » وتذكر لنا أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد (الأندلس) صغرت في عيني مملكتي » (٥) .

اجتمعت هذه البواعث كلها ، لتحمل يوسف على فتح الأندلس ، وهي بواعث فوق وضوحها ، تسجلها لنا الرواية جميعاً . بيد أننا نستطيع أن نستشف

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٩ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ . وراجع : R. M. Pidal

ibid., p. 394

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ .

(٥) المعجب ص ٧٤ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٣ ، ونفح

الطيب ج ٢ ص ٥٣٣ .

من قرار يوسف باعثاً آخر ، لم تظن إليه الرواية الإسلامية ، ولعله من البواعث الهامة ، في مشروع عاهل المرابطين ، وهو العامل الدفاعي والاستراتيجي . ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة ، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، لا تستطيع في ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها ، وأنه إن تخلى عنها ، فسوف تسقط حتماً في يد ملك قشتالة القوى . ولم تغب عن يوسف ، وهم ذلك الحندي العظيم ، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة ، التي تربط بين ضفتي العدو والأندلس ، المتقابلتين على طرفي المضيق ، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس ، في أيدي النصارى ، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعي من الشمال ، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب ، متى اجتمعت قواها ، وتوفرت لديها وسائل العدوان ، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسي ، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم ، وليدعمها ، ويضعف أهباتها الدفاعية ، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية في رد عادية العدوان ، لا عن نفسها فقط ، ولكن عن المغرب أيضاً . ولم ينس أمير المسلمين في ذلك ، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة ، أن يجتاح أراضي الأندلس الوسطى كلها ، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة ، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدو ، دون أن يقف في سبيله أحد من ملوك الطوائف ، وكان في ذلك من بوادر الخطر على أرض العدو القريبة ما فيه .

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة في أوائل سنة ٤٨٣ هـ ، حسبما قدمنا . وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التي يعقدها المعتد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وعبد الله بن بلقين ، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون في رد المرابطين . واتسمت حملة يوسف في البداية بطابع الجهاد ، حيث سار توجاً إلى طليطلة ، واجتاح في طريقه أراضي قشتالة . ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه . وربما كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة ، فيشفي بذلك جرح الأندلس الدامي ، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً . وعاث المرابطون في أحواز طليطلة وخربوا ضياعها ، وانتسفوا زروعها ، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

وعاصمة قشتالة يومئذ ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها ، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية ، وحصانتها القائقة ، بعثت المحاولة ، فتركوا الحصار ، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب (١) .

وعرج يوسف بجيشه على فحوص غرناطة ، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين ، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً . وكان عبد الله في الواقع مذ عاد من حصار أليدو ، ولما شعر به من تغير يوسف ، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس ، عن طريق قائده ومبعوثه في تلك المنطقة ألبار هانيس ، وعقد معه فيما يبدو محادثة سرية لمقاومة المرابطين . ويعترف الأمير عبد الله في مذكراته بهذه الصلات ، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الحزبة لألفونسو ، وتعهد من ألفونسو ألا يعترض له بلداً ولا يغدر به (٢) . ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين ، فنظر في اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنا الأسوار ، ونصب الرعدات ، وملأ بيوت السلاح ، وجد في ضرب السهام ، ونقل المال والذخيرة ، وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المنعة ، وعلى ضفة البحر ، وعمد إلى مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتحف جليلة ، وأعلاق دقيقة ، فوجه بها إلى أذفونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه أن البلد بلده وأن فيه قياده ، فاهتز لذلك الأذفونش ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أمانه ، أن يشد اليد عليه في ملكه ، ولا يتركه لضميم ولا خصيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ، ويبدل جهده في نصره ، فقويت نفس حفيد باديس بذلك . وفي ذلك يقول صفيه وأثيره السمسرى :

صانع أذفونش والنصارى فانظر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خلافاً لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير

(١) روض القرطاس ص ٩٩ . وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 & 395 .

(٢) كتاب البيان ص ١٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

دعوه يبنى فسوف يبرى إذا أنت قلرة القدير^(١)

على أن ما استقر في ذهن يوسف ، وما نهضت عليه الأدلة ، وأكدته رسله يومئذ ، هو أن المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء الطوائف ، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية ، يتعهدون فيها بالامتناع عن معاونة المرابطين بالمال والمؤن ، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته . وكان بعض حشم عبد الله ولاسيا مؤمل مولى جدّه باديس ، قد اتصلوا بأمر المسلمين ، وأكلوا له مداخله عبد الله الملك قشتالة ، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة . ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة ، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين ، وأهابوا بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس ، والمغارم الجائرة ، التي يفرضونها على رعيّتهم تعسفاً وظلماً .

وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية ، حتى لا يأتيها مدد من النصارى ، وطلب المؤن والعلوفات ، فبادر عبد الله بتقديمها . وكانت الأحوال في غرناطة قد ساءت ، وشاع الخلاف والتمرد بين سائر الطوائف ، وأدرك عبد الله أنه لا سبيل إلى المقاومة ، وأرسل إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال ، فعادوا إليه بأمان يوسف « في النفس والأهل دون المال » ، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته غير غرناطة . فتمهل عبد الله وقتاً . والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم يتحقق . وفي خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه في الخروج إلى أمير المسلمين ، والانقياد لأمره ، كأفضل حل للموقف . ولما اقترب أمير المسلمين بمحلته من المدينة ، واشتد بها الهياج ، رأى عبد الله أنه لا مناص من اتباع هذا النصيح ، فسار إلى محلة يوسف ، وقدم إليه نفسه ، فأصدر له أماناً في نفسه وأهله ، وأمر باعتقاله ، حتى يتم ضبط أمواله ، وكانت لدى عبد الله وأمه أموال طائلة ، مكمنة منذ أيام جدّه باديس ، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء والأعيان إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة . ودخل يوسف مع قاداته وجنده مدينة غرناطة ونزل بقصرها ، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة ، وأذاع في

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف في خزنة القرويين بفاس .

الناس ، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع ، ويعمل على إقامة الخير بينهم ، والذب عن حوزتهم ، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة ، ولا يفرض عليهم من التكالييف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع . وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس في اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٠) (١) .

وبعث أمير المسلمين في الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة ، فقبضت على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله ، وحمل مكبلاً إلى العدو ، ثم أرسل إلى السوس . وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطلبوا بخلعه (٢) .

وأخذ عبد الله وأهله أولاً إلى الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوا إلى سبتة ، فكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغاث ، حيث تقرر إقامتهم ، وأنزلوا هناك داراً حسنة ، وعوملوا برفق ورعاية ، وعاش عبد الله بأغاث حتى توفي . وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب «التبيان» ، وهي التي رجعنا إليها في غير موضع . وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم ، فسكن مراكش حتى توفي بها في سنة ٤٨٨ هـ (٣) .

وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف في أيدي المرابطين ، وكان سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة ، التي قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً . وشعر المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، ما يزال يعمل نفسه بمختلف الآمال الغامضة ، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة الخضراء ، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة ، ويقال إن يوسف وعده عندئذ بغرناطة متى استولى عليها (٤) . فلما ظفر يوسف بامتلاكها ، سار المعتمد ومعه زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة ، فقلما التهنئة لأمر المسلمين بهذا الفتح . وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالتزول له عن غرناطة ، مقابل

(١) يراجع في حوادث سقوط غرناطة في أيدي المرابطين : كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧ - ١٦٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ و ٢٣٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً : 144-141 : Hist. V. III. Dozy ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 — 396

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٣) كتاب التبيان ص ١٧١ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤ .

استيلائه على ثغر الجزيرة ، ولكن يوسف استقبلهما بحفا ، فانصرفا عنه ، وقد أدركا الحقيقة المروعة ، وشعرا بأن النهاية المحتومة ، قد أضحت على وشك الوقوع . وعاد المعتمد إلى إشبيلية ، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ في التأهب ، وإقامة التحصينات والأسوار ، وساءت العلاقات بينه وبين أمير المسلمين بسرعة ، وكثرت بينهما الوقعة والسعايات ، ودعا أمير المسلمين المعتمد إل لقائه فرفض ، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع ، وأن يلغى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى ، فلم يجبه إلى شىء^(١) .

وغادر أمير المسلمين غرناطة، وجاز إلى العدو في شهر رمضان سنة ٨٨٣هـ ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبي بكر اللمتونى شئون الأندلس . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إنه لم يأمر قائده في أمر ابن عباد بشىء ، وقبل من جهة أخرى ، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد في إشبيلية ، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية ، فليقدم إلى بلاد ابن الأفطس^(٢) . وقدم أمير المسلمين قائده ابن لحاج على جيش آخر ، وعهد إليه بمنزلة قرطبة ، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون ، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث ، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وقدم جرورا الحبشى على عسكر رابع وعهد إليه بمنزلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة . وأقام أمير المسلمين بسبنة مجهز بالخيوش والأمداد ، ويترقب نتائج أعمال جيوشه في شبه الجزيرة .

- ٤ -

كان من الواضح ، على ضوء هذه الأهبات الضخمة ، التى اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية في وقت واحد ، أن يوسف بن تاشفين ، كان يرى في مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس ، وفي أميرها المعتمد بن عباد ، عميد الطوائف ، فإذا سقطت في يده إشبيلية ، كان له ملك الأندلس .

ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات في قتال ابن عباد ، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية . ذلك أنه احتاط للأمر ، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة ، من فقهاء المغرب والأندلس ، بأن مسلك المعتمد في مصانعة

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٠ ، وكتاب التبيان ص ١٦٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، والحلل الموشية ص ٥٢ .

النصارى ، وتسليمهم البلاد ، والاحتفاء بهم ، ومسلكه إزاء شعبه في اقتضاء المكوس الحائرة ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع ، ومجاهرته بالمعاصي ، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين ، ويوجب محاربته وخلعه^(١) . أما عن المبررات المادية ، فقد وقعت في يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة ، يستغيث به ويطلب معونته^(٢) وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن في تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة ، قد أيقن أنه لا معدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .

وبينما كان المعتمد منهمكاً في أهباته الدفاعية بإشبيلية ، كان قائد المرابطين سير بن أبي بكر ، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية ، وقد بدأ في ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبية ، وذلك في شوال سنة ٤٨٣ هـ (ديسمبر ١٠٩٠ م) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين^(٣) ، ثم اتجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية ، بينما زحفت الحيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة . فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطي بقواته ، وكان يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضي ولد المعتمد . وكانت رندة من أمنع القواعد الجنوبية ، فصمد بها الراضي ، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث . وأما جيان ، فقد زحف عليها جيش مرابطي بقيادة بطي بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم لإنقاذ جيان ، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة ، وإنه نشبت بين المرابطين والنصارى موقعة أبيد فيها المرابطون^(٤) . بيد أن ابن زرع يقول لنا بالعكس إن بطي حاصر جيان حتى دخلها صلحاً ، وكتب سير بالفتح إلى أمير المسلمين ، وأمر بطي بالسير بقواته إلى قرطبة^(٥) . وقد ذكرنا من

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩ .

(٣) المجمع ص ٧٥ . وكذلك : R. M. Pidal : ibid, p: 398

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ .

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية، أن القوات المرابطية التي سارت لمنازلة قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج . وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد ، الفتح الملقب بالمأمون ، وكان قد اتخذ كل الأهباء الدفاعية الممكنة ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور^(١) ، الواقع جنوب غربي قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير ، لكي تبقى بمنجاة من الخطر ، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة ، وقد كان هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته . والواقع أن قرطبة لم تصمد طويلاً ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف ، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ، ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة في اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م) ^(٢) .



وهنا يجب أن نقف قليلاً ، لنتناول مسألة تاريخية هامة ، غمرتها الأسطورة مدى عصور ، ثم ألقي عليها البحث الحديث ضوءه المقيع ، تلك هي قصة زائدة الأندلسية .

لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية ، المعاصرة واللاحقة ، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى « زائدة » أو أنه قد اتخذها خليله ، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو . وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه ، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذي قدم ابنته المذكورة للملك النصراني ، وأنه نزل له عن مواضع معينة من أراضي مملكة طليطلة ، كان قد افتتحها ، لتكون مهراً لابنته المذكورة ، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد إلى فرصة سابقة على مقدم المرابطين ، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذي عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار ، وأخيراً أن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة في الأندلس ، وآتهم ابن عباد بالتفريط في عرضه ودينه^(٣) .

(١) وهي بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid. p. 405

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة ، وقد نشرت ضمن

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة لاريب فيها ، وتحدث دائماً عن « زائدة الأندلسية » Zaida la Mora أو Ceida وعن ذريتها النصرانية . ونقول نحن إنه لا توجد بين هذه التفاصيل المفرقة ، سوى حقيقة واحدة هي شخصية زائدة المذكورة ، وأنها كانت حقيقة زوجة أو خلية لألفونسو السادس ، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلاً فى موقعة إقلش (٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد ، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، وهذا هو لب الأسطورة كلها . وهذا هو وجه الإغراق والتحريف . ذلك أنه مما لا يسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد ، أن يزوج ابنته من أمير نصراني أو أن يقدمها له جارية وحظية ، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الديني ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن ، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لا يقبله العقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لتأنيجه السياسية ، وخصوصاً فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه ، وأن يسحقه ويسحق أسرته . ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرى من جانب خصومه فى الدخلى وفى الخارج بالسنة حداد من أجل استهتاره وتهوانه الديني ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى صف المارقين والحوارج على الدين .

أما التفسير الحقيقى لهذه القصة ، وهو ما كشفت عنه البحوث والنصوص الوثيقة ، فهو أن زائدة هذه كانت حسباً تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة ، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة ، أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل الفتح ، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار ، وأن تلجأ إلى حصن المدور ،

مجموعة Espana Sagrada للأب Flores (الجزء الرابع عشر) . وذكرها رودريك الطليطلى فى روايته التى وردت فى : De Rabis Hispanica ، وكذلك لوقا الطليطلى فى روايته Cronicon Mundi على اختلاف فى بعض التفاصيل ، وذكرها الأب فلوريس فى تاريخه Flores : Reynas Catolicas ومن المؤرخين المحدثين Modesto Lafuente فى تاريخه Historia general de Espana . وراجع أيضاً R. M. Pidal : ibid., p. 760-764 حيث يلخص سائر الروايات المتضمة .

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر تلك الأنحاء وربما كان ذلك بموافقة المعتمد . ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال ، وكان الملك النصراني من جهة أخرى مزواجاً ، كلفاً بالنساء ، فقد انتهز فرصة التجائها إليه ، واتخذها خلية ثم تزوجها . وتقول الروايات القشتالية في هذا الموطن ، إن زائدة كانت تحب الملك النصراني « بالسمع » ، وتتوق إلى الزواج منه ، وأن المعتمد (يزعم أن زائدة كانت ابنته) قد نزل للملك قشتالة في هذه المناسبة عن قونقة ، ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسوجرا وغيرها من الأماكن ، وهى التى كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون ، وذلك كمهر لزائدة . وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها للملك قشتالة ، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به للملك قشتالة كتمن لحلقه وعونه . ومتى تقرر أن زائدة ، لم تكن ابنته ، فإنه لا محل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد بقصة زواج زائدة من الملك النصراني . ونقول تنمة لقصة زائدة إنها غدت خلية أو زوجة للملك قشتالة ، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل ، في أوائل سنة ١٠٩٢م ، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم « إيسابيل » ، وفي رواية باسم ماريا ، ونصر أولادها من الفتح ، ومن كان معها من الحشم ، درزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو ، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها سانشو ، ودفنت بدير ساهاجون وذلك في سنة ١٠٩٧ ، أو ١٠٩٨ م . ولما اجتاحت المرابطون أراضي قشتالة ، في أوائل عهد الأمير على بن تاشفين ، وسار القشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش ، بعث ألفونسو بولده الصبي سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند ، فقتل في الموقعة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته ، وذلك في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غماً وحزناً (١) .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة ، ولا شيئاً من قصتها بطريق مباشر ، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها ، ولدينا في ذلك نصان كلاهما حاسم في تقرير هذه الحقيقة .

أولها ما ورد في تاريخ ابن عذارى « البيان المغرب » في أخبار سنة ٥٠١ هـ

وهي الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التي أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش ، وقد جاء فيه : « وفي خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التي كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس » (١) .

والثاني نص أورده الونشريثي في كتابه : « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبخصاء والفروج ما يلي : « ومنها الخوف من الفتنة على الأبخصاء والفروج ، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء ، فيغرها في نفسها ويغرها في دينها ، ويستولي عليها وتطاوله ، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد في الدين ، كما عرض ليكننة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد ، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء » (٢) .

تلك هي الحقيقة حول أسطورة زائدة « ابنة » المعتمد بن عباد ، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس ، اكتساباً لمخالفته وعونه ضد المرابطين ، وهي أسطورة لبثت عصوراً تمثل في الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها حقيقة لا ريب فيها . وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة . والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام للنفوس الكريمة ، فأثروا الإغضاء عنها ، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية .

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليني بروفنسال في أوراق مخطوطة من البيان المغرب لم تنشر ، عثر بها في مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشره مقالاً عنوانه *Zaida la Mora* في مجلة *Hispanis XVIII* (1934) فكان ضوءاً جديداً قيمياً على هذه الأسطورة .

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريثي في كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الفزيرى . وقد نشرت أيضاً بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصري بمطريد (المجلد الخامس ص ١٨٩) .

الفصل الرابع

الفتح المرابطي

القسم الثاني

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلمة رباح . استيلاؤهم على قرمونة . زحف سير بن أبي بكر على إشبيلية . يدعو المعتمد إلى الطاعة . محاصرته لإشبيلية . تأهب المعتمد للدفاع . استغاثته بملك قشتالة . مسير الجند القشتاليين لإنجاده . القتال بين المرابطين والقشتاليين . هزيمة النصراري وارتدادهم . استماتة المعتمد في الدفاع . خصوم المعتمد في الداخل وتقاهمهم مع المرابطين . نجاح المرابطين في ثلم السور . محاولتهم الدخول وردهم . حرق أسطول إشبيلية النهرى . هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها . الدمار داخل المدينة . رسالة المعتمد في الدفاع . استيلاء المرابطين على المدينة . أسر المعتمد ونهب قصوره . إرغامه على الكتابة إلى ولديه بتسليم رندة وميرتلة . تسليم رندة ومقتل حاكمها الراضى ولد المعتمد . رواية في تسليم إشبيلية بالأمان . ما ينقض هذه الرواية . أقوال ابن اللبانة والفتح بن خاقان . شعر المعتمد في ذلك . حياته المعتمد بعد سقوطه . محنة اعتقاله . مسيره إلى المنى . نزوله بطنجة . مسيره إلى أغمات . حياته المؤلة في المعتقل . قسوة أمير المسلمين في معاملته . وفاة أعماد زوجة المعتمد . قول في صفاتها . شعر المعتمد في محنته . محنته تذكى الشعر بالأندلس . تصفيده بالأغلال . وفاته ودفته بأغمات . ذكراء في المغرب والأندلس . قبره يغدو مزاراً . زيارة ابن الخطيب لقبره وشعره في ذلك . وصف لأطلال قبره . محنة المعتمد وصداها في الرواية الإسلامية . حملة ابن الأثير على أمير المسلمين . تعليقات دوزى . قسوة أمير المسلمين وما ينتحل لها من الأعذار . المعتمد وما له وما عليه . البواعث التي دفعت يوسف إلى فتح الأندلس . تأملات حول معاملته للأمرءاء المنزوعين . مسير المرابطين إلى المرية . الروايات المختلفة في شأن سقوطها . استيلاء المرابطين على بلنسية . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق . استيلاؤهم على سرقطة . حركاتهم في غرب الأندلس . إغاراتهم على أراضي بطليوس . ابن الأقطس واستغاثته بالفونسو السادس . مسير المرابطين إلى بطليوس وافتتاحها . مصرع المتوكل ابن الأقطس وولديه . انتهاء ملكة بطليوس . مرثية ابن عيون لبني الأقطس . استيلاء المرابطين على أشبونة . جواز أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس . غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى . يوسف يعقد ولاية العهد لولده على في قرطبة . مرض يوسف ووفاته . وصيته لولده على .

على أثر سقوط قرطبة ، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة ، في شرق قرطبة ، وعلى حصن البلاط والمدور في غربها . وبعث فاتح قرطبة القائد بطي بن اسماعيل إلى قلعة رباح ، وهى قاصية أراضي المسلمين ، حملة من ألف فارس ، فاحتلتها . وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضي الوادى الكبير ،

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية : وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ، نجد قائد المرابطين العام ، سير بن أبي بكر أمام أبواب قرمونة . وكانت قرمونة أمّنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية ، وهى حصن إشبيلية من الشرق ، فنازلها سير ، ودخلها عنوة فى السابع عشر من ربيع الأول (١٠ مايو سنة ١٠٩١ م) . وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية :

ويقول لنا ابن أبى زرع فى هذا الموطن ، إن سير بن أبى بكر ، حينما أشرف على إشبيلية ، وقبل الزحف على قرطبة ، كان يعتقد أن المعتمد ، سوف يخرج إليه ، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات ، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن بشأته ، فكتب إليه سير ، يطلب إليه تسليم البلاد ، والدخول فى الطاعة ، فرد المعتمد بالرفض ، فضرب سير الحصار حول المدينة ، وأخذ فى منازلها ومقاتلة ابن عباد : ويقدم إلينا ابن خلكان رواية ماثلة ، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن يعرض على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدو بأهله وماله ، فإن قبل فيها ونعمت ، وإن أبى فينازله ، فلما عرض سير ذلك ، لم يعطه ابن عباد جواباً ، فنازله ، وحاصره أشهراً (١) .

حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة ، ولم يشك المعتمد منذ البداية ، أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرتة بكل ما وسع ، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين لمملكة إشبيلية على هذا النحو النصاعق ، وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية ، ولا ملوك الطوائف وحدهم ، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، ومسألة خطر اجتياح المرابطين لها واحتلالهم لها . وكانت تجتمع فى ذلك مع ابن عباد قضية واحدة ، هى قضية دفع خطر المرابطين عن الوطن المشترك ، ومن ثم فقد بادر من فوره بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم ، لإنقاذ ابن عباد . وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل (٢) ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ .

أثنى وخمسة فارس . وبعث سير بن أبي بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة آلاف فارس ، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللحتوني ، وهي حملة تقدرها الرواية النصرانية بخمسة عشر ألفاً . والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن المدور ، وفي رواية أخرى أن اللقاء كان في بلعة من أحواز إشبيلية^(١) ، ونشبت بينهما معركة عنيفة ، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين ، وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليين ، وقد أثنى قائدهم ألبار هانيس جراحاً^(٢) ، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين .

واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر ، ودافع المعتمد وجنده عن حاضرتهم أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم ، حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبي بكر أنه قال « لو أني أقصد مدينة الشراك لم تمتنع هذا الامتناع »^(٣) .

وفي خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بني عباد، أن يضرمو الثورة داخل المدينة ، حتى يضطرب أمر الدفاع ، ويمهد السبيل لدخول المرابطين : ووقف المعتمد على أمرهم ، ولكنه أبى أن يقوم بإعدامهم وفقاً لنصيحه قادته ، واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسيعهم . وأخيراً استطاع المرابطون بـمداخلة بعض أولئك الخونة ، أن يحدثوا ثلثة في السور ، عند باب الفرج على مقربة من النهر (يوم ٥ رجب) . ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوّه في ثلثة من فرسانه ، لرد الداخلين من جند العدو ، وهو دون درع أوعدة ، وليس عليه سوى قميص يشف عن بدنه ، وتلقى المعتمد خلال المعركة التي نشبت طعنة تحت إبطه من فارس مرابطي ، فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه ، ومزقت تلك الثلثة من المرابطين ، وأصلحت الثلثة على الأثر . بيد أنه حدث في عصر ذلك اليوم ذاته ، أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسي في الوادي الكبير ، وأضرمو النار فيه ، فهلك معظم سفنه ، وأدرك الناس عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة ، أخذت في الانهيار ، وسرى بينهم الرعب ، وبادر كثيرون إلى الفرار ، بعضهم عن طريق النهر ، والبعض الآخر بالترامى

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ، وكذلك: R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 .

(٣) كتاب البيان ص ١٧٠ .

من شرفات الأسوار ، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر ، وسيطرت الفوضى على المدينة ، وبدأت طوابع النهاية منذرة مروعة .
وفي خلال ذلك كان سير بن أبي بكر ، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة .
وقعت الضربة الحاسمة في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م)^(١) ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة . واقتحموها من ناحية الوادي الكبير ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يعمنون فيها سفكاً وتخريباً . ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة ، وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكي ، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره في ثلة من فرسانه وخاصته ، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، أشد دفاع وأروعه ، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة ، وعلى القصور الملكية ، وأسروا المعتمد وآله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب بفخر الدولة بين يديه ، ونهبوا قصوره - على قول المؤرخ « نبأ قبيحاً » - واحتلوا على سائر ذخائره وأمواله ، وساد القتل والغيث والنهب في المدينة الغنية الثالثة . وكانت محنة مروعة .

وأصدر سير بن أبي بكر أماناً للمعتمد « في النفس والأهل والولد »^(٢) ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضي وأبي بكر المعتد ، ينصحهما بالخضوع والتسليم ، وكان الأول حسباً تقدم ممتعاً برندة ، والثاني ممتعاً بميرتلة (أو مارتلة) في جنوبي البرتغال . وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال ، نظراً لخصائنها الفائقة ، وقد يطول صمودها . وانضمت « السيدة الكبرى » أعني اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد ، في حثهما على التسليم واستعطافهما رحمة بوالديهما . فأذعن الأميران للرجاء . فأما يزيد الراضي المدافع عن رندة ، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطي عهده

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠ ، وهي رواية معاصرة حيث يضع هذا التاريخ لسقوط إشبيلية . ويوافق في ذلك ابن أبي زرع (روض القرطاس ص ١٠١) . ولكن عبد الواحد المراكشي يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ (المعجب ص ٧٦) . ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية كان في يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ (أعمال الأعلام ص ١٦٤) . ومن المحقق أن الرواية الأولى هي الراجحة ؛ وتوافقها التواريخ النصرانية ، وهي تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر الموافق للتاريخ الهجري .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

بالأمان ، بيد أنه ما كادت تفتح أبواب المدينة ، ويدخلها المرابطون ، حتى أمر
جرور بالقبض على الراضى وإعدامه ، وانتهاب أمواله ، ناكثاً بذلك بعهد
أشنع نكث ، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين (رمضان
سنة ٤٨٤ هـ) . وأما فى ميرتلة ، فقد أبقي المرابطون على حياة المعتد ، وقتعوا
نهب أمواله (١) . وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية .
وكان يزيد الراضى ، ويكنى أبا خالد ، أنه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر
والأدب ، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه ، وقرينه فى نظم القريض الفائق . وكان
فوق ذلك عالماً أديباً ، حافظاً للشريعة ، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها . ومن شعره
قوله :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ويسهر فى إهلاكه وهو راقد
ويغترى بأهل الفضل حتى كأنهم جناة ذنوب وهو للكل حاقد
سينهد مبنى ويقفر عامر ويصفر مملوء ، ويحمد واقد
ويفترق الآلاف من بعد صحبة وكم شهدت مما ذكرت الفراق (٢)

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل ، وخبا نجمها الذى سطع
حيناً فى سماء الأندلس وضاء عالياً ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من
الفروسية الرائعة تخلق بالآلى شادوها . ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة
على يد عميدها الباسل . وقد يبدو من رواية « روض القرطاس » أن المعتمد
سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً (٣) . والحقيقة التى تجمع عليها سائر
الروايات ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية ، كما تقدم ، وأخذوها عنوة
فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة
فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى

(١) المراكشى فى المعجب ص ٧٧ ، وكتاب التبيان ص ١٧١ . ونحن نذكر ان اثنين من
أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بذيمنون قد قتلوا بالتعاقب فى حوادث قرطبة ، وكان
هؤلاء جميعاً أبناءه من حظيته اعتاد الترميكية . وكان له منها أبناء آخرون ، منهم أبو الحسين الملقب
بالرشيد الذى عبر معه إلى العدو (راجع الحلة السيرة ج ٢ ص ٦٢) .

(٢) الحلة السيرة ج ٢ ص ٧١ و ٧٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ .

اقتحم الأعداء قصره وأسروه . وقد انتهت إلينا في ذلك رواية شاهد عيان ، هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة ، فهو يصف لنا في كتابه « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية » ، مناظر سقوط إشبيلية حسبما شهدها بنفسه في قوله : « إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية بادية ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه الخمدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى » (١) .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ، ومعاصرههم تقريباً ، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه في عبارته المسجعة فيما يلي : « ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر في الحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقبهم في رجة القصر وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضت من رجهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأهم فرقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردتهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتماله ، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته ، مانعاً لخودته ، دافعاً للذل عن عزته ... » (٢)

وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب : « وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، وشملت الغارة ، واقتحمت الدور ، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع ، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الحيل ، فدخل القصر ملقياً بيده » (٣) .

(١) نقله نفع الطيب ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ في ترجمة المعتمد بن عباد . وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية

بنحو ثلاثين عاماً .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه في وصف صراعه مع أعدائه في ذلك اليوم المشهود :

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رُمّت يوم نزاهم ألا تحصني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفع
وبذلت نفسي كي تسيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوع
ماسرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره ، بعد سقوط حاضرتة ، وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل في النجاة ، فكر في أن يقضي على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آلّه وولده ونسائه^(١).

ومجدد بنا قبل أن تم الكلام على فتوح المرابطين للمالك الطوائف ، أن نتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته .

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد ، وهي مرحلة مؤسفة تنفطر لها القلوب الكريمة ، تنتمي إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة ، التي نظمها المعتمد عن محنته وآلامه في المنفى . وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها ، من صحف التاريخ والأدب ، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها .

(١) راجع في سقوط إشبيلية : روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ، وقلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، وكتاب البيان ص ١٧٠ و ١٧١ ، والمعجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و ١٦٤ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ . وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 ، وكذلك

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته ، في كتبه الرسمية بالفتح ، إلى المبالغة في خصومته ، والعمل على سحقه ، ومعاملته بأقصى ما يعامل به عدو . ويقال في ذلك ، إنه فضلاً عن البواعث السياسية والعسكرية : فقد لعبت السعاية والشاية في علائق الرجلين دوراً لا يحمد ، وأثارت في قلب يوسف أمر ضرور السخط والبغض ضد المعتمد .

لم يكن سقوط إشبيلية ، وسقوط المعتمد وآله أسرى في أيدي الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة أفظح وأبلغ إيلاً للنفس ، هي محنة الاعتقال والأغلال والذل والمنى المروع . وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بني عباد ، كما قرر مصير عبد الله وأخيه نعيم صاحبي غرناطة ومالقة ، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة ، هم الفتح المأمون ، ويزيد الراضي ، والمعتد بالله ، ومالك ، ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته ، وربما كانت لدى الظافر في الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيئون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه ، حسب رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك ، أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ في التراب ، ذلك الذي كان يعتبره قطب الفتنة في الأندلس ، وحليف النصارى الخانع ، المذنب في حق دينه ووطنه ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه .

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف ، وأخذوا جميعاً إلى السفن التي أعدت لنقلهم إلى المنى ، وسارت السفن من إشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى العُدوة ، في مناظر تذيب القلب حزناً وأسى : وضجت جموع الشعب الغفيرة التي احتشدت على ضفتي النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيا بالأمس تحقيق به وجميع آله ، أغلال الاعتقال والذلة ، ويفادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول . وفي ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر ابن اللبانة : وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة :

نسيت إلاّ غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أرباد

حط القنصاع فلم تستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فادى
سارت سفائهم والنوح يتبعها كأنها ليل يحدوها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد (١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً. وهنالك زاره الحصرى
الضريير الشاعر ، وألحق فى طلب الصلة ، ورفع إليه أبياناً مدحه فيها ولم يراع
فى ذلك حرج الموقف ، وأبت على المعتمد أريحته الملوكية أن يرده ، فبعث
إليه بستة وثلاثين مثقالاً ، وشعراً يعتذر فيه عن ضالة الهبة ، فكانت آخر صلاته
الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه
تميم ، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرها الأخير (٢) ، وهنالك قضيا بضعة
أشهر ، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائى .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة حصينة
تقع على قيد نحو أربعين كيلومتراً من جنوب شرقى مراکش ، على مقربة من جبال
الأطلس ، التى تظلل آكامها الثلوج . وقد كانت حسبما نذكر عاصمة
المرابطين الأولى . وحل المعتمد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ هـ أو أوائل
سنة ٤٨٥ هـ . وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق
ورعاية ، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعه . وهنالك قضى المعتمد بضعة
أعوام فى أغلال الأسر ، يتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد
المُعنى . ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلاً عادياً ، بل كان سجناً شديداً بكل
معانى الكلمة : ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضيق ، ولم يكن يطلق لهم
ما يكفهم من النفقة ، فكان المعتمد ، وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطح
فى الأندلس بجبالها وخلالها البارعة ، وأبناءؤه الأمراء وبناته الأقارب ، يرتدون
الثياب الخشنة (٣) . وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن .

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العيان ص ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و ٤٥٣ ،
والمعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . ومن أولاده الذين تذكروهم الرواية :
الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبوهاشم وعبد الجبار وغيرهم من لم نصلنا
أسمائهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة ، فقد ذكرها لنا المقرئ
بين شاعرات الأندلس (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩) .

وهناك في شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً في قدميه بالأغلال ، على الأقل في أواخر أيام أسره . ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة ، بلا ريب ، وكانت قسوة لامبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق في شيء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين ، من الفروسية والخلال الحسنة . وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين وكيف تلتبس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ، ولم تقو طويلاً على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت ، فدفنت في ظاهر أغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ، فحزن المعتمد لوفاتها ألماً حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها في بلاط إشبيلية من منزلة عالية ، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية ، والمشاطرة في مجالس الشعر والأدب . على أن هذه الصفات الممتازة التي كانت تتمتع بها الرميكية ، وهذه الحياة السافرة اللامعة في أعظم بلاط ملوك الطوائف ، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن في تصرفها وأخلاقها . فثلاً ينقل إلينا التيجاني الأندلسي عن الحجارى في حق الرميكية ما يأتي : « وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة ، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين ، فكان من أمره معه ما كان ، وسجن المعتمد بأغمات ، وسجن الرميكية معه ، فأتت هنالك قبله » (١) .

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطوط رقم ٥٦٢ الفزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى « تحفة العروس » لأبي عبد الله التيجاني الأندلسي المالكي (لوحه ٢٠٠) . ويقدم إلينا التيجاني بهذه المناسبة ملخصاً لقصة بئنة ابنة المعتمد والرميكية ، فيقول لنا إن بئنة هذه كانت مثل أمها في الجمال والذكاء ونظم الشعر . ولما سقطت إشبيلية ، ونهبت قصور المعتمد ، كانت ابنته ضمن السبايا ، ولم يثر لها على خبر ، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها ، وهو أنها وقعت في يد تاجر اشتراها على أنها سرية ، فامتنت عليه ، وعرفته بحقيقة أمرها ، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجاً شرعياً ، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول ، ترجو فيه منهما الموافقة على زواجها منه . فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة ، وكتبوا إليها ، بالموافقة على رغبتها . (المخطوط السالف الذكر لوحه ٢٠١) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذائه الروحي،
فصدرت عنه في معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية ، وكلها تلهف على
سابق مجده ، وبكاء على ماضيه ، ورثاء لحنته ، فمن ذلك قوله :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض لإطلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأثددة وأغرق الدمع آماقاً وأحداقاً
قد ضاق صدر المعالي إذ نعت لها وقيل إن عليك القيد قد ضاقا
وقوله :

غريب بأرض المغربين أسير سبيكي عليه منبر وسرير
وتدبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمع بينين غزير
مضى زمن والملك مستأنس به وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بني ماء السماء زمانهم وذل بني ماء السماء كبير
فيا ليت شعري هل أيتن ليلة أمانى وخلني روضة وغدير
بمنيته الزيتون مورثة العلا يغني حمام أو تدن طيور
بزاهرها^(١) السامى الذرى جاده الحية - تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي^(١) وسعد سعوده غفورين والصب المحب غيور
تراه عسيراً أو يسيراً مناله ألا كل ماشاء الإله يسير
وقوله في أول عيد له بأعلمات ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أعلمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيد لاعادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفتيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممثلا فردك الدهر منياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسره به فلما بات بالأحلام مغرورا

(١) الزاهر والزاهي من قصور بني عباد باشبيلية .

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :
يكبت إلى سرب القطا إذ مررن به سوارح لا يحن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ولكن حينئذ إن شكلي لها شكل
فأسرع فلا شمل صديق ولا الحشى وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل
وقوله في لوم أمير المسلمين على ظلمه :

أبى الدهر أن يقضى الحياء ويندما وأن يحمو الذنب الذى كان قدما
وأن يتلقى وجه عتي وجهه بعذر يغشى صفحته التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه إلى كل صعب من مراقبك سلما
سرجع إن حاولت دونى فتكة بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس ، ونظم
أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم ، والتوجع على أيامهم ، طائفة من القصائد
المؤثرة ، التى مازالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها . وكان أغزرهم
فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة ، شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على
صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنه بأغمت ، ونظم فى دولته وأيامه ،
وفى محتته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ
بنى عباد ، وأسماء : « كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك » (١) .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ، بيد أنه استطاع فى غمر
الحنة والبؤس الطاحن ، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الحلال
يشع فى ظلمات سجنه ، كما يشع ضوء الشمس إذا أهدق به الغمام (٢) . وفى
أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالإغلال ،
بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ، وكان ممن
أفلت عند سقوطها وذلك حسبا نذكر بعد . وفى اليوم الحادى عشر من شوال
سنة ٤٨٨ هـ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م) ، توفى المعتمد فى سجنه بقلعة أغمت بعد

(١) يراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١
وما بعدها ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٧ و ٤٥٨ . وكذلك فى الحلة السيرة ج ٢ ص ٥٩ - ٦٧ .
هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه ابن الأبار (الحلة ج ٢
ص ١٣٦) .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباح (الطبعة الثانية) ص ٩٧ .

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام^(١)، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بظاهر أنعمات إلى جانب زوجته اعتماد الرميكية . ومما قاله في رثاء نفسه قبل وفاته ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى	حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت	بالخصب إن أجذبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا	بالموت أحر بالضرغامه العادى
بالدهر فى نغم بالبحر فى نعم	بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر	من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه	إن الجبال تهادى فوق أعواد
كفالك فارفق بما استودعت من كرم	رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبد الجبار بن المعتد وهى الثورة التى اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده فى سجنه بأنعمات ، وذلك أن عبد الجبار امتنع بحصن أركش ، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرق شريش ، فى جمع كبير من أصحابه . وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه ، وعلم الأمير سير اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك ، فسار إلى أركش ، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر ، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة ، فضخمت الحملة ، وأحدثت بالحصن ، وضيق على من فيه ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، وابن عباد يخرج فى قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين فى معارك دامية ، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعاً . وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل ، فكتم أصحابه موته . وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر ، وفى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان ، فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً ، وقتل معظم حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها ، واحتر رأسه ورؤوس أصحابه ، وحملت

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتد كانت فى شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ (الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) . ويقول ابن الأبار إنها كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ (الحلة السيرة ج ٢ ص ٥٥) .

إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت على أسوارها ، ووقعت حوادث هذه الحملة في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) (١) .

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة ، في عمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله في مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية في المغرب والأندلس ، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال في تقلب الحدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أنعمات أبوبجر بن عبد الصمد ، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، ونغمه بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التي احتشدت من حوله ، مراثيه الغراء في المعتمد ، ومطلعها هذه الأبيات :

ملك الملوك أسامع فأنادى	أم قد عدتلك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن	فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً	وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعي	نيران حزن أضمرت بفؤادي
فلماذا بدمعي كلما أجريته	زادت على حرارة الأكباد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيح ، وكان منظراً يفتت الأكباد (٢) .

وقد أسبغت هذه البقعة التي يرقد فيها ملك إشبيلية ، وأمير الشعر في عصره ، رقدته الأبدية ، شهرة مؤثرة على مدينة أنعمات . ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو خمسين عاماً ، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية في أنعمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفي سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أنعمات ، وهو يصفه لنا في كتابه « نفاضة الجراب » في قوله : « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أمير حمص

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة ، عثرنا بها في خزانة القرويين بفاس ، وسبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع فلائد المقيان ص ٣٠ و ٣١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ - ١٧٠ حيث يورد القصيدة كلها .

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربي رحمه الله . وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد ، قد توكل نشراً غير سام ، وإلى جانبه ، قبر الحرة حظيته ، وسكن نفسه ، اعتماد ، إشراكاً لاسمها في حروف لقبه المنسوب إلى رميك ، المتولدة بشأنه معها أخبار القصاص ، وحكايات الأسفار ، إلى أجداد من ولديهما فترحمنا عليه ، وأنشدته ^(١) . ويعود ابن الخطيب بعد ذلك في كتابه « أعمال الأعلام » . فيصف لنا زيارته للقبر في تلك العبارات المؤثرة : « وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض ، وقد حفت به سدره ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة رميك ، وعليها وحشة التغرب ومعاناة الحمول بعد الملك ، فلا تملك العين دعمها عند رؤيتها » ، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً وياضياء الليالى الملهمات
أناف قبرك في هضب يميزه فتنحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات
ماريء مثلك في ماضٍ ومعتدى أن لا يرى الدهر في حال ولا آت ^(٢)

وزاره المقرئ مؤرخ الأندلس في سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة في مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً ^(٣) . وقد انتهزت فرصة وجودي بمدينة مراكش في خريف سنة ١٩٥٦ ، فزرت أغمات . وقد غدت مدينة أغمات هذه ، التي اشتهرت في التاريخ وفي الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد ، اليوم قرية متواضعة ، تقع على مقربة من مراكش ، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية ، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البري ، ولا يعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وأما قبر المعتمد ، فيقع في ظاهرها في طلل خرب يحيط به سور قصير ، وفي داخله حظيرتان ، في إحدهما قبر المعتمد ، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية ، وعليه كومة من الأحجار الصغيرة . وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد الرميكية . وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر ، ما ذكره

(١) تنافسة الجراب في علالة الاغتراب . مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الفيزري .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥ .

(٣) راجع فتح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الحمول والعفاء عليه ، وشعرت بمثل ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.

كانت مأساة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسي الملوكية ، وما زالت محنة هذا الأمير ، تحفظ إلى يومنا ، بالرغم من كر العصور ، بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق ، وفي كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات . فثلاً يقول لنا ابن الأثير في التعليق على أسر بني عباد ومعاملتهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعلاً لم يسلكها أحد من قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده ، إلا من رضى لنفسه هذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره » (١) .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك : « ومهما كانت فضائل يوسف ، فإن الشبهة إزاء المغلوبين لم تكن منها ، فقد كان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً » . ثم يقول ، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيماً ، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته ، التي تنعكس عليها أقل الحوادث في حياته ، بل إننا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه ، من قصائده ، ثم يقول : « ثم إنه ، أى المعتمد كان لحسن طالع آخر ملك أندلسى ، يمثل بجدارة وروعة ، قومية وحضارة عقلية سقطتنا تحت نير البربر الذين فتحو البلاد . ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء ، الذين حكموا الأندلس . وإننا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر ، بل ودون أى شخص آخر ، كما تثير آخر زهرة في الموسم ، وآخر أيام الخريف الحلوة ، وآخر أشعة الشمس الغاربة ، في نفوسنا أيما أسى » (٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص . على سيرته وعلى خلاله سمياً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

(٢) Dozy : Hist. V. III. p. 178—179

وتتلخص هذه الأعذار في أن المعتمد كان سياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، ومخالفته للنصارى على اخوته في الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام للخطر ، تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . وقد أدرك المعتمد ، عقب سقوط طليطلة ، فداحة أخطائه ، وأبدى صريح ندمه لما أتم^(١) . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة ، وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل في ذلك السبيل بتضحية حصونه التي طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى في موقعة الزلاقة أعظم البلاء ، وعاون في نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لا ريب أن البواعث التي دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، لم تكن دينية فقط ، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليذو ، مجرد جهاد في سبيل الله ، بل كانت ذنوبية قبل كل شيء ، ولم يك ثمة شك في أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها . وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل ، أي ضرورة بل أي حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يجمعوا فيهم قتلاً وتعذيباً ، على النحو الذي اتبعوه ، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم^(٢) . وأي ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين ، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا في يده أسرى لأحوالهم ولاتوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوي القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلاً بتبعات أعماله وأخطائه كأمر ، وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، وأسرره واعتقاله ، للتكفير عما أتم يسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشيء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

(١) راجع ما ورد في رسالة ابن عباد لألفونسو السادس (ص ٧٦ من هذا الكتاب) .

(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد ، هم المأمون والراضي ومالك ، وقتلوا المتوكل بن الأفلح وواديه الفضل والعباس ، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء ، في مناظر من القسوة المثيرة .

هذه تأملات تثيرها في النفس محنة المعتمد بن عباد . ولا ريب أن هذه الخاتمة المؤسسية التي قدر للمعتمد أن يعاني آلامها المروعة المادية والمعنوية ، لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

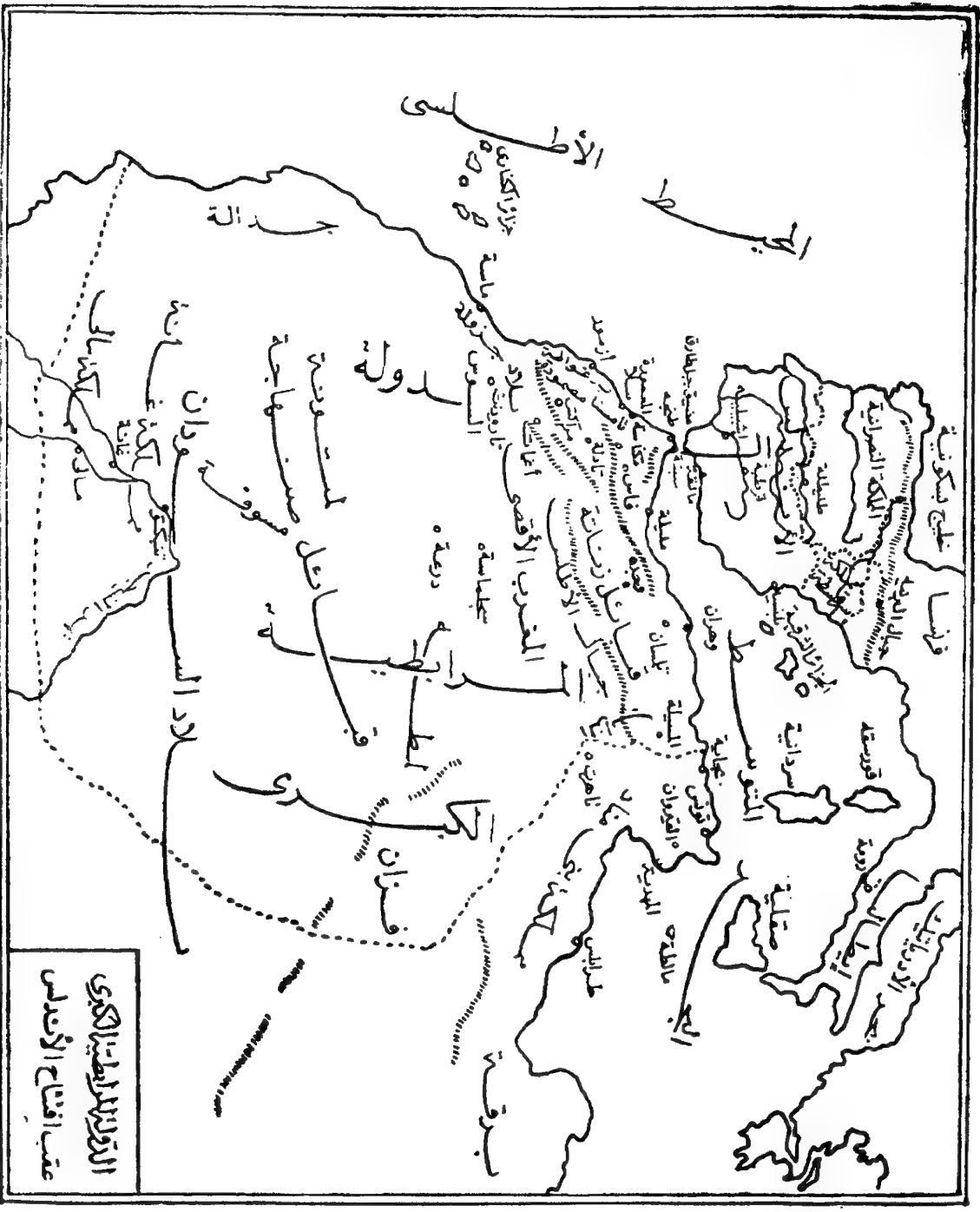
ذكرنا فيما تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف ، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبي زكريا بن واسنو (وقيل بل محمد بن عائشة) لمحاصرتها وافتتاحها . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن المرابطين أشرفوا على ألمرية ، وحاصروها ، وأميرها المعتمد بن صمادح عليل يعاني مرض موته ، وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته الماثورة « نغص علينا كل شيء حتى الموت » ، ثم توفي أثناء الحصار في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)^(١) . وفي رواية أخرى أن المعتمد توفي قبل مقدم المرابطين ، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة قبيل وفاته ، بأن يترقب مصير إشبيلية ، فتي سقطت في أيدي المرابطين ، وخلع أميرها المعتمد بن عباد ، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً ، ويعبر البحر في أهله وأمواله ، إلى العدو ، ويلتجئ إلى حماية بني حماد أمراء القلعة . وقد نفذ معز الدولة وصية أبيه ، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله ، وأن يغادر ألمرية في آخر لحظة ، قبل أن يطوقها المرابطون ، وأن يعبر البحر إلى العدو (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في أخبار مملكة ألمرية^(٢) . ودخل المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها ، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية ، ثلاثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط في أيدي المرابطين .

وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك في شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٠٩١ م) ، ثم استولوا في العام التالي (٤٨٥ هـ) على شاطبة وشقورة ودانية .

ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية ، أن المرابطين بدأوا يتدخلون في حوادث بلنسية ، ويبدلون جهودهم لتحطيم مغامرات « السيد » في هذه المنطقة ، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد قام الجيش الذي يقوده

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٧٢ . والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٧٤ ، وروض القرطاس ص ١٠١ .



الارزاق والارزاق الاكبر
عقب افشاح الاندلس

ابن عائشة بدوره في ذلك . ثم قدم إلى شرق الأندلس جيش مرابطي آخر ، أوفر عدة وعدداً ، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف ، وحاصر بلنسية ، وفي داخلها السيد ، وذلك في أواخر سنة ٤٨٨ هـ . ولكن مقاومة السيد ، ومن بعد وفاته مقاومة القشتاليين ، استطالت بضعة أعوام ، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا في شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلاً شافياً في أخبار مملكة بلنسية .

واستمرت الحيوش المرابطية في تقدمها شمالى بلنسية ، نحو أراضي الثغر الأعلى ، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق في رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤ م) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة . وفي سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ، وعقب انتصار المرابطين في موقعة إقليش ، سار جيش مرابطي بقيادة أبي عبد الله بن الحاج والى بلنسية ، شمالاً صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تم للمرابطين فتح شرق الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها في تلك الأنحاء .

وأما في غربي الأندلس ، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية ، أن الدائرة سوف تدور عليه ، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وبعث إليه برسالة المؤثرة التي أوردناها من قبل ، يدعوه فيها لنصرة الأندلس . ولما استولى المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين ، فاستقبلهما بحفااء ، وأنصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته . على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبي بكر فاتح إشبيلية وحاكمها . واستمرت هذه العلاقات الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام . ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضي مملكة بطليوس ، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته ، ولم يجد أمامه إلا هذا الخطر الداهم ، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذي سلكه ابن عباد من قبل ، وهو الاستغاثة بالفونسو السادس ملك قشتالة . وبذل ابن الأفطس للملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته ، ثلاث مدن هامة من أملاكه ، هي أشبونة ، وشنترية ، وشنترين . وقد كان لهذا التصرف وقع سيء ، إذ ، انحرف

أهل بطليوس عن المتوكل ، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . وفي أوائل سنة ٤٨٨ هـ (أوائل ١٠٩٥ م) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سيرين أبي بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها ، فاخترق أراضي بطليوس بسرعة ، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معونة لحليفة المسلم ، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيع الضخمة . ولكن المرابطين اقتحموها بعنف ، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس ، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة ، بعد أن عذبوه لكشف مخابثها . واحتل المرابطون بطليوس ، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسيرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم في الطريق (١) . وكان للمتوكل ولد آخر هو المنصور ، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن متناجش على مقربة من حدود قشتالة ، يمتنع فيه ، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته ، سار في أهله وأمواله إلى ملك قشتالة ، والتجأ إلى حمايته ، وأقام بأرضه ، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات (٢) . وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت في ظل بني الأفطس خمسة وسبعين عاماً ، وتم للمرابطين فتح غربي الأندلس كله ، كما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقي الأندلس .

وقد أذكت محنة بني الأفطس ، كما أذكت محنة بني عباد من قبل ، فجيعة الشعر الأندلسي ، ونظم في رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم ، وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، مرثيته الشهيرة ، التي تعتبر من أجل المراثي الأندلسية وأروعها ، وهذا مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
ومنها :

فلا تغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينها سوى السهر
مال ليالي أقال الله عثرتنا من الليالي وخانتها يد العبر
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وإن زاغت عن النظر

(١) المعجب ص ٤٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٦ ، وراجع : Dozy : Hist. V. III. p. 152

وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 504

(٢) هذه رواية ابن عذاري في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها بخزانة القرويين . وراجع

أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦ .

تسر بالشيء لكن كى تغر به
كم دولة وليت بالنصر خدمتها
كالأيم ثار إلى الخافى من الزهر
لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
ومنها فى رثاء بنى الأفطس :

بنى المظفر والأيام لا نزلت
صحفاً ليومكم يوماً ولا حملت
من للأسرة أو من للأعنة أو
من للبراعة أو من للبراعة أو
ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته
أين الإباء الذين أرسوا قواعده
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا
كانوا مصابيحها فذخبوا عثرت
قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
على دعائم من عز ومن ظفر
فلم يرد أحد منها على كدر
عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
هذه الخليفة يا الله فى سدر (١)

هذا وقد أحمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبو الحسن جعفر بن ابراهيم
المعروف بابن الحاج اللورق فى تلك الأبيات الثلاثة :

كم بالمغرب من أشلاء مخترم
أبناء معن ، وعباد ، ومسلمة
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية
وأصبحوا بين مقهور ومسجون (٢)

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة ،
وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل ، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى
صهر ألفونسو السادس ، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها ، وقتلوا
وأسروا معظم حاميتها النصرانية ، وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة
الإسلامية (نوفمبر سنة ١٠٩٤ م) (٣) .

(١) تراجع القصيدة بأكملها فى المعجب ص ٤٢ - ٤٦ ، ونشرت ناقصة فى أعمال الأعلام

ص ١٨٦ - ١٨٩ .

(٢) الحلة السيرة ج ٢ ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٣) راجع الحلال الموشية ص ٥٥ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 502

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضي الأندلس . ففي سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة ، وسار نحو قرطبة ، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته ، تحول عنها وسار إلى قرمونة وهي حصن إشبيلية الشرقي ، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة ، واستولى على غنائم وفيرة وسبي جموعاً عظيمة ، ثم اتجه صوب إشبيلية ، وعاث في بسائطها ، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع ، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين ، سارا في قواته وغنائمه صوب بطليوس ثم جاز إلى أراضي قشتالة عائداً إلى قواعده (١) .

- ٤ -

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً في سبتة ، يعنى بإمداد جيوشه الغازية في شبه الجزيرة ، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس ، ثم غادرها إلى مراكش ، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة ، وعهد بشئون الأندلس ، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني .

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) حيث جاز إليها جوازه الرابع . وفي رواية أخرى أن هذا الجواز الرابع وقع في سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) (٢) وفي رواية ثالثة ، وهي رواية ابن عذاري أنه وقع في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكانت ممالك الطوائف كلها قد سقطت يومئذ في أيدي المرابطين ، ما عدا سرقسطة ، التي استولى عليها المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل ، وآلت أسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى سلطان البربر وغدت ولاية مغربية ، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين ، وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة ، لكي تظهر فيما بعد ، وتضطلع ضد المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية .

واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد ، فجهز جيشاً قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج . وسار هذا الجيش صوب

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) R. M. Pidal : *ibid.* p. 535

ظليطة مخترقاً أراضي قشتالة ، والتي بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على مقربة من كونسويجرا ، فهزم النصراري هزيمة فادحة ، وفر ألفونسو في فلوله نحو كونسويجرا والتجأ إليها ، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا (أغسطس سنة ١٠٩٧ م) .
وقصد يوسف إلى قرطبة ، لينجز المهمة التي قدم في الواقع من أجلها إلى الأندلس ، وهي أخذ البيعة لولده أبي الحسن علي . وكان قد استقدمه معه هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم ^(١) . وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده ، لما آتته فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر له عهده بذلك في سنة ٤٩٥ هـ . وفي شهر ذي الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشباه المرابطين والفقهاء . وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده علي ، وكان من شروط تقديم علي لولاية العهد : أن ينشئ بالأندلس جيشاً مرابطاً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس : منها سبعة آلاف بإشبيلية ، وألف بكل من قرطبة وغرناطة ، وأربعة آلاف في شرق الأندلس ، ويوزع الباقي على الثغور ^(٢) . وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده ، تمت بصلوة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة ، وزعامتها الأدبية السالفة لقواعد الأندلس .

وفي أواخر سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره يحضره مراكش ، واستمر عليلاً زهاء عام وشهرين ، حتى توفي في مستهل شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م) ^(٣) . وقيل بل توفي في ربيع الآخر سنة خمس مائة . وكانت وفاته بقصره بمراكش ، ومن حوله ولده أبو الحسن علي وأبو الطاهر تميم ، وأكابر لمتونة ، ودفن بالقصر ، وأوصى ولده علياً قبيل وفاته بثلاثة أمور : الأول ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثاني أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلًا بينه وبين النصراري ، والثالث أن يعطف علي من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عن أساءتهم ^(٤) .

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ . ويقول ابن أبي زرع إن علياً كان عندئذ بسبته حيث نشأ (روض القرطاس ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفي في الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ (ج ٢ ص ٤٤٨) .

(٤) الحل الموشية ٦٠ .

وهكذا اختتمت حياة البطل المغربي العظيم ، بعد أن عاش زهاء مائة عام ، وقضى في الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن ، منذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللامتوني لقيادة الجيش المرابطي ، وقضى في حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب منذ دخل مدينة فاس في سنة ٤٦٢ هـ ، نحو أربعين عاماً ، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً ، واضطلع في المغرب بحروب ومعارك لاحصر لها ، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً من أجل الجهاد في سبيل الله ، وأحرز أعظم انتصاراته في معركة الزلاقة الحاسمة ، وهي بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها .

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته ، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة ، ولم يثر سجباً حول خلّاله العظيمة ، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة في معاملة أمراء الأندلس ، وهو ما سبق أن عرضنا إليه .

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية
خلال القرن الحادى عشر الميلادى

الفصل الأول

الملكة الإسبانية الكبرى

في عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

المالك الإسبانية في أواخر القرن العاشر . نافاروليون وقشتالة . سانشو الكبير يحتل قشتالة . ولده فرناندو أول ملوكها . ألفونسو الخامس ملك ليون . ولده برمودو الثالث . استيلاء سانشو الكبير على ليون . مصرع برمودو الثالث . استيلاء فرناندو على ليون . تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة سانشو . الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسيه ملك نافار . غرسيه يحاول اغتيال فرناندو ملك قشتالة . إنتقام فرناندو . الحرب بين الأخوين . هزيمة غرسيه ومقتله . تعيين ولده سانشو مكانه . إنبهار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف . تحول ميزان القوى في شبه الجزيرة . ضعف دول الطوائف . تنافسها في استعلاء الملوك النصراني . تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد . غزو فرناندو الأول لولاية البرتغال . حصار بازو وسقوطها . سقوط لاميجو . تهديد شترين . غزو فرناندو لمنطقة وادي الحجارة . المؤمن بن ذي النون يسترضيه بالمال والخضوع . غزو فرناندو للملكة إشبيلية . خضوع ابن عباد وتمهده بالجزية . موافقته على نقل رفات القديسين النصراني . مسير فرناندو لغزو قلمرية . حصارها وسقوطها . الكونت سسندويتولى حكمها . مسير فرناندو إلى بلنسية وموقعة بطرنة . مرض فرناندو ووفاته . تلقبه بالإمبراطور . أعماله الإنشائية . مجلس جويانسا . قوانينه الكنسية والدستورية . تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته .

مضيفنا فيما تقدم ، في تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، أعني حتى نهاية عهد المنصور بن أبي عامر ، ونحاول الآن أن نتبع تاريخ هذه الممالك خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، أعني خلال الحقبة التي شهدت سقوط الخلافة الأندلسية ، وانهباء الأندلس الكبرى ، وانتشارها إلى دول الطوائف ، ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وانهباء هذه الدول الإسلامية الصغيرة .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية في أواخر القرن العاشر الميلادي ثلاثاً ، وهي نافار (نبرة) ، وبحكمها غرسيه سانشيز ، ولد سانشو غرسيه الثاني . وكانت نافار يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة ، إذ كانت تشمل فضلاً عن الوطن الأصلي نافار ، ولايات كنتبريا ، وسوبراني ، ورباجورسا . ولما توفي

غرسية سانشيز ، في سنة ١٠٠٠ م ، بعد حكم دام خمسة أعوام ، خلفه في الحكم ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

ومملكة ليون ، وكان يحكمها برمودو الثاني منذ سنة ٩٨٢ م ، واستمر في حكمها بالرغم من مناوأة أخيه راميرو ، ومحاربتة له ، حتى توفي في سنة ٩٩٩ م ، وخلفه في الحكم ولده ألفونسو طفلاً ، وتولى الوصاية عليه الكونت مننديث كونثال ، أحد أشرف المملكة .

ومملكة قشتالة . وكانت مازال في مرتبة « الكونتية » أو الإمارة ، وكان على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثال^(١) . ولما توفي في سنة ٩٩٥ م ، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م ، ثم خلفه ولده غرسية . وحدث أن قصد غرسية إلى ليون ليم عقد زواجه بأخت ملكها برمودو الثالث : فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨ م) وقتله أبناء الكونت فيلا ، وهو أحد أشرف قشتالة الذي نزعهم غرسية أملاكهم . وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته ، وترتب على ذلك تغيرات عظيمة في مصابر الممالك الإسبانية .

ذلك أن سانشو الكبير ملك نافار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية ، ابنة سانشو غرسية أمير (أوكونت) قشتالة ، فلما لقي الكونت غرسية مصرعه في ليون ، بادر سانشو إلى قشتالة : فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق زوجته ، وندب لحكمها ولده فرناندو ، وأسبغ عليه لقب الملك ، فكان أول ملوك قشتالة . وتلقب هو بملك اسبانيا ، وانتقم من آل فيلا قتلة غرسية ، فأحرقهم أحياء ، بالرغم من كونه قد جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة .

وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته في سنة ١٠٢٧ م ، وغزا أراضي المسلمين المجاورة في شمالي البرتغال ، وافتتح بعض نواحيها ، وحاصر مدينة بازو . وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين ، فتوفي متأثراً بجراحه . وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستوري في سنة ١٠٢٥ م ، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية : وأصبح العرش وراثياً . ولما توفي خلفه ولده برمودو الثالث . وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد تزوج من ابنة ألفونسو

(١) ويسميه ابن الخطيب في الفصل الذي يخصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية ، دون شانهه قنر قشتالة (أعمال الأعلام ص ٢٢٩) .

أخت برمودو ، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين : وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو ، كانا يريان تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون . على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا الاحتمال ، بل سار في قواته إلى ليون وافتتحها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه .

ولما توفي سانشو الكبير ملك نافار ، أو ملك اسبانيا ، في سنة ١٠٣٥ م ، استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه ، واثارت بينه وبين صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين ، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما في موقعة تامارون في سنة ١٠٣٧ م وفيها لقي برمودو مصرعه . ونظراً لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغداً ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة . وانتهى بمقتل برمودو الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية ، منذ أيام القوط ، ومذ قامت مملكة أشتوريش وجليقية وليون في أواخر القرن الثامن الميلادي ، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة .

- ١ -

وكان سانشو الكبير ، قد قسم المملكة قبيل وفاته ، بين أبنائه الأربعة ، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية ، وغرسية أكبر أولاده بالوطن الأصلي نافار ، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو ، وخص ولده غير الشرعي ، راميرو ، برقعة ضيقة تمتد بجذاء نافار من باب شيزروا جنوباً ، وتسمى بمملكة أراجون ، وولده كونزالو ، بمنطقة صغيرة أخرى في أواسط البرنيه ، وهي ولاية سوبرابي ورباجرسا . وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية ، بهذا التقسيم أربعاً ، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة في شمال شرقي إسبانيا ، وقد كان يحكمها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير .

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة ، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابي الصغيرة . ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد (١٠٣٨ م) ، فاختر

أهل سوبرابي أخاه راميرو أمير أراجوان ، ليخلفه في حكم الولاية ، وبذا اتحدت الإماراتان في مملكة واحدة ، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته ، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولاً بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها ، وكان غرسية ملك نافار ، غائباً يحجج إلى رومة ، وفضلاً عن ذلك فقد كان شعب سوبرابي هو الذى اختار راميرو وآثره .

يقول المؤرخ لافونتي : « وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة ، متأصلاً في أسرنا الملوكية ، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جرائم الشقاق والموت » (١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابي ، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة نافار نفسها . ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق مشروعه الكبير ، فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة ، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته ، ثم زحف راميرو في قواته المتحدة من النصراري والمسلمين إلى نافار ، واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر . ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجترار ، فحشد قواته على عجل ، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة : وسار إلى تافالا ، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام ، وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون ، فساد بينهم الاضطراب ، ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه ، وأبيد معظم جيشه قتلاً وأسرأ ، وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين ، ووقعت هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م .

ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة في سوبرابي خشية المطاردة ، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضاء على جيش أخيه : ولم يحاول مطاردته داخل بلاده ، وأنفق راميرو بضعة أعوام في تنظيم شتونه : والنهوض من عثرته ، وأنشأ جيشاً جديداً ، وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى . ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى : وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين نافار وقشتالة . وكان غرسية ملك نافار ، وهو أكبر

لإخوته ، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة العظيمة الشاسعة ، مملكة قشتالة وليون ، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر ، وكان يعول في تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة ، ولم يكن فرناندو في البداية يشك في ولاء أخيه أو صدق نياته ، لاسيما وقد حارب إلى جانبه في معركة تامارون ، ضد برمودو ملك ليون ، ومن ثم فقد وضع غرسية ، مشروعه لاغتيال أخيه ، وذلك بأن تظاهر بالمرض ، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش الموت . وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة ، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة ، بيد أنه قد نمي إليه خلال سيره ، حقيقة الكمين الذي دبر لاغتياله ، فارتد مسرعاً إلى برغش ، وقد أضمر لأخيه البغادر أسوأ النيات . ولم يفتن غرسية إلى أن أخاه قد وقف على حقيقة أمره . ثم جاء دور فرناندو في تدبير الانتقام من أخيه ، فدعاه إلى زيارته في برغش بعد ذلك بأعوام قلائل ، فسار إليه غرسية دون أية ريبة ، ولكنه ما كاد يصل إلى أراضى قشتالة ، حتى قبض عليه وزج إلى إحدى القلاع ، بيد أنه لم يفقد شجاعته ، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله ، فعاد إلى نافار ، معولاً على الانتقام .

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين ، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضى قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه . ثم اعتزم أن يحاول الضربة الحاسمة . فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم راميرو وحشد كل ما استطاع من الحند والعدة ، وأمدّه حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده . ونفذ بجيشه القوى إلى أراضى قشتالة ، واثقاً في شجاعة جيشه . وكان أخوه فرناندو في تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون . واستمر غرسية في سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا ، الواقع على مقربة من شرقي برغش ، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه ، فبعث إليه اثنين من كبار الأحرار ، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء ، فصرفهما غرسية بخشونة . وفي فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م ، اشتبك الجيشان في معركة عنيفة ، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة ، بيد أن الخلل ما لبث أن دب إلى جيشه ، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر الآخر ، وشن فرسان ليون في نفس الوقت على النافاريين هجوماً عنيفاً ، وأصاب غرسية ،

وهو يقاتل في قلب الممعة طعنة قاتلة ، فسقط من جواده وأسلم الروح في الحال ، بين يدي كاهنه ، فانتثر شمل النافارين ، وركنوا إلى الفرار ، وأغضى فرناندو عن مطاردتهم ، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين ، فزقوا قتلا وأسرًا . وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم ، وأن يدفن في ناجرة في الكنيسة التي أنشأها هناك ، وأعلن في الحال اختيار ولده الصبي سانشو مكانه ملكاً على نافار ، وأعلن الملك الحديد من جانبه طاعته لعنه الظافر ، الذي شاء أن يبقى له على تراث أبيه ، ولم يقطع فرناندو شيئاً من أراضي نافار سوى بعض النواحي الواقعة على ضفة الإيبرو (١) .

في الوقت الذي كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا النحو بنار الحرب الأهلية ، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم وأطامعهم ، كانت إسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة ، وقامت بها أكثر من عشرين دولة من دول الطوائف . وبينما كانت الخلافة تختصر في قرطبة وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بني أمية ، وبين المتوثبين من بني حمود ، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان ، يضطرمون بأطامعهم الوضيعة ، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة ، من الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا تحبو أوارها ولا يستقر قرارها . والواقع أن المصير الذي تردت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم الانتحارية ، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه إسبانيا النصرانية من حروب أهلية محدودة النطاق والمدى ، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية ، ووحدتها ونهوضها . ولقد كان من رحمة القدر فقط ، أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة أن تحتفظ بحياتها ، وأن شغلت عدوتها الخالدة إسبانيا النصرانية عن مطاردتها والقضاء عليها ، بخلافاتها وحروبها الداخلية في تلك الفترة ، أعنى في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي .

منذ بداية هذا القرن ، حدث في شبه الجزيرة انقلاب حاسم في ميزان

(١) راجع في تفاصيل هذه الحوادث : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 382—383

وكذلك R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 122—123

القوى السياسية والعسكرية ، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة ، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور ، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية ، وتكاد تخضعها لصولتها ، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية ، ويؤدون لها الجزية في معظم الأحيان ، إذا بها بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف الهزيلة المتنازعة ، تفقد كل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع ، ويتسابق ملوكها إلى خطب ود الملوك النصارى ، والالتجاء إليهم ، واستعدادهم على محاربة بعضهم البعض . وقد كان الملوك النصارى ، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص ، حتى في فترات ضعفهم وتفرقهم ، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى ، والغنى المادى . وقد بدأت سياسة الاستعداد هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها ، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتئاء سلطان الخلافة ، تستمد عون النصارى ، على نحو ما فعل الفتى واضح ومحمد بن هشام المهدي في الاستنصار بأمر برشلونة ، وسليمان بن الحكم والبربر ، في استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة . على أن هذا التنافس في استعداد الملوك النصارى ، والاستعانة بهم ، يتسع نطاقه تباعاً ، ويقعدو على يد ملوك الطوائف ، حسب رأينا في أخبارهم ، ضرورة سياسية وعسكرية يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة . وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة أعظم استغلال ، حتى غدا ملوك الطوائف ، في الواقع آلات مسخرة في أيديهم ، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته : حسب رأينا ، على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة .

على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية ، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية ، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى في شبه الجزيرة ، منذ أواسط القرن الحادى عشر ، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة ، التى تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية *La Reconquista* ، وغدت ظاهرة قوية وعاملاً حاسماً ، في ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية .

وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفردلند ، فإنه ما كاد ينتهى من الصراع الداخلى الذى نشب بينه وبين إخوته ، حتى تاهب لغزو أراضي المسلمين . وفى سنة ١٠٥٧ م ، عبر في قواته نهري دويرة وتورمس ، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

(شمالى البرتغال) ، وهى قاصية أراضى المسلمين من الشمال الغربى ، وكانت هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس ، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بثبوتها ، وتعتمد فى الدفاع على نفسها ، فاجتاحها فرناندو وعاث فيها ، واستولى على بعض الحصون ، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu ، وضرب حولها الحصار . فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه ، وأبدى الرماة المسلمون ، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس ، براعة عظيمة فى إصابة العدو ، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثثة ، واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع ، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة بمنتهى العنف ، وأمعنوا فى أهلها قتلاً وأسراً . وكان من بين الأسرى ، ذلك الراى الماهر ، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عاماً ، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ، وعذب حتى أسلم الروح . ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو (مليقة) الواقعة شمال بازو، وكانت حصينة عالية الأسوار ، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقتل معظم أهلها وأسره ، واسترق الأسرى من أهل المدينتين ، وأسكن بهما النصارى . ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو صاحب السيادة على تلك الأنحاء ، ليقينه باستحالة الدفاع عنها ، وذلك حسبما أشرنا إليه من قبل فى أخبار مملكة بطليوس .

وقد سبق أن أشرنا كذلك فيما تقدم إلى الحملة التى بعث بها فرناندو ضد مدينة شترين الواقعة فى شمالى أشبونة على نهر التاجه ، وكيف اضطر ابن الأفطس عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار .

وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً ، ولاسيما ابن عباد ، وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأنًا . ومن ثم فقد خرج فى جيشه فى سنة ١٠٦٢ م ، إلى أنحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية ، وأغار على مدينة سالم ، وأوسيدا ، وطمينكة ، ووادى الحجارة ، وقلعة النهر (ألكالادى) هنارس) وعاث فى بسائطها تخريباً وسيياً . فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى ، وقدم إليه الهدايا ،

وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهده بأداء الجزية ، فقبل فرناندو المال والعهد ، وعاد مثقلاً بالغنائم والتحف .

وفي العام التالي ، خرج فرناندو فأغار على أراضي مملكة إشبيلية ، وخرب بسائطها ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف ، يناشده المودة والسلام ، على أن يؤدي له الجزية ، فأجاب فرناندو إلى رغبته ، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات القديسة خوستا ، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت في إشبيلية ، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته ، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة ، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة ، وعندئذ زعم أحد أعضائها ، وهو الأسقف ألفيتو ، أنه قد ظهر له القديس إيسيدورو ، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط ، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى في مكانها لحماية إشبيلية ، وعرض أن تحمل رفاتة هو ، وكشف من مكان وجودها ، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس في المكان المحدد ، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم ، في الكنيسة التي سميت من ذلك التاريخ باسمه ، أعني بكنيسة سان إيسيدورو ، وكان ذلك في أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م^(١) .

وكان فرناندو على أثر إخضاعه للملك بطليوس وطليلة وإشبيلية لصولته ، وإرغامهم على دفع الجزية ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قلمرية ، وهي أعظم القواعد الإسلامية ، في شمال غربي الأندلس ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة ، من القديس ياقب ، فقصده إلى مزاره بشنت ياقب ، وقضى به ثلاثة أيام في صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية في جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار (يناير سنة ١٠٦٤ م) . وقد سبق أن عرضنا إلى حصار قلمرية ، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية ، من أن رائدة ، قائد الحامية الإسلامية ، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو ، وأن ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيائته ، وترك ابن الأفطس قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو . بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 388&389

وكذلك R. M. Pdal : ibid; p. 135

أشد دفاع . واستمر الحصار حولها زماء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار . ولكن رهبان دير لورقان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة في الجبال . وأخيراً نجح القشتاليون في إحداث عدة ثغرات في أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا في الدفاع حتى نفذت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية في اليوم الحادى عشر من يولييه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين (١) . وعهد بحكم المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن في صوغ السياسة القشتالية نحو الطوائف ، هو الكونت المستعرب مسنندو دافيدس ، الذى تعرفه الرواية الإسلامية بششند . وكان حسبنا أسلفنا في أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة ، وأسر في أحداثه في غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس ، وربى في البلاط العبادى وأعجب المعتضد فيما بعد بمواهبه ، وقربه واستخدمه في السفارة بينه وبين فرناندو ، ثم غادر إشبيلية بعد ذلك ، والتحق بخدمة البلاط القشتالى (٢) ، وقربه فرناندو وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية ، والدين الإسلامى ، وأحوال المسلمين وعاداتهم . فحكم مسنندو قلمرية بكفاية ، ونال احترام النصارى ، والمسلمين على السواء ، وكان يلقب عندئذ « بالوزير » على النمط الإسلامى ، وفي عهده تمت قلمرية ، وأنشئت بها عدة صروح فخمة . وفي بعض الروايات أن مسنندو لم يعين حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها ، حسبما تقدم ذكره في موضعه ، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م (٣) .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) متفقة في ذلك مع الرواية النصرانية ، بيد أنها تختلف معها في بعض التفاصيل . وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس ، إلى أقوال الرواية

(١) راجع في حوادث فتح قلمرية 384 & 385 p. V. II. M. Lafuente : ibid;

وكذلك 145&149 p. R. M. Pidal : ibid;

(٢) الذخيرة القيم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ .

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes, p. 467

الإسلامية^(١) وأشرنا إلى ماعمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضي الواقعة في شمالي البرتغال بين نهري منهو ودويرة .

ونحن نعرف مما تقدم في أخبار مملكة بلنسية ، أن فرناندو ، خرج في قواته في أوائل سنة ١٠٦٥ م ، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر ، قاصداً إلى بلنسية ، يبغي افتتاحها ، وأنه اخترق في طريقه أراضي مملكة سرقسطة الخنوية ، وعات فيها معاقبة لأمرها المقتدرين هود لتخلفه عن دفع الخزية ، ثم ضرب الحصار حول بلنسية . ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً للمناعة أسوارها ، وأهبة أهلها ، تظاهر بمغادرتها ، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها . وعندئذ خرج البلنسيون دون تحوط ، وفاجأهم القشتاليون في بطرته وهزموهم هزيمة شنيعة حسبنا فصلنا ذلك في موضعه .

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض ، فأثر العودة إلى ليون ، وهناك احتفل بدفن رفات القديس إيسيدورو في أوائل ديسمبر . وكان في الواقع مرض موته ، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى توفي في السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٥ ، ودفن في نفس الكنيسة التي دفن فيها القديس ، والتي غدت من ذلك الحين مدفنًا للملك قشتالة .

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وفي عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة ، ومهد حكمه المليء بالوقائع المظفرة لمجد الملوك اللاحقين . وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير *El Magno* ، وكان سمي نفسه بالإمبراطور ، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكي ناغار وأراجون . وفي عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيماً ، ودفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية ، واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون . وقد كانت غزواته ، بالرغم مما ينسب إليه من التقى والورع ، تنسم بزرعة دموية مروعة ، تبدو واضحة في قسوته وقظاعته في معاملته المدينين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة ، وسفك دمائهم دون تمييز ولا حرج ، واسترقاقهم جملة . وقد اشتهر فضلاً عن غزواته وفتوحه المظفرة ، بأعماله الإنشائية والدستورية ، فقد جدد مدينتي ليون وسمورة ،

(١) راجع مقوط قلمرية في البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ .

وكاننا قد خربنا منذ غزوات المنصور بن أبي عامر ، وأنشأ في ليون عدة صروح وكنائس فخمة ، مازالت تزدان بها حتى اليوم . وفي سنة ١٠٥٠ م ، دعا إلى عقد اجتماع كنسي تأسيسي في «جويانسا» اعتبر في نفس الوقت مجلساً نيابياً «كورتيس» ، وشهدته الملكة والأشرف والأساقفة . وصدرت عنه عدة أصول كنسية ودستورية ، كان لها أكبر الأثر في صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة فيما بعد . ومنها أن يُعْمَل في جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج ، أو شهود مآدب الزواج . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة ، منها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها بالتقادم ، وأن المتهم بجريمة ما ، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أضْحَى تحت حماية القضاء الكنسي ، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة ، وأن القوامس (الكونتات) يجب عليهم هم ونوابهم في القضاء الحثائي ، أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق ، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق في مملكة ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة *Buenos Fueros* (القوانين الطيبة) وفي مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة *Benefactorias* ، وأن يقضى على المحرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفي من الكنيسة ، وصدرت كذلك عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون في المملكة (١) . وتنه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو ، وعظمة عهده ، ومقدرته كسياسي ومحارب ، وتنه بالأخص بتقواه وورعه . وفائق رعايته للكنيسة ، وشغفه بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها ، والإغداق عليها ، واهتمامه بنقل رفات القديسين من أراضى المسلمين إلى الأراضى النصرانية ، وهى ترى على العموم أن مملكة قشتالة وليون المتحدة : قد وصلت في عهده إلى درجة من الاستقرار والأهمية والتفوق ، لم تصل إليها من قبل قط (٢) .

(١) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (ترجمة محمد عبد الله عنان)

الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤ .

(٢) M. Lafuente : *ibid*, Vol. II. p. 485—488

الفصل الثاني

إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول

ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد

تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده . غزو سانشو ملك قشتالة لنافار وهزيمته . غزوه للمملكة ليون . الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو . هزيمة ألفونسو وأسره . فراره والتجأؤه إلى المأمون ملك طليطلة . المأمون يرحب به ويكرم وفادته . أقوال الرواية النصرانية في ذلك . ألفونسو يدرس خطط الاستيلاء على المدينة . تطور الحوادث . غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته . استيلاء سانشو على جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية . استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إلييرة . محاولته انتزاع ضمورة من أخته أورাকা . مصرعه تحت أسوارها . استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو . مغادرة ألفونسو لطليطلة . عهده للمأمون بمسانته وولده . تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه . مسير ألفونسو إلى برغش . حلفه بمرأته من مقتل أخيه . يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية . يدبر كيداً لأخيه غرسية . مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد . وفاة المأمون وولاية حفيده القادر . ألفونسو يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة . إغمارته على أراضيها وتخريبها . القادر يلتجئ لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية . قيام الثورة في طليطلة . فرار القادر . وعوده بمعاونة ألفونسو . المعتد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو . مضى ألفونسو في إرهاق طليطلة وافتتاحها . الطابع الصليبي لهذا الفتح . طليطلة حاضرة إسبانيا النصرانية . الأسقف برنار عييد الكنيسة الإسبانية . مؤامراته لإزالة المسجد الجامع . تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . سقوط طليطلة وأثره في ميزان القوى . أثره في تحول ملوك الطوائف . موقعة الزلاقة وما بعدها . عود الطوائف إلى تفرق الكلمة . عدوان السيد والقشتاليين . عبور أمير المسلمين للمرة الثانية . حصار حصن ليط وما أقرن به من حوادث . إنسحاب المرابطين . محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله . انتصارات المرابطين في منطقة بلنسية . وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية . إستيلاء ألفونسو على شترين . موقعة إقليش . هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو . البابوية وتدخلها في إسبانيا . سعيها إلى فرض سيادتها الروحية . الأسقف برنار ودوره في ذلك . إسبانيا والحروب الصليبية . صفة الملك الوراثية . نظام الإقطاع وخواصه . تنظيم ألفونسو لأسس التشريع . ألفونسو ووراثه عرشه . مجلس ليون وقراراته في ذلك . ملكة أراجون . ملكة نافار . سانشو ملك نافار ومصرعه . سانشو راميرز ملك أراجون . استيلاؤه على متشون وحصاره لوشقة . وفاته وقيام ولده بيدرو مكانه . سقوط وشقة . بيدرو الأول وصفاته . وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه . إمارة برشلونة . الكونتات الفرنج . آل بوريل أمراء برشلونة . خلفاؤهم آل برنجير . رامون برنجير الكبير وأعماله . الصلات بين بني هود وآل برنجير . المستعين بن هود والكونت برنجير . رامون برنجير الثالث .

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة ، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف (١٠٦٤ م) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتي غير معتبر في ذلك بما حدث من قبل حينما قسمت المملكة على يد أبيه سانشو الكبير .

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة ، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وخص ألفونسو بليون وأشترويش ، وحقوق الجزية على مملكة طليطلة ، وخص أصغرهم غرسية ، بجليقية والبرتغال ، وقد ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على مملكتي إشبيلية ، وبطليوس ، وأعطى حق الإشراف على الأديار في سائر المملكة لابنتيه دونيا أورাকা ، ودونيا إلبيرة ، وخصت أورাকা بمدينة سمورة الحصينة ، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دوبرة .

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو ، بعد اتحادهما في عهد فرناندو ، كان عملاً خاطئاً ، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية . وقد استمر الوثام المكبوت بين الإخوة في ظل الملكة سانشا عامين آخرين ، فلما توفيت في سنة ١٠٦٧ م ، بدت نذر الصراع الجديد واضحة في الأفق .

وكان سانشو ، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته ، قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر . وكان يحكم نافار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية ، ويحكم أراجون سانشو ابن عمه راميرو ، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة نافار ، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا . ولكن ملكا نافار وأراجون شعوراً منهماً ببنياته العدوانية ، عقدآ حلفاً لمقاومته . فلما سار لمحاربتهم ، ردها بنجاح وهزمه في موقعة ثيانا (سنة ١٠٦٧ م) . وكان من جراء ذلك أن فقد سانشو أراضي نافار التي كان قد أحرزها أبوه في موقعة أتابوركا . وفي العام التالي عقب وفاة الملكة سانشا ، سار سانشو في قواته وهاجم أراضي مملكة ليون ، فسار أخوه ألفونسو لرده ، والتقى الاثنان في بلادنتادا على نهر بسيرجا (يولييه سنة ١٠٦٨ م) فهزم ألفونسو ، وارتد مسرعاً إلى ليون ، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضي المجاورة لقشتالة .

ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون وأحرقها حتى الغرب ، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة في جولنجرار أو جليباريس الواقعة على نهر كريون ، فهزم

القشتاليون ، وفروا تاركين خيامهم . وأغضى ألفونسو عن مطاردتهم حقناً للدماء . وكاد سانشو يرتد أدراجَه ، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه . ونصح له بأن يجمع جنده ، ويبعد الكرة ، في الفجر تحت أجنح الظلام ، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم . وخبث همّهم ، وكان صاحب هذا النصيح هو الفارس ردريجو دياث . الذي عرف فيما بعد بالسيد ، وهى أول مناسبة يردد التاريخ فيها اسمه . واستجاب سانشو لهذا النصيح ، فاستجمع جنده ، ووجّه في الفجر على الليونيين وهم نيام . فدب إليهم الاضطراب والذعر ، وقتل الكثير منهم أثناء النوم . وفر ألفونسو ، والتجأ إلى كنيسة بلدة كريون ، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش . ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون (يولييه سنة ١٠٧١ م) وهنا تدخلت دونيا أورাকা ، وكانت تحب أخاها ألفونسو ، وسعت إلى إنقاذه من الأسر . فاستجاب سانشو إلى رجائها ، وقبل الإفراج عن ألفونسو ، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان ، وأن يقيم في دير ساهاجون ، فاضطر ألفونسو إلى القبول . ولجأ إلى الدير ، وهنا دبرت أخته أورাকা فراره من الدير ، فسار إلى طليطلة والتجأ إلى ملكها ، المأمون بن ذى النون^(١) . فاستقبله المأمون بمتمهي الترحاب والإكرام ، وعامله كأخيه حسبماً تقول الرواية النصرانية ، وأنزله داراً بجوار قصره ، وأعد كل ما يلزم لراحته ، وخصص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للترفيه فيها ، والاجتماع بصحبه التصارى ، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز ، وكان يعيش معهم في أحسن الظروف وأكرمها^(٢) .

والملك كيف يصف الأستاذ بيدال استقبال المأمون لضيفه : « استقبل المأمون الملك المغلوب بإكرام ، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته ، وأنزله داراً لحقة بالقصر الملكي ذاته ، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة » القنطرة . وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة ، وكان بوسعه أن يتريض في حدائق الملك الشاسعة الواقعة في الناحية الأخرى من القنطرة داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجه » .

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث ، وهى تسمى دير ساهاجون ، بسفقت . راجع أعمال الأعلام ص ٣٣٠ .

M. Lafuente; ibid; Vol. II. p. 396 (٢)

ويشير الأستاذ بيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر المأمون ، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء ، وروعة الحفلات التي تقام به ، ومجالس العلماء الأعلام التي كانت تعقد به ، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، ثم يقول : « إن النفي الذي كان يعانيه ألفونسو بين هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية ، حسبما يقول لنا مؤلف « تاريخ سيلوس » . كان ملك ليون المخلوع مختلط بالسكان المسلمين ، ويرى في جنات المدينة الحصينة ، ويفكر من أي الأماكن ، وبأي نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها » (١) حرصنا على إيراد هذه الأقوال ، لنستطيع أن نتأمل على ضوءها فيما بعد ، تصرف ألفونسو السادس ، نحو ولد حاميه والمحسن إليه ، ونحو مملكة طليطلة . ومما له مغزى عميق ، ما يقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة الذكر من أن ألفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها ، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة يمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، في تخريب أحوازها وانتساف مؤنها ، ويضيف صاحب هذه الرواية ، أن ألفونسو انتفع بوقته في دراسة خطط المدينة والاحتمالات التي تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم في الاستيلاء عليها (٢) .

وقضى ألفونسو في منفاه ، بلاط الملك المسلم ، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢ م ، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته ، إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث في قشتالة ، وأن يتألق نجمه مرة أخرى .

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينزع أخاه الصغير غرسية مُلك جليقية ، وكان سير الحوادث في جليقية ، مما يعاون على تحقيق غايته . ذلك أن غرسية أساء السيرة ، وبالف في إرهاب الشعب بالضرائب ، وانصاع في ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا ، وفوض إليه كل شيء في الدولة . فسخط الأشراف لذلك ، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته ، فاستشاط غرسية غضباً ، واشتد عسفه وكثرت

R. M. Pidal : *ibid*; p.176&177 (١)

M. Lafuente : *ibid*; Vol. II. p. 397 (٢)

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً ، فلما سار سانشو في قواته إلى جليقية ، ألقى غرسية نفسه في مأزق حرج ، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة ، وأبى جيرانه المسلمون معاونته . والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين ، فهزم هزيمة شديدة ، وقتل معظم أصحابه ، ووقع أسيراً في يد أخيه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة ، وعندئذ سار في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، والتجأ إلى أميرها (أواخر سنة ١٠٧١ م) .

ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو ، سوى مدينتي سمورة ، وتورو اللتين تحكمهما أختاه أورাকা وإلبيرة . وكان سانشو يحمّد على أخته لعطفهما على أخيه ألفونسو ، ويخشى دسائسهما ومساعدتهما الخفية ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وحاول في البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة ، فعرض على أخته أن يعوضهما عن المدينتين بأمالك أخرى ، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده . وعندئذ سار في قواته ، واستولى أولاً على قلعة تورو ، ولم تبد صاحبها لإلبيرة كبير مقاومة ، ولكن أورাকা صممت على الدفاع عن سمورة ، معتمدة في ذلك على مناعة المدينة ، وعلى معاونة طائفة قليلة من الحند المخلصين ، وعلى رأسهم الفارس الباسل آرياس كوثالث . وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولاً ، ولكنها امتنعت عليه ، ف ضرب حولها الحصار ، واستمر حيناً ، وهو يهاجمها من آن لآخر . وفي ذات يوم نفذ إلى معسكره فارس ، وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال المدينة المحصورة . وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربة وأرداه مضرجاً بدمائه ، وفر إلى المدينة هارباً . ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أورাকা ، وكان ذلك في ٦ أكتوبر سنة ١٠٧٢ م .

وفي الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالي ، وانفض عنه الحند الليونيون والجلالقة ، إذ كانوا يقاتلون رغماً عنهم ، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم القتيل ، ودفنوه في دير أونيا ، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه ، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط ، وقد سمي بالقوى El Fuerte لجراته وشجاعته .

واجتمع الأشراف في برغش ، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه ، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال في تدبير مقتل أخيه سانشو ، وبعثوا إليه رسلهم في طلبه . وبعثت إليه كذلك أخته

أوراکا ، رسلها على عجل ، بالخبر سراً ، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى النون . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبا أخفاه عن المأمون ، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة ، خشية أن يرغمه المأمون على أن يقطع عهداً ضاراً ، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله ، ولكنه نجح في الفرار ، وهذه رواية ضعيفة . والحقيقة ، وهى ما تؤيده الروايات الوثيقة ، هو أن ألفونسو أبلغ للنبا في الحال إلى المأمون ، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته ، وأبدى له استعداداً لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها ، ولم يطلب إليه سوى صداقته ، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته ، وأن يعاونه ضد خصومه المسلمين ، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر ، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود ، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الحليلة ، وصحبه مع أكابر مملكته في موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده (١) .

يقول المؤرخ لافونتي : « وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشملته هذا العهد ، لسبب لانعرفه » . ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه بقوله : « إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته ، يبين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه ، فهذا يسجن أخاه في حصن أو دير . وهذا الأمير المسلم ، يتلقاه في قصره ، ويعامله كولده ، ويخصص بستانه لرياضته . ولما خلا عرش قشتالة بمالكة الثلاث ، عاون ألفونسو بكل سخاء وإكرام ، ليسير إلى تلقى الغروش التي كانت في انتظاره ، ولم يطلب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته . إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن العواطف الكريمة التي يجيش بها هذا الجنس العربي » (٢) .

- ٢ -

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أوراکا ، وبمن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية ، وبحث الوسائل التي تكفل له اعتلاء عرش قشتالة دون صعوبة . ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب ، كانت تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أوراکا ، ناصحة ألفونسو ، وملهمته . ومن ثم فإنه

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 398—400

وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p. 189 & 190

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 438

لما وصل ألفونسو إلى برغش ، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها ، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة في تدبير مقتل أخيه سانشو . فترل ألفونسو عند رغبتهم . بيد أنه لما انتظم الجمع في الكنيسة التي تقرر أداء القسم فيها ، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تخليف الملك ، وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجوديات (السيد فيما بعد) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره ، وتولى تخليفه الأمين بنفسه ، فلما أداها ، عقب ردريجو بقوله ، إنه يطلب إلى الله ، إن كان ألفونسو كاذباً ، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذي اغتال أخيه سانشو . وقد خلفت جرأة « السيد » هذه في نفس ألفونسو أثراً لا يمحي ، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد قط ، حسبنا بينا من قبل في حياة السيد ، وعلاقته مع مليكه ألفونسو (١) .

وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة ، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية (ديسمبر سنة ١٠٧٢ م) ، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها كما كانت في عهد أبيه فرناندو . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عاد أخوه غرسية ملك جليقية السابق من منفاه في إشبيلية معللاً النفس ، بعوده إلى العرش ، فدعاه ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أورাকা ، إلى مقابلاته للتفهم ، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه ، وزج إلى حصن « لونا » (فبراير سنة ١٠٧٣ م) وهناك أنفق بقية حياته ، سبعة عشر عاماً ، حتى توفي سنة ١٠٩٠ م .

وتحدثنا الرواية النصرانية ، بأن ألفونسو ما كاد يعتلى العرش ، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن أعانه في حربه ضد ابن عباد ، وأمدّه ببعض قواته ، وسار معه إلى قرطبة وعاث في أحوازها ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة . وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون ببعض قواته في غاراته على قرطبة ، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة (١٠٧٥ م) حسبما فصلنا ذلك في موضعه ، ولم يشترك القشتاليون في شيء من تلك الحوادث .

ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفي ، فخلفه في حكم طليطلة ، حسبما تقول الرواية النصرانية ، ولده هشام القادر ، والظاهر أن هشاماً هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفي ، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى ، بيد أن

الرواية العربية ، وهي أرجح في نظرنا ، تقول إن الذى خلف المأمون ، هو حفيدة الملقب بالقادر^(١) ، وهو ما يدل على أن هشاماً توفي قبيل وفاة أبيه المأمون : وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية ، تحاول أن تلتمس من ذلك علراً يقبل ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه ، بأن يصون مملكته وألا يعتدى عليها ، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر . أما القادر فهو حفيدة ، وهو لم يدخل فى ذلك العهد^(٢) .

والواقع أن ألفونسو السادس ، لم يعد له شغل شاغل ، مذ توفي المأمون ، سوى غزو طليطلة ، والاستيلاء عليها ، بل إن هذا المشروع ، يرجع حسباً تؤكد لنا ذلك رواية رهبان سيالوس ، التى سبق ذكرها ، إلى وقت إقامته بطليطلة ، وانتهازه تلك الفرصة للدراسة خطط المدينة ، ومواقع الضعف فى تحصيناتها ، وطرق مهاجمتها ، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية .

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته ، فى غزو مملكة طليطلة وإرهاقها ، فراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ، وينتسف خضراءها وزروعها ، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة فى الأعوام التالية ، واستولى خلال ذلك على مدينة طليطلة ، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طليطلة ومجريط .

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى فى حكم مملكته صعباً ، ويسود الاضطراب فى مدينة طليطلة ، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى أخبار مملكة طليطلة . ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات المخربة ، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود . كل ذلك ومملك قشتالة مستمر فى إرهاقه بطلب المال والأراضى ، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه . وأخيراً اضطرت طليطلة بالثورة ، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه ، فأجابه ألفونسو إلى ما طالب تمكيناً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404

لقبضته منه ، وأمدّه بقوة من جنده ، وأخضعت المدينة الثائرة ، وجاس القادر
على عرشها مرة أخرى ، تحت خلال الحراب النصرانية ، وذلك في سنة ٤٧٤ هـ
(١٠٨١ م) .

وهنا نصبت خطة ألفونسو في الاستيلاء على طليطلة ، وأخذ يعد معداته
الأخيرة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو
وغزواته الكاسحة نحو الجنوب ، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار المخرب ،
وأن يترعه ألفونسو ، ما استولى عليه من أراضي طليطلة الجنوبية ، قد عقد معه
حلفه المشهور الذي يتعهد فيه بأداء الجزية ، وبأن يترك ألفونسو حراً في مشروعه
ضد طليطلة ، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه المسلمين ،
وهو الحلف الذي زعمت التواريخ النصرانية ، بأن المعتمد قد رأى أن يدعمه
بتقديم ابنته « زائدة » زوجاً لألفونسو . وهي قصة أثبتنا بطلانها ونخفها فيما تقدم
من أخبار المعتمد .

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته ، ولم يبق عليه إلا أن
يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها ، وقد استمر على تنفيذ
هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام ، مذ عاد القادر إلى عرشه في سنة ١٠٨١ م ،
كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم ،
يشهدون اقتراب النكبة جامدين ، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام
والتخاذل ، حتى حم القضاء ، وسقطت المدينة الأندلسية الثالثة في يد ألفونسو
السادس في فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو ١٠٨٥ م) . وقد سبق أن
تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه ، مفصلة في أخبار مملكة بني ذي النون ،
فلا حاجة بنا إلى التكرار ، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبي لحصار
طليطلة وافتتاحها ، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون ، جند من
أراجون ، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها ، قدموا للاشتراك في
مشروع يهم النصرانية كلها .

وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية ، كما كانت أيام
القوط ، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسي للكنسية الإسبانية ، وهي ما تزال
تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة ، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسي ، عميد دير

سأهاجون ، وذلك بنفوذ الملكة كونستانس ، وهى فرنسية بورجونية الأصل . وكان لتعيين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية ، تأثير شديد فى تطور طقوسها وتقاليدها .

وكان من أول الأعمال التى دلت على بغيه وتعصبه ، اعتداؤه على مسجد طليطلة الجامع . وكان من عهود التسليم التى قطعها ألفونسو على نفسه ، أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع لأداء شعائرتهم إلى الأبد . بيد أنه ما كاد يمضى شهران على التسليم ، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامره لإزالة الجامع . وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته ، هذا بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة . وعيناً حاول الكونت ششندو حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه ، وأن يبين له سوء العاقبة فى مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو . وانتهز برنار فرصة غياب الملك فى ليون ، واقترح للجامع فى جمع من الفرسان وحطم المحراب ، وأمر بإقامة الهياكل . وفى اليوم التالى عقد بالجامع قداساً حافلاً ، فهاج المسلمون وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة . وعلم الملك بذلك الحادث ، فارتد من ليون على عجل ، وهو بضطرم غيظاً وسخطاً ، إذ كان من سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين ، تفادياً من منخط المسلمين ، واضطرام القلاقل . وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق ، وعندئذ تدخل المسلمون واتمسوا إليه العفو عنهما ، ولعلمهم كانوا يأملون بذلك أن يستردوا جامعتهم . ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق ، واستمر العمل فى تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥ (١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشت الكنيسة الجديدة فى حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتخب فيه برنار مطراناً (١) .

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فى أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، عثر بها الأستاذ ليثى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال فى كتابه *La Espana del Cid* (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة فى عبارته المسجمة (الذخيرة القيم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ و ١٣٢ ، ولكنه وهم فى تاريخ الحادث فجعله فى ربيع الأول سنة ٤٩٨ - ١١٠٤ م ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة «ثمان وتسعين وأربعمائة» وهى فى الحقيقة «ثمان وسبعين» .

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مرء أعظم أعمال ألفونسو السادس ، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصراني ، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية في شبه الجزيرة في أواخر القرن الثامن الميلادي .

وقد كان لسقوط طليطلة أعمق الآثار في ميزان القوى في شبه الجزيرة ، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السيامي والعسكري ، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور ، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista في طور جديد يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجه . بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت اسبانيا المسلمة من سباتها ، وأدرك ملوك الطوائف ، حقيقة موقفهم ، وعاقبة بغيهم واستهتارهم ، وخطورة تنابذهم وتفرقهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً ، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، وكان أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم ، وعبر إلى شبه الجزيرة في جيوشه المرابطية . وفي ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو ، عقب استيلائه على طليطلة ، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها ، ليرغم أميرها المستعين بن هود على دفع الجزية ، فلما سمع بمقدم المرابطين ، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقي أعداءه الجدد . ثم كانت موقعة الزلاقة (رجب ٤٧٩ هـ - أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة ، وحقن قوات ألفونسو السادس ، وانسحابه في فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً ، وذلك كله حسباً فصلناه في مواضعه بإفاضة .

بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير . وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً ، وأخذ يجمع أشتات جيشه من جديد ، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان والفرنسيين وغيرهم ، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبي ، ولم يخض سوى قليل ، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه ، وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه في الميدان من جديد ، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر الزلاقة ، وأغار المعتمد بقواته على أراضي طليطلة ، وانتزع منها عدة أماكن . بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم ، يتربص كل بأخيه ،

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى . ومن ثم فقد استمر السيد إلكمينادور في عيته ومغامراته في منطقة بلنسية . واستمر القشتاليون من قاعدتهم المنيعه في حصن لبيط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة ، وهو الذى ابتنوه قبل ذلك ببضعة أعوام ، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية . وعلى ذلك فقد استصرخ أمراء الطوائف ، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنقاذهم مرة أخرى . وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم صاحب ألمرية ، وتميم بن بلقين ، صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، وابن رشيق صاحب مرسية ، كل في قواته ، وهم الذى تقع أملاكهم جميعاً في شرق الأندلس (١) وتعرض لعدوان القشتاليين في تلك المنطقة . وضرب المسلمون الحصار حول حصن لبيط ، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنان عشر ألف راجل من النصارى ، ولكن الحصن كان في منتهى المناعة ، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة في هدمه أو ثلم أسواره ، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وفي أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أمراء الأندلس المشاركين في الحصار ، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق ، فقد شكّا ابن عباد ، ابن رشيق لأمر المسلمين ، وأتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه ، وأنه تفاهم سرّاً مع ألفونسو ، ودفع جبايتها إليه . واقنع أمير المسلمين بوجهة هذه الشكوى ، واستفتى الفقهاء في أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ، ومعظمهم من قرابة ابن رشيق وصحبه ، غادروا المحلة في جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، وعمه الضيق والغلاء . وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة ، يسير في قوة كبيرة لإنجاد حصن لبيط ، فأثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع ، ولما رأى

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ اقتحمها ابن عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده .

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حماية كبيرة ، أخلاه وقوض أسواره وعاد أخرجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩م (٤٨٢ هـ) . وترك أمير المسلمين فى شرق الأندلس قوة كبيرة ، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة ، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية ، والقضاء على سلطان «السيد» فى تلك المنطقة ، وعاد إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس ، لما رآه من اختلال أحوالهم ، وسوء تصرفاتهم ، ووضع أهوائهم وأطماعهم^(١) .

وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى ، ففكر فى الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم «السيد» من الاستيلاء عليها ، وسار إليها بالفعل وحاصرها فى سنة ١٠٩٢م (٤٨٥ هـ) ، معتمداً فى ذلك على معاونة سفن جنوة وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض ، ولكنه فشل فى مشروعه ، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد فى أراضى قشتالة . ثم استولى السيد بعد ذلك على بلنسية (١٠٩٤م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا حولها الحصار ، وسار جيش مرابطى آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم القشتاليين ، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التى يقودها ألبار هانيس . ففى خلال هذه الوقائع التى رجحت فيها كفة المرابطين على قوات ألفونسو السادس ، توفى «السيد» خلال حصار بلنسية ، واستغاثت زوجته خينا بألفونسو ، فسار إلى بلنسية ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢ ، ولم يعترض المرابطون سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة . ولكنه لما رأى ضخامة الحيوش المرابطية ، خشى العاقبة ، وغادر بلنسية مع خينا وسائر القوات النصرانية ، ودخلها المرابطون فى شهر مايو سنة ١١٠٢م (٤٩٥ هـ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

وسار ألفونسو فى قواته إلى مدينة شترين من أعمال ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣م (٤٨٦ هـ) . وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، التى كانت شترين من أعمالها ، ونحن نعرف أن بطليوس سقطت فى أيلى المرابطين فى صفر سنة ٤٨٧ هـ (مارس ١٠٩٤م) .

(١) راجع فى حصار حصن لييط ، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ - ١١٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ . وراجع أيضاً R.M. Pidal: ibid; p. 364, 365 & 409 ، وكذلك Dozy: Histoire; V. III, p. 139 & 140 .

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هي موقعة إقليش ، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفي يومئذ (سنة ٥٠٠ هـ) وخلفه ولده على . وقد عبر على عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية في أوائل سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) معتمداً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبي الطاهر ، فسار الأمير تميم في جيش ضخم ، واخترق أراضي قشتالة ، ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة ، فحضر حولها الحصار في الحال ، فبعث ألفونسو ، وقد عاقته الشيخوخة عن أن يقود جيشه بنفسه ، قواته لإنجادها ، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أو زوجه المسلمة المنتصرة ، لكى يثير حماسة الحند ، وكان صبيّاً في الحادية عشرة من عمره . ووقعت بين المرابطين وبين القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة ، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعركة ، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة ، وقتل معه مؤدبه الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه ، فذهب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار ، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة ، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين ألفاً (٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م) (١) . وكان نصراً عظيماً أعاد ذكريات الزلافة ، وكان أشد ما فيها وقعاً فى نفس الملك النصرانى ، فقد له ولده الوحيد وولى عهده ، وانقطاع نسله بذلك . والواقع أن ألفونسو لم يعيش طويلاً بعد هذه الصدمة المؤلمة ، فتوفى في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة سبعة وثلاثين عاماً ، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين ، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز ، استكمالاً لسياق الحوادث . ولا بد لنا قبل أن نختم الكلام على عهد ألفونسو السادس ، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية ، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة فى بناء المملكة النصرانية والمجتمع الإشباني ، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ففى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى عهد ألفونسو السادس بالذات ، توضع الأسس الأولى ، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية ، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن ، ومازال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

(١) راجع روى القرطاس ص ١٠٤ . وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباح ص

وقوته . وقد توالى بعثات الكرسي الرسولى إلى الملوك الإسبان فى هذا العهد ، تسعى إلى فرض سيادته الروحية ، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيديرو واستبدالها بالطقوس الرومانية . وبذل دير ساهاجون البندكتى ، ورئيسه الراهب برنار الفرنسى عندئذ ، أعظم الجهود لتحقيق أغراض البابوية . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، وهى فرنسية من بيت برجونية ، فى تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية ، عقب افتتاح طليطلة . وحصل برنار بعد ذلك على مرسوم بابوى بتعيينه فى ذلك المنصب الخطير ، ووضع فى معظم الأسقفيات رجالاً من مواطنيه ، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين ، وذلك رغم مناوأة الأحرار الإسبان وسخطهم . وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على اسبانيا ، وبالرغم من أن ألفونسو ، كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية ، فإنه كان يحل الكرسي الرسولى ويوليه أعظم مقام .

وفى عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالشرق ، ولكن البابا أوربان الثانى أصغر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، لأن أعداء النصرانية ، أعنى المسلمين ، يهددونهم داخل أرضهم ، ولأن لديهم فى شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة ، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين ، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن يتزولوا هذا الميدان ، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات يسرون فى معظم الأحيان مع الملك ، ويقاتلون فى الصفوف ، بل ويقودون الحملات أحياناً .

وقد كان الملك وراثياً فى قشتالة فقط . أما فى باقى الممالك النصرانية ، فكان المفروض أن يختار الأشراف ملكهم ، وكان الملك فى سائر الممالك الإسبانية ، يجمع بين سلطات الحرب والسلم ، وقيادة الجيوش ، ورياسة القضاء ، يعاونه فى ذلك رهن من رجال الخاص Palatini ، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية .

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلاً فى تكوين المجتمع الإسباني ، ويقوم على مراتب متعددة ، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى ، وهو الذى يُقطع

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية . وتلها مرتبة الكونت أو القومس ، وهو الذى يقطع منطقة معينة ، ثم أصحاب المنح الصغيرة ، وهم البارونات أتباع القومس . وكان هذا النظام عسكرياً ، فى جوهره ، تقرن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية ، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية ، ويقود القومس فرقته ، وتتكون من البارونات فرق الفرسان ، والفارس هو أدنى مراتب النيل ، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش ، وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات ، ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين ، وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم ، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش .

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج ، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار ، أجزاء من الأرض يزرعونها . على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أو ثلثه على الأقل ، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين ، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض ، ثم تؤول من بعد وفاته إلى أولاده يزرعونها بنفس الطريقة ، بيد أنه كان ملزماً بالإقامة فيها ، فإذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق فى استغلالها .

وكان عدد الأرقاء فى ذلك العصر ، الذى كثرت فيه الحروب ، وكثر فيه السبي والأسر كبيراً ، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى الغارات أو الحروب المختلفة التى تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية ، يقضى عليهم دائماً بالرق ، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها ، ولا يمنحون الحرية إلا باعتناق النصرانية .

وأما عن التشريع ، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة ، وألغى حق « القوة » وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له وفرض على الدوقات والقوامس ، أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم ، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهيين ، وعيث القتل واللصوص فى سائر أنحاء المملكة . وكان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وتعتقد اجتماعاتهم عندئذ فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان « كورتيس » Cortes ،

تحت رئاسة الملك ، وكان القانون العام المطبق في ذلك العصر هو القانون القوطى (قانون الأاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف « بالقوانين الطبية » Buenos Fueros . وكان من المقرر أن كل إنسان حر في أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وله أن يختار محامياً أو وكيلًا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو . وأخيراً فقد كان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى ، وهو يسوى في الحقوق بين البنين والبنات .

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته ، فهو لم ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو ، ولد زوجته أوحظيته زائدة المسلمة التى تنصرت باسم ماريّا أو اليزابيث ، والى أننا على قصتها فيما تقدم من أخبار بنى عباد ، وقد قتل هذا الابن حسبا أسلفنا في موقعة إقليش ، فعندئذ اعترم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أورّاكا ، التى كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية ، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . ثم توفى وترك لها ولداً ، هو ألفونسو ريمونديس . ولكنه رأى أن يقوى جانب العرش ، ووحدة المملكة ، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار ، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع في ليون ، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان ، وأصدر قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها أن تكون أورّاكا وراثة لعرش قشتالة وليون وأشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديس مملكة جليقية ، مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فإذا لم تعقب أورّاكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعني إلى حفيد ألفونسو السادس . وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف فيين ، والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية ، تحت وصايتها ، على أن تكون له دون نقض أو رجوع .

(١) رجعتنا في تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى « تاريخ المرابطين والموحدين » لأشباح (ص ١٢٠ - ١٣٥) .

نافار وأراجون

رأينا في بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك نافار في موقعة أتابوركا التي نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م) ، وكيف اختار فرناندو مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القليل ليخلفه على عرش نافار ، على أن يكون تحت طاعته .

وكان يحكم أراجون في ذلك الوقت ، الملك راميرو بن سانشو الكبير ، وكان في بداية حكمه قد حاول غزو مملكة نافار وانتزاعها من يد أخيه غرسية ، ولكنه هزم كما رأينا ، ومزق جيشه ، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى بتنظيم شؤنه والنهوض من عثاره . ولما قتل أخوه غرسية ، وتولى ولده سانشو الحكم مكانه ، لبث محافظاً على حياده وسكنته نحو جارتها نافار ، ولكنه وجه عدوانه نحو مملكة سرقسطة ، وحاول غزوها ، فاستنصر أميرها المقتدر بن هود ، بفرناندو ملك قشتالة ، فأمدّه ببعض قواته ، ونشبت بين الفريقين في جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .

فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو ، المعروف بسانشو راميرز . ولما توفي فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة نافار ، وكان سانشو ملك نافار ، شعوراً منه بأطاع ملك قشتالة ، قد عقد حلفاً مع جاره سانشو راميرز ، فلما سار سانشو لمحاربتهما ، استطاعا أن يقفا في وجهه ، وأن يهزمياه في موقعة فيانا (١٠٦٧ م) .

واستمر سانشو ملكاً على نافار اثنين وعشرين عاماً ، وفي عهده توطد مركز نافار بين جيرانها ، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية في سنة ١٠٦٩ م ، وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته في حربه ضد خصومه سواء من المسلمين أو النصارى . وجدد هذا التحالف في سنة ١٠٧٣ م . ولم يمض قليل على ذلك حتى قتل سانشو في كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمنزدة ، وذلك في سنة ١٠٧٦ م ، فسخط الشعب النافاري لتلك الجريمة أيما سخط ، واستدعى سانشو راميرز ليعتلي عرش نافار . ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة ، فسار إلى نافار من ناحيتها الغربية ، وسار إليها سانشو راميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها ، بالرغم من وجود ولدى الملك القليل القاصرين .

فاستولى سانشو على الجزء الواقع في منطقة البرنيه ، وفيه العاصمة بنبلونة ، واستولى ألفونسو على القسم المحاذي لنهر إمبرو ، وبذلك اختفت مملكة نافار المستقلة إلى حين ، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة ، ونمت مملكة أراجون ، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً ، وبدأت تلعب دورها العظيم في شمال شرق الجزيرة الإسبانية .

واتجهت أطباع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية ، أعنى مملكة سرقسطة ، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها في سنة ١٠٨٩ م ، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها ، ولكنه توفي بعد قليل تحت أسوارها ، فتابع ولده وخلفه بيدرو الأول الحصار ، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمدّه ببعض قواته ، وسار لإنجاد المدينة المحصورة ، ووقعت بينه وبين بيدرو معركة شديدة في الكرازة ، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة ، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل في نوفمبر سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) حسبما فصلنا ذلك من قبل في موضعه من أخبار مملكة سرقسطة .

وفي العام التالي سار بيدرو في قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين ، ووقعت الهزيمة على المرابطين في « مندير » قرب بلنسية .

واستمر بيدرو الأول على عرش أراجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً ، وهو الذي مهد بافتتاحه لوشقة وبربشر إلى القضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد في يد أخيه وخلفه ألفونسو ، وكان ورعاً متعصباً ، لا يكاد يفتح مدينة إسلامية ، حتى يحول في الحال مساجدها إلى كنائس ، ويغدق الصلوات الوفيرة على الكنائس والأديار . ولما كان ولده الوحيد قد توفي قبل وفاته ، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأراجوني المعروف بالخابر ، وهو الذي قدر له ، فيما بعد بزواجه من أوركا أبة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية ، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا .

إمارة برشلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية ، التي تقوم في النصف الشمالي من شبه الجزيرة الإسبانية ، كانت تقوم في الركن الشمالي الشرقي مما يلي جبال البرنيه ،

إمارة نصرانية أخرى ، هي إمارة أوكونتية برشاونة . ونحن نعرف أن برشاونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون في شمالي شبه الجزيرة ، وقد افتتحها شارلمان (كارل الأكبر) في سنة ١٩٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام ، وجعلها قاعدة الثغر القوطي أو الثغر الإسباني ، الذي أنشأه فيما وراء البرنيه ، حماية لحدود فرنسا الحنوية . وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر في البداية من الأشراف أو الكونتات الذي ينتمون إلى أصل قوطي أو فرنجي . ولما ضعفت مملكة الفرنج وتخلت عن حماية الثغر وإمداده ، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم ، ونأبهم عن الحكومة المركزية ، أعلنوا استقلالهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات صغيرة كان أهمها إمارة برشاونة . وكان يحكمها في أواخر القرن العاشر آل بوريل ، وفي عهدهم غزاها المنصور بن أبي عامر ، واقتحمها وخربها ، وذلك في سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) ، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها . ولما سقطت الدولة العامرية واضطربت الفتنة في قرطبة ، سعى واضح الصقلي في الاستعانة بأمير برشاونة الكونت رامون بوريل ، وزميله كونت أرقلة ، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة ، واشترك إلى جانب المهدي محمد بن هشام في المعارك التي وقعت يومئذ (٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م) . ومنذ أوائل القرن الحادي عشر نرى برشاونة تحت حكم آل برنجير ، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦ م ، وفي عهده اتسعت رقعة الإمارة ، وضمت إليها أرقلة وشرطانية (١) ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية ، في الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، وذلك بشرائها من ابنتي صاحبها الكونت روجر الثالث . وكان لضم هذا الجزء من أراضي لانجدوك إلى إمارة برشاونة نتيجة هامة ، هي إعادة الصلة بين الثغر القوطي القديم ، وجنوبي فرنسا ، والتهديد بذلك لتزوح الفرسان الفرنج المغامرين ، الذين تحدوهم روح صليبية ، ويحدوهم البحث وراء طالعهم ، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التي تقاتل المسلمين في شبه الجزيرة . وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول ، هي إصلاحاته القضائية ، فقد استدعى في سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء في برشاونة ، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمي « بعرف برشاونة » Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطي القديم .

(١) أرقلة هي بالإسبانية Urgel ، وشرطانية هي Cerdana

ولما توفي رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون في حكم الإمارة معاً وفقاً لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة ، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . وفي سنة ١٠٨٢ م ، قتل رامون غيلة ، وانجذبت الشبهة في ذلك إلى أخيه . وقام برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصياً على ولد أخيه القاصر رامون الثالث .

وكان بنو هود أمراء سرقسطة ، وهم جيران إمارة برشلونة ، يعتقدون في مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية ، ويحصلون على معاونة آل برنجير من آن لآخر . وقد لعب أمراء برشلونة في ذلك الوقت الدور الذي لعبه معظم الملوك النصراني ، في معاونة الأمراء المسلمين ، سواء ضد أبناء دينهم المسلمين أو ضد النصراني أنفسهم . وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك في كثير من المواطن في أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية . وكان أبرز دور قام به آل برنجير في ذلك هو استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير في مشروعه لافتتاح بلنسية . وكان الكونت يضطرم بغضاً نحو « السيد » ومشاريه . فسار في قواته لمحاصرة بلنسية ، ولبث على حصارها وقتاً ، حتى اقترب « السيد » بقواته من المدينة ، وتبادل السيد والكونت بعض رسائل التحدى المهينة ، وأخيراً وقعت الحرب بينهما ، فهزم الكونت وأسر ، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم وقع التفاهم بينهما ، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته (١٠٩٠ م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير ، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس ، في موقعة الزلاقة (١٠٨٦ م) إلى جانب باقي الملوك النصراني ، إيماناً منهم جميعاً ، بأنهم يقاتلون في معركة صليبية عامة .

واستمر الكونت برنجير في حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتي رامون برنجير الثالث ، وسافر حاجاً إلى المشرق ، فحكم رامون الإمارة بكفاية ، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح .

الفصل الثالث

النصارى المعاهدون

النصارى المعاهدون . مركزهم وأحوالهم في ظل الحكومة الإسلامية . أحوالهم في ظل الطوائف . مصانة أمراء الطوائف لهم . تمتعهم بالتسامح في شرق الأندلس . أحوالهم في ملكة سرقسطة . عدم ولائهم للحكومات المسلمة . مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين . صدق هذا الموقف في دول الطوائف . استدعاؤهم ألفونسو الأرجوني لغزو الأندلس . قيامه بالغزوة المنشودة . فتوى الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريمهم . ظهور مجتمع المدجنين في القواعد الإسلامية المفتوحة .

يجدر بنا بعد أن تحدثنا من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، أن نعرض في شيء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم في عصر الطوائف ، وهو العصر الذي سرى فيه الانحلال السياسي والعسكري إلى اسبانيا المسلمة ، ومزقتها الحروب الأهلية ، وتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية . ونحن نعرف أن النصارى المعاهدين ، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقلية ذات شأن في القواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة . وكانت هذه الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة ، في ظل الحكومة الإسلامية ، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية ، ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم وتقديرهم ، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة في الإدارة وفي القصر . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين . وكانوا إلى جانب اللغة العربية التي يتقنها الكثير منهم ، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية Romance ، وهي اللغة التي كانت سائدة يومئذ في الممالك الإسبانية النصرانية ، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة في البلاط الأندلسي ، وبعض أكابر المسلمين من الوزراء والكتاب . وكانت هذه اللغة هي لغة النصارى المعاهدين المكتوبة ، التي يستعملونها في مخاطبتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع الإسلامي ، الذي يعيشون فيه . وكان المسلمون يستعملون أحيانا بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، وهي التي يسمونها « اللطينية » ولاسيا في بعض المسائل العلمية (١) .

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية، وقامت دول الطوائف، طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين. وبالرغم من أن هذا التغير لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصابريهم وأحوالهم أوضحت في كل دولة من دول الطوائف، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة حكومتها المحلية. ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم في مختلف دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التي كانوا يلقونها في ظل حكومة الخلفاء، بل لقد كان في ظروف بعض هذه الدول، ما يحملها على اتباع سياسة خاصة، تنسجم بالإن والمصانعة نحو رعاياها النصارى، ولما عصفت ريح الحرب الأهلية بقرطبة، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها، وقد كانوا يعطفون على الجبهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر سلطانهم على عاصمة الخلافة، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة في أثر الفتيان العامريين إلى شرق الأندلس. ولما قامت دولة بني جهور في قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم، وندب أبو الوليد ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، « للنظر في شئون أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة » (١).

ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم، وكسب مودتهم. وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة، في الظروف التي كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ. فقد كانت مملكة قشتالة النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس، يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية، ومطالبه المالية المفرقة، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته، واتقاء شره، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين. وكانت الأقليات النصرانية في القواعد الأندلسية، في مثل هذه الظروف تعتبر مكاناً للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون بذلك على مصانعتها ومداراتها. وكان بنوعباد في مقدمة أولئك الملوك الذين عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

(١) في « إعتاب الكتاب » لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) الورقة - ١٦ .

إلى محالفة ملك قشتالة ، واتقاء عاديته ، وكان للنصارى المعاهدين في بلاطهم مكانة وظهور ، ومنهم شعراء مثل ابن المرجى الإشبيلي ، وابن مرتين . وكان قائد ابن عباد في فتح قرطبة ، وهو محمد بن مرتين ، من أصل نصراني ، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسندو في حداته ، وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته في بلاطهم ، وأولوه ثقتهم ، واستخدموه في أخص مهامهم السياسة^(١) . وكان بنو مناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود في البداية ، فلما اشتدت وطأتهم على صنهاجة ، وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ - ١٠٦٦ م) . جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، إلى اصطناع النصارى ، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الخزية له ، وتمتع المعاهدون في غرناطة بالحماية والرعاية ، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدتهم ، واتخذ الأمير عبد الله في بطانته ، عدة من أكابر النصارى القشتاليين ، يعاونونه في شئون الحرب والإدارة ومنهم عدة من أكابر الفرسان^(٢) :

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون في شرقي الأندلس ولاسيا في مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح . وقد كان الفتيان الصقالبة الذين سيطروا على شرقي الأندلس من أشد الرؤساء تسامحا نحو المعاهدين . وكان مجاهد العامري صاحب مملكة دانية والجزائر ، ثم ولده على إقبال الدولة من بعده ، كلاهما يبدي نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن « أصل مجاهد النصراني » وإلى أن زوجته كانت نصرانية ، وكذلك ولده على ، فقد نشأ في حداته بين نصارى سر دانية ، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم ، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده من الأسر ، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أن هذا التسامح نحو النصارى كان حسبا بينا في موضعه ، سياسة مقرررة لحكومة مجاهد وولده على ، وأنهما استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة ، أن يجتنبوا عدوان الملوك النصارى ، وأن تتمتع مملكة دانية في ظلهم بفترات طويلة من السلام والرخاء . وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف ، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

Isidro de las Cagigas : Los Mozarbes (Madrid 1947) T. II. p. 427 (١)

Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 493 (٢)

التسامح نحو رعاياها النصارى : تلك هى مملكة سرقسطة ، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع ، قشتالة ونافار ، وأراجون وبرشلونة ، وكونها تعتبر بهذا الموقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة ، والممالك النصرانية من ناحية الشمال الشرقى ، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة ، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى ، وقد كانت هذه المنطقة فى الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى منذ أيام بنى قسى وبني الطويل وغيرهم من زعماء المولدين ، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة ، وكانت بذلك مهداً لظهور المعاهدين ، ومشاركتهم بقسط بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية . وكان بنو نجيب حكام الثغر الأعلى ، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة يسيطرون رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين . وكان بنو هود بالأخص يشعرون بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل فى شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الخزية ، أو لاقطاع بعض مدنها وحصونهم ، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى ، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وأن يغموا حياض الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة . وكان المقتدر بن هود . وهو أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب Gundisalvo ، وكان أديباً شاعراً . أجل وقعت فى سرقسطة فى سنة ١٠٦٥ م فى عهد المقتدر مذبة للنصارى ، وذلك على أثر عدوان النورمان الشنيع على مسلمى برشتر ، وكان فيه من الروع والاستثارة ما فيه . بيد أنه كان حادثاً مستقلاً ، ولم يلبث أن استدركت عواقبه . وقد رأينا من جهة أخرى كيف كان بنو هود ، يعتمدون على مخالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، ويحشدون المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة ، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكيادور ، واعتمدوا على مخالفته زمناً (١) .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها ، وهو أن النصارى المعاهدين ، بالرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح ، التى كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف ،

سواء لبواعث كانت ترغهم على اتباعها ، أو لسياسة مستتيرة كانوا يؤثرونها ، لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، التي كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم ، بل لبثوا دائماً على ضعفهم وخصومتهم لها وتربصهم بها . ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها ، وممالة الملوك النصارى ، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها ، وتسهيل مهمتهم في غزوها والتككيل بها . ولدنيا في تاريخ الطوائف من ذلك أمثلة لاحصر لها . ففي حصار قلقرية وافتتاحها (٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م) لعب النصارى المعاهدون - وقد كانوا كثرة هذه المنطقة - دوراً بارزاً في معاونة الجيش القشتالى المحاصر ، وعاونوه رهبان دير لورفان القريب من قلقرية بمؤنهم المختزنة ، وسهلوا له بذلك الصمود ، حتى اضطرت المدينة المحصورة إلى التسليم (١) . ودأب النصارى المعاهدون في طليطلة أيام القادر بن ذى النون على تدبير الدسائس ، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة ، والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه ، ومؤازرة الناقمين من المسلمين ضد الحكومة القائمة ، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية ، وانتهى الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة . ولعب النصارى المعاهدون في بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية ، لمعاونة السيد في مغامراته المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها . وهكذا كان النصارى المعاهدون ، في كل موطن وكل فرصة ، يعملون ماوسعوا لتحطيم تلك الممالك الإسلامية التي تقوم بحمايتهم ورعايتهم ، والتهميد بذلك للقضاء عليها وسقوطها في أيدي الملوك النصارى . وهذا ما يعبر عنه الأستاذ بيدال بقوله : « إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة ، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصارى (٢) » .

ومن ثم فلما نجح ، عقب سقوط طليطلة ، واشتداد روح العدوان من جانب إسبانيا النصرانية ، شعور التقاطع والريب ، ينمو ويشد ضد جماعات النصارى المعاهدين في مختلف القواعد الأندلسية ، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد في معاملتهم ، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح ، التي كانوا يتمتعون بها من قبل . ومن ذلك مثلاً ما دعا إليه ابن عبدون في رسالته عن الحسبة وهي

(١) راجع : Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 455

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 424

التي وضعت في بداية العهد المرابطي : من أنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس » وأنه نظرا لفساد أخلاق القساوسة ، يجب أن يؤمروا بالزواج كما في ديار المشرق ، ويجب ألا يترك في دار القسيس امرأة ولا عجوز ولا غيرها ، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد ، ويجب ألا يباع من اليهود أو النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم ، لأنهم يترجمون كتب العلوم ، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم ، وهي من تواليف المسلمين : كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين (١) .

فهذه الدعوات وأمثالها ، إلى التشدد في معاملة المعاهدين ، لم تكن إلا صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة . وكانت تلقى في ظل الحكم المرابطي ، المتسم بروح التزمت الديني قبولا . وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها ، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون ، لغزو الأندلس ، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس . وقام ألفونسو بالفعل بالغزوة المذشودة ، فخرج من سرقسطة في سبتمبر سنة ١١٢٥ م (٥١٩ هـ) ، في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ، واخترق الأندلس ، من الجانب الشرق ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية ، وهو يعيث في بسائطها ، والمعاهدون يحشدون في جيشه من كل صوب ، واستمر في سيره حتى وادى آتش ، ووصل إلى ظاهر غرناطة في شهر يناير من العام التالي (١١٢٦ م) ، ولكنه أدرك أنه لا يستطيع أن ينال منها مأرباً . وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم في معاونته ، فردوا عليه بأنه هو الذي أضاع الوقت في زحفه الطويل سدى ، ثم أجمعت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار ، وهو يتجول بقواته في شمال غرناطة ، ووقعت بينه وبين المرابطين في مارس (١١٢٦ م) في فحص الرينسول موقعة هزم فيها المرابطون . بيد أنه لم يستطع الاستفادة من نصره ، فاستمر في زحفه جنوباً ، واخترق هضاب البشرات حتى شاطئ البحر المتوسط ، ثم عاد إلى الشمال ، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب الإعياء والوباء .

وكان من أثر هذا العدوان الجسيم ، أن قرر أمير المسلمين ، وفقاً لفتاوى

(١) رسالة ابن عجلون في الحجة ص ٥٥ و ٥٧ .

الفقهاء ، تغريب النصارى المعاهدين : لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة . وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة ، فرقت في مختلف أنحاء إفريقية (١) .

وثمة ظاهرة أخرى برزت في أواخر عهد الطوائف ، وترتبت على سقوط طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة في يد القشتاليين ، ثم سقوط سرقسطة وأعمالها بعد ذلك بقليل في يد ملك أراجون (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) . فإلى ذلك الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية . تنحصر في جانب واحد ، وهو أقليات النصارى المعاهدين التي تعيش في القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامي . ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة ، هي مشكلة الأقليات المسلمة التي بقيت في القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصراني ، وأولئك هم المدجنون ، (وبالإسبانية Mudéjares) الذين يبدأ ذكرهم في التواريخ الأندلسية ، منذ أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، والذين تزداد جموعهم تبعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة في أيدي النصارى (٢) .

(١) راجع الخلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . كذلك R. M. Fidal : Origenes del

F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides, و Espanol, p. 425
p. 15 & 16

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة في كتابنا «نهاية الأندلس» وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٥٥ - ٦٧ .

خاتمة
خَوَاصَّ عَصْرِ الطَّوَائِفِ
السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ

الخواص السياسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف ، واستعراض الأحداث التي مرت بها ، منذ إنشائها حتى سقوطها ، وتقديم زعمائها وملوكها ، في صورتهم السياسية والأدبية ، ووصف قصورهم وخططهم ، نرى لزماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة ، وهي حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة ، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف ، وأحواله المادية والأدبية والاجتماعية .

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل ، بالرغم مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براءة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة ، التي قامت على أنقاض الأندلس الكبرى ، والتي كانت تنسم بسمه الملك ، وترغم لنفسها الاستقلال بشئونها ، كانت تنقصها من الناحية النظامية ، عناصر الدولة المستقرة ، ولم تكن - إذا استثنينا القليل منها - سواء برقاعها الإقليمية ، ومواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها ، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية ، وإنما كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع ، وإلى عصبية الأسرة القوية ذات العصبية ، أو الجماعة القبلية في حالة الإمارات البربرية ، ومن ثم فإنه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح ، تكون مهمتها الأساسية ، أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، وإنما كانت بها أسر أو زعامات ، تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكان الشعب في ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية ، لاحتساب له ، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض ، التي يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولاً ، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

وسلطانه ، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية ، وهى لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه ، وانتزاع ما فى يده ، وقلماً تنجيه إلى القضية الكبرى ، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد ، الدائب لمقارعتها وتخطيمها ، ونعنى اسبانيا النصرانية .

ولقد كان ملوك الطوائف فى ذلك أسوأ قدوة . كانوا ملوكاً ضعافاً فى وطنيتهم ، ضعافاً فى دينهم ، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ، ونسوا فى غمارها وطنهم ، ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب الملوك النصارى ، وأن يستعدوهم بعضهم على بعض ، لا فى سبيل قضية محترمة ، ولكن لاقطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التكنيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى ذلك إلى درك ، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت ، ويكفى أن نستعرض فى ذلك ، موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً — إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم — ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة ، جامدين لا يطمعون إلا فى رضاء ملك قشتالة ، وفى سلامة أنفسهم . وقد كان ملك قشتالة يعاملهم حسب رأيها فى غير موطن ، معاملة الأتباع ، ويبتز منهم الأموال الطائلة ، باسم الجزية ، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفى أن نتلو فى ذلك ما سطره ابن بسام فى الذخيرة ، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة ، وقت نزوله أمام طليطلة ، وهى على وشك التسليم إليه ، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع ، وفقد كل كرامة قومية (١) .

ولم يكن ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية ، وإزاء شعوبهم ، أفضل موقفاً ، ولا أكرم تصرفاً . فقد كانوا طغاة قساة على رعييتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم ، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع ، لا من الدين ، ولا من الأخلاق . وقد كانت سياستهم الداخلية هذه ، مثل سياستهم الخارجية ، موضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين . وقد صدرت

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنه الطوائف، ودولها، وأمرائها المستهترين، ومجتمعها المنحل، وحكوماتها الباغية، طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت في رسالته المعنونة « التلخيص لوجوه التخليص »^(١). وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة في شئون دينية وفقهية، وجهت إليه من بعض أصدقائه، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة، وآخر عن وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة، والأحكام القاطعة، ما يدمع مجتمع الطوائف بشدة وقسوة، وهى مع سلامة منطقها، وعدالتها، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم، فهو يصف لنا فتنه الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى:

« وأما ما سألت من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلك الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع فى الأرض بفساد. والذي ترونه عياناً من شنه الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والخزبة على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الخزبة، والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيمهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم »^(١).

وقد كان الفقهاء فى الواقع، فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية، أكبر عضد لأمرء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم،

(١) نشر الأستاذ ميغيل آسين بلاثيوس M. Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة فى مجلة الأندلس Al-Andalus (ano 1934) p. 35-37. ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان « الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل أخرى » (القاهرة سنة ١٩٦٠)، ص ١٣٩ - ١٨٥

وتركية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة ، ويتقلبون في خدمات كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص في ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . ولم يفت مؤرخ العصر أبو مروان ابن حيان ، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء ، في تأييد الظلم والفساد ، والخروج على أحكام الدين ، وإليك ما يقوله لنا في ذلك :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكاهم ، بصلاحيهم بصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفهم لدينا بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زياداً عن الجماعة : وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أثمهم صموت عنهم ، صدق عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتيق في صدقهم » (١) .

وقد قاسى الشعب الأندلسي في ظل طغيان الطوائف ، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التي كان يعيش في غارها ، وانقلاب الأوضاع في سائر مناحي الحياة ، وتوالي الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى في نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة ، يستغلونها بأقصى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ، لإرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد ، والانهماك في حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمناقبين ، هذا فضلاً عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأي الوسائل . وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

(١) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ٣٤ ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤ .

والأخلاقية ، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف ، فى إرهاب شعوبهم بالمغارم الفادحة ، وإليك ما يقوله فى ذلك :

« وأما الباب الثانى : فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جديد لا يؤتم صاحبه ، ولا يؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم ، إذ كان الأغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا وبلادنا هذه : فإنما هو باب أغلق عينيك ، واضرب بيدك ، ولك ما تخرجه إما ثمرة وإما جرة . وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغارات فى أيام الهدنة لم تكن غالبية ظاهرة كما هى اليوم ، والمغارم التى كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، فكانت تقرب مما فرض عُمر على الأرض . وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين ، يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الإسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

ويحمل ابن حزم بعنف ، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة ، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا فى اعتناق النصرانية ، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم ، لما ترددوا فى اعتناقها ، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسفة معاً :

« والله لو علموا أن فى عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصرارى ، فيمكنونهم من حرّم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حرّيم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه » (١) .

(١) راجع أقوال ابن حزم التى نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس فى مجلة «الأندلس» :

Al-Andalus, (ano 1934) p. 37 وفى الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ - ١٧٧ .

ونحن لانستطيع أن نهم ابن حزم، وهو فيلسوف عصره المتزن، البعيد النظر،
النافذ الملاحظة، بالمبالغة والتحامل، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر،
وفضائح ملوك الطوائف، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية، التي نراها ماثلة
في غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره^(١). وقد توفي ابن حزم في
سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)، وممالك الطوائف في إبان قوتها وعنفوانها، وقبل أن
تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الانحلال المعنوي الشامل، وقبل أن يتهالك
أمرؤها في الترامي على أعتاب ملك قشتالة، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك
من الذلة والمهانة. ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك
الطوائف، لكان بلا ريب في تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً.

الخواص العلمية والأدبية

على أنه لما يلفت النظر حقاً، أن ممالك الطوائف، كانت خلال هذا الانحلال
الشامل، تبدو في أثواب لامعة زاهية. وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً،
فقد كانت في الفترات القليلة التي تجانب فيها الحرب الأهلية، تتمتع بقسط لا بأس
به من الرخاء، وتغمرها الحركة والنشاط. وكان ملوك الطوائف، بالرغم من
طغيانهم المطبق، ومن الصفات المثيرة التي كان يتصف بها الكثير منهم، من حماة
العلوم والآداب. وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم
الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وأن تكون قصورهم منتديات
زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة
كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي،
والفكر الإسلامي بصفة عامة.

ولنبداً الحديث في ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه. فلقد كانت
هذه القصور المنتشرة في رقعة الوطن الأندلسي الكبرى، وكل منها يدعى السيادة
على مدن ورقاع محدودة، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعيتها وبذخها، ولكن
كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها، الأدباء والشعراء. وقد ازدهر الشعر الأندلسي

(١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره في «نقط العروس» ص ٨٣

بالأخص في عصر الطوائف ، وبلغ في ذلك مدى لم يبلغه في أى آخر عصر . ويعلل الأستاذ نيكيل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ما كان يتسم به هذا العصر من حريات ، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية ، ولا سيما ماتعاق منها بتحريم الخمر ، وحجب المرأة ، وإلى ذبوع العلاقات الغرامية بين الحسنين (١) كان ملوك الطوائف حسبا تقدم ، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة ، والاستهتار بأحكام الدين ، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصي ، وارتكاب الأمور المحرمة ، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله . وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة ، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب ، تحفل في الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب ، والنساء والغلمان والخمر ، وهى أمور تشغل حيزاً كبيراً في آداب العصر وشعره . وكانت مجتمعات الطوائف المرفهة المنحلة ، تتأثر بهذه الروح الإباحية ، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها . وكان هذا الانحلال الشامل يحتاج يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسي .

على أن النهضة الأدبية والفكرية التى امتاز بها عصر الطوائف ، ترتفع مع ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة . ولقد كانت هذه القصور المترفة المرححة نفسها ، أكبر مبعث لهذه النهضة ، وكان أولئك الملوك المستهترون أنفسهم دعائها وحماها ، وكانت قصور الطوائف تتنافس في هذا الميدان وتتسابق ، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ، وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكر . وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت بنوع خاص ، بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية ، هى بلاط بنى عباد بإشبيلية ، وبلاط بنى الأفطس ببطليوس ، وبلاط بنى ممداح بالمرية .

كان بنو عباد ، وهم كما رأينا ، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكاً ، من أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التى سادت هذا العصر ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ في ميدان الشعر والأدب ، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد ، وولده المعتمد ، وترك لنا كلاهما طائفة كبيرة من روائع نظمهم . ويمتاز شعر المعتضد بترعة إلى الفخر والمجد وشهرة

(١) الشعر الأندلسي : A. R. Nykl : Hispano-Arabic Poetry : (Baltimore :

الجود . أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً . ويرى الأستاذ نكل أنه « أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين العرب في النصف الثاني للقرن الحادى عشر » وأنه « يتزعم هذا العصر بشخصيته المتسمة بالفروسية ، ويعتبر أسطع نجم في باقة النجوم الكبرى للملوك الطوائف الآخرين » (١) . وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع انقصائد التي نظمها أيام مجده ، ثم بعد ذلك خلال محتته ، في التلهف على ماضيه والبكاء على مصيره ، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره ، في مختلف المناسبات والأحداث .

وكان بنو عباد فضلاً عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة ، يجمعون في بلاطهم ، وهو أزهى قصور الطوائف في هذا المضمار ، جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير ومستشاريه ، أو لمجرد الرعاية والحماية . وكان من هؤلاء حسباً أسلفنا شعراء عظام مثل أبى بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع ، وقد أتينا على أحداث حياته فيما تقدم ، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه « شاعر عظيم للحب » ، ويعتبره مثلاً « لأبداع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى ، وفى وسعنا أن نقارنه بالمتنبى والبحترى » .

وقد قارن العلامة دوزى ، ابن زيدون في حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى تيبولوس في حبه « لدلياً » ، ولكن الأستاذ نكل لا يقر هذه المقارنة إلا من حيث الناحية الغرامية ، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى واللاتينى ، « كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً » (٢) . والواقع أن حب ابن زيدون لولادة بنت الخليفة المستكنى (٣) ، كان أعظم حدث في حياته ، وكان أعظم وحى لروائع شعره . وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة الحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام بقوله : « وكانت في

A. R. Nykl : Ibid., p. 72 & 130 (١)

A. R. Nykl : ibid . p. 109 (٢)

(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله . تولى الخلافة في ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ باسم المستكنى بالله ، ثم خلع وفر من قرطبة في ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) واغتاله في الطريق بعض أصحابه .

نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخير ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدئ لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر ، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . على أنها ، سمح الله لها وتعمد زللها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ^(١) . وهام ابن زيدون في شبابه بولادة أيام خدمته لبنى جهور ، وتوثقت علاقته بها مدة من الزمن ، ونظم في حبها طائفة من أروع قصائده ، ثم ساءت العلائق بينهما ، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة . وكان ينافسه في ودها رجل من سراة قرطبة يدعى أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد ، وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون إلى السجن إما لريية علقت بولائه لابن جهور ، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه ومنافسه ابن عبدوس . وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس هذا ، رسالة ، لوم وتقريع ، تفيض بألوان مؤلمة من التهمك والتشبهات ، والمقارنات ، وينعته في أولها « بالمصاب بعقله ، المورط بجھله ، البين سقطه ، الفاحش غلظه ، العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره » . ثم يفيض في وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع ، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه ، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة ^(٢) . ثم فر ابن زيدون من سجنه ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك في سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق ببلاط المعتضد بن عباد ، وخدمه وعلت مكانته لديه . ولما توفى المعتضد استمر في خدمة ولده المعتمد ، وتوفى في سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة متنوعة من نظمته الرائقة ، ومنها قصائد تعتبر من أروع ما يحتويه الشعر الأندلسي ^(٣) ، وفيها يبلغ النسب ذروة الإبداع الروحي والحسي ،

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦

(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباتة المصري عنوانه « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » يحفظ بالمتحف البريطاني برقم Or. 8578 وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة .

(٣) راجع في حياة ابن زيدون وشمرة : الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٨٩ -

٣٧٦ ، وقلائد العقيان ص ٧٠ - ٨٣ .

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير في نفسه وروحه ، وهو تأثير يشيد به النقد الحديث . يقول الأستاذ نكل « ويغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبق ناقصاً بعضاً من أثن جواهره » (١) .

ولم جانب هذين الشاعرين العظيمين ، ابن عمار وابن زيدون ، كان بلاط إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر ، منهم أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية ، كما يدل على ذلك اسمه ، وبرع في الشعر منذ صباه ، واتخذ وسيلة للتكسب والعيش ، وتجول بين قصور الطوائف يمتدح ملوكهم . ثم اتصل ببلاط إشبيلية ، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم في مديحه كثيراً من قصائده . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ، زاره أبو بكر بأغاث ، وله في دولة المعتمد وأيامه ، وفي محنته وأسره ، قصائد كثيرة ، وله كتاب في تاريخ بني عباد سبقت الإشارة إليه . ولحق في أواخر أيامه بجزيرة ميورقة ، ومدح صاحبها مبشر العامري وحظي لديه . ومنهم عبد الحليل بن وهبون ، أو هو صديق ابن عمار ومرثيه ، وأبو الحسن الحصري ، وأصله من القيروان ، وقد خدم المعتضد ثم المعتمد ، وتوفي بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس ، هو عبد الجبار ابن أبي بكر بن محمد الأزدي الصقلي المعروف بابن حمديس ، وقد ولد بسرقروسة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، ولما غزا النورمان صقلية في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد ، ونظم في مديحه كثيراً من القصائد ، وظهر بروعة افتنانه ولاسيما في شعره الوصفى . ولما أسر المعتمد زاه في أغاث وأقام لديه مدة ، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدي وخدم ملكه ، وتوفي سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) .

وأما عن الكتاب الذين خدموا في بلاط إشبيلية ، وازدهروا في ظل بني عباد ، فقد أشرنا إلى الكثير منهم ، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية ، وإنما أردنا أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبني عباد في هذا الميدان من رياسة ومواهب عالية ، ولما كان لدولة الشعر في ظلهم من رعاية خاصة ، وقد كان بنو عبا-

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير (١) . ولم يكن يجاريهم في ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف .

وكان بنو الأفطس ، ملوك بطليوس ، كذلك من حماة الشعر والأدب ، وكان بلاطهم ولاسيما في عهد عميدهم المظفر ، وولده عمر المتوكل ، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر ، وفي مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ (١١٢٦ م) ، وبنو القبطانة الثلاثة أبوبكر وأبو محمد وأبو الحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى ، وقد كانوا أيضاً من وزراء بنى الأفطس ، ومن شعرائهم المجيد بن . وقد ذكرهم ابن بسام في الذخيرة ووصفهم بأنهم من « أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولاً عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة كهقعة الخوزاء ، وان أربوا عن الشهر في السنا والسناء » ووصفهم ابن الخطيب بأنهم « كانوا عيوناً من عيون الأدب بالأندلس ، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة » . وقد برع ثلاثهم في النظم والكتابة ، وكتبوا بعد بنى الأفطس لعاهل لمتونة ، يوسف بن تاشفين . ومن نظم أبى محمد قوله :

هلم إلى روضنا يا زهير ولح في سماء المنى يا قمر
وفوق إلى الأنس سهم الأخاء فقد عطلت قوسه والوتر
إذا لم تكن عندنا حاضرا فما بغصون الأمانى ثمر
وقعت من القلب وقع المنى وحزت من العين حسن الحور
ومن شعر أبى بكر قوله :

يا أخى قم تر النسيم عيلاً باكر الروض والمدام شمولاً
في رياض تعانق الزهر فيها مثل ما عانق الخليل خيلاً
لا نتم واغتشم مسرة يوم إن تحت التراب نوماً طويلاً (٢)

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم ، وهى قصيدته المعروفة « بالعبودية » ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم . ويصفها الأستاذ نكل بأنها « مزيج مدهش من الشعور العميق ، والمتانة

(١) فتح الطيب (عن رسالة الشقندى) ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) راجع كتاب « الإحاطة فى اخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ - ٥٣٠ .

التاريخية . وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة ، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبي والتاريخي الكبير المسمى « بالمظفرى » والذي قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالإخبار والفنون الأدبية (١) . وكذا كان ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً .

وكان يجتمع في بلاط ألمرية حول بنى صمادح ، جبهة من أقطاب الشعر والأدب ، في مقدمتهم أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وابن الحداد الوادى آشى وغيرهم ، من سبق أن ذكرناهم في أخبار مملكة ألمرية . وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان أبرع الوشاحين في عصر الطوائف . ووصفه ابن بسام « بأنه من مشاهير الأدباء والشعراء ، وأكثر ما ذكر اسميه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات » . وقيل في حقه « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز » . ومن أشهر موشحاته :

بلرتى	شمس	ضحاً	غصن	نقا	مسك	شم
ما أتم	ما أوضحاً	ما أورقاً	ما أتم	ما أتم	ما أتم	ما أتم
لا جرم	من لحاً	قد عشقاً	قد حرم	قد حرم	قد حرم	قد حرم

وأما ابن شرف ، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجداى القيروانى ، أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ . ولما اضطرت فتنة العرب في إفريقية غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة . وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف ، وكان فوق ذلك أدبياً موهوباً وله مؤلفات في الأمثال والأخبار والآداب . وتوفى سنة ٥٣٤ هـ (٢) . وأما ابن الحداد ، فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القينسى . وكان من أكابر الشعراء ، وقد قضى معظم حياته في بلاط ألمرية حسبما تقدم ذكره . وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة في تفضيل العجم على العرب . وكان بنو صمادح ، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة ، وكان المعتصم من أكبر شعراء عصره ، وكذلك كان ولداه يحيى الملقب برفع الدولة ، وأبو جعفر الملقب برشيد الدولة ، ولابنته أم الكرام ، من الشعراء الموهوبين . واشتهر منهم

(١) فقه الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١ .

(٢) ابن خلدون في المقدمة (بولاق) ص ٥١٩ ، والذخيرة القسم الثانى من المجلد الأول

ص ٢٩٩ .

(٣) ترجمته في الصلة رقم ٢٩٨ .

بالأخص رفيع الدولة ، وكان أشعرهم جميعاً^(١) . ويجب ألا ننسى أن العلامة اللغوى والجغرافى الكبير ، أبو عبيد البكرى قد عاش حيناً فى ألمرية ، تحت كنف المعتصم ورعايته ، ووضع فى ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة وبعض كتبه الأخرى . وهو أبو عبيد عبدالله بن أبى مصعب عبدالعزيز بن أبى زيد محمد ابن أيوب بن عمرو البكرى . وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة ، وجزيرة شلطيلى حيناً ، واستمرت رياسته أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ ، حينما أجلاه عنها المعتضد بن عباد . ودرس أبو عبيد على ابن حيان ، والحافظ ابن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهم من أقطاب العصر . وله عدة مؤلفات قيمة فى مقدمتها موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك ، وكتاب معجم ما استعجم ، وهو قاموس لغوى جغرافى ، وكتاب الآلىء فى شرح أمالى القالى ، وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد . وكان البكرى من أقطاب الأدب فى عصره ، وكان آية فى التبحر واللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار ، وأهل الضبط . وتوفى البكرى فى سنة ٤٨٧ هـ^(٢) وقال ابن الأبار : « وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتوالياه قلائد فى أجياد الأيام »^(٣)

يبد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية للدولة الشعر والأدب ، لم تبلغ فى القصور البربرية مبلغاً كبيراً ، فلم تزد نهضة الأدبية فى ظل بنى ذى النون بطليطلة ولم تجتمع فى بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء ، وإن كان قد نبغ فى ظلهم بعض العلماء البارزين فى الفلك والزراعة . وكذلك لم تشهد غرناطة فى ظل بنى مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن .

أما قصور الطوائف فى شرق الأندلس ، وفى سرقسطة ، فكان لها شأن خاص فى رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام . وكان بلاط سرقسطة ، شأنه شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب ، وكان فى مقدمة هؤلاء ، أبو عمر أحمد بن محمد دراج القسطلى ، وهو من أبرز شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف . ولد بقسطة الغرب سنة ٣٤٧ هـ من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وكان فى شبابه من كتاب المنصور بن أبى عامر

(١) الحلة السيرة (هوزى) ص ١٧٦ . والقاهرة ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٣٢ .

(٣) الحلة السيرة ج ٢ ص ١٨٥ .

وشعرائه ، وذاع اسمه بين ألع شعراء الطوائف ، ومدح عدداً من أمرائهم ، ولا سيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران ، ثم التحق ببلاط سرقسطة ، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيى . وقد وصفه الثعالبي في يتيمة الدهر : بأنه كان بين شعراء الأندلس ، كالمتنبي بين شعراء المشرق ، وقد ترك لنا ابن دراج ديوان شعر ضخيم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد في مختلف الأغراض^(١) . وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته في الرسل ، وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه . وقد أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه . وكان من بين أمراء سرقسطة في الوقت نفسه ، بعض الأدباء والعلماء البارزين ، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا فيما يلي عن النهضة الفكرية العامة في عصر الطوائف.

- ٣ -

إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة ، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى النروة ، في تفكيرهم ومستواهم العلمي الرفيع . وفي مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبو محمد علي بن حزم ، وقد كان آية عصره في نفوج الذهن ودقة البحث ، وعمق التفكير . ولد بقرطبة في سنة ٣٨٣ هـ (٩٨٤ م) في أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك . وقضى ابن حزم حياته أيام الفتنة بقرطبة ، ثم تجول حيناً في ألمرية وبلنسية في كنف الفتيان العامريين ، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية ، ولما هدأت الأحوال نوعاً عاد إلى قرطبة ، وتابع دراسته في المسجد الجامع . وبرع ابن حزم بالأخص في الفقه والعلوم الدينية والشريعة ، وأصول المذاهب والنحل ، وفي المنطق والفلسفة واللغة ، والمعرفة بالسير والأخبار . وتولى الوزارة في شبابه للخليفة المستظهر الأموي ، ثم نزع إلى شاطبة ، وهناك كتب كتابه «طوق الحمامة» ، وهو دراسة نفسية تحليلية بديعة للحب وبواعثه وأشكاله ، ومنه نعرف فضلاً عن ذلك ، الكثير عن حياة الفيلسوف ،

(١) نشر هذا الديوان بلشب سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود طي مكى . وتراجع ترجمة ابن دراج في ابن خلكان ج ١ ص ٥١ ، وفي بغية الملتص . الترجمة رقم ٣٤٢ . وأورد له الدكتور مكى في صدر الديوان ترجمة طويلة (ص ٢١ - ٨٠) .

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة . وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب والرسائل في مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية منها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » ، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب في مراتب العلوم ، وكتاب لإظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، ومنها كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه ، ومن روى عنه ، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول ، و« جمهرة أنساب العرب » وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها ، ومن نزل منها بالأندلس ، « ونقط العروس » وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث ، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة . وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه « علم الأخبار » ، ويعتبر علم النسب جزءاً من علم الخبر ، فإنه يحق لنا بعد الذي تقدم من ذكر كتبه ، أن نعتبره مؤرخاً بكل معاني الكلمة . على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخاً عادياً ، بل كان بالعكس مؤرخاً من طراز خاص ، بل ومن طراز نادر ، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم ، عن حوادث عصرهم وشخصياته ، أحكاماً لا تقبل الجدل . وقد عاش ابن حزم في عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيتهم ، واستتارهم ، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق ، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التي أصدرها في حق الطوائف ، والتي نقلناها فيما تقدم . بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء في الشرق أو في الغرب ، بكتابه الجامع « الفصل في الملل والأهواء والنحل » . ويشيد البحث الحديث بابن حزم ، وروعة علمه وتفكيره ، ويخصص له العلامة الإسباني آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه « الفصل » ويعتبره « مفكراً وعالمًا لاهوتياً » ، ومؤرخاً ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية « (١) » . ويعتبره الأستاذ نكل « أديباً وشاعراً وفقهاً ، ومؤرخاً سياسياً وعالمًا أخلاقياً » (٢) .

A. Asin Palacios : Abenhâzm de Córdoba y su Historia de las Ideas (١)
religiosas.

A. R. Nykl : ibid., p. 73 (٢)

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهري ، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية ، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه في عصره . وكان يتشدد كل التشدد في تطبيقه على العقائد ، والأحكام ، وهو لا يأخذ في تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين في صوغ الأحكام . وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد « بالحزمية » نسبة إليه . وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة . وأثار في الوقت نفسه ، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة ، واتهمه البعض بالمروق والزندقة ، وأحرقت كتبه في إشبيلية بأمر المعتضد ابن عباد^(١) . ونزح في أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة ، وهناك توفي في شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ^(٢) .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرّقوا مثل ميدانه في التفكير الديني والشرعي ، العلامة أبو الوليد الباجي ، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبي الباجي الحافظ . ولد بمدينة بطليوس غربي الأندلس سنة ٤٠٣ هـ ودرس في قرطبة ، ثم سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم في بغداد ، ولما عاد إلى الأندلس عاش حيناً في بلاط ميورقة ، وحيناً آخر في كنف المقتدر بن هود ، واشتهر بردوده على ابن حزم ، وكان قرينه في غزارة العلم وسعة المعرفة . وقد وصف بأنه من أئمة المسلمين . وتوفي في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . ومن شعره :

إذا كنت أعلم علماً يقينا بأن جميع حياتي كساعة

فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة ^(٣)

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر : دوالمة اللغوي الأعمى أبو الحسن علي بن سيده ، المتوفى في سنة ٤٥٨ (١٠٦٦ م) . وكان آية في الحفظ

(١) ترجمته في حذوة المقتبس ص ٢٩٠ - ٢٩٣ ، وفي وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ - ٤٣١

(٢) في شهر مايو (من ١٢ - ١٨ منه سنة ١٩٦٣) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمي فخيم

للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم « القرطبي » وأقامت له بلدية قرطبة تمثالاً بالحجم الطبيعي أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لابن حزم بالإسبانية ، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التي أقيمت مكان الجامع الذي كان يتوسط بلاط مغيث وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الفخمة . وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخي العظيم .

(٣) ترجمته في الصلة رقم ٤٥٣ .

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدائية في كنف أميرها العالم مجاهد العامري ، وانقطع إليه ، ولما توفي مجاهد ، توجس من ولده على إقبال الدولة ، فغادر دانية إلى بعض الأنحاء المجاورة . واشتهر ابن سيده بكتابه « المحكم » وهو قاموس لغوي ضخم ، وكتاب « السمار » .

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوي الجغرافي أبو عبيد البكري الذي سبق ذكره . وقد اشتهر بمعجمه اللغوي الجغرافي المسحى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم في تاريخه العام Crónica General

ويخص العلامة الأستاذ مننديث بيدال كتابي « الفصل » لابن حزم و « المحكم » لابن سيده بالذكر ، وينوه بنفاستهما ، ويقول : « إن النضوج العقلي اللازم لإخراج كتاب في تاريخ الأديان ، أو قاموس للفكر المتشابهة ، على مثل النمط الذي كتبت به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية ، لم تصل إليه أوروبا حتى القرن التاسع عشر » (١)

ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر ، وهو أبو عمر يوسف ابن عبد الله النميري القرطبي ، ولد سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وقضى شطراً من حياته في دانية وبلنسية وشاطبة ، ثم لحق أخيراً ببلاط بني الأفطس ببطلبوس وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة ، ثم شترين ، وتوفي في سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » ويمتاز شعره بالرصانة والأنفة . وقد خدم ولده أبو محمد عبد الله بن عبد البر في بلاط بني عباد ، حسباً تقدم ذكره في موضعه (٢)

ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثيت من العلماء الأعلام ، أميرين من أمراء الطوائف ، هما مجاهد العامري صاحب دانية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية . وكان مجاهد من أكابر علماء عصره في اللغة وعلوم القرآن ، وكان بلاطه مجمعا لطائفة من أشهر علماء العصر ، وفي مقدمتهم ابن عبد البر ، وابن سيده وذلك حسباً تقدم ذكره . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر

R. M. Pidal : ibid., p. 81 (١)

(٢) نفع الطيب (عن رساله ابن حزم في ذكر علماء الأندلس) ج ٢ ص ١٢١ .

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف ، ويشيد معاصره ابن بسام حسبما تقدم بذكره وذكر أذبه في الذخيرة ، وبنوه بجمال رسائله وروعها . وقد وقفنا على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام رياسته لها يقول فيه : « قلدت فلانا وفقه الله النظر في أحكام فلانة ، وتخيره لها بعد ما خبرته ، واستخلفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصنه ، لأنه احتاط فعلم ، وإن أضاع فأثم ، فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل ، وليسر بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، فعف في الحكم عند اشتباهه ، وبعده عند اتجاهاه ، ولا تقبل غير المرضى في شهادته ، ولا تعرف سوى الاشتغال من علاته ، ولتعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسلام يوم علاماته » (١)

هذا وقد كان عصر الطوائف ، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية الشاملة ، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . وقد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين ، الذين كانت بحوثهم فيما بعدمستقى خصبا لاقتباس الغرب . وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن اهِم بن يحيى الزرقالى القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة ، ويعرف في الغرب باسم Azarquiel وقد ذاعت جداوله الفلكية ، ذيوعا عظيما ، وكانت في كثير من المواطن أصبح من غيرها من الجداول القديمة ، وتوفي الزرقالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . وأبو القاسم أصبغ بن السمع الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٣٨ م) ، وكان بارعا في الهندسة والفلك ، وله كتب قيمة في الهندسة وزيج فلكي . وأبو الوليد هشام الوقيشى ، وكان أبرع علماء عصره في الهندسة والفلسفة والنحو واللغة ؛ وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب « طبقات الأمم » وهو تاريخ للعلوم . وقد كانت الجداول الفلكية التى وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد ، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة في اقتباس جداوله . وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية ، ولاسيما في عصر الطوائف ، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين في هذا العصر ، الذى سبقه بنحو قرنين . وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقرطبة ، من أعظم مراكز

(١) أورده ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » - الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية

الدراسات الفلسفية والرياضية في القرن الحادى عشر الميلادى . وكان المقنتر بن هود وولده المؤتمن ، من العلماء المبرزين فى الفلسفة والرياضيات والفلك . وكتب المؤتمن رسالته « الإستكمال » فى الرياضية . وأثارت بحوث هذين الأميرين العالمين إعجاب الدوائر العلمية فى العصور الوسطى (١) .

كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء ، التى حفل بها عصر الطوائف تملأ قصور الطوائف ، وتعيش فى كنف أمرائها ، سواء بطريق الخدمة فى الوزارة أو الكتابة أو القضاء أو غيرها ، أو فى ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك الأمراء . وكان أولئك العلماء والأدباء ، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، وفقاً للأحوال والظروف ، إذ كانت هذه القصور جميعاً تتنافس فى اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها ، وفى رعايتهم والإغداق عليهم ، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته ، ويعيش فى كنفه وتحت رعايته ، وكان بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة ، ويسيرها وفق رأيه ، أو يخوض غمار الدسائس والفتن فيذهب ضحية تدخله . وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى ، وأبو عبد الله البزليانى وزير المعتضد بن عباد ، وابن عمار وزير ولده المعتمد ، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء المغامرين ، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته .

وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية فى عصر الطوائف ، ذبوع المكتبات العامة والخاصة ذبوعاً يلفت النظر . ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة لمملكة كبيرة أو صغيرة . وكان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد لبث قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية ، مركز العلوم والدراسات الممتازة ، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من التبييد المؤلم ، مئوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة . وكانت إشبيلية ، حاضرة بنى عباد ، هى الثانية بعد قرطبة ، فى تقدم العلوم والثقافة ، وكانت تحتوى ، فضلاً عن مكتبة بنى عباد الملوكية العظيمة ، على عدد كبير من المكتبات الخاصة . وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التى اشتهرت بمكتباتها القيمة . وكان

(١) يراجع فى تفاصيل النهضة الفكرية فى عصر الطوائف رسالة ابن حزم عن الحركة العلمية بالأندلس ، وقد نشرت فى نفع الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة الشقندى وقد نشرت أيضاً فى نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها . ويراجع أيضاً . R. M. Pidal : ibid. p. 79-84 .

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامري ، فضلا عن علمه الغزير ، من أعظم هواة الكتب . ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد . واشتهرت بطليوس في ظل بني الأفطس بتقديمها العلمي والثقافي . وكذا كانت طليطلة في ظل بني ذى النون مركزاً عظيماً للبحوث العلمية . واشتهر بنو ذى النون كذلك بجمع الكتب ، وكانت لديهم مكتبة عظيمة . وكانت توجد غير المكتبات الملكية ، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة ، في سائر القواعد الأندلسية . وكان لهذه الثروات المكتبية ، تأثيرها بلا ريب ، في تقدم الحركة الفكرية والثقافية ، في عهد الطوائف (١) .

وقد امتدت هذه النهضة الفكرية والأدبية التي ازدهرت في عصر الطوائف إلى عهد المرابطين . وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة . والبداءة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، ويعتقون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة ، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب ، وانقرط عقد الحلقات الأدبية الزاهرة ، التي كانت تحفل بها قصور الطوائف ، ومع ذلك فقد بزغت في عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف ، وظهرت فيه عدة من الشخصيات اللامعة ، مثل أبي القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥٦٦هـ (١١٢٢ م) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٢٩ م) . وأبو بكر الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) ، والفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنبري المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧ م) . بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام في هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية في عصر الطوائف .

وقد حظى عصر الطوائف ، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه ، وتاريخ أعلامه . وفي مقدمة هؤلاء الفيلسوف ابن حزم . وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخاً بالمعنى الصحيح لعصر

(١) راجع في ذلك فصلاً للأستاذ غوليان ريبيرا عنوانه : *Bibliófilos y Bibliotecas* في كتابه *Disertaciones y Opúsculos en la España Musulmana* . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧ .

الطوائف ، إلا أنه يقدم لنا في رسالته المسماة « نقط العروس » ، وفي بعض رسائله الأخرى ، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصر الطوائف وشخصياته ، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم . ثم المؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان ، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) وتوفي بها سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبي عامر . وبرع ابن حيان في الأدب والرواية حتى غدا من إعلامها وخاصة محققها ، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان في شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها ، وقيام دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري ، وتولى هو الوزارة لبني جهور ، وشهد سقوط دولتهم ، وخصص لها كتابا من كتبه . ولاريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التي مزقت وحدة الوطن الأندلسي ، قد أذكت مخيلة ابن حيان ، وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التي نراها ماثلة في معظم ما كتبه عن حوادث عصره . وأعظم آثار ابن حيان كتابه « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس في أخبار أهل الأندلس » . وهو تاريخ ضخيم للأندلس حتى عصره أي عصر الطوائف . وقد انتهت ينامنه عدة قطع مخطوطة (١) . وقد ضمنه ابن حيان ، عن عصر الطوائف وأحداثه التي شهد الكثير منها بنفسه ، أقيم الروايات وأنفسها ، وأحفلها بالتعليقات النقدية . وكتب ابن حيان غير المقتبس ، كتابه « المتين » وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية في ضخامته ، ولكن لم يصل إلينا شيء منه ، وكتاب المآثر العامرية ، وهو أيضاً كتاب ضخيم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبي عامر وغزواته ، ولكنه لم يصل كذلك إلينا . وأسلوبه التاريخي يتسم بروح علمي ونقدي بارز . ويشيد ابن بسام بمجهوده التاريخي ، وينقل عنه شذوراً صافية ، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط ، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد . وهذا عدا الجزء الذي نشره المستشرق الإسباني الأب ملشور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧) . (راجع في ذلك كتابي دولة الاسلام في الأندلس - الطبعة الرابعة ص ٧ - ٩) .

بين المديح والذم ، والتقدير والانتقاص ، وذلك حسباً أشرنا إليه في موضعه في أخبار دولة بني جهور^(١) . وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، وقد غنى في معجم تراجمه^(٢) ، بترجمة كثير من العلماء والأدباء ، والفقهاء والمحدثين ، في عصر الطوائف . وكتب المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترين معجمه التاريخي والأدبي الضخم بقرطبة ، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل ، في سنتي ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ . وقد عاصر ابن بسام ، قبل أن يغادر موطنه مدينة شترين البرتغالية نحو سنة ٤٨٠ هـ ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل^(٣) ، أواخر عهد الطوائف ، وأوائل عهد المرابطين ، وعاش وقتاً في إشبيلية ، ثم غادرها إلى قرطبة ، حيث كتب مؤلفه . ويعتبر كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو مؤلف ضخيم يحتوى على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة ، من أقيم وأنفس مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحي التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية . وبالرغم من أن الصفة الأدبية تغلب عليه ، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب والشعراء ، ومن منشورهم ومنظومهم ، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الفصول والشذور التاريخية ، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين المعاصرين ، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته . ويصارعنا ابن بسام في مقلته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنته ، من رائق المنشور والمنظوم ، أن يصير أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق . ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه في محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبي صاحب

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ .

(٢) وهو المسمى « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » . وقد صدرت منه طبعة جديدة بالقاهرة في سنة ١٣٧٢ هـ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨ . وقد سقطت شترين في يد الفونسو السادس ملك قشتالة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

« قيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة والقيمة بذلك صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره .

ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر ، هو الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) صاحب كتابي « القلائد » و « المطمح » . وقد أورد لنا في « القلائد » (١) تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة ، يقدمهم إلينا في أسلوب مسجع ، يغلب عليه التكلف ، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة ، وكذا في المطمح أو « مطمح الأنفس ومسرح الناس » فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم في القلائد ، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع . ونجد أخيراً شاعراً وكاتباً كبيراً ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وزير بني الأفطس والرائي لدولتهم ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذي سبق ذكره ، يقدم لنا في رسالته عن « القضاء والحسبة » صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة ، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع في عهد الطوائف ، تبدو فيها روح النقد والتشاؤم ، وهو ينوه في رسالته بما كان يجري في إشبيلية ، حيث كان يقيم ، من ضروب الفساد ، ويدعو إلى الكف عن أمور كانت تجري في عهده ، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة ، وألا تفرع النواقيس في بلاد المسلمين ، إذ هي لا تضرب إلا ببلاد النصراني ، وألا يبيع النصراني واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم ، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين . إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا إليه . ومما جاء في ختام رسالته قوله : « وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره . وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء المهرج ، وداعية الفساد ، وانقضاء العالم . ولا يصلح ذلك إلا نبي بإذن الله . فإن لم يكن زمن نبي ، فالقاضي مسئول عن ذلك كله ، ومن كان في عون المسلمين ، كان الله في عونهم ، فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

(١) هو كتاب « قلائد العقيان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

والتخلص ، وينظر لنفسه ، فعسى يتخلص ، والله بعزته يسدده ، ويوفقه للخير ... (١) .

— ٣ —

الخواص الفنية

وكما ازدهرت العلوم والآداب في عصر الطوائف ، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات ، وكانت قصور الطوائف مئوى للفنون الجميلة ، ومظهرأ حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة ، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى ، وما يتبعها من الغناء . وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون في اقتناء القينات الحسان البارعات في العزف والغناء ، ويبدلون في ذلك الأموال الطائلة ، حتى لقد بذل أحدهم ، وهو هذيل بن رزين صاحب شتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات ، وكان في قصورهم منهن أسراب وأسراب ، ولاسيما في قصور بني عباد بإشبيلية ، وبني ذى النون بطليطلة ، وكان المعتمد بن عباد يعشق الموسيقى ، ويصحب الموسيقيين معه أثناء حملاته الحربية .

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس في عصر الطوائف . ونحن نعرف ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة في الفنون الزراعية ، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نظرة ، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً . وقد كان أهل الأندلس في الواقع من أنبغ الشعوب في فلاحه الأرض وتربية الماشية ، وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الري والصرف ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم ، مضرب الأمثال في الجودة والتنسيق والنماء . ويرجع ازدهار الزراعة في عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين الياقة ، وتربية الفراس والزهور النادرة . وقد ظهر في عصر الطوائف ، عدة من علماء النبات

(١) نشرت رسالة ابن عيرون في القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل في الحسبة ، نشرت بناية الأستاذ ليون بروفسال ، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة .

والزراعة ، ولاسيما في طليطلة وإشبيلية ، حيث كانت حدائق بني ذى النون في الأولى ، وحدائق بني عباد في الثانية ، تشغل مساحات واسعة ، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين . وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين في طليطلة ابن وافد الطبيب المشهور ، وكان يشرف على حدائق بني ذى النون . وأبو عبد الله بن بصال العالم الزراعى ، الذى عاش في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اشتهر ابن بصال بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه « الفلاحة » الذى انتهى إلينا ، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية ، يشهد ببراعته وتفوقه في هذا الميدان . ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى ، غادر ابن بصال طليطلة إلى إشبيلية ، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بني عباد . وكان من هؤلاء العلماء أيضاً أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد عاش في إشبيلية ، وألف كتاباً في الزراعة اسمه « المقنع » لم يصل إلينا . وأبو عبد الله محمد ابن مالك الطغرى ، وهو غرناطى عاش في أواخر القرن الحادى عشر ، وتلمذ على ابن بصال ، ووضع كتاباً في الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » . وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش في النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الزاهرة . وقد توفى في سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤) (١) .

وأما عن الصناعات ، فقد كانت كذلك في عصر الطوائف رائجة زاهرة ، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنيحاس والزجاج والنسيج . وكانت صناعة النسيج بالأخص ، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف ، وكان بمدينة ألمرية وحدها ، خمسة آلاف منسج ، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة . وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق ، ومن الثغور الإيطالية ، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية محملة بالسلع من كل ضرب ، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية . وكانت دول الطوائف ذات الثغور ، مثل إشبيلية وألمرية ، وبلنسية ودانية وسرقسطة ، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة .

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال المنشور بعناية المستشرق الإسباني Millas Vallicrosa

الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء السياسى والعسكرى ، وقوة التراث المادى والحضارى ، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل ، والتقدم الفكرى اللامع . وقد كان أبرز ما فى ذلك المزيج المتناقض ، ضعف الروح الدينية والوطنية ، بصورة لم تعرفها الأمة الأندلسية فى تاريخها من قبل قط ، بل ولم تعرفها فيما بعد ، حتى فى أسوأ عصور الفتنة ، والتفكك السياسى والعسكرى ، التى كان يقابلها من الناحية الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية . ولكن الأندلس لم تبد قط فى أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية ، مثل ما أبدته أيام الطوائف من التخاذل والاستسلام ، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية ، ومن إهدار لمقتضيات الكرامة القومية ، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم إلينا تلك الخواص المؤلمة ، التى تتناقض فى مجموعها وفى تفاصيلها ، مع طبيعة الأمة الأندلسية ، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها ، من الشجاعة والشهامة والإباء ، والتفانى فى الذود عن الدين والوطن .

وفى وسعنا أن نلمح فى تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية فى عصر الإحياء ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كثيراً من آثار تلك الخواص التى غلبت على عصر الطوائف بالأندلس . فهناك الأمراء الطغاة ، والحروب الأهلية الطاحنة ، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها . وهناك استعداد العدو الخارجى كل منها على الأخرى ، ثم التخاذل فى الدفاع عن الوطن . وهناك الانحلال الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل . ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية وأدبية وفنية زاهرة ، من أروع ما عرفته إيطاليا فى تاريخها ، يربعاها الأمراء الطغاة ، ويمدون بها بالبذل الوفير . وهناك أخيراً تجارة وصناعات رائجة ، ورخاء شامل ، وحياة كلها متعة واستهتار . ولأريب أن هذا التماثل فى الخواص بين العصرين ، يرجع إلى حد كبير ، إلى التماثل بين ما كان يجوزه كل منهما من الظروف السياسية والاجتماعية .

الوثائق والملحقات

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله
تميم بن المعز بن باديس بالمهدية . يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس
للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين
وأربعمائة .

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٤٨ الفزيرى بمكتبة الإسكوريال (Fol. 49R. -53V.) وهو مخطوط
ناقص من أوله ولا عنوان له) .

« الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحدهم
يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ،
وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناته وغيرهم في بلاد المغرب ،
سبب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك فعل
بالقوم الظالمين ، فقومنا الدين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضائرتهم ، وخلصت
إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأدقنا برغواطة
سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ،
لإله غيره وهو أرحم الراحمين . ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ،
على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزمام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ،
وإيطائهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكرياً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ،
ويقلل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء
والصبيان . فخطوبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد
المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول
البحر أسباباً ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله ، المولاه بنصر الله ،
أحسن الله في كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحه عينه ، فغزونا على الغزو ،
وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيئاً وشباناً ، بسواعد قوية ،
وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهم المهم وهم بنوها ،
يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزعمون إليها زعم الأسود ، فشحننا بهم القوارب ،

وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففرع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هياتهم ، محقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعههم منهم حاشى الخيل والدرك ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماع ، ونهب للسلاح ، فكل استصغروهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وننتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بنحول كالقحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء في القضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارى تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصرارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ويقاثلنا فى مأمنا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطين سريرة المخبتين ، لا بسن قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشغل مع قطعة كثيرة من النصرارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ

العباد . فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد ووردنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نخضه على الإسلام ، ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا في كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبوا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث في الورد علينا ، فلاحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلائع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبينا على لقاءه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق ؛ وتقلب قلب الخوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا في سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخوارج ، يقدر أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أحييتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتلة على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لا يقدر أن عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لقيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فروا يطلبون معقلاً يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المضطرب ، وأسلموه أيده الله ، وحده في طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل إلا البعض ، ولجأ في الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لا يروعه أحد منهم فيهمز ، ولا يهابهم فيسأم ،

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجلجل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخيته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلوا من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، ونحن في ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذي لا بد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخريومنا من الدنيا ، فلموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهم ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفتدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تتخذه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنناهم بالسهمرية دون الوخز بالإبر ، وضافت بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاربهم لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلاً ، وفنكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجال منا على خيلهم الرماح ، فشكروهم بها فرحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل يعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربي المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وييدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا في الأرض مجذلين ، موقى مغفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والأذونش فيهم على ما أخبرنا ، قد أنحنوا جراحاً بلزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب في المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون في أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً تظار التيومس إلى شفار الحازرين ، إلى أن جن الليل وأرخی

سدوله ، ولواهارين ، وأسلموا رحييلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع
ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس
أو أزيد . وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ،
والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون في الانتقال ،
ولا يستمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألفت رحلها
أم قشعم ، فصححنا ضماثرنا ، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا
بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ،
وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميهم
للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً
بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شهدت نجاته في المغرب ،
وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ،
ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمتنعنا منه متى أحب مانع ، ولحقنا الجزيرة
الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا
للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجع إلى أحدهم نفس ، يذكرون
ما لقوا ، ويتذكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم
أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حي ، ولا يحس منهم
أنسى . والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله مناً منه
علينا لا مناً عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين
إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليماً ، والسلام عليك ورحمة
الله تعالى وبركاته .

بعض « فصول » الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدو عقب موقعة الزلاقة .

(منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس - طبعة أو بسالة ص ٩٦ - ٩٨) .

« أما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله ، وأكرم خلقه وأسرّه ، فإن العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه ، بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والحزبية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه ، على الملاقات في يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ، وقال الجمعة عيد المسلمين ، والسبت عيد اليهود ، وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ، ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ، ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة الثانى عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرا أنه قد اغتتم فرصته في ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين ، فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى جيوش لتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأضلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء في هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى ألفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في خمس مائة فارس من ثمانين

ألف فارس ومات في ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ،
وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك ، ونظروا النهب والنيران في محله من كل جانب ،
وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعا ،
ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل ،
وأمر المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مواكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده
المنتشرة ، منصور الجهاد ، مرفوع الأعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه
من فيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم
ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأى العين دمارها ونهبها ، وألفنش ينظر إليها نظر
المغشى عليه ، وبعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت بهرجة الفرار
رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار ، فراجعوا حذاراً من العار ،
ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأقى إلى
أمير المؤمنين ، وهو مهيب الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهناه بالفتح
الجليل ، والصنع الجميل ، وتسلى ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ،
ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة
إلا في مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وكانت هذه النعمة العظيمة ،
والمنة الحسيمة ، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ،
موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمي .

رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة.

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الفريزي بمكتبة الإسكوريال Fol. 118V-119R)

« سيدى ، وأعلى عددى ، وأقوى عمدى ، وأزكى ذخرى لأبدى ،
ونعمة الله المستطيلة بيدى ، المناهضة بعصدى ، ومن أطال الله بقاءه فى عز رفيع
المراتب ، وحرز منيع الجوانب ، إذ أحكام الفتن ، وحوادث الزمن ، لاتزال
تحل على كل ما لا يقع بإيثار ، ولا يجرى على حكم واختيار ، فرب كريمة
لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا ، ومساء لا يزال عن التزامها مرحلا ، وقديماً
جداً الحفاء العقوق ، وأبطل التجنى الحقوق ، وقد يخرج الحليم ، ويتغيس الحميم ،
وتقطع الرحم ، وتبذ الذم ، لا سيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد ، باتراً أو اصر
الإخاء والإجمال ، وتحاسد القرابة داء قديم ، وخلق فى الناس معلوم ، وإنى
أبدك الله ، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف ، ومتحمل لانتستزله
أطاف ، وحاسد لا يرجى استرضاه ، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاهوه ،
إذا سألته نصفه أبداً منه أنفه ، وإن سمته عدلاً مال إلى الجور ميلاً ، وإن خفضت
له جناح الذل ، أوطأتى جهر الحفا ، وإن أقبلت عليه بناظر الود ، أول من صفحة
الإبداء ، وإن استنديت شحط ، وإن استرضيته سخط ، وإن حكمته تشطط ، وإن
أغضيت له تسلط ، وأنا فى أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه ، وألبسه على
أخلاقه ، وأستمع منه بغير مستمع ، وأرفع منه بغير مرفع ، وعقارب مضرت
تدب ، وعواصف معرته تهب ، وأذاه قاصد إلى فى خاصتى ، ومفسد على
بطانتى ، لا يألو فى مساعى سعيه اجتهاداً ، ولا آلو إلى مسرته تأنيلاً وانقياداً ،
أخذاً بالحجة عليه ، وتقدماً بالجميل إليه ، وطمعت أن تكون نظرة تربية مواقع
ظلمه ، وتعرفه جور حكمه ، ولا يزداد إلا اغتراراً ، ولا يبدى إلا استكباراً إلى أن
سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام ، وحاول أحوالاً تمامها هادية ...
ورام معاجلتى بالتى ليس فيها استبقاء ، ولا بعدها بقاء ، وسألنى مع هذا
الاجتماع بى ليسوسنى ... الإذعان إلى مطالبه ، والموافقة فى مذاهبه ، فأجبتة

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه ، والملاطفة تئينه وتغريه فأني إلا وانديسائاً .
فلما رأيت عن سوء معتقده غير وعن فساد رأيه غير راجع ، وغرني
جماحه ، وأعوزني استصلاحه ، ونقلني عن سجيتي بكره ، وكدر صفوى من
كل وجه ، راجحت في أمره بين أن أَرْضَى الله عز وجل في قطيعته بالنظر لعباده ،
والحماية لبلاده ، فما أطمع وطأ نواحيها ، وأمنع ممن رآه ،
وأدفع عنه من أراد اهتضامه ، وأن أبتهل برحم عن نفسي ، فرفع الله
عن ذلك منزلها ، وبسط عليه مقلدتها ، فرأيت النظر في قطع مضرته أولى ،
والسعى في حسم علته ومعرفته أحمى ، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه ،
وألزمته البقاء بقصبة منشون ، وللنفس يعلم الله مما حملني عليه ارتماض وشفاق ،
ولما يؤثره الرحم من ذلك لإزعاج وإفلاق ، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلاً ،
ولا جعلني إلى سواه مخيلاً ، وكان فيما يأتيه أعق ، وبما جره القدر إليه بحكم
اعتقاده أحمى ، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً ، ويركب حد
السيف إذا لم يجد سواه مركباً ، والله يشهد لقد طوى جوانحي مما ساقني إليه على
لواعج مزعجة ، وخرق منضجة ، وكتابي هذا من لاردة ، وقد استقرت
بحمد الله على الدعة أسباب قريرها ، واتصل بجميل عونه تدبيرها ، وتقتضى
أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال ، وتعرفك المبدى منها والمآل ، فإنك
الشريك في الحلو والمر ، والقيم في النفع والضر ، وفي خلال هذا أعزك الله
ما وردني ابن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم ، المشتمل على أجفل البر ،
والمقتضى لأجزل الشكر ، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط
أملى ، وأكد جدلى ، وعظمت نعم الله وقد صدر أبقاه الله متحملاً من
صحّة ودنى ، وثبات عهدى ، وارتباط عمتدى ، الأحوال عندى ما يطلعك
من ذلك كله على الحملة الكافية والحلية الشافية .

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية
أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها وينضمّل العجم على العرب
وكتب بها من لاره

(منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الفزيرى لوحة ٢٦ - ٢٩)

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة ، أورش
اليمين ، بزهد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان الامن غسان ، أو من آل
ذى حسان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ،
فما هذا الإعمال للكور ، وترك الوكور . وقل ما تأخذ الشعرة F.26B فى
الرحيل إلا عن الريع الخيل ، ولو أن القوم خلطوك بالآل ، لما أحوجك إلى
الخط فى الآل . مه مه ، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف ، وودك
لأنقف ، على من اضطرك إلى الایغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ،
وعوضك من الأندية ، بحبوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك
على مخالفة الحصان ، ومخالفة الحصان ، ووكلك بمسح الأرض ، ذات الطول
والعرض ، فإذا يمتت تباله ، تدباله ، وصرت ضغثا على إبالة ، تتعلل باليمين ،
ضنا بالعلق الثمين . أحسبك أزریت ، وبهذا الخيل البجيل ازدریت ،
وما دریت ، أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ، ذوى أيتق جرب ،
أساورة أكاسرة ، مجعد نجذبهم ، لارعاة شويها ولا بهم ، شغلوا بالماذى
والمرآن عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ،
ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة
الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطبة
بالخرصان .

ما ضرهم أن شهدوا مجادا أو كافحوا يوم الوغى الأنداد
أن لا يكون لوهم سوادا

أرومة رومية ، وجرثومة أصفريّة .

نتمهم ذوو الأحساب والمجد والعلی من الصهب لاراعو غصاً وأفان
من القوم الملّس الأدم ، لم تُعرق فيهم الأقباط ، ولا الأنباط ، حسب
حرى ، ونسب سرى ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلقوا ظلمة ،
ولا تهليل ، فى التكايل ، فماسنا قط قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولا لكنا
عرودا ، فلا تهاجر ، بنى هاجر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعثاؤنا وحفدتنا ،
منشأ عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربى الرق ، وألحقناكم بالأحرار ، فغمطم
F.27A النعمة ، فصفعناكم صفعا ، يشارك صفعا ، اضطركم إلى سكنى
الحجاز ، والحاكم إلى ذات الحجاز ، رُزْن ، رُصْن .

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد المات جمال الكتّيب والسير
إذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت فى اتساق ، وقرعت الظنايب ،
وأشرعت الأنايب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الهدان فاه ، وولى قفاه ،
ألفيتهم ذمرة الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ، أحلى عندهم
من العسل .

مستسلمين إلى الختوف كأنما بين الختوف وبينهم أرحام
من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لم على القدمة اليدان ، على التثنائى
واللدان .

مين الألى غير زجر الخيل ما عرفوا إذ تعرف العرب زجر الشاء والعكر
يُصْرُ صُبْر ، تزدان بهم المحافل والجحافل ، قبول على خيول ، كأنها
فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ، ضراغمة الأججم ،
بتوغاب ، متفنون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت
عليهم سارة الجمال ، ربة الآيات ، شُمخ ، بُدخ ، بررة أقيال ، جررة
أذيال . يخ بخ ، أحلهم سيوفهم سطة الأرضين ، فماقتوا بذلك ولا رضىين ،
حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كتشهاق العفا هم بالنهق
شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج ، عن

الكلب والفروج ، وبالنغير عن النغير ، وبالحنائب عن الحنائب ، وبالحلب عن الحب ، وبالسليل عن الشليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الحمر والزمر ، وبالقيان عن العقيان ، وعن قيان القيان ، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم ، آلاتهم وحصونهم ، حصنهم أقيال ، آباؤهم من F. 27B بين الأنام أقتال : أولئك قومي إن بنوا شيدوا البنى وإن حاربوا جدوا وان عقدوا سدوا
وُضِعَ رُجْع ، لاحفزة عكر ، ولا حفزة أكر ، ملوك جلة ، لا محرقوا جلة ، ندس ، غنوا بالإستبرق والسندس ، عن البيت المقيظ المشي ، المجموع من النعيمات الست . بسل لا حراس مسل ، ولا غراس فصل ، مُلِّك لقاح ، ليس منهم في ورد ولا صدر شراب دَرَّ اللقاح ، بل شراهم النبيذ ، وطعامهم الحنيد ، لازهيد الهيد في اليد ، ولا مكون الوكون ، ولا منهم من احتشا ، بمذموم الكُشا ، ولا في سائر الاحفاش ، من وليد وناش ، من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعق لهم بالشنان ، ولا يوعوع لهم بالشنان ، فكف أيها الشان ، فلهم عظيم الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان ، صنيع منبع ، ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفره ، لاشكرة ؛ أيها إذ تأبطتم تها ، معشر البداة العداة . اعتقدتم غيلاً ، فاسترتم صلا . أما علمتم ان الدولة النوشروانية ، والمملكة الأزديشيرية ، بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الجيرة بعد عظيم الخيرة ، قالوا ذللاً ، تتخيرون البنات عند البيات مهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونُحانكم ، وكان برمه سبياً لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذبول ، مدوساً بأخفاف القبول ؛ والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأطهر ، عطفهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعمومة الإسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان ، من سيل العرم ما كان ، يؤدي نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الجماجم .

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

F. 28A مهلا بنى الأماء ، عن الغمز والإيماء ، فنحن عُرْق عُرْق ، في الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ،

وقد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا ، ومن بطولنا ، وكل الورى قد
شملة فضلنا وطولنا :

شرف ينطح النجوم بروقيه وعز يقلقل الأجيالا

حُلم ، علُم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ،
كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى ، والعلمة ، بالارتماطيقى ، والجومطريقى ،
والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا
أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لاعلى وصف الناقة القدنية ، فعلهم
ليس بالسفساف ، كفعل نائله وإساف ، أصغر بشأنكم ، إذ يزق خمر ،
باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبو رغالكم قاد قبل الحبشة إلى حرم الله
لاستيصالكم .

أزيدك أم كفأك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنت أحق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالفديم ، المفرئى للأديم ، لاكن الفخر
يابن عمنا ، الذى بالبركة عمنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ،
الذى انتقلنا الله تعالى به وإياكم من العاية والغواية ، أما نحن فمن أهل
التلث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ،
ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلقى تبره ، والمسك
بعض دم الغزال .

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوه الصفوة من بينهم محمد النور أبو القاسم

بهذا النبى الأسمى أفاخر من تفخر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف
F. 28B السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتقى بالرسالة ، والمنتقى للأداء
والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصل
جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعارب ، اعلينا بامس لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا :

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن حدّوت بحيث يُستمع الهداء

ثم أجمع بشاعر غسان ، لاساسان في هذا العيد بالوعيد ، وأحر في
في هذا الفصل بعدم الوصل . لقد غمّ آخرك ، لكن بالرغم أخرك
إذ أضربت عن مديح ، علقنا الريح ، معز الدولة ، شهنا الرئيس وسهمنا النفيس
قبل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعاني ، ومعنى المعاني ، ذى الرياسة
الساسانية ، والنفاسة النفسانية ، فاذهب يا غث المذهب ، وابغ في الأرض
نفقا ، أو في السماء مرتقى ، فهذه أليّة ، جلبت عليك بليّة ، أو حُك
من البسيط المديد ، ما تستجيره من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالي ،
لا نوالى ، إلا من هو لعظيمتنا موالى ، وحذار حذار ان تقرر سن الندم ،
ولات حين مندم ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، وكُربك في كُربك ،
فمن أبصر أقصر ، وما حرّف ، من صديقه خرّف .

فلا تبشع ممضّ العنا ب يلقاك يوما بلبقياه لاق
فإن الدواء حميد انفعال وإن كان مرّاً كربه المذاق

يامعتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحيت منك فلا تكلنى إلى شيء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ما حقى عليه قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يوم إذا أنفقت لإنفاق البخيل
وكيف وأنت علوى السجايا وليس إلى اقتصادك من سبيل
وقد يُقوى الفصيح فلا تقابل ضعيف البر إلا بالقبول
وإن الوزن وهو أصح وزن يقام صغاه بالحرف العليل
فإن يك ما بعث به قليلا فلي حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفلّك وسبح المَلَك ، ورحمة الله وبركاته .

دول الطوائف

جدول تاريخي مفصل
دولة بني جهور في قرطبة

أبو الخزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ - ٤٣٥ هـ : ١٠٣١ - ١٠٤٤ م
أبو الوليد محمد جهور ٤٣٥ - ٤٥٧ هـ : ١٠٤٤ - ١٠٦٤ م
عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ - ٤٦٣ هـ : ١٠٦٤ - ١٠٧٠ م
المعتمد بن عباد يستول على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

دولة بني عباد في إشبيلية

القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ - ٤٣٣ هـ : ١٠٢٣ - ١٠٤٢ م
عباد بن محمد المعتز ٤٣٣ - ٤٦١ هـ : ١٠٤٢ - ١٠٦٩ م
محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ - ٤٨٤ هـ : ١٠٦٩ - ١٠٩١ م

إشبيلية تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني الأفطس في بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ - ٤٣٧ هـ : ١٠٢٢ - ١٠٤٥ م
محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ - ٤٦١ هـ : ١٠٤٥ - ١٠٦٨ م
يحيى بن محمد المنصور ٤٦١ - ٤٦٤ هـ : ١٠٦٨ - ١٠٧٢ م
عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ - ٤٨٨ هـ : ١٠٧٢ - ١٠٩٤ م

بطليوس تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني يحيى في لبللة

أبو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ - ٤٣٤ هـ : ١٠٢٣ - ١٠٤٢ م
محمد بن يحيى عز الدولة ٤٣٤ - ٤٤٣ هـ : ١٠٤٢ - ١٠٥١ م
فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ - ٤٤٥ هـ : ١٠٥١ - ١٠٥٣ م

لبللة تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني مزين في باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد ٤٣٢ - ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ - ١٠٤١ م
محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ - ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ - ١٠٤٨ م

عيسى بن مزين المظفر ٤٤٠ - ٤٤٥ هـ : ١٠٤٨ - ١٠٥٣ م

محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ - ٤٥٠ هـ : ١٠٥٣ - ١٠٥٨ م

عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ - ٤٥٥ هـ : ١٠٥٨ - ١٠٦٣ م

شلب تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني البكري في ولبه وجزيرة شلطيـش

عبد العزيز البكري عز الدولة ٤٠٣ - ٤٤٣ هـ : ١٠١٢ - ١٠٥١ م

ولبة وشلطيـش تسقطان في يد المعتضد

دولة بني هارون في شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ - ٤٣٣ هـ : ١٠٢٦ - ١٠٤١ م

محمد بن سعيد المعتمد ٤٣٣ - ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ - ١٠٥١ م

شنتمرية الغرب تسقط في يد المعتضد

دولة بني ذى النون في طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ - ٤٣٥ هـ : ١٠٣٦ - ١٠٤٣ م

يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ - ٤٦٧ هـ : ١٠٤٣ - ١٠٧٥ م

يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ - ٤٧٨ هـ : ١٠٧٥ - ١٠٨٥ م

طليطلة تسقط في يد ألفونسو السادس

دولة بني مناد في غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ - ٤١٠ هـ : ١٠١٣ - ١٠١٩ م

حبوس بن ماكسن ٤١١ - ٤٢٨ هـ : ١٠٢٠ - ١٠٣٧ م

ياديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ - ٤٦٥ هـ : ١٠٣٧ - ١٠٧٣ م

عبد الله بن بلقين ٤٦٥ - ٤٨٣ هـ : ١٠٧٣ - ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بني برزال في قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ - ٤٣٤ هـ : ١٠١٣ - ١٠٤٢ م

عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ - ٤٥٩ هـ : ١٠٤٢ - ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط في يد ابن عباد

دولة بني دمر في مورور

نوح بن أبي تزيلى الدمري ٤٠٣ - ٤٣٣ هـ : ١٠١٣ - ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥٣ م
مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ — ٤٥٨ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٦ م

مورور تسقط في يد ابن عباد

دولة بني خزرون في أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ — ٤٢٠ هـ : ١٠١١ — ١٠٢٩ م
عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٥٣ م
محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ — ٤٦١ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٨ م
أركش تسقط في يد ابن عباد

دولة بني يفرن في رندة

هلال بن أبي قرة اليفرنى ٤٠٦ — ٤٤٥ هـ : ١٠١٥ — ١٠٥٣ م
باديس بن هلال ٤٤٥ — ٤٤٩ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٧ م
أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ — ٤٥٧ هـ : ١٠٥٧ — ١٠٦٥ م
رندة تسقط في يد ابن عباد

مملكة المرية

١ — خيران العامرى ٤٠٥ — ٤١٩ هـ : ١٠١٤ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
عبد العزيز المنصور ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٤١ م
٢ — معن بن صمادح ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م
محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٥١ — ١٠٩١ م
أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م
المرابطون يستولون على المرية

مملكة مرسية

١ — خيران العامرى ٤٠٣ — ٤١٩ هـ : ١٠١٢ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ — ٤٥٥ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٦٣ م
أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ : ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م
(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)
المعتد بن عباد يستولى على مرسية

- ٢ — ابن عمار ٤٧١ — ٤٧٣ هـ : ١٠٧٨ — ١٠٨١ م
ابن رشيق ٤٧٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ هـ .

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

- ١ — مجاهد العامري الموفق ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٤٤ م
على بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ — ٤٦٨ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٧٦ م
٢ — المقتدر بن هود صاحب مرقسطة ٤٦٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٧٦ — ١٠٨١ م
المنذر بن هود ٤٧٤ — ٤٨٣ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانية

مملكة بلنسية

- الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ — ٤٠٨ هـ : ١٠٠٩ — ١٠١٧ م
لييب العامري ٤٠٨ — ٤١١ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢١ م
عبد العزيز المنصور ٤١١ — ٤٥٢ هـ : ١٠٢١ — ١٠٦١ م
عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ — ٤٥٧ هـ : ١٠٦١ — ١٠٦٥ م

المأمون بن ذي النون يستول على بلنسية

- نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م
عثمان بن أبي بكر ٤٧٨ — ٥٠٠ هـ : ١٠٨٥ — ١١٠٠ م
القادر بن ذي النون ٤٧٨ — ٤٨٥ هـ : ١٠٨٥ — ١٠٩٢ م
القاضي ابن جحاف ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ : ١٠٩٢ — ١٠٩٤ م
السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٣ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية

إمارة شتمرية الشرق

- هذيل بن عبد الملك بن رزين ٤٠٣ — ٤٣٦ هـ : ١٠١٢ — ١٠٤٥ م
عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ : ١٠٤٦ — ١١٠٣ م
يحيى حسام الدولة ٤٩٦ — ٤٩٧ هـ : ١١٠٣ — ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شتمرية الشرق

إمارة ألبرت

- عبد الله بن قاسم ٤٠٠ — ٤٣١ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله بن الدولة ٤٣١ - ٤٣٤ هـ : ١٠٣٩ - ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ - ٤٤٠ هـ : ١٠٤٢ - ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ - ٤٩٥ هـ : ١٠٤٨ - ١١٠٢ م
المرابطون يستولون على ألبونت
مملكة سرقسطة

- ١ - المنذر بن يحيى التجيبي ٤٠٨ - ٤١٤ هـ : ١٠١٧ - ١٠٢٣ م
يحيى بن المنذر المظفر ٤١٤ - ٤٢٠ هـ : ١٠٢٣ - ١٠٢٩ م
المنذر بن يحيى معز الدولة ٤٢٠ - ٤٣٠ هـ : ١٠٢٩ - ١٠٣٩ م
- ٢ - سليمان بن هود المستعين ٤٣١ - ٤٣٨ هـ : ١٠٣٩ - ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ : ١٠٤٦ - ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤمن ٤٧٤ - ٤٧٨ هـ : ١٠٨١ - ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ - ٥٠٣ هـ : ١٠٨٥ - ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ - ٥٠٥ هـ : ١١١٠ - ١١١٠ م
المرابطون يستولون على سرقسطة

ثبت المراجع

- ١ -

- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق) .
تاريخ ابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
نهاية الأرب للنويري . (القسم التاريخي ، ومعظمه لا يزال مخطوطا) .
نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (الطبعة الأهلية ١٣٠٢ هـ)
البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي
(الجزء الثاني المنشور بعناية العلامة دوزي (١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية
الأستاذ ليثي بروقنسال (باريس ١٩٣٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (المجلدات الثلاثة
المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه في موسوعة دوزي
عن بني عباد Hist. Abbad. ، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
كتاب الصلة لابن بشكوval (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي (ضمن المكتبة الأندلسية) .
بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس للضبي (ضمن المكتبة الأندلسية
والقاهرة ١٩٥٥) .
الحلة السيرة لابن الأبار القضاعي (القسم المنشور بعناية العلامة دوزي
ليدن ١٨٤٧) . والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
(وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤) في مجلدين
جنوة المقتبس لأبي عبد الله الحميدى (القاهرة) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة
فاس لابن أبي زرع الفاسي المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبساله ١٨٤٣) .
الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .

- أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
- الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي المنشور بعناية الدكتور شوقي ضيف (القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥) .
- كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروقنسال (القاهرة ١٩٥٥) .
- قلاند العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .
- نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح وترجمة محمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية ١٩٥٨) .
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .
- طوق الحمامة لابن حزم (طبع دمشق ١٣٤٩ هـ) .
- رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشورة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في عدد ديسمبر ١٩٥١) .
- الروض المغطر (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري (القاهرة ١٩٤٨) .
- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبي عبيد البكري ، والمنشور بعناية المستشرق البارون دي سلان (الطبعة الثانية) .
- مراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي (القاهرة ١٩٣٥) .
- معجم البلدان لياقوت الحموي (القاهرة ١٩٠٦) .
- كتاب المعيار المغرب والجامع العرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحيى الوئرشيشي (طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ) .
- رسالة ابن عبدون في الحسبة (المنشورة بعناية الأستاذ ليفي بروقنسال طبع معهد الآثار الفرنسي بالقاهرة) .
- كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق مياس بيكرودنا والأستاذ محمد عزيمان (تطوان سنة ١٩٥٥) .

مصادر مخطوطة

- ابن حيان : السفر الثاني من كتاب « المقتبس في تاريخ أهل الأندلس » .
قطعة مخطوطة ، محفوظة في خزانة جامع القرويين بفاس .
أوراق مخطوطة من البيان المغرب عن مؤلفيها في خزانة القرويين بفاس .
النخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، النسخة المخطوطة
المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) .
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، الجزء الكبير المخطوط المحفوظ
بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ الغزيري .
الحلة السيرة لابن الأبار ، النسخة الكاملة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال
برقم ١٦٥٤ الغزيري .
إعتاب الكتاب لابن الأبار ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال
برقم ١٧٣١ الغزيري .
المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ الغزيري ، وبها
عدة رسائل مرابطة هامة .
المجموعة المخطوطة المسماة « رسائل تاريخية وأدبية » المحفوظة بمكتبة الإسكوريال
برقم ٥٣٨ الغزيري .
تحفة العروس لأبي عبد الله التيجاني الأندلسي المالكي ، نسخة مخطوطة
محفوظة بمكتبة الإسكوريال رقم ٥٩٩ الغزيري .

- R. Dozy : *Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum)* (Leiden 1848—1852, 3 vol.).
„ „ : *Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge* (Leiden 3 ème Ed.).
„ „ : *Le Cid d'après de nouveaux documents*.
„ „ : *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête des Almoravides* (Leiden 1932).
R.A. Nykl : *Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provençal Troubadours* (Baltimore 1946).
Padre Mariana : *Historia General de Espana* (Madrid, 1955).
Padre Enrique Florez : *Espana Sagrada* (Madrid, 1797-1886).
Modesto Lafuente : *Historia General de Espana* (Madrid, 1861).

Estudios de Erudición Oriental. Homenaje a F. Codera.

F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana
(Zaragoza, 1899).

Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid, 1926).

R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid, 1947).

„ „ „ : Origenes del Espanol.

M. Caspar Rimero : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza, 1905).

A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901).

Is. de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid, 1949).

J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos (Madrid, 1928).

A. Asin Palacios : Abenhazm de Córdoba y su historia de las ideas
religiosas.

A. Campaner y Fuentes : Bosequejo Historico de la Dominacion
Islamita en las Islas Baleares (Palma, 1868).

A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana (Cuarta Ed).

„ „ „ Influencia de la Civilizacion Arabe (Madrid
1931).

M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868).

Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid
y Granada.

J. Aschbach : Geschichte Spaniens zur Zeit der Herrschaft der Almo-
raviden und Almohaden (Frankfurt am Main 1833).

(وترجمته العربية لمحمد عبد الله عنان)

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

١٥	الحسن بن رشيق : مما يزهدنى فى أرض أندلس
	ابن زيدون أبو الوليد
٢٦	لولا بنو جهور ما أشرقت بهم
٥٧	لقد سرنى أن النعى موكل
	أبو بكر بن اللبانة
٢٣	من بنى المنذر بن ماء السماء
٢١٠	ملك يروعك فى حلى ريعانه
٣٥٦	نسيت الاغداة النهر كونهم
٢٩	القاضى ابن عباد : ولا بد يوما أن أسود على الورى
	المعتضد بن عباد
٥٧	حميت ذمار المجد بالبيض والسمر
٥٧	لقد حصلت يارندة
	المعتمد بن عباد
٦٠	ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر
١٣٢	سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
٣٥٥	ان- يسلب القوم العدا
٣٥٩	أنباء أسرك قد طبق آفاقا
٣٥٩	غريب بأرض المغربين أسير
٣٥٩	فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
٣٦٠	بكيت الى سرب القطا اذ مرون
٣٦٠	أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما
٣٦١	قبر الغريب ستاك الرائع القادى
	أبو بكر بن عمار
٦٨	ألا حى بالغرب حيا جللا
٦٩	سجايك ان عافيت اندى واسمىح
١٨٣ و ١٨٢	بشر بلنسية وكانت جنة
٨٨	عمر بن الألفطس (المتوكل) : انهض أبا طالب الينا
١١٨	رثاء مدينة طليطلة : لشكلك كيف تبتسم الشغور
١٣٦ و ١٣٥	أبو اسحاق الالبيرى : الا قل لصنهاجة اجمعين
	ابن دراج القسطلى
١٦٢	لك الخير قد أوفى بمهدك خيران
٢١٩	أنورك أم أوقدت بالليل نارك
٢٦٨	بشراك من طول الترحل والسرى

ابن العداد الوادى آشى : لملك بالزادى المقدس شاطيء . . . ١٦٩
المتصم بن صمادح

وتحت الفلائل معنى غريب ١٧٠
 ترفق بدمعك لا تفنه ١٧٢
 تمتعت بالنعماء حتى مللتها ١٧٢
 ابو جعفر البتي : اترضى عن الدنيا فقد تتشوف ١٨٢
 ابو عبد الرحمن بن طاهر : ايها الاخيف مهلا ١٨٦
 ابو اسحاق بن خلفا : عاثت بساحتك العدا يادار ٢٤٦
 ابو عيسى بن لبون : نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ٢٥٧
عبد الملك بن رزين

انا ملك تجميع في خمس ٢٥٨
 يارب ليل اطل الليل مدته ٢٥٩
 اترى الزمان يسرنا بتلاق ٢٥٩
عبد الله بن محمد بن قاسم

خلعت عن الملك لكننى ٢٦٢
 اما لكل نبيه فى الملا حيل ٢٦٢

القتدر بن هود ، ابو جعفر

قصر السرور ومجلس الذهب ٢٨٣
 لست لدى خالقي وجيها ٢٨٣

السميسر

صانع اذفوتش والنصارى ٣٤٠
 ابو بحر بن عبد الصمد : ملك الملوك اسامع فانادى ٣٦٢
 ابن الخطيب ، لسان الدين : قد زرت قبرك عن طوع باغمات ٣٦٣
 ابن عبلون (ابو محمد عبد المجيد) : الدهر يفجع بعد العين بالآثر ٣٦٩
ابو محمد بن عبد العزيز البطليموسى

هلم الى روضك يا زهير ٤٢٨
ابو بكر بن عبد العزيز البطليموسى
 يا اخى قم تر النسيم عيلا ٤٢٨

عبادة بن القزاز

بدرتم شمس ضحا ٤٢٩

ابو الوليد الباجى

اذا كنت أعلم علما يقينا ٤٣٣

فهرست الموضوعات

صفحة	
٣	مقدمة
٧	تصدير
١١	تمهيد : نذر الإنحلال والتفكك

الكتاب الأول

قرطبة

ودول الطوائف في الأندلس الغربية والوسطى

٢٠	الفصل الأول : دولة بني جهور في قرطبة
٣١	الفصل الثاني : بنو عباد ومملكة إشبيلية - القسم الأول
٤٠	إمارات غرب الأندلس
٤٤	الإمارات البربرية
٥٩	الفصل الثالث : بنو عباد ومملكة إشبيلية - القسم الثاني
٨١	الفصل الرابع : بنو الأفطس ومملكة بطليوس
٩٤	الفصل الخامس : مملكة بني ذى النون في طليطلة

الكتاب الثاني

الدول البربرية في جنوبي الأندلس

٢٢٠	الفصل الأول : دولة بني مناد البربرية في غرناطة ومالقة ...
١٤٧	الفصل الثاني : الإمارات البربرية الأخرى في جنوبي الأندلس ...

الكتاب الثالث

دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

في شرق الأندلس

١٥٨	الفصل الأول : مملكة أمرية
١٧٤	الفصل الثاني : مملكة مرسية
١٨٧	الفصل الثالث : مملكة دانية والجزائر

الكتاب الرابع

دول الطوائف في منطقة بلنسية

الفصل الأول : مملكة بلنسية

١ - عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون ... ٢١٦

الفصل الثانى : مملكة بلنسية

٢ - السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية ... ٢٣١

٣ - إمارة شنتمرية الشرق ... ٢٥٣

٤ - إمارة ألبونت ... ٢٦٠

الكتاب الخامس

دول الطوائف في الثغر الأعلى

٥ - مملكة سرقسطة حتى نهاية عصر المقتدر بن هود ... ٢٦٤

٦ - مملكة سرقسطة منذ عصر المؤمن حتى سقوطها في

أيدى المرابطين ... ٢٨٤

الكتاب السادس

موقعة الزلاقة والفتح المرابطى

٧ - نشأة المرابطين وقيام الدولة المرابطية بالمغرب ... ٢٩٨

٨ - موقعة الزلاقة ... ٣٢٠

٩ - الفتح المرابطى - القسم الأول ... ٣٣٣

١٠ - الفتح المرابطى - القسم الثانى ... ٣٤٩

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال القرن الحادى عشر الميلادى

١١ - المملكة الإسبانية الكبرى في عهد سانشو الكبير وولده

فرناندو الأول ... ٣٧٦

صفحة

- الفصل الثاني : إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول
عصر ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد ٣٨٨
الفصل الثالث : النصارى المعاهدون ٤٠٩

خواص عصر الطوائف

- ٤١٨ السياسية والاجتماعية والحضارية

وثائق وملحقات

- ١ - رسالة كتبها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس يصف فيها فتح بلاد الغرب وجوازه للأندلس للجهاد بها. ٤٤٦
٢ - بعض فصول الكتاب الذي بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدو عقب موقعة الزلاقة ٤٥١
٣ - رسالة المقتدر بن هود إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة ٤٥٣
٤ - رسالة أبي عامر بن غرسية في تفضيل العجم على العرب ... ٤٥٥
دول الطوائف : جدول تاريخي مفصل ٤٦٠
ثبت المراجع ٤٦٥
فهرست الشعر والشعراء ٤٦٩

فهرست الخرائط

- ١ - دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية بعد انهيار الخلافة ٢٧
٢ - دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة ... ١١٧
٣ - موقعة الزلاقة ٣٢٧
٤ - الدولة المرابطية الكبرى عقب افتتاح الأندلس ٣٦٧

فهرست الكتب والرسائل

سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر ،
لاين بسم ١٧٨
طبقات الامم ، لاين سيد ١٠٦٤ ، ٤٣٥
طوق الهامة ، لاين حزم ٤٣١
الميدونية ، قصيدة ابن جيلون في رثاء بني
الأفلس ٤٢٨
غريب القرآن ، لاين يحيى بن صمدح ١٦٥
الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لاين حزم ،
٤٣٢ ، ٤٣٤
قلائد العقيان ، لفتح بن خاقان ١٤١ ، ٤٤٠
كتاب في الإجماع ومسائله ، لاين حزم ٤٣٢
كتاب التبيان للإميرعبدالله بن بلقين ١٤٦٤ ، ٣٤٢
كتاب التلخيص لوجوه التلخيص ، لاين حزم ٤٢٠
كتاب جوامع السيرة ، لاين حزم ٤٣٢
كتاب السمار ، لاين سيدة ٤٣٤
كتاب الفلاح ، لاين بصال ، ٤٤٢
كتاب في مراتب العلوم ، لاين حزم ٤٣٢
كتاب المحكم لاين سيدة ١٩٨ ، ٤٣٤
كتاب المظفر ، للمظفر بن الأفلس ٨٧ ، ٤٢٩
اللائه في شرح أمالي القالي ، لاين عبيد
البكري ٤٣٠
المآثر العامرية ، لاين حيان ٤٣٨
المتين ، لاين حيان ، ٤٣٨
المسالك والممالك ، لاين عبيد البكري ١٧٠ ،
٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠
المسهب للحجاري ٢٨٢
مطلع الأنفس ، لفتح بن خاقان ١٠٤
معجم ما استعجم ، لاين عبيد البكري ٤٣٠ ، ٤٣١
المعارف المغرب والجامع المغرب ، عن فتاوى
أهل إفريقية والمغرب ، لوتشيشي ٣٤٨
نظم السلوك في مواضع الملوك في أخبار الدولة
العبيدية ، لأبي بكر بن البانة ٣٥٤ ،
٣٦٠ ، ٤٢٧
نفاضة الجراب ، لاين الخطيب ٣٦٣
نقط العروس ، لاين حزم ٤٣٢ ، ٤٣٨
يتيمة الدهر للعالي ٤٣١ ، ٤٤٠

الإحاطة في أخبار غرناطة ، لاين الخطيب ٢٥٢
الإحكام لأصول الأحكام ، لاين حزم ٤٢٠
الإستكمال للمؤمن بن هود ٢٨٦ ، ٤٣٦
إظهار تبديل اليهود والنصارى للثورة والإنجيل ،
لاين حزم ٤٣٢
أعلام نبوة نبينا محمد ، لاين عبيد البكري ٤٣٠
أعمال الأعلام ، لاين الخطيب ٣٦٣
البطشة الكبرى ، لاين حيان ٢٩
بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، لاين عمر بن
عبد البر ٥٧ ، ٤٣٤
البيان المغرب ، لاين عذاري المراكشي ،
٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧
البيان الواضح في الملم الفادح ، لاين علقمة ،
٢٤٣ ، ٢٥١
تاريخ ألفونمو العالم ٢٥٢ ، ٤٣٤
تاريخ رهبان سيلوس ٣٩٠ ، ٣٩٥
جداول الزرقالي الفلكية ٤٣٥
جمهرة أنساب العرب ، لاين حزم ٤٣٢
الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ،
٣٤٥ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٣٤٥
ديوان ابن دراج القسطل ٤٣١
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لاين بسم
الشتريني ٥٦ ، ٧١ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ،
١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ،
٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ،
٤٤٠ ، ٤٣٩
رسالة ابن زيلون في هجاء ابن عيوس ٢٤٦
رسالة القضاء والحسبة لاين جيلون ٤١٣ ، ٤٤٠
روض القرطاس لاين أبي زرع القاسي ،
٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣
الروض المطار لمبد المنتم الحسيري ٢٧٧
زهر البستان ونزهة الأذهان ، لطنفري ٤٤٢
السيج في علوم الأوائل الرياضية ، ليوسف
ابن نغزاة ١٣٣
سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ٢٩٤

تجيب ، قبيلة : ١٦٥ ، ٨٢

ج - ز

جديوه ، قبيلة : ٣٠٥

جزولة ، قبيلة : ٣١١ ، ٣٠٨

الجلالة : ٣٩٢ ، ١٨٨ ، ٧٣

الجماعة ، حكومة : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٧

١٦٣ ، ٢٤١ ، ٤٠٩

الجمهوريات الإيطالية : ١٩٣ ، ٤٤٣

الجنوبيون : ١٩٣

حير ، قبيلة : ٢٩٩ ، ٣١٣

الخلافة : ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٦

٣٧ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ١٢٣ ، ١٨٨ ، ٢٦٦

٢٧٦ ، ٣٨١ ، ٤٣٠

الخلافة الأموية ، والدولة : ١١ ، ١٣ ، ١٧

٢٠ ، ٢١ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨

١٥٦ ، ١٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٢

٤١٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨

الخلافة المباسية : ٣١٤

الخلافة الفاطمية : ٢٠٣

خلافة قرطبة : أنظر الخلافة الأموية

الدعوة الفاطمية : ١٢٢

دول (وملوك) الطوائف : ١٤ - ١٧ ، ٢٩

٣٠ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨

٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧

٧٨ ، ٨١ ، ٨٨ - ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨

١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ - ١١٤ ، ١١٦

١٢١ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ -

١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٥

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩

٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ - ٢٢٤

٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩

٢٦٠ ، ٢٦٤ - ٢٦٦ ، ٢٦٩ - ٢٧١

٢٨٢ ، ٢٨٣ - ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩

بنو طاهر : ١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢

بنو الطويل : ٤١٢

بنو عامر : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٠

بنو عباد : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠

٤٣ ، ٤٥ ، ٥٥ - ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦

٧١ ، ٨٢ - ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٨

١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٩٤ ، ٣٥١

٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤

٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧

٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤١

بنو العباس : ٥١

بنو قاسم : ٢٦٠ ، ٢٦٢

بنو القنيطرة : ٧١ ، ٨٩ ، ٤٢٨

بنو قسي : ٢٦٥ ، ٤١٢

بنو مرين : ٣١٠

بنو مزين : ٤٤

بنو مسلمة : أنظر بنو الأفلح

بنو مناصر : ٣١١

بنو مناد : ٢٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤

١٢٨ ، ١٤٠ ، ٤١١ ، ٤٣٠

بنو هاشم^١ التجيبون : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٩ - ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٤١٢

بنو هود : ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩

٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣١ ، ٣٦٨

٤١٢ ، ٤٠٨ ، ٣٧٢

بنو وانودين : ٣٠٤

بنو يرنيان : ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥

١٥٦

بنو يفرن : ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ - ٣٠٩

٣١١

البيزيون : ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢

شفشوة ، قبيلة ؛ ٣٠٥
 صدينة ، قبيلة ؛ ٣١١
 الصقالية (والفتيان) ؛ ١٣ ، ١٢ ، ١٣٩ ،
 ١٥٨ — ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٧٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١
 صهاجة ، قبيلة ؛ ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٦ ،
 ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،
 ١٤١ — ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤١١
 العبيديون (الفاطميون) ؛ ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 العجم ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٨
 العرب ؛ ١٢ ، ٦٢ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ،
 ٣٥٣
 المعصية العربية ؛ ١٢ ، ١٤
 عصر الإحياء ؛ ٢٣ ، ٤٤٣
 غمارة ، قبائل ؛ ٣١٢
 الفتیان العامريون ؛ ١٣ ، ٣٨ ، ١٠١ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٩ — ١٦٤ ، ١٧٥ ،
 ١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ —
 ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٣ ، ٤١٠ ، ٤٣١
 الفرس ؛ ٥١
 الفرنج ؛ ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٧٢
 الفرنسيون ؛ ٣٩٨
 القبائل البربرية ؛ ٤٥ ، ١٢١ ، ١٥٢
 القشتاليون ؛ ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١١٣ ،
 ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ —
 ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
 ٢٨٤ — ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٩ — ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٥
 القرطبيون ؛ ٢٠ ، ١٥٩
 القطلان ؛ ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠

٣١٤ — ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٥ — ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٦ — ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ —
 ٤٠٠ ، ٤٠٩ — ٤١٥ ، ٤١٨ — ٤٢٥ ،
 ٤٢٨ — ٤٣١ ، ٤٣٥ — ٤٤٣
 دولة بني الأفلح ؛ ١٢١
 دولة بني برزال ؛ ١٥١
 دولة بني دمر ؛ ١٥٤ ، ١٥٥
 دولة بني ذي النون ؛ ١٢١ ، ١٣٩
 دولة بني رزين ؛ ٢٥٩
 دولة بني مرين ؛ ٣١٠
 دولة بني مزين ؛ ٤٤
 دولة بني مناد ؛ ١٦٤ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ،
 ١٤٨
 دولة بني يفرن ؛ ١٢٣
 الدولة البيزنطية ؛ ١٩١
 الدولة الجهورية ؛ ٢٥ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ،
 ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١١ ، ٤٥٥
 الدولة العامرية ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ١٢١ —
 ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
 ٢٦٦ ، ٤٠٧
 الدولة الممتونية ؛ ٣٠٨
 الدولة المرابطية ؛ ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ،
 ٣٧٣
 الروم ؛ ١٤٤ ، ١٩٥
 الرومان ؛ ٢٩٩
 زناتة ، قبيلة ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ٣٠٤ — ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
 زناتة ، قبيلة ؛ ٣١١

س — ك

المرادنة ؛ ١٩٥
 الشيعة ؛ ١٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦

٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ - ٣٢٦ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٥ - ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ - ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ - ٤١٠ ،
 ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠
 مسوفة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
 المصامدة ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
 ٣٧٢
 مزاوة ، قبيلة ؛ ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٩ ، ٣١١
 منيقة ، قبيلة ؛ ٣١١
 الملتشون ؛ ٢٩٩
 ملوك الطوائف ؛ أنظر دول الطوائف
 الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ،
 ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٤٣
 الممالك البربرية ؛ ٦٢ ، ١٤٧ - ١٥٠
 مملكة أراجون ؛ ٢٨٩ ، ٣٧٨ ، ٤٠٦
 مملكة أستوريش ؛ ٣٧٨
 مملكة إشبيلية ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ،
 ٧٥ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١٢١ ،
 ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ،
 ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
 مملكة المرية ؛ ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ،
 ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٣٦٦
 مملكة برشلونة ؛ ٢١٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ،
 ٣٧٨
 مملكة بطليوس ؛ ٤١ ، ٤٨ ، ٨١ ، ٨٥ ،
 ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٦٨ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠
 مملكة بلنسية ؛ ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٠٨
 مملكة بني هود ؛ أنظر مملكة سرقسطة
 مملكة جليقية ؛ ٤٠٤

القوط ؛ ٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦ ،
 كدالة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،
 الكرسي الرسول ؛ ٤٠٢ ، ٢٧٤
 الكنيسة الإسبانية ؛ ٣٩٧ ، ٤٠٢

ل - ي

لحم ، قبيلة ؛ ٣٢ ، ٦٢
 اللبارد ؛ ١٨٨ ، ١٩١
 الليونيون ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٢
 لماية ، قبيلة ؛ ٣١١
 لمتونة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
 ٣٧٢
 لمطة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
 لواة ، قبيلة ؛ ٣١١
 مداسة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
 المدجنون ؛ ٤١٥
 مديونة ، قبيلة ؛ ٣١١
 المرابطون ؛ ١٦ ، ٧٧ - ٧٩ ، ٩١ ، ١١٦ ،
 ١٤٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ -
 ١٨٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤١ - ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ،
 ٣١٥ - ٣١٨ ، ٣٢١ - ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ - ٣٣٩ ، ٣٣٥ -
 ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ - ٣٥٣ ،
 ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٣٦٥ - ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
 سراقية ، قبيلة ؛ ٢٩٩
 المستعربون ؛ أنظر النصارى المعاهدون
 المسلمون ؛ ٧٣ ، ٨٥ - ٨٧ ، ٩٠ - ٩٢ ،
 ٩٩ ، ١١٣ ، ١٩٢ - ١٩٤ ، ٢١١ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ - ٢٣٧ ، ٢٤٤ -
 ٢٤٧ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ،

الملوكون ؟ ١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٥ ، ٤١٢
 النافاريون ؟ ٣٨٠ ، ٣٨١
 النصارى ؟ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨
 ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٧٢
 ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٤
 ٢٤٥ — ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
 ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ —
 ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ — ٣٣٥
 ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦
 ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧
 ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
 ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ — ٤١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢
 النصارى المعاهدون ؟ ٧٥ ، ١١٢ ، ٢٠٣
 ٢٤٤ ، ٤٠٩ — ٤١٥
 نفيس قبيلة ؟ ٣٠٥
 النورمان ؟ ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٧٤ — ٢٧٨
 ٣٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٧
 هوار ، قبيلة ؟ ٢٥٣
 وتريكة ، قبيلة ، ٢٩٩
 وردة ، قبيلة ، ٣٠٥
 اليهود ، ٧٥ ، ١٣٣ — ١٣٥ : ١٣٧
 ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١١
 ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠

ملكة دانية ؟ ١٨٨ ، ١٩٨ — ٢٠٣ ، ٢٠٩
 ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨١ ، ٤١١
 ملكة سرقسطة ؟ ٩٥ ، ١٣١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦
 ٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ — ٢٨٢ ، ٢٨٨
 ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
 ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
 ملكة طليطلة ؟ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣
 ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ — ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥
 ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١
 ١١٤ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
 ٢٧١ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩
 ٣٩١ ، ٣٩٥
 ملكة غانة ؟ ٣٠٥
 ملكة غرناطة ؟ ١٦ ، ٦١ — ٦٣ ، ١٤٢
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦١
 ملكة الفرنج ؟ ٤٠٧
 ملكة قشتالة ؟ ١٦ ، ١١٥ ، ١٨٨ ، ٣٧٧
 ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
 المملكة القوطية ؟ ١١٦
 ملكة ليون ؟ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١
 ملكة مالى ؟ ٣٠٢
 ملكة مرسية (وإمارة) ؟ ١٧٨
 ملكة نافار (نبره) ؟ ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
 الموالي ؟ ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٤
 الموحدون ؟ ١٦ ، ٤٢ ، ٣٣٢

فهرست البلدان والأماكن

— أ —

٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ،
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،
١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨١ ،
١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ،
٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
٣٥٠ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٢ ،
أشوريش ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ،
أشونة ، ٣٨ ، ١٤٩ ، ٣١٤ ،
أغمت ، ١٤٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ — ٣١٢ ،
٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٦٧ ،
أفراغة ، ٢٦٥ ،
إفريقية ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٣٢٨ ،
٣٣١ ، ٤١٥ ، ٤٢٩ ،
إفليس (حصن وموقعة) ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ،
٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ ، ٣٤٦ —
٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٣٦٨ ،
ألبونت ، ٢٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ،
٢٦٠ — ٢٦٢ ،
إلبيرة (وولاية) ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٩ ،
ألس ، ١٧٨ ،
ألفنت ، ١٢٨ ، ١٦٣ ،
المرية ، ١٤ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٧٩ ، ١٠٥ ،
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،
١٥٨ — ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٥ —
١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ،
٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ،
٤٢٤ ، ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٤٢ ،

أبدية ، ٢٢ ، ٣٤٩ ،
آبلة ، ٤٢ ،
آتابوركا ، موقعة ، ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ،
أذكون ، ٢٥٨ ،
أراجون ، ١٠٨ ، ١١١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٩ ،
٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ،
٤٠٥ ، ٤١٢ ،
أرجونة ، ٢٢ ،
أرشدونة ، ١٤٥ ،
آرلة ، ٤٠٧ ،
أركش ، ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٣٢ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
آزمور ، ٣٠٦ ،
إسبانيا المسلمة ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ٢٣٤ ،
٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧١ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٨ ،
إسبانيا النصرانية ، ١١ ، ١٦ ، ١١٦ ، ١٦١ ،
١٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٧٥ ،
٣١٤ ، ٣٢٠ — ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٧٨ ،
٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ،
٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٤٣ ،
إستجة ، ١٤ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٧١ ،
آسنى ، ٣٠٦ ،
الإسكندرية ، ٢٠٢ ، ٢٩٥ ،
الاسكوريال ، ٢٠٦ ،
أشبونة ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٣٦٨ ،
٣٧٠ ، ٤٣٤ ،
أشبيلية ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
٢٨ ، ٣٢ — ٣٧ ، ٣٩ — ٤١ ، ٤٣ — ٤٩ ،
٥٥ — ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

المهدية ؛ ٢٧
أليو ؛ أنظر حسن لبيب
أنقرة ؛ ١٥
الأندلس ؛ ١١ - ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
٢٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
٥٠ - ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٧٤ ، ٧٧ - ٨٠ ، ٩٠ - ٩١ ، ١١١ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ - ١٢٥ ،
١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،
١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،
٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ،
٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤ - ٣١٨ ، ٣١٩ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
٣٣٥ - ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ - ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ،
٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ ، ٤٢٩ -
٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ،
أنطوجر ؛ ٢٢
أودفست ؛ ٣٠٥
أوديولة ؛ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ،
٢٢١ ، ٢٩٠
أوسيدا ؛ ٣٨٣
أوكانيا ؛ ٣٤٧
إيطاليا ؛ ١٩٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ،
٤٤٣

ب - ث

باب إشبيلية ؛ ٤٧
باب إلبيرة ؛ ١٣٧
باب شيزورا ؛ ٣٧٨

باجة (وكورة) ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٩ ،
٨١ ، ٨٢ ، ١٥٠
بازو ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤
بيشتر ؛ ٣٨
بحاية ؛ ١٧٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٩
بريشتر ؛ ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ -
٢٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٢
البرنغال ؛ ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٨١ ،
٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ،
٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤
برجة ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
برجونية ؛ ٣٣١
برشلونة ؛ ٦٥ ، ١١١ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٢٠٧ ،
برغش ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤
برنات ؛ ٣٠٦
البرنيه ؛ أنظر جبال البرنيه
بروفانس ؛ ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١١
بستان الملك ؛ ١١١
بسطة ؛ ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ،
٣٣٤ ، ٣٣٥
البشرات ؛ ٤١٤
بسكونية ؛ أنظر فانار - نيره
بطرقة ، موقعة ؛ ١٠٢ ، ١٧٨ ، ٢٢٤
بطليوس ؛ ٢٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٨١ ،
٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٩٠ ،
٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ -
٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ،
بنداد ؛ ٥٤ ، ٣١٤
بلاد جديوه ؛ ٣٠٥
بلاد جزوة ؛ ٣٠٥
بلاد الزاب ؛ ١٤٨ ، ٣١٩
بلاد السودان ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،
٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤
بلاد الواس ؛ ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٤٢

ترجالة ٩٥
 تطيلة ٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٢٨٥ ، ٢٣١
 تلمسان ٣١٣
 تنيكتو ٣٠٢
 تورو ٣٨٩ ، ٣٩٢
 تولوثة ٣٣١
 تونس ١٥٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ،
 ٤٢٧
 الثغر الأعلى ١٧ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ - ٢٥٥ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ،
 ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٤١٢
 الثغر الأوسط ١٧ ، ٩٤ ، ٢٥٣
 الثغر القوطي (الاسبان) ٤٠٧

ج - ز

جامع المرية ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٨
 جامع بلنسية ٢١٨
 جامع طليطلة ١٠٥ ، ١١٣ ، ٣٩٧
 جامع غرناطة ١٤٠
 جامع قرطبة ٣٣ ، ٤٣١
 جامع الكتبيين ٣١٠
 جامع وشقة ٢٨٩
 جبال الأطلس ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٦٣ ،
 جبال البرنيه ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ،
 ٣٣١ ، ٣٧٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠٧ ،
 جبال ألبونت ٢٣٨
 جبال بنى رزين ٢٥٣
 جبال درن ٣١٠ ، ٣٧٢
 جبالة (كباله) ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨
 جبل الشارات ٢١ ، ٧٣ ، ٨١
 جبل شلير ١٢٤
 جبل طارق ، مضيق ٧٩ ، ٢١١
 جبل الميون ٤١
 جبل مندير ٢٤٧

بلاد غمارة ٣١١
 بلاد فازاز ٣٠٨ ، ٣١١
 بلاد القبلة ٣٠٨
 بلاد المصامدة ٣٠٥ ، ٣١٠
 بلاط الشهداء ٢٦٠ ، ٣٣٠
 بلا زنادا ٣٨٩
 بلتيرة ٢٩١
 بلمة ٣٥١
 بلنسية ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ،
 ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،
 ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٥٨ ،
 ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،
 ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ،
 ١٩٦ - ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ - ٢٢١ ،
 ٢٢٣ - ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ - ٢٤٢ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ - ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ،
 ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
 بله نوبه ٢٤٢
 بنبلونة ٤٠٦
 بواتو ٣٣١
 بيامة ٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٢٤٩
 بيرة ٥٨
 بيضة ٥٨ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
 قادلا ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩
 تارودنت ٣٠٥
 تاكرونا ١٥٢
 تامارون ، موقعة ٣٧٨
 تامسنا ٣٠٦ ، ٣٠٧
 تدمير (وولاية) ٧١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
 ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٨
 تدمير الشام ١٧٤

حصن سرية ؟ ١٠٨
 حصن شقورة ؟ ٦٦ ، ١٨٤
 حصن غرماج ؟ ٢٨٠
 حصن فتورية ؟ ١٠٨
 حصن قبرة ؟ ٦٣
 حصن قتاليش ؟ ١٠٨
 حصن فونقة ؟ ١١٥
 حصن لونا ؟ ٣٩٤
 حصن لبيط ؟ ١٧١ ، ١٧٢ ، ٦٨٥
 ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
 ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩
 حصن مونتشون ؟ ٢٨٥
 حصن مورور ؟ ١٥٥
 حصن وادي آش ؟ ١٦٧
 حصن ويذه ؟ ١٠٨
 الخمراء (خمراء غرناطة) ؟ ١٣٩
 حصن ؟ ٣٣ ، ٣٦٣
 الخندق ، موقمة ؟ ١٢
 دار السرور ؟ ٢٨٣
 دانية ؟ ٢٤ ، ٦٦ ، ١١٤ ، ١٦٤ ، ١٦٦
 ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ —
 ١٩٠ ، ١٩٢ — ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢
 ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١
 ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧
 ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٦٦ ، ٤١٤
 ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
 درعة ؟ ٣٠٤
 دروكة ؟ ٢٦٥
 ديرأونيا ؟ ٣٩٢
 دير سان بيدرو دي كاردينا ؟ ٢٤٩
 دير ساهاجون ؟ ٣٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
 دير سيلوس ؟ ٣٩١
 دير لورقان ؟ ٣٨٥ ، ٤١٣
 رباحورسا ؟ ٣٧٦ ، ٣٧٨
 ربض قرطبة ؟ ٢٨
 الرصافة (بلنسية) ؟ ٢٢٨ ، ٢٤٢

جرادوس ، موقمة ؟ ٢٨٠ ، ٢٨٥
 الجزائر الشرقية ؟ ٢٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٧
 ٢٠٢ ، ٢٠٩ — ٢١٣ ، ٢٢٢
 الجزيرة الخضراء ؟ ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٨
 ٤٥ ، ٤٧ — ٤٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٠
 ١٣١ ، ١٥٦ ، ٣١٨ — ٣٢٠ ، ٣٣٥
 ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٣٣
 الجزيرة (جزيرة شقر) ؟ ٢٤٧
 جزيرة شلغليش ؟ ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣ ، ٤٣٠
 جزيرة فورستيرا ؟ ١٨٩ ، ٢١١
 جزيرة منورقة ؟ ١٨٩
 جزيرة ميورقة ؟ ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٠ —
 ٢١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣
 جزيرة يابسة ؟ ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣
 جليباريس ؟ ٣٨٩
 جليقية ؟ ١١٢ ، ١٤٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧٨
 ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٣
 جينجالة ؟ ٩٧
 جنوه ؟ ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
 جويانسا ؟ ٣٨٧
 جيان (وولاية) ؟ ٢٢ ، ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠
 ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤
 حصن أركش ؟ ٣٦١
 حصن أشر ؟ ١٣٥
 حصن إقليش ؟ أنظر إقليش
 حصن البلاط ؟ ٣٤٩
 حصن المدور ؟ ٢٨ ، ٧٣ ، ١٥١ ، ٣٤٥
 ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
 حصن بوغش ؟ ٣٩٠
 حصن بلج ؟ ٦٥ ، ١٨١
 حصن روطه (وقلعة) ؟ ٢٦٩ ، ٢٨١
 ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
 حصن الزهراء ؟ ٤٩

ركانة ٢٣٨

ونقة ١٤ ، ٤٥ — ٤٧ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٥٢ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٣٣ ، ١٥٢

٣٥٢ ، ٣٥٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ١٥٦ ، ١٥٣

رومة ٣٧٩

ويه ، كورة ١٧ ، ٤٦ ، ١٥٢

ريوخا ٢٤٢

الزلاقة ، موقعة (وسبل) ٨٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

٢٣٧ ، ٢٢٩ ، ٢١٠ ، ١٨٤ ، ٢٥٦

٣١٥ ، ٣١٤ ، ٢٨٧ ، ٢٥٧ ، ٢٣١

— ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٤

٣٩٨ ، ٣٧٣ ، ٣٦٥ ، ٣٣٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠١

الزهراء ، مدينة ٤٩ ، ١٥٩

س — غ

سبحة ٧٧ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٣١٢

٣٤٢ ، ٣٢٩ ، ٣١٩ ، ٣١٥ ، ٣٤٣

٣٧١ ، ٣٤٣

مجلسة ٣٠٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤

سردانية ، جزيرة ١٩٠ — ١٩٥ ، ١٩٩

٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٣

سرقسطة ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٦ ، ٩٨

١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩

١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٩

— ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠

٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ — ٢٧٢ ، ٢٧٢

٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ — ٢٨٨

٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣١

٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠

٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥

٤٤٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٠

سرقوسة ٤٢٧

سرية ٩٣

سلا ٣٠٤

سورة ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣

السهلة ١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

سويرابي ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٦

السودان ، أنظر بلاد السودان

شاطبة ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧

٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٨

٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٤

الشام ٣٣

شبه الجزيرة الإسبانية ١٤ ، ١٦ ، ٧١

١١٥ ، ١٧١ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ — ٣٣٩

٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١

٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٣٦

شذونة ٣٦ ، ٥٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٣

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣

١٥٥ ، ٣٠٦

شرطانية ٤٠٧

الشرق الإسلامي ٢٠٧

شرقي الأندلس ١٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ —

١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٠

٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ — ٢٢٩

٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠

٣٣٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩

٤٠٠ ، ٤١١

شقورة ٦٤ ، ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠

٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦

شلب (وولاية) ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٤

شقبوس ٦٤

شفت بيرة ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٧

١١٤ ، ٢٢٤

شفت ياقب ٣٨٤

شنترة ٨١ ، ٣٦٨

شتيرين ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٦٨

٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩

١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٣٦٨ ،
 ٣٦٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٣
 الزرب الإسلامي : ٣١٤
 غرناطة (ولاية) : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ،
 ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ،
 ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٤ -
 ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 ١٣٧ - ١٤٣ ، ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٦ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ - ٣٤٣ ،
 ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

ف - ق - ك

قارو : ٤٣
 فاس : ٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
 ٣١٦ ، ٣٧٣
 فحص البلوط : ٨٢
 فحص الرينسول : ٤١٤
 فحص غرناطة : ٣٤٠
 الفرنتيرة : ١٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٤٧ ،
 ١٥٦ ، ٣٣٩
 فرنسا : ٢١١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠٧ ،
 فلورنس : ٢٣
 فيانا ، موقعة : ٣٨٩ ، ٤٠٥
 قبر المعتدلين عباد : ٣٦٣
 قرطبة : ١١ - ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ،
 ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ -
 ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
 ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٣ ،
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٢١ - ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ،
 ١٥١ ، ١٥٨ - ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،

شنتمية الشرق : ٩٥ ، ١١٤ ، ١٢١ ،
 ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ - ٢٦٢
 شنتمية الغرب : ٤٣
 شوذر : ١٩٧ ، ٢٢٢
 صقلية : ١٩٣ ، ٤٢٧
 الصنادحية ، بستان وقصر : ١٦٨ ، ١٦٩
 طرطوشة : ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١
 طركونة : ٢١٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦
 طريف : ٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٩
 طشانة : ٢٣
 طليعة : ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٧١
 طلمنكة : ٣٨٣
 طليطة : ١٧ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
 ٨٥ ، ٩٠ - ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ -
 ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٦ ،
 ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،
 ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،
 ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣١٥ -
 ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ،
 ٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٧ ، ٣٥٧ ، ٣١٢ ، ٣١١
 المدة (علوة المغرب) : ٧٤ ، ٧٧ ، ١٩٤ ،
 ٢٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ،
 ٣٥٠ ، ٣٦٦
 الغرب (غربي الأندلس) : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٨١ ،

القصر المبارك ؛ ٦٩ ، ٥٥
 قصر المدينة ؛ ٢١٢
 قصر المكرم ؛ ١٠٤
 قطلونية ؛ ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤
 ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦
 قلشانة ؛ ١٥٥
 القلعة (المغرب) ؛ ١٧٣ ، ٣٦٦
 قلعة أمخات ؛ ٣٥٧ ، ٣٦٠
 قلعة أيوب ؛ ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
 قلعة تافالا ؛ ٣٧٩
 قلعة جابر ؛ ٣٩
 القلعة الحمراء ؛ ٦٣ ، ١٣٩
 قلعة حير ؛ ٢١٠
 قلعة رباح ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٢٤٩
 قلعة فازاز ؛ ٣١١
 قلعة قونقة ؛ ٩٦ ، ١٠٢
 قلعة المنار ؛ ٢٨٥
 قلعة النهر ؛ ٩٩ ، ٢٧١ ، ٣٨٣
 قلدرية ؛ ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤ -
 ٤١٣ ، ٣٨٦
 قلهرة (وقلعة) ؛ ٩٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥
 قنطرة القنطرة ؛ ٣٩٠
 قورية ؛ ٩١ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٦
 قونقة ؛ ٧١ ، ٩٥ - ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٨
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٣٤٧ ، ٤٠٠
 القيروان ؛ ١٢٥ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩
 كالا موشا ؛ ٢٧٥
 كاليارى ؛ ٩١ ، ١٩٢
 كتندة ؛ ١٧٨
 الكدية ؛ ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 الكرازة ، موقعة ؛ ٤٠٦
 كريفلة ؛ ٣٠٧
 كتيريا ؛ ٣٧٦
 الكنيسة الاسبانية ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧
 كنيسة سان إيسدورو ؛ ٣٨٤
 كوارت ؛ ٢٤٧

٢١٩ - ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤
 ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٣ - ٣٤٧
 ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
 ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ - ٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٣١
 ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢
 قرقشونة ؛ ٤٠٧
 قريونة ؛ ١٤ ، ٣٥ ، ٣٦ - ٣٨ ، ٤٥
 ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٠
 ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٦ ، ٣٧١
 قسطلة ؛ ٤٣٠
 قسطلونة ؛ ١٠١ ، ٢٦٠
 قسطنطينية ؛ ٢٧٧
 قشتالة ؛ ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٥
 ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١
 ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٢
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧
 ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢
 ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٧١
 ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣
 ٢٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤١٢
 قصبة ألمرية ؛ ١٦١ ، ١٦٨
 قصبة بربشر ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٦
 قصبة بطليوس ؛ ٨٢ ، ٣٦٩
 قصبة شلبة ؛ ٢٢٥
 قصبة غرناطة ؛ ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٣
 قصبة مالقة ؛ ١٣١ ، ١٣٩
 قصبة منتشون ؛ ٢٨١
 قصبة المنكب ؛ ٣٤٠
 قصر إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠
 ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٣٥٤ - ٣٥٦
 قصر الجعفرية ؛ ٢٦٩ ، ٢٨٣
 قصر الزاهي ؛ ٥٥
 قصر طليطلة ؛ ١١٣ ، ١١٥
 قصر قرطبة ؛ ٣٧ ، ١٦٠

كوليرا ٢٤٨

كونسوجرا ٢٤٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢

ل — ي

لاردة ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠

لاميجو ٢٨٣ ، ٨٥

لانجدوك ٤٠٧

لبلة ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٤٣٣

لقنت ١٨٧

لوية ٢٩٩

لوجرنيو ٢٤٠

لواتة ، مدينة ٣٠٨

لورقة ٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ،

٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٩٩

لوزيتانيا ٣٨٢

لوى ١٩٢

ليجوريا ٢١١

ليون (القطر والدينة) ١٠٢ ، ٨٥ ، ٧٣ ،

١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ،

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤

ماردة ٨١ ، ٨٢ ، ١١١ ، ٢٠٤

حاسة ٣٠٥

جافقة ١٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٩ ،

٤٥ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ،

٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦

مجرى ٣٩٥

مجلس الذهب ٢٨٣

المدر ٢٢ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩

مدينة سالم ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٤٩ ، ٣٨٣

مراكش ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ،

٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ،

٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢

مريلة ١٤٧

المرج (مرج غرناطة) ٦٣

مربية ١٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٦٨ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ — ١٨١ ،

١٨٣ — ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ،

٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ — ٢٣٩ ،

٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ —

٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤٣٤

مرشاة ٤٧

مسلاة ٢٤٧

المسيلة ١٤٨ ، ١٤٩

المشرق ١٢٧ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ،

٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢

مصر ١٢١ ، ٢٠٢ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨

المدن ٧١ ، ٩٥

المغرب ١٢٠ — ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٧ ،

١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ،

٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ —

٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ —

٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ،

٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٤٢٧

المغرب الأوسط ١٤٩ ، ٣١٣

مكة ٤٣٣

مكناسة ٨٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٧

منت ليشم ٤٣٣

مندير ٤٠٦

المنكب ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤

المنية ، بطليطة ١١٢

مورة ٩٥

مورور ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٢١ ،

١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦

موريتانيا ٢٩٩

موريللا ٢٨٦

مولة ١٧٨ ، ١٨١

موقتشون ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٠٦

ميرتلة ٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

نهر كريون ؟ ٣٩٠	ميووة (مدينة) ؟ ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٠
نهر منبو (منديجو) ؟ ٣٨٦ ، ٨٧	ناجرة ؟ ٣٨١
نهر النيجر ؟ ٣٠٢	نافار (نبرة) ؟ ٢٧٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤
نهر النيل ؟ ٣٠٢	٢٩٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩
نهر الوادي الكبير ؟ ١٤ ، ٢١ ، ٣٣ ، ٤٠	٤٠٥ ، ٤١٢
٤٤ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٤٧	نهر إيره (الإيرو) ؟ ٣٧٨ ، ٢٦٥ ، ٢٥٣
١٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦	٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
نهر وادي لكه ؟ ١٥٢ ، ١٥٤	نهر أراد ؟ ٢٩
نهر وادي ياته ؟ ٧١ ، ٨٤ ، ٣٢٢	النهر الأحمر ؟ ٤٢
نورمانديا ؟ ٣٧٤ ، ٣٣١	نهر أوديل ؟ ٤٣
وادي آش ؟ ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤	نهر يسيرجا ؟ ٣٨٩
٤١٤	نهر التاجه ؟ ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٨
وادي الحجارة ؟ ١١٤ ، ٢٧١ ، ٣٨٣	١١٢ - ١١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٨٣
وادي سبو ؟ ٣٣٥	٣٩٠
وادي مني ؟ ٣١٢	نهر تورمين ؟ ٣٨٢
ويزة ؟ ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٤٧	نهر جريرو ؟ ٣٢٢
وجدة ؟ ٣١٣	نهر خابون ؟ ٢٥٣ ، ٢٩٣
وشقة ؟ ٩٩ ، ١٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥	نهر دويره ؟ ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦
٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٦	٣٨٩
وابة ؟ ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٣٠	نهر بحري ؟ ٢٦٥
وهران ؟ ٣١٦	نهر شقورة ؟ ١٧٤ ، ١٧٩
يابرة ؟ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩	نهر شليل ؟ ١٢٤ ، ١٤٠
يومين ؟ ٣٣ ، ٦٨	نهر طوريا ؟ ٢٣٨ ، ٢٦٠

فهرست الأعـلام

ابن باجة ، أبو بكر بن الصائغ ؛ ٢٩٤ ؛ ٤٣٧
 ابن بدرون ؛ ١٠٥
 ابن بسم ؛ ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦
 ٥٨ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥
 ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١
 ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦
 ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦
 ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
 ابن بصال الطليطل ، أبو عبد الله ؛ ١٠٦ ، ٤٤٢
 ابن بطوطة ؛ ٣٠٢
 ابن قفرتاش ، أمير البحر ؛ ٢١٢
 ابن جابر ؛ ١٠٤ ، ١٠٦
 ابن جحاف ، أبو أحمد جعفر ؛ ١٨٦
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
 ابن جهور ، أبو الحزم (جهور بن محمد) ؛
 ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠
 ٣٠ ، ٣٨
 ابن جهور ، أبو الوليد (محمد بن جهور) ؛
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ - ٤٣
 ٦١ ، ٨٣ - ٨٥ ، ١٢٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٦
 ابن حزم ، الوزير ؛ ١٢٩ ، ٤٣١
 ابن حزم ، أبو محمد ؛ ٣٨ ، ٢٠٧ ، ٢٩٤
 ٤٢٠ - ٤٢٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨
 ابن حمديس ، عبد الجبار بن أبي أبكر ؛ ٤٢٧
 ابن حيان ؛ ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠
 ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ -
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦
 ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩
 ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
 ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
 ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

— أ —

ابراهيم بن اسحاق المتوفى ؛ ٣٥١
 ابراهيم بن يحيى الكدالي ؛ ٣٠٠
 ابن أبي جوش حاكم وادي آش ؛ ١٤٤
 ابن أبي حصاد ؛ ٤٩
 ابن أبي زرع الفاسي ؛ ٣١٢ ، ٣١٦
 ٣٤٤ ، ٣٥٠
 ابن أبي زمين ؛ ١٢٥
 ابن أرفع رأس ؛ ١٠٦
 ابن الأبار القصاعي ؛ ٦٠ ، ٦٨ ، ١٧٦
 ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
 ٢٧٠ ، ٤٣٠
 ابن الأثير ؛ ٣٦٤
 ابن التاكروني ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
 ابن التيفاني ، أبو غالب ؛ ١٩٩
 ابن الحاج ، أبو عبد الله ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٣
 ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١
 ابن الحداد الوادي آشي ؛ ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٤٢٩
 ابن الحضرمي ؛ ٨٩
 ابن الخطيب ، اسان الدين ؛ ١٥ ، ٥٤ ، ٦٨
 ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٧
 ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥
 ١٩٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠
 ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ - ٣٦٤ ، ٤٢٨
 ابن السقاء ، إبراهيم ؛ ٢٦ ، ١٠٣
 ابن الشهيد ؛ ١٦٩
 ابن الطويل ، حاكم بريشتر ؛ ٢٧٦
 ابن الفرج ؛ ٢٢٧ ، ٢٤١
 ابن القزاز (محمد بن عبادة) ؛ ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٤٢٩
 ابن القطان ؛ ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦
 ابن اللبانة ، أبو بكر بن عيسى الداني ؛ ٧١
 ٢٦٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
 ابن المرجري الاشيبيل ؛ ٤١١

ابن عكاشة ، حريز ؛ ١٠٤
 ابن عكاشة ، حكم ؛ ٦١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٣٩٤
 ابن علقمة ؛ ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
 ابن عمار ، أبو بكر ؛ ٦٠ ، ٦٣ ، ٧١
 ٧٣ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٩ ، ١٨٤
 ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٤٦
 ابن عيسى ، قاضي يريشتر ؛ ٢٧٦
 ابن ليون الطليل ؛ ٩٨
 ابن لونكو ؛ ٤٤٢
 ابن مبارك ؛ ٦٦ ، ١٨٤
 ابن منى ؛ ٢٢٣
 ابن مرتين ، محمد ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣ ، ٤١١
 ابن مروس ، أبو العباس ؛ ٢٦٨
 ابن مسرة الطليل ؛ ٩٧
 ابن مشعل ؛ ٧٤
 ابن ممر القنوي ؛ ١٩٨
 ابن مقانا ، أبو اسحاق ؛ ٣١٧
 ابن مهلب ؛ ٢١٩
 ابن واجب ؛ ٢٦٨
 ابن واثق ؛ ٤٤٢
 ابن يحيى ، صاحب ليلة ؛ ٢٩ ، ٤٣ ، ٨٤
 ابن يعقوب ؛ ٤٧ ، ١٥٣
 ابن يعيش ؛ ٩٧
 ابن نغزلة ، إسماعيل ؛ ١٣٣ ، ١٤٠
 ابن نغزلة ، يوسف ؛ ١٢٧ ، ١٢٨
 ١٣٣ - ١٣٨ ، ١٦٧
 أبو إسحاق الإليري ؛ ١٣٥
 أبو إسحاق بن خفاجة ؛ ٢٤٦
 أبو الأصبح بن أرقم ؛ ١٦٨ ، ٢٠٣
 أبو الحسن بن عبدالعزيز البطليوسي ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
 أبو الحسن بن اليسع ؛ ١٨٤
 أبو الحسن الحضري ؛ ٤٢٧
 أبو الربيع سليمان ؛ ٢١٢
 أبو العباس ، كاتب باريس ؛ ١٢٧
 أبو العباس المذري ؛ ٤٣٠
 أبو الفضل بن حسداى السرقسطي ؛ ٢٨٠ ، ٢٩٥

ابن خلدون ؛ ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٠
 ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
 ابن خلكان ؛ ٣٥٠
 ابن دراج القسطل ؛ ١٦٢ ، ٢١٩ ، ٢٦٨
 ٤٣٠ ، ٤٣١
 ابن رزين ، هذيل بن عبد الملك ؛ ٢٣٧
 ٢٥٣ - ٢٥٥ ، ٤٤١
 ابن رزين ، عبد الملك بن هذيل ؛ ٢٥٥ -
 ٢٥٩ ، ٢٦١
 ابن رشد الحفيد ، أبو الوليد ؛ ٢٩٤
 ابن رشيقي ، عبد الرحمن ؛ ٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٣
 ١٨٥ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ، ٣٩٩
 ابن رويش (محمد بن مروان بن عبدالعزيز) ؛ ٢٢٣
 ابن زيلون ، أبو الوليد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧
 ٧١ ، ٧٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ - ٤٢٧
 ابن زيلون ، أبو بكر ؛ ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧
 ابن سعيد الرياضي ؛ ١٠٦
 ابن سعيد بن الفرغ ؛ ٩٨ ، ١٠٧
 ابن سيده ؛ ١٩٨ ، ٣٣ ، ٤٣٤
 ابن شاليب ؛ ٧٣ ، ٣١٦
 ابن شبيب ؛ ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
 ابن طالوت ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
 ابن طيفور ؛ ٣٦ ، ٤٤
 ابن عائشة ، داود ؛ ٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٤١
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣١٩
 ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨
 ابن عائشة ، محمد ؛ ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠
 ابن عباس ، الكاتب ؛ ٢٢١
 ابن عبد البر ، أبو عمر ؛ ١٩٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
 ابن عبد البر ، أبو محمد ؛ ٥٠٠ ، ٥٧ ، ٤٣٤
 ابن عبد العزيز ؛ ٢٢١
 ابن عبد الملك المراكشي ؛ ١٧٨
 ابن عديون ، أبو محمد عبد الحميد ؛ ٧١ ، ٨٩
 ٣٦٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠
 ابن عديس ؛ ٢٤٤
 ابن عذارى ، المؤرخ ؛ ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٧١

أبو القاسم القرطبي ؟ ٤٣٧
 أبو القاسم بن عباد ؟ أنظر محمد بن إسماعيل
 أبو المطرف التجيبي ؟ ٢٧٠
 أبو المطرف ابن الدباغ ؟ ٢٩٥ ، ٢٨٣
 أبو المغيرة بن حزم ؟ ٢٦٩
 أبو الوليد الباجي ؟ ٩١ ، ١١١ ، ٢٨٢
 ٢٨٣ ، ٤٣٣
 أبو الوليد الوقشي ؟ ٢٤٣
 أبو بحر بن عبد الصمد ؟ ٣٦٢
 أبو بكر بن إبراهيم المتوفى ؟ ٢٩٤
 أبو بكر بن القصيرة ؟ ٧٧
 أبو بكر بن الحديدي ؟ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧
 أبو بكر بن طاهر (أحمد بن إسحاق) ؟ ٦٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٢
 أبو بكر بن عبد العزيز ؟ ٦٨ ، ١٠٧ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٥
 أبو بكر بن عبد العزيز (ابن رويش) ؟ ٢٢٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٦
 أبو بكر بن عبد العزيز البجليوسي ؟ ٨٩ ، ٤٢٨
 أبو بكر بن عمر المتوفى ؟ ٣٠٥ - ٣٠٩ ،
 ٣١١ - ٣١٣ ، ٣٧٣
 أبو بكر بن قاسم الشلبي ؟ ٧١
 أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؟ ٣٢٩
 أبو بكر الرميي ؟ ١٦٣
 أبو بكر الطرطوشي ؟ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٧
 أبو بكر بن المعتمد بن عباد (المتد) ؟ ٣٥٢ ، ٣٥٦
 أبو تزييرى الدمري ؟ ١٥٤
 أبو جعفر البتي ؟ ١٨٢ ، ٢٤٦
 أبو جعفر القليعي ؟ ٣١٧
 أبو خروب ، أمير البحر ؟ ١٩٠ ، ١٩٢
 أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير ؟ ٣٠٧
 أبو زكريا بن واستو ؟ ٣٤٣ ، ٣٦٦
 أبو طالب بن غانم ؟ ٨٨
 أبو عامر بن أزرق ؟ ٢٦٨
 أبو عامر بن خطاب ؟ ١٧٦
 أبو عامر بن عبدوس ؟ ٤٢٦
 أبو عامر بن غرسية ؟ ٢٠٦ ، ٢٠٨ - ٤٢٩ ، ٢٠٨
 أبو عامر بن غند شلب ؟ ٤١٢
 أبو عبد الرحمن بن طاهر ؟ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٧ -
 ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ٢٢٩ ، ٤٣٤
 أبو عبد الله بن أبي الخصال ؟ ٢٠٦
 أبو عبد الله البرلياني ؟ ٥٥٨ ، ٤٣٦
 أبو عبد الله الحميدي ؟ ٤٣٩ ، ٥٠٦
 أبو عبد الله الزبيدي ؟ ٤٠ ، ٣٤
 أبو عبد الله الشيعي ؟ ٣٠٥
 أبو عبد الله المعيطي ؟ ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤
 أبو عبيد البكري ؟ ١٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
 أبو عمران الفاسي ؟ ٣٠١
 أبو عمر بن خطاب ؟ ١٧٦ : ١٩٥
 أبو عمر بن القلاس ؟ ٢٩٥
 أبو عمرو بن سعيد الداني ؟ ١٩٨
 أبو عمرو الباجي ؟ ١٢٩
 أبو عيسى بن ليون ؟ ٢٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
 أبو غفير محمد بن معاذ ؟ ٣٠٦
 أبو محمد المزدلي ؟ ٢٤٨ ، ٢٩٠
 أبو محمد بن عبد العزيز البجليوسي ؟ ٤٢٨ ، ٤٢٩
 أبو منصور النعماني ؟ ٤٣١ ، ٤٣٩
 أبو ناصر المراتبي ؟ ٢٤١
 أبو نصر بن أبي نور ؟ ٤٧ ، ١٤٠ ، ١٥٣
 أبو نصر فتح بن خلف ؟ ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧
 أبو نور بن أبي قررة اليفري ؟ ٤٥ ، ٤٦ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ - ١٥٥
 أبو يحيى بن صاهد ؟ ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٤٤ ، ١٦٥
 أبو يحيى بن مسعدة ؟ ٢٠٦
 أبو يوسف المريني ، السلطان ؟ ٧٩
 الأثر بن بطين المتوفى ؟ ٣٠٠
 أحمد بن الدودين البلسني ؟ ٢٠٤
 أحمد بن رشيق ، أبو العباس ؟ ١٩
 أحمد بن صاهد ، معز الدولة ؟ ١٧٣

أبو القاسم القرطبي ؟ ٤٣٧
 أبو القاسم بن عباد ؟ أنظر محمد بن إسماعيل
 أبو المطرف التجيبي ؟ ٢٧٠
 أبو المطرف ابن الدباغ ؟ ٢٩٥ ، ٢٨٣
 أبو المغيرة بن حزم ؟ ٢٦٩
 أبو الوليد الباجي ؟ ٩١ ، ١١١ ، ٢٨٢
 ٢٨٣ ، ٤٣٣
 أبو الوليد الوقشي ؟ ٢٤٣
 أبو بحر بن عبد الصمد ؟ ٣٦٢
 أبو بكر بن إبراهيم المتوفى ؟ ٢٩٤
 أبو بكر بن القصيرة ؟ ٧٧
 أبو بكر بن الحديدي ؟ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧
 أبو بكر بن طاهر (أحمد بن إسحاق) ؟ ٦٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٢
 أبو بكر بن عبد العزيز ؟ ٦٨ ، ١٠٧ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٥
 أبو بكر بن عبد العزيز (ابن رويش) ؟ ٢٢٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٦
 أبو بكر بن عبد العزيز البجليوسي ؟ ٨٩ ، ٤٢٨
 أبو بكر بن عمر المتوفى ؟ ٣٠٥ - ٣٠٩ ،
 ٣١١ - ٣١٣ ، ٣٧٣
 أبو بكر بن قاسم الشلبي ؟ ٧١
 أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؟ ٣٢٩
 أبو بكر الرميي ؟ ١٦٣
 أبو بكر الطرطوشي ؟ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٧
 أبو بكر بن المعتمد بن عباد (المتد) ؟ ٣٥٢ ، ٣٥٦
 أبو تزييرى الدمري ؟ ١٥٤
 أبو جعفر البتي ؟ ١٨٢ ، ٢٤٦
 أبو جعفر القليعي ؟ ٣١٧
 أبو خروب ، أمير البحر ؟ ١٩٠ ، ١٩٢
 أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير ؟ ٣٠٧
 أبو زكريا بن واستو ؟ ٣٤٣ ، ٣٦٦
 أبو طالب بن غانم ؟ ٨٨
 أبو عامر بن أزرق ؟ ٢٦٨
 أبو عامر بن خطاب ؟ ١٧٦
 أبو عامر بن عبدوس ؟ ٤٢٦

أحمد بن عباس ٤ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٢ —
 ١٦٤ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
 أحمد بن عبد الملك بن هود (سيف الدولة) ٤ ٢٩٣
 أحمد بن محمد بن حجاج ٤ ٤٤٢
 أحمد بن محمد بن قاسم (عز الدولة) ٤ ٢٦١
 أحمد بن يحيى اليمصبي ٤ ٤٠٤
 إدريس المتأيد بالله ٤ ١٥٢ ، ١٣٠ ، ٨٣ ، ٦١ ، ٣٩
 إدريس بن يحيى السامي ٤ ١٣١ ، ١٤٠
 إدريس بن يحيى المال ٤ ٣٨ ، ١٣١
 أرمندة ٤ ٤٠٥
 أرياس كونثال ٤ ٣٩٢
 الإستراداد ٤ ١١٦ ، ٤١٣
 إصحاق بن عبد الله البرزالي ٤ ٨٤
 إصحاق بن محمد البرزالي ٤ ١٥١
 إسكندر الثاني ، البابا ٤ ٢٧٤
 الإسلام ٤ ١١٦ ، ١١٥ ، ٩١ ، ٦٢ ، ١٣٣ ، ١٢٨ ، ١٢٠ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٦ ، ١٢٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٥ ، ٤١١
 إسماعيل بن عباد ، القاضي ٤ ٢٤ ، ٣٢ —
 ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٠
 إسماعيل بن ذي النون (الظافر) ٤ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩
 إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ٤ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠
 إسماعيل بن المعتض بن عباد ٤ ٥٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٤ ، ١٣٥
 إسميلورو ، القديس ٤ ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢
 آسين بلا ثيوس ٤ ٤٣٢
 أصبغ بن السج ٤ ٤٣٥
 إعتاد الرميكية ٤ ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ١٨٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٣
 الأغلب ، حاكم ميورقة ٤ ١٩٧ ، ٢٠٢
 أفلق الصقلي ٤ ١٥٩ ، ١٧٥
 الأنفل شامشاه ٤ ٢٩٤
 الإقطاع ٤ ٤٠٢ ، ٤٠٣

ب — ث

البابوية ٤ ١٩٢
 باديس بن حبوس ٤ ٣٩٠ ، ٤٥ ، ٤٦٤
 ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٤٥
 ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ —
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤١
 باديس بن المنصور ٤ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥

باديس بن أبي نور اليفرنى ؛ ١٥٣ ، ٤٦
 البحترى ، الشاعر ؛ ٤٢٥
 برنجبر ، الكونت ؛ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٤٠٨
 برتولا ؛ ٣٩١
 برمودو الثاني ؛ ٣٧٧
 برمودو الثالث ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
 برنار ، الأسقف ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
 بشير النبى ؛ ١٠٨
 بطى بن إسماعيل ؛ ٣٤٤ ، ٣٤٩
 بى بن مخلد ؛ ٢٠٧
 بلج بن بشر القشبرى ؛ ٣٣
 بلقين بن باديس ، سيف الدولة ؛ ٦٣ ، ١٣٤
 بلقين بن حبوس ؛ ١٢٧ ، ١٦٣
 بلقين بن زبرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ٣٠٦
 بلقين بن ماكسن ؛ ١٢٩ ، ١٦٣
 بتدكت ، القديس ؛ ٣٨٧
 بندكتوس الثاني ، البابا ؛ ١٩٢
 بيدال ، منديث ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٥
 بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٢٤٧ ، ٢٥٨
 ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٠٦
 بيم بن الآثر ؛ ٣٠٠
 بيم بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤
 ١٤٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١
 ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
 بيم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
 تيبولوس ، الشاعر اللاتينى ؛ ٤٢٥
 التيجافى ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٨
 تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى ؛ ٣٠٠
 ثابت بن محمد الجرجاني ، أبو الفتوح ؛ ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١
 جبر الدولة الحاجب ؛ أنظر ابن رزين ، عبد الملك
 جروور الحبشى ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
 جعفر بن إبراهيم (ابن الحاج القورق) ؛ ٣٧٠
 جعفر بن شرف ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
 جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
 جلالى بن زاوى ؛ ١٢٦
 جود النصرانية أم مجاهد ؛ ١٩٣ ، ١٩٥
 جولديسهر ، المستشرق ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
 جوهر الصقل ؛ ١٢١
 جمهور بن عبد الملك البختى ؛ ٢١
 جيوم دى مونرى ؛ ٢٧٤
 الحاج بن محفور ؛ ٩٨
 الحاجب المنصور ، أنظر المنصور بن أبي عامر
 حياصة بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ٢٣
 حبوس بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ - ١٢٨
 ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٣
 الحجارى ، صاحب المسهب ؛ ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٥٨
 الحروب الصليبية ؛ ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٢
 حسن بن مجاهد (سعد الدولة) ؛ ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
 الحصرى الضرير ؛ ٣٥٧
 الحكم المستنصر ؛ ١١ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٤٩
 الحكم بن هشام ؛ ٢١ ، ٤٠٧
 خلف الحصرى ؛ ٣٧ ، ٣٨
 خلف بن حيان ؛ ٤٣٨
 خلف بن عباس القرطلبى ؛ ٤٣٧
 خلف بن فرج ، السميعر ؛ ١٦٩ ، ٣٤٠
 خلف بن نجاح ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣
 خينا ، زوجة السيد ؛ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤٠٠
 خوستا ، القديسة ؛ ٤٨ ، ٣٨٤
 خيران العامرى ؛ ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٥٨ - ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٩

باديس بن أبي نور اليفرنى ؛ ١٥٣ ، ٤٦
 البحترى ، الشاعر ؛ ٤٢٥
 برنجبر ، الكونت ؛ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٤٠٨
 برتولا ؛ ٣٩١
 برمودو الثاني ؛ ٣٧٧
 برمودو الثالث ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
 برنار ، الأسقف ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
 بشير النبى ؛ ١٠٨
 بطى بن إسماعيل ؛ ٣٤٤ ، ٣٤٩
 بى بن مخلد ؛ ٢٠٧
 بلج بن بشر القشبرى ؛ ٣٣
 بلقين بن باديس ، سيف الدولة ؛ ٦٣ ، ١٣٤
 بلقين بن حبوس ؛ ١٢٧ ، ١٦٣
 بلقين بن زبرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ٣٠٦
 بلقين بن ماكسن ؛ ١٢٩ ، ١٦٣
 بتدكت ، القديس ؛ ٣٨٧
 بندكتوس الثاني ، البابا ؛ ١٩٢
 بيدال ، منديث ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٥
 بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٢٤٧ ، ٢٥٨
 ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٠٦
 بيم بن الآثر ؛ ٣٠٠
 بيم بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤
 ١٤٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١
 ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
 بيم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
 تيبولوس ، الشاعر اللاتينى ؛ ٤٢٥
 التيجافى ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٨
 تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى ؛ ٣٠٠
 ثابت بن محمد الجرجاني ، أبو الفتوح ؛ ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١
 ج - ز
 جابر بن المتضد ؛ ٦٢٤ ، ١٣٢

١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ — ١٨٩ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٤٣٧ ،
زيرى بن عطية ؛ ١٥٤ ، ٣٠٤
زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٩
زينب بنت إسحاق النفزاوية ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣١٢

س — ط

سان جيل ، الكونت دى ؛ ٣٣١
سانشا ، الملكة ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٩
سابور الفارسي ؛ ٨١ ، ٨٢
سانشو ، الإنفانت (ابن زائدة) ؛ ٢٩٢ ،
٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
سانشو ملك أراجون ؛ ٣٨٩
سانشو ملك نافار ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٩
سانشو ملك جليقية ؛ ٤٨ ، ٧٢
سانشو الكبير ؛ ٨٥ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٨٩
سانشو راميرز ؛ ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ،
٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
سانشو غرسية (قشالة) ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢
سانشو غرسية (نافار) ؛ ٣٨١
سانشو ابن فرناندو ؛ ٤٨ ، ٧٢ ، ١٠٢ ،
٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ — ٣٩٤
سراج النولة بن على بن مجاهد ؛ ٢٠٩
سنتندو دافيدس (شفتند) ؛ ٥٨ ، ٨٦ ،
١١٢ ، ١١٤ ، ١٤٣ ، ٢٢٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧
سعيد بن أحمد الطليطلى ؛ ٤٣٥
سعيد بن خيرة ؛ ٨٧
سعيد بن هارون ؛ ٤٣
سكوت البرغواطى ؛ ٧٧ ، ٣١٢
سليمان بن الحكم ، المستعين ؛ ١٣ ، ٣٧ ،
٥٢ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ،
١٦٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٢

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٦٢ ،
٢٦٦ ، ٤٣١
خيرة الصقلي ؛ ٢١٨
دقلديانوس ؛ ٣٨٤
دوزى ، رينهارت ؛ ١٩٩ ، ٢٥١ ، ٣٦٤
دون ديجو ، ابن السيد ؛ ٢٤٧
ذو النون بن سليمان ؛ ٩٥
رامون برنجير ، الكونت ؛ ٦٥ ، ١٨٠ ،
٢٣٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٢٨٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
رامون برنجير ، الثالث ؛ ٢١١ ، ٢١٢ ، ٤٠٨
رامون بوريل ؛ ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧
راميرو ، الإنفانت (نافار) ؛ ٢٨٥
راميرو الأول ، ملك أراجون ؛ ٢٣٣ ،
٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥
راميرو بن سانشو الكبير ؛ ٣٧٨
رائدة ، حاكم قلمرية ؛ ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤
رزين البرنسى ؛ ٢٥٣
الرشيد بن المعتد ؛ ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨
٧٩ ، ١٨٠
رشيد النولة بن صبادح ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
وقع الدولة بن صبادح ؛ ٧١ ، ١٧٠ ،
٤٢٩ ، ٤٣٠
رميك ، مولى أعماد ؛ ٦٧ ، ٣٦٣
ردريجو دى بيبار ؛ أنظر السيد إلكيادور
رهبان سيلوس ؛ ٣٩١ ، ٣٩٥
الريكونكستا (الإسترداد) ؛ ١١٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٣
ريمون البرجوني ، الكونت ؛ ٣٧٠ ، ٤٠٤
رينان ؛ ٢٥١
زاوى بن زيرى ؛ ١٢٢ — ١٢٦ ، ١٩٦ ،
٢٦٦
زائدة الأندلسية ؛ ٧٣ ، ١١٠ ، ٢٩٢ ،
٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
زبيدة ، السلطانة ؛ ٢٤١
الزرقالى القرطبي ؛ ٤٣٥
زهير العامرى ؛ ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦١ —

عليان بن مشكيان ؟ ٢٠٢
 عليان بن هود ، سعد الدولة ؟ ٢٩٣ ، ٢٩٠
 ساجدة ، الوزير ؟ ١٤٤ ، ١٤٢
 سيجورد ، ملك النرويج ؟ ٢١١
 السيد الكيادور ؟ ٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ٢٣٢ - ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
 ٢٨٠ ، ٢٨٤ - ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥
 ٣٣٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
 سيرين أبي بكر المقتوفى ؟ ٣٠٩ ، ٣٢٤
 ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ - ٣٥٢
 ٣٦١ ، ٣٦٨ - ٣٧٠
 سير بن يوسف بن قاشفين ؟ ٣٢٩ ، ٣٣٠
 ٣٩٨
 شارلكان ، الإمبراطور ؟ ٢٤٩ ، ٤٠٧
 الشدة العظمى ؟ ٢٠٢
 صاحب بن عباد ؟ ١٧٨
 صالح بن طريف البرناطى ؟ ٣٠٦
 صامح بن صامح ، أبو عتيبة ؟ ١٦٥ ، ١٦٦
 صامح بن عبد الرحمن ؟ ١٦٤
 طارق بن زياد ؟ ٢٥٣
 الطغترى ، محمد بن مالك ؟ ٤٤٢
 ع - غ
 عباد بن المعتد ، سراج الدولة ؟ ٢٩ ، ٣٠
 ١٠٤ ، ١٠٣ ، ٦٠
 عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؟ ٣٩
 العباس بن المتوكل بن الأقفس ؟ ٣٦٩
 عبد الجبار بن المعتد بن عباد ؟ ٣٦٠ ، ٣٦١
 عبد الحليل بن وجون ؟ ٤٢٧
 عبد الرحمن الداخل ؟ ١١ ، ١٣ ، ٢١
 ٣٠٠
 عبد الرحمن النافق ؟ ٢٦٠
 عبد الرحمن المرتضى ؟ ١٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠
 ١٩٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
 عبد الرحمن الناصر ؟ ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٥١
 ١٢٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٢
 عبد الرحمن بن أسبط ؟ ٣١٨ ، ٧٩
 عبد الرحمن بن جهور ؟ ٢٦ ، ٢٩
 عبد الرحمن بن الحكم ؟ ٢١ ، ١٧٤
 عبد الرحمن بن المنصور ؟ ٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٨ -
 ١٦٠ ، ١٨٨
 عبد الرحمن بن ذى النون ؟ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠
 عبد الرحمن بن عبد الله المهاجر ؟ ١٦٤
 عبد الرحمن بن متيوه ؟ ٩٧
 عبد الرحمن بن مطرف النجيبى ؟ ٢٦٦
 عبد الرحمن بن يسار ؟ ٢١٦
 عبد العزيز البكرى ، أبو زيد ؟ ٢٤ ، ٤٣
 عبد العزيز بن أفلح ؟ ٢١٨
 عبد العزيز بن سابور ؟ ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٣
 عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؟ ٢٤ ،
 ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٦
 ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ٢٦٧
 عبد الله ، حاكم ميورقة ؟ ١٩٧
 عبد الله المرتضى ، حاكم ميورقة ؟ ٢٠٢
 ٢٠٩ ، ٢١٠
 عبد الله بن أناصر ؟ ٥١
 عبد الله بن بلقين ؟ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨
 ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤١ -
 ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٣ ، ٣١٧
 ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ - ٣٤١
 ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
 عبد الله بن حكيم ؟ ٢٦٩
 عبد الله بن سابور ؟ ٢٤
 عبد الله بن سلام ؟ ٤٧ ، ٤٨ ، ٨٤
 عبد الله بن قاسم الفهرى ؟ ٢٣٨ ، ٢٦٠
 ٢٦١
 عبد الله بن محمد ، الأمير ؟ ١٢ ، ٢١ ، ٢٦٥
 عبد الله بن محمد الأوسى ؟ ٢٠٦
 عبد الله بن محمد ، جناح الدولة ؟ ٢٦١ ، ٢٦٢
 عبد الله بن مريم ؟ ٣٤ ، ٤٠
 عبد الله بن مسلمة ، أنصار المنصور بن الأنطس

عليان بن مشكيان ؟ ٢٠٢
 عليان بن هود ، سعد الدولة ؟ ٢٩٣ ، ٢٩٠
 ساجدة ، الوزير ؟ ١٤٤ ، ١٤٢
 سيجورد ، ملك النرويج ؟ ٢١١
 السيد الكيادور ؟ ٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ٢٣٢ - ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
 ٢٨٠ ، ٢٨٤ - ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥
 ٣٣٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
 سيرين أبي بكر المقتوفى ؟ ٣٠٩ ، ٣٢٤
 ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ - ٣٥٢
 ٣٦١ ، ٣٦٨ - ٣٧٠
 سير بن يوسف بن قاشفين ؟ ٣٢٩ ، ٣٣٠
 ٣٩٨
 شارلكان ، الإمبراطور ؟ ٢٤٩ ، ٤٠٧
 الشدة العظمى ؟ ٢٠٢
 صاحب بن عباد ؟ ١٧٨
 صالح بن طريف البرناطى ؟ ٣٠٦
 صامح بن صامح ، أبو عتيبة ؟ ١٦٥ ، ١٦٦
 صامح بن عبد الرحمن ؟ ١٦٤
 طارق بن زياد ؟ ٢٥٣
 الطغترى ، محمد بن مالك ؟ ٤٤٢
 ع - غ
 عباد بن المعتد ، سراج الدولة ؟ ٢٩ ، ٣٠
 ١٠٤ ، ١٠٣ ، ٦٠
 عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؟ ٣٩
 العباس بن المتوكل بن الأقفس ؟ ٣٦٩
 عبد الجبار بن المعتد بن عباد ؟ ٣٦٠ ، ٣٦١
 عبد الحليل بن وجون ؟ ٤٢٧
 عبد الرحمن الداخل ؟ ١١ ، ١٣ ، ٢١
 ٣٠٠
 عبد الرحمن النافق ؟ ٢٦٠
 عبد الرحمن المرتضى ؟ ١٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠
 ١٩٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
 عبد الرحمن الناصر ؟ ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٥١
 ١٢٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٢

عبد الله بن المعتدين عباد ؛ ٣٢٠
عبد الله بن المنصور ؛ ٥١ ، ٢٦٦
عبد الله بن ميمون ؛ ٣١٢
عبد الله بن ياسين الحزوني ؛ ٣٠١ - ٣٠٨ ،
٣١٣
عبد الملك بن المراج ؛ ٢٠٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢١
عبد الملك بن المنصور ؛ ١٢٢ ، ٤٣١
عبد الملك بن جهور ، أنظر ابن جهور ،
أبو الواليد
عبد الملك بن سابور ؛ ٨٢ ، ٨٣
عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر ،
المظفر ؛ ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
٢٢٣ ، ٢٢٥ - ٢٢٥
عبد الملك بن قطن ؛ ٢٦٠
عبد الملك بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الملك بن المستعين ، عماد الدولة ؛ ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الملك بن هذيل ، أنظر ابن رزين
عبد المنعم بن عبد الله القروي ؛ ٢٠٦
عبد الواحد المراكشي ؛ ١٧١ ، ٢٠٩
عبدون بن خزون ؛ ٤٥ ، ٥٤ ، ١٥٤ ،
١٥٥
عبد شمس بن وائل ؛ ٢٩٩
عبيد الله الحراز ؛ ٨٥
عبيد الله بن آدم ؛ ٣١٧
عبدان بن أبي بكر بن عبد العزيز ؛ ١٨٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨
عزيز بن محمد البرزالي ، المستظهر ؛ ٤٧ ،
١٥١
عطاف بن نعيم ؛ ٣٣
علي بن حمود ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٨ ، ٥٢ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٦ -
علي بن عبد الله البجلي ؛ ٣٠٥
علي بن مجاهد ، إقبال الدولة ؛ ٥٦ ، ١٣٨ ،

١٦٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٢٠٠ - ٢٠٤ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢٨١ ،
٤١١ ، ٤٣٤
علي بن يوسف بن تاشفين ؛ ٢١٢ ، ٢٩١ ،
٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ،
٤١٤
عمر بن سليمان المدوني ؛ ٣٠٩
عمر بن عبد العزيز ؛ ١٥
عزير الفتي ؛ ١٥٩
عيسى بن أبي الأنصاري ؛ ٣٠٦
عيسى بن محمد ؛ ٤٤
عيسى بن مزين ، المظفر ؛ ٤٤
غربية أردونس ؛ ٢٨٨ ، ٢٨٩
غربية ملك قافار ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٠٥
غربية ملك جليقية ؛ ١٠٢ ، ٣٩٤
غربية خينس ؛ ٣٣٤
غربية سانشيز ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
غربية قرناندر ؛ ٣٧٧
غربية دي قبره ؛ ٤٠١
غزوة برشلونة ؛ ١٧٦
غربية بن قرناندر ؛ ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
غلبرت ، الأسقف ؛ ٢٠٣
الغزالي ، أبو حامد ؛ ٣٣٨

ف - ق - ك

فاطمة بنت سير بن يحيى ؛ ٣١٢
فائق الخادم ؛ ٨١
الفتح بن المعتمد (المأمون) ؛ ١٨١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
٣٤٨ ، ٣٥٦
الفتح بن خاقان ؛ ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ ،
٢٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣
فتح بن خلف اليحصي ؛ ٤٢
الفتح بن موسى بن ذي النون ؛ ٩٦
الفضل بن المتوكل بن الأفض ؛ ١١١ ، ٣٦٩ ،

فتوح بن أبي نور اليفرنى ؛ ٤٦

فرنان كوثالث ؛ ٥٧٧

فرنانو الأول ؛ ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٥ —

٨٧ ، ٩٨ — ١٠٢ ، ١١٢ ، ١٧٧ ،

٢٢٣ — ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،

٢٨٠ ، ٢٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ —

٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥

فرنانو أنسوريز ؛ ٣٩٠

فرويل الثاني ؛ ٢٣٣

القادر بن يحيى بن ذى النون ؛ ٧١ ، ٩٠ ،

١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ — ١١٥ ، ١٨٦ ،

٢٢٧ — ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،

٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ،

٢٣٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٣

القاسم بن حمود المستمل ؛ ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٣١ ، ١٨٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢١

القائم بن محمد بن خزرون ؛ ١٥٥ ، ١٥٦

كارل مارتل ؛ ٣٣٠

كباب بن تيمت ؛ ١٤٥

كوديرا ، المستشرق ؛ ٣٣٠

الكورقيس ؛ ٤٠٣ ، ٤٠٤

كونزالز بن سانشو ؛ ٣٧٨

كونستانس ، الملكة ؛ ٣٣١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ،

٤٠٤

ل — م

لأفونى ، المؤرخ ؛ ٣٧٩

لب بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

لييب العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣

لذريق الكنبيطور ؛ أنظر السيد الكبيادور

لقوط بن يوسف المقرائى ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦

ماريانا ، المؤرخ ؛ ١١٣

ماكسن بن باديس ؛ ١٣٨ ، ١٤٢

ماكسن بن زيرى بن مناد ؛ ١٢٢

ماكسن بن ماكسن ؛ ١٢٢

المأمون بن ذى النون ، يحيى ؛ ٢٨ — ٣٠ ،

٤٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٧ — ١٠٨ ،

١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥١ ،

١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ،

٣٩١ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ،

المأمون البطانخى ؛ ٢٩٥

مالك بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،

مالك بن جابر بن ليبيد ؛ ١٧٤

مالوتو ، قائد السراذنة ؛ ١٩١

مبارك العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٣١

مبشر بن سليمان ، ناصر الدولة ؛ ٢٠٢ ،

٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٢٧

المتنبى ، أبو الطيب ؛ ٨٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣١

المتوكل بن الأفلح ، عمر ؛ ٧٨ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١٧١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،

٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨ — ٣٧١ ،

٣٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤

مجاهد العامرى ؛ ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،

١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٨ — ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ،

٢٧٣ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٤٣٤

المجوسية ؛ ٣٠٠

محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٢٠٨

محمد بن الأحمر ، الفقيه ؛ ٧٩

محمد بن إدريس المستمل ؛ ١٣١

محمد بن إدريس المهدي ؛ ٣٨ ، ١٣١

محمد بن إسماعيل بن عباد ، أبو القاسم ؛ ٣٢ —

٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٨٢ — ٨٤ ، ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،

١٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٣٨٥

محمد بن الأفلح ؛ ٨٢ ، ٨٣

المستعين بالله بن هود ، سليمان بن محمد ؛ ٩٨ -

١٠٠ ، ١٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢

المستعين بن هود الأصغر ، أحمد ؛ ٢٢٦ ،

٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

٢٨٦ - ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨

المستعين بن المؤتمن بن هود ؛ ٢٩٤

المستكن بالله ، الأموى ؛ ١٣

المستنصر بالله الفاطمي ؛ ٢٠٢

مسعود بن وانودين ؛ ٣٠٤

مسكن بن حبوس ؛ ١٣٨

المسيح ؛ ٢٨٢

مطرف بن إسماعيل بن ذى النون ؛ ٩٦

مظفر العامري ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ،

٤٣١

المظفر بن الأنطس ، محمد بن عبد الله ؛ ٢٩ ،

٤٢ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ،

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤

المظفر بن هود ، يوسف ؛ ٢٣٤ ، ٢٧٣ ،

٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

المعتد بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٦

المعتمد بن صراح ، أبو يحيى ؛ ٤٨ ، ٧١ ،

٧٨ ، ١٦٧ - ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،

٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ،

٣٩٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

المعتضد بن عباد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ -

٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ٩٩ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥١ ،

١٥٣ - ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٣٨٣ - ٣٨٥ ،

٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦

المعتضد بالله العباسي ؛ ٥٣ ، ٥٤

المعتد بن عباد ؛ ٢٨ - ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٩ - ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ - ٧٩ ،

٨٨ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤

محمد بن تاشفين ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٨

محمد بن تميم الكدالي ؛ ٢٠٩

محمد بن تيفافوت الممتونى ؛ ٣٠٠

محمد بن جهور بن عبد الله ؛ ٢١

محمد بن خزرون ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ،

١٥٦

محمد بن خلف الصديق ، أنظر ابن علقمة

محمد بن سعيد بن هارون ؛ ٤٣

محمد بن سليمان ؛ ٣٧ ، ٥٢

محمد بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٩٥ ، ٩٦

محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، الأنقر ؛ ٢٦٥

محمد بن عبد الله البرزالي ؛ ٣٦ ، ٤٩ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ١٣٠ ، ١٤٨ - ١٥١

محمد بن عبد الله بن قاسم ، عين الدولة ؛ ٢٦١

محمد بن عبد الملك بن المنصور ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

محمد بن عيسى ، عميد الدولة ؛ ٤٤

محمد بن عيسى بن مزين ، الناصر ؛ ٤٤

محمد بن القاسم بن جود ؛ ٣٨

محمد بن معاذ بن اليسع ؛ ٣٠٦

محمد بن نوح الدمري ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ،

١٥٣ ، ١٥٥

محمد بن هشام المهدي ؛ ١٣ ، ٥٢ ، ١٢٣ ،

١٥٨ - ١٦٠ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٣٨٢ ،

٤٠٧

محمد بن هشام التجيبي ؛ ٢٦٥

محمد بن يحيى اليعصبي ، عز الدولة ؛ ٤١ -

٤٣

محمد بن يوسف التيمي ؛ ٧١

مخلوف بن ملول ؛ ١٣٢

مدرك التلكاني ؛ ٣٠٩

مروان بن جهور بن عبد الملك ؛ ٢١

المستظهر بالله ، الأموى ؛ ١٣ ، ٤٣١

المستظهر بالله العباسي ؛ ٣١٤

١٦٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ —
 ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣
 المنذر بن يحيى ، مزر الدولة ؛ ٢٦٨ ، ٢٦٩
 المنصور بن أبي عامر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٣٢ ،
 ٤٥ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
 ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ،
 ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٦ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨
 المنصور بن الأفطس ، عبد الله بن مسلمة ؛
 ٨٢ — ٨٤ ، ٣٨٥
 المنصور بن الأفطس ، ولد عمر المتوكل ؛ ٣٥ ،
 ٣٦ ، ٣٦٩
 المنصور بن بلكين ؛ ١٢١
 منديث كوثالث ، الكوث ؛ ٣٧٧
 المؤتمن بن هود ؛ ٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ،
 ٢٩٤ ، ٤٣٦
 موجيتوس (موسيتو) اسم مجاهد ؛ ١٩٤
 موسى بن ذى النون ؛ ٩٥
 موسى بن نصير ؛ ١٩١
 مؤمل ، مولى باديس ؛ ٣٤١

ن — ي

الناية ، وزير باديس ؛ ١٣٤ ، ١٣٩
 نذيل العامرى ؛ ١٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
 النصرانية ؛ ١١٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٢
 النعمان بن المنذر ؛ ٣٣
 نكل ، الأستاذ ؛ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧
 نوح بن قزيرى الدمري ؛ ١٥٤
 هذيل الصقلبي ؛ ١٢٩
 هذيل بن عبد الملك ؛ أنظر ابن رزين
 هشام بن ذى النون ؛ ١٠٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
 هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢١
 هشام المعتد بالله ؛ ٢٠١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ،
 ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ —
 ٣٤٨ ، ٣٥٠ — ٣٥٣ ، ٣٥٥ — ٣٦٠ ،
 ٣٦٣ — ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ،
 ٤٢٤ — ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١
 المعرى ، أبو العلاء ؛ ٨٧
 المعز لدين الله الفاطمي ؛ ١٢١
 المعز بن ابن إسحق البرزالي ؛ ٨٤
 المعز بن باديس ؛ ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٨ ، ٣٢٩
 المعز بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣١٥ ، ٣١٦
 معز الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٣ ، ٣٢١
 معن بن صمادح ، أبو الاحوص ؛ ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ٢٢٢
 منصر المخرأوى ؛ ٣١١
 مقاتل العامرى ؛ ٢٧٣
 المقتدر بن هود ؛ ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ،
 ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٥ ،
 ٤١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦
 المقرئ ، شهاب الدين ؛ ٣٦٤
 مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ،
 ١٥٥
 المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١
 المقرئ شهاب الدين ؛ ٣٦٤
 مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ،
 ١٥٥
 المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١
 المنذر بن هود ؛ ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٤ — ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩ ، ٤٣١
 المنذر بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
 منذر بن يحيى - التعجبى ؛ ١٢٤ ، ١٦٠ ،

يحيى بن علي بن خلود ، المتعل ؛ ٢٤ ، ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٧ - ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ،
١٢٥ ، ٨٣ ، ٦١

يحيى بن علي بن خلدون الأندلسي ؛ ١٤٨

يحيى بن عمر بن تلاكاكين ؛ ٣٠٢ - ٣٠٥

يحيى بن المنذر بن هود ؛ ٤٣١

يدير بن حياصة بن ماكسن ؛ ١٢٧

يدو بن يعلى ؛ ١٥٢

يزيد الراضي ؛ ٦٦ ، ٧٩ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ،

٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦

يعلى العامري ؛ ٢٧٣

يوسف بن نخت بن أبي عبده ؛ ٢١

يوسف بن تاشفين ؛ ٧٤ ، ٧٧ - ٨٠ ،

١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ،

٣١١ - ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٣ ،

٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ - ٣٤٤ ،

٣٥٥ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ،

٣٧٣ ، ٣٩٨ - ٤٠١ ، ٤٢٨

يوسف بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

يوسف بن محمد البلوي ؛ ٢٠٧ ، ٣١٩

هشام المؤيد بالله ؛ ١٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٧ ،

٣٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ،

١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦

هشام الوقشي ؛ ٤٣٥

واجاج بن زلوا المظلي ؛ ٣٠١

واضح الفتي العامري ؛ ٩٦ ، ١٥٩ ،

٢٢٠ ، ٣٠٦ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧ ،

وانور بن أبي بكر المتوفي ؛ ٢١٣

ولادة بنت المستنكر ؛ ٢٥ ، ٧١ ، ٤٢٦ ،

٤٢٧

الوثريشي ، أحد بن يحيى ؛ ٣٤٨

يحيى التجيبي الكبير ؛ ٢٦٩

يحيى بن إبراهيم الجدالي ؛ ٣٠٠ ، ٣٠١ ،

٣٠٣

يحيى بن الألفطس ، المنصور ؛ ٨٧ ، ٨٨

يحيى بن المنذر التجيبي ، المظفر ؛ ٢٦٨ ،

٢٧٠

يحيى بن سكوت ؛ ٣١٢ ، ٣٦٦

يحيى بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٢٦٦

يحيى بن عبد الملك بن رزين ؛ ٢٥٩